تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

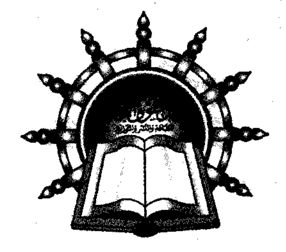
مكة المكرمة

المجلد الثاني

دار طوق النجاة

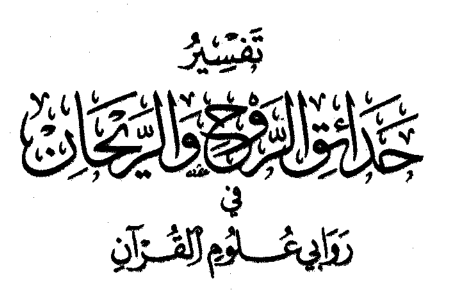
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن



شعرٌ

الـصَّـبْـرُ مـفـتـاحُ مَـا يُـرَجَّـى　　وكُـلُّ خَـيْـرٍ بِـهِ يَـكُـونُ
وَرُبَّـمـا نِـيْـلَ بِـاصْـطِـبَـارٍ　　مَـا قِـيْـل هَـيْـهَـاتَ لا يَـكُـونُ

ومِنْ كلام الإمام الشافعيّ ـ رحمه الله تعالى ـ:

إنَّـمـا الـنَّـفْسُ كـالـزُّجَـاجَـةِ والـعِلْـ　　ـمُ سِـرَاجٌ وحِـكْـمَـةُ الله زَيْـتُ
فَـإِذَا أَبْـصَـرَتْ فَـإِنَّـكَ حَـيٌّ　　وَإِذَا أَظْـلَـمَـتْ فَـإِنَّـكَ مَـيْـتُ

وقال ابنُ السيد:

أخـو الـعِـلْـم حـيٌّ خـالِـدٌ بَـعْـدَ مَـوْتِـهِ　　وَأوْصَـالُـه تَـحْـتَ الـتُّـراب رمِـيـمُ
وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ ماشٍ عَلَى الثَّرَى　　يُـظَـنُّ مِـنَ الأحْـيَـاءِ وَهُـوَ عَـدِيْـمُ

آخرُ

تَـعـلَّـم يـا فَـتَـى فـالـجَـهْـلُ عـارُ　　وَلاَ يَـرْضَـى بِـهِ إلاَّ الـحِـمَـارُ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظة وشفاء لما في الصدور، وجعله منهلاً عذباً للورود والصدور، جمع فيه علوم الأوّلين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين. والصلاة والسلام على من أُوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشان، سيدنا محمد، الذي أجرى من مسجله ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كُلَّ متكلّم مِنطيق، وفسَّر الآيات في الأنفس والآفاق، على مراد الله الملك الخلاّق، وعلى آله وأصحابه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممَّن تخلَّق بالقرآن في كُلّ آنٍ وزمانٍ، صلاة وسلاماً دائمين بدوام المدى والأوان.

أمَّا بعد: فيقول العُبَيْد المعترف بذنبه وخَطاه، المنادي لربه في عفوه وعطاه، الراجي في إسبال سجاف النَّدى عليه، المناجي في إرسال رسول الهدى إليه، حفظه الله سبحانه وأخلاَّءه، وأعاذه وإيّاهم من الشيطان الرجيم، وجعل يومه خيراً من أمسه إلى الإياس من حياة نفسه، سميُّ محمد الأمين الهرريُّ.

إنّي لمّا فرغْتُ من تفسير المجلّد الأوّل على الحزب الأوّل من القرآن الكريم.. عزمتُ إن شاء الله تعالى على الشروع في المجلّد الثاني على الحزب الثاني، وقد قصدت أن أخُصَّ كلَّ حزب من الأحزاب الستِّين بمجلَّدٍ، فيكون الكتاب ستين مجلّداً، ولكن ما أدري ما سيفعل بي ربّي، وإنْ كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كُلُّ ذمير، وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كُلُّ أميرٍ، وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليلٌ، كالنَّيرين لغير كليلٍ، ومع خطر هذا الأمر فالأمد قصير، وفي العبد تقصيرٌ، وكَمْ ترى مِنْ تَحْرِيرٍ كاملٍ في التحرير

والتقرير، قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون، والأجل، أو بتطاول أيدي الزمان، فإنَّ الدنيا لا تصفو لشاربٍ، وإن كانت ماء الحيوان، وأيُّ وجودٍ لا ينسج عليه عناكب العاهات، وأيُّ نعيم لا يكدِّره الدهر، هيهات هيهات.

اللهم كما وفَّقتني في الأوَّل خيراً كثيراً؛ فيسِّر لي الأمر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً للفوز بجنّات النعيم، بحقِّ كتابك الكريم، فلك الحمد في الأولى والعُقبىٰ على عنايتك الكبرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر تعنُّت اليهود، وعدم انقيادهم لأمر الله تعالى ومجادلتهم للأنبياء.. أردف ذلك بذكر بعض قبائحهم التي ارتكبوها، كتحريف كلام الله تعالى، وادعائهم بأنّهم أحباب الله، وأنّ النار لن تمسَّهم إلاّ أيّاماً معدودةً، وبدأ ذلك بتيئيس المؤمنين من إيمانهم؛ لأنّهم فُطِروا على الضلال، وجُبِلوا على العناد.

قال أبو حيان: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ...﴾ الآية، مناسبة ارتباط هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله تعالى لمَّا بيَّن أمر الفرقة الضالّة التي حرَّفت كتاب الله، وهم قد عقلوه وعلموا بسوء مرتكبهم، ثُمَّ بيَّن أمر الفرقة الثانية المنافقين، وأمر الثالثة المجادلة.. أخذ يُبيِّن أمر الفرقة الرابعة، وهي العامَّة وهي التي طريقها التقليد وقبول ما يقال لهم، قال أبو العالية، ومجاهد، وغيرهما: ومن هؤلاء

اليهود المذكورون، فالآية مُنبِّهة على عَامَّتِهم وأتباعِهم؛ أي: إنَّهم لا يُطْمَعُ إيمانُهم. انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية، نزلت في الأنصار[1]، كانوا حلفاء لليهود، وبينهم جوارٌ ورضاعةٌ، وكانوا يودُّون لو أسلموا، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن جرير، عن السُّدّيّ قال: نزلت في ناسٍ من اليهود آمنوا ثُمَّ نافقوا، وكانوا يأتون المؤمنين من العرب بما تحدَّثُوا به، فقال بعضهم لبعض: أتحدِّثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا: نحن أحبُّ إلى الله منكم وأكرم على الله منكم، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت في أحبار اليهود، وجدوا صفة النبي ﷺ، مكتوبةً في التوراة: أَكْحَلُ أَعْيَنُ، رَبْعَةٌ، جَعْدُ الشعر، حَسَنُ الوجه، فَمَسَحُوا ذلك حسداً وبغياً، وقالوا: نجده طويلاً، أزرق، سَبِطَ الشعرِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه ابن جرير من طريق الضحاك، عن ابن عباس قالوا: لن ندخل النار إلاّ تَحِلَّة القسم الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلةً، فإذا انقضت انقطع عنّا العذاب، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

(٣) لباب النقول.

أنه[1] لمَّا كان النبي ﷺ، وأصحابه شديدي الحرص على دخول اليهود في ساحة الدين الجديد، طامعين في انضوائهم تحت لوائه؛ لأنَّ دينهم أقرب الأديان إلى دينهم، في تعاليمهم، ومبادئه، وأغراضه، فهم شركوهم في الاعتقاد بالتوحيد، والتصديق بالبعث والنشور، وكتابهم مصدّقٌ لما معهم.

قصَّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم، ما أزال به أطْماعهم وإياسهم منِ إيمانهم، بذكر ما يحدث من أسلافهم مع نبيِّهم موسى عليه السلام بَيْنَ آنٍ وآخر، من تمرُّدٍ وعنادٍ، وجحود وإنكار، فتأتيهم الآية تِلْو الآية، ويحلُّ بهم من العقاب ما هم له أهلٌ، فيطلبون من موسى أن يدعو الله، ليرفع عنهم العذاب ويستجيبوا لدعوته، حتى إذا ما رفعه عنهم عادوا سيرتهم الأولى معاندين جاحدين، وقد بلغ من عنادهم أن قالوا له: لا نصدِّق بك، ولا نطيع أوامرك حتى نسمع كلام الله، ومناجاته إيّاك، فاختار موسى بأمر الله تعالى، سبعين رجلاً منهم لسماع الوحي، ومصاحبته حيث يناجي ربَّه، فسمعوا كلامه بطريقٍ نحن لا نعرفها، ولا ندرك كنهها، واستيقنوا مناجاته ربَّه، وسمعوا أوامره ونواهيه.

ثمَّ كان منهم أن حرَّفوا كلام الله الذي حضروا وحيه، وصرفوه عن وجهه بالتأويل والتحريف، وهذا مثبتٌ عندهم في التوراة، وهي كتابهم المقدَّس. فلا عجب إذاً في إعراض الحاضرين عن هدى الله الذي جئتَ به، فالمعارضة والاستكبار دأبهم، ورثوهما من أسلافهم الذين كانوا يحرِّفون، ويبدّلون، ويكابرون وهم يشاهدون الدلائل الحسّية تَتْرى بين يدي موسى عليه السلام، فأَحْرِ بهم أن يَجْحَدُوا ديناً دلائله عقليَّةٌ، وآياته الكبرى معنويَّةٌ، وهو القرآن الكريم، بِمَا اشتمل عليه من تشريعٍ فيه سهولةٌ وتيسيرٌ للناس، وفيه فصاحةٌ أعجزت فُصحاءَ العرب عن محاكاته، لجأُوا إلى السيف والسِّنان، بعد أن أعجزتهم الحجَّة والبرهان، ثم ذكر حالاً أخرى لعلمائهم هي: أنَّ علماءهم وقعوا في الحيرة

---

(١) المراغي.

والاضطراب حين مجيء الدين الجديد، أيتَّبعونه؟ ولكن رُبّما خذله أتباعه، أم يحتفظون بالقديم، ولكن رُبّما كسدت سوقه وقلَّ أنصاره، وقالوا: من الخير كلِ الخير أن نُوافق كُلَّ حزبٍ نَخْلُو به، ونعتذِرَ إلى الحزبِ الآخر إذا عَرَف ما كان منَّا، حتى يَتبيَّنَ اتّجاهُ ريحِ السفينة.

أمَّا عامَّتهم: فلا علم لهم بشيء من الكتاب، وما عندهم من الدين إلاّ ظُنونٌ أخذوها عن أسلافهم، دون أن يكون لديهم دليلٌ على صحتها أو فسادها، ومثل هذا لا يسمَّى عِلْماً، إنّما العلم ما كان عن حجّة وبرهان، ولا يقبل الله إلاّ العلم الصحيح في عقائد الأديان.

التفسير وأوجه القراءة

والخطاب في قوله[1]: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ للنبي ﷺ وأصحابه، وكان ﷺ، شديد الحرص على الدعاء إلى الحق، وقبول الناس الإيمانَ منه، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمرّدهم، فقصَّ الله تعالى عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع نبيّهم، مع مشاهدة الآيات الباهرة منه؛ تسليةً لرسوله ﷺ فيما يظهر من أهل الكتاب، في زمانه، من قلّة القبول، والاستجابة. والطَّمَعُ: تَعلُّقُ النفس بإدراك ما تُحِبُّ تعلُّقاً قويّاً، وهو أشدُّ من الرجاء. والهمزة فيه للاستفهام الإنكاريّ الاستبعاديّ، وهو حمل المخاطب على الإنكار، بأمر علم عنده نفيه مع استبعاده؛ أي: لإنكار الواقع واستبعاده، كما في قولك: أتضرب أباك، لا لإنكار الوقوع، كما في قولك: أأضرب أبي، داخلةٌ على محذوف يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فتطمعون بعد ذلك في إيمانهم. ومآل المعنى: أي: أَبَعْدَ أَنْ علمتم تفاصيلَ شؤونِهم المُؤْيِسَة، من إيمانهم تطمعون في: ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ جميع اليهود أو علماؤهم، فإنّهم متماثلون في شدّة الشَّكيمة والأخلاق الذميمة، لا يتأتّى من

---

(١) روح البيان.

أخلافِهم إلاّ مِثْلُ ما أتى من أسلافهم، فلا تحزنوا على تكذيبهم، واللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لتضمين معنى الاستجابة؛ أي: أتطمعون في إيمانهم مستجيبين لكم، أو للتعليل؛ أي: في أن يُحْدِثُوا الإيمانَ لأجل دعوتكم إيّاهم، والمعنى[١]: أي: أتعلمون وتسمعون أخبارهم، فتطمعون، وترجون أيُّها النبيُّ والمؤمنون في أن يؤمن هؤلاء اليهود بواسطتكم، ويستجيبوا لكم، ويصدِّقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ، ﴿و﴾ الحال أنَّه ﴿قد كان فريق﴾ كائنٌ ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: طائفةٌ ممن سلف من اليهود. والفريق: اسم جمع، لا واحد له من لفظه، كالرهط؛ أي: والحال أنَّ جماعة منهم، وهم أحبارهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يسمعون كلام الله في التوراة من موسى عليه السلام، ويقرؤونه بأنفسهم ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾؛ أي[٢]: يغيِّرونه ويبدِّلون معناه؛ أي: يغيِّرون ما فيها من الأحكام، كتغييرهم صفة محمد ﷺ وآية الرجم. وقيل: كان قومٌ من السبعين المختارين، سمعوا كلام الله حين كلَّم موسى بالطور، وما أمر به ونهى عنه، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: (إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس).

قال في «التيسير»: الصحيحُ أنهم لم يسمعوا كلام الله بلا واسطةٍ، فإنَّ ذلك كان لموسى عليه السلام على الخصوص، لم يشركه فيه غيره في الدنيا. ومعنى يسمعون كلام الله؛ أي: التوراة من موسى بقراءته، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ أي: من بعدما فهموه وضبطوه بعقولهم، ولم يبق لهم شبهةٌ في صحته؛ أي: يحرِّفونه من بعد تعقُّلهم، ومعرفتهم تأويله ومعناه بعقولهم؛ أي: لم يفعلوا[٣] ذلك عن خطأ ونسيان، بل فعلوه عن تعمُّد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنّهم يعلمون أنّهم مبطلون، ومفترون كاذبون، وذلك كنعت محمد ﷺ، فكانت صفته ﷺ في التوراة: أكحل العين، ربعة القامة، جعد الشعر، حسن

(١) العمدة.
(٢) روح البيان.
(٣) العمدة.

الوجه، فكتبوا بدلها: طويلاً، أزرق العين، سبط الشعر، وكآية الرَّجْم بدّلوها بالجَلْد، وغير ذلك.

يقول سبحانه: كيف يؤمن هؤلاء وهم يقلّدون أولئك الآباء، فهم من أهل السوء الذين مضوا بالعناد، فلا تطمعوا في الإيمان منهم، ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي اليهود ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ أي: منافقوهم ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم، وأنَّ محمداً هو الرسول المُبشَّر به؛ أي: إذا رأى منافقوا اليهود المؤمنين قالوا لهم: آمنَّا وصدَّقنا بما جاء به محمد ﷺ، وبأنَّكم على الحق، وأنّ رسولكم هو المُبشَّر به في التوراة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَقُوا﴾ من لقى الثلاثي. وقرأ ابن السميقع: ﴿لاقَوا﴾ من باب فاعل الرباعي الذي هو بمعنى المجرد، فمعنى القراءتين هنا واحد.

قال أبو حيان: ويحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفةً مُنْبئةً عن نوع آخر من قبائح اليهود، الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ، وكاشفةً عمَّا أكنُّوه من النفاق، ويحتمل أن تكون جملةً حاليةً معطوفةً على قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية؛ أي: كيف يطمع في إيمانهم، وقد كان من أسلافهم من يحرِّف كلام الله، وهؤلاء سالكوا طريقتهم، وهم في أنفسهم منافقون يظهرون موافقتكم إذا لقوكم، وأنَّهم منكم، وهم في الباطن كفارٌ، فمن جمع بين هاتين الحالتين، من اقتدائهم بأسلافهم الضُّلاَّل، ومنافقتهم للمؤمنين، لا يطمع في إيمانهم، والذين آمنوا هنا هم: أبو بكر، وعمر، وجماعةٌ من المؤمنين. قاله جمهور المفسّرين، وقال بعضهم: المؤمنون هنا: جماعة من اليهود، آمنوا وأخلصوا في إيمانهم، والضمير في: ﴿لَقُوا﴾ لجماعةٍ من اليهود غير معيَّنة، باقين على دينهم، أو لجماعةٍ منهم أسلموا ثُم نافقوا، أو لليهود الذين أمرهم رؤساؤهم من بني قريظة أن يدخلوا المدينة، ويتجسَّسُوا أخبار النبي ﷺ، قالوا: ادخلوا المدينة، وأظهروا الإيمان، فإنّه نهى أن يدخل المدينة إلا مؤمنٌ. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَإِذَا خَلَا﴾ أي: إذا مضى وذهب ورجع ﴿بَعْضُهُمْ﴾ الذين نافقوا؛ أي: إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين، ورجعوا من عندهم متوجِّهين ومنضمِّين ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: إلى رؤسائهم الذين لم ينافقوا، بحيث لم يبق معهم غيرهم؛ أي: رجع[1] هؤلاء المنافقون من عند المؤمنين إلى رؤسائهم الذين لم ينافقوا، ولم يؤمنوا ظاهراً، ككعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وغيرهما.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال الرؤساء للمنافقين الذين جاءوا من عند المؤمنين موبِّخين، وعاتبين لهم على ما صنعوا ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أي: أتحدّثون أيّها المنافقون، وتخبرون لأصحاب محمد ﷺ، والهمزة للاستفهام الإنكاري المضمَّن للنهي؛ أي: لا تحدِّثوهم، يعني: المؤمنين. ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، وبيَّنه لكم في التوراة خاصّةً، من نعت النبيِّ المَبشَّر به في التوراة، والتعبير عنه بالفتح؛ للإيذان بأنَّه سرّ مكنون، وبابٌ مُغْلَقٌ لا يقف عليه أحدٌ، واللام في قوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ متعلقة بالتحديث[2]، لا بالفتح كما توهَّمه بعضهم، والضمير في به، لما فتح الله؛ أي: ليجادلوكم ويخاصموكم بما أخبرتموهم، مما فتح الله عليكم، ويحتجُّوا عليكم به، ويبكتوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ في الآخرة، أو في حكمه وكتابه، كما يقال: هو عند الله كذا؛ أي: في كتابه وشرعه، والمحدِّثون به، وإن لم يحوموا حول ذلك الغرض، وهو المحاجَّة، لكن فعلهم ذلك لمَّا كان مستتبعاً له ألبتة، جُعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافة عقلهم وركاكة آرائهم؛ أي[3]: أتحدِّثون أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليكم في التوراة.

وبيَّنه لكم، ليخاصموكم ويحتجّوا عليكم بإخباركم، فيقولوا لكم: قد أقررتم أنّه نبيٌّ حقٌّ في كتابكم، فلم لا تتبعونه، وذلك: أنَّ اليهود قالوا لأهل المدينة، حين مشاورتهم في اتّباع محمد ﷺ: آمنوا به، فإنّه نبيّ حقّ، ثُمَّ لام بعضهم بعضاً، فقالوا: أتحدِّثونهم بما فتح الله عليكم، لتكون لهم الحجَّة عليكم، عند

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن بتصرف.

ربّكم في الدنيا والآخرة. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخيّ العتابيّ، داخلةٌ على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون فلا تعقلون الخطأ الفاحش، وهو أنَّ ذلك حجّة لهم عليكم، فالمنكَر عدم التعقُّل ابتداءً، أو تفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه، حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه، فالمُنْكر حينئذٍ عدم التعقّل بعد الفعل.

قال أبو حيان: قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿مَا﴾[1] موصولة، والضمير العائد عليها محذوف، تقديره: بما فتحه الله عليكم، وقد جوَّزوا في ﴿مَا﴾: أن تكون نكرةً موصوفة، وأن تكون مصدريَّة؛ أي: بفتح الله عليكم، والوجه الأوَّل هو الأولى، والذي تحدثوا به هو ما تكلَّم به جماعةٌ من اليهود من صفة رسول الله ﷺ، قاله أبو العالية وقتادة، أو عُذِّب به أسلافهم، قاله: السدّيُّ، وقال مجاهد: إنّ رسول الله ﷺ، قال لبني قريظة: «يا إخوة الخنازير والقردة»، فقال الأحبار لأتباعهم: ما عُرِفَ هذا إلاّ عندكم.

وقال ابن زيد: كانوا إذا سئلوا عن شيء قالوا: في التوراة كذا وكذا، فكره ذلك أحبارهم، ونهوا عن الخلوة عنه. فعلى ما قاله أبو العالية: يكون الفتح بمعنى: الإعلام والإذكار؛ أي: أتحدِّثونهم بما أعلمكم الله به من صفة نبيّهم. ورواه الضحاك، عن ابن عباس. وعلى قول السدي يكون بمعنى: الحكم والقضاء؛ أي: أتحدِّثونهم بما حكم الله به على أسلافكم وقضاه من تعذيبهم. وعلى قول ابن زيد: يكون بمعنى: الإنزال؛ أي: أتحدِّثونهم بما أنزل الله عليكم في التوراة. وقال الكَلْبِيُّ: المعنى: بما قضى الله عليكم، وهو راجع لمعنى الإنزال. وقيل المعنى: بما بيَّن الله لكم من أمر محمد ﷺ وصفته، وشريعته، وما دعاكم إليه من الإيمان به، وأخذ العهود على أنبيائكم بتصديقه ونصرته.

وقيل المعنى: بما مَنَّ الله عليكم من النصر على عدوّكم، ومن تأويل كتابكم. واللام في قوله: ﴿ليحاجوكم﴾ لام كي، والنصب بأن مضمرةٍ بعدها،

---

(١) البحر المحيط.

وهي جائزة الإضمار، إلاّ إن جاء بعدها لا، فيجب إظهارها، وهي متعلّقةٌ بقوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ فهي لام جرٍّ، وتُسمَّى لام كي، بمعنى: أنّها للسبب، كما أنَّ كي للسبب، ولا يعنون أنَّ النصب بعدها بإضمار كي، وإن كان يصحّ التصريح بكي، فتقول: لكي أكرمك؛ لأنّ الذي يضمر إنَّما هو أنْ، لا كَيْ، وقد أجاز ابن كيسان، والسيرافي: أن يكون المضمر بعد هذه اللام كي، أو أن، وذهب الكوفيون: إلى أنَّ النصب بعد هذه اللام؛ إنّما هو بها نفسها، وأنَّ ما يظهر بعدها من كيْ، وأن؛ إنَّما ذلك على سبيل التأكيد، وتحرير الكلام في ذلك مذكورٌ في مبسوطات كتب النحو فراجعها. انتهى. وذهب بعض المعربين: إلى أنَّ اللام تتعلَّق بقوله: فتح، وليس بظاهرٍ؛ لأنَّ المُحَاجَّة ليست علةً للفتح، إنّما المحاجة ناشئةٌ عن التحديث، والضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ[1] إلى ما في قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ﴾، وبهذا يبعد قول من ذهب إلى أنَّ ﴿مَا﴾ مصدريّة؛ لأنَّ المصدريّة لا يعود عليها ضمير، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ معمولٌ لقوله ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ والمعنى: ليحاجُّوكم به في الآخرة، فكنى بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ عن اجتماعهم بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، وقيل: معنى ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ في ربّكم، فيكونون أحقَّ به، فتكون عند بمعنى: في، وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: ليحاجُّوكم عند ذكر ربّكم، وقيل معناه: أنّه جعل المحاجَّة في كتابكم محاجَّةً عند الله، ألا تراك تقول هو في كتاب الله كذا، وهو عند الله كذا بمعنى واحدٌ، وقيل: هو معمولٌ لقوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عند ربّكم؛ أي: من عند ربّكم ليحاجُّوكم، وهو بعث النبي ﷺ، وأخذ ميثاقهم بتصديقه. قال ابن أبي الفضل: وهذا القول هو الصحيح؛ لأنّ الاحتجاج عليهم هو بما كان في الدنيا. انتهى.

والأولى: حمل اللفظ على ظاهره من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ إذا أمكن ذلك، وقد أمكن حمل قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ على بعض المعاني التي ذكرنا.

---

(١) البحر المحيط.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: ظاهره أنّه مندرج تحت قول من قال: أتحدّثونهم بما يكون حجّةً لهم عليكم؟ أفلا تعقلون! فلا تحدّثونهم بذلك. وقيل: هو خطابٌ من الله للمؤمنين؛ أي: أفلا تعقلون! أنَّ هؤلاء اليهود لا يؤمنون، وهم على هذه الصفات الذميمة من اتّباعِ أسلافهم المحَرِّفين كلامَ الله، والتقليدِ لهم فيما حرَّفوه، وتظاهرهم بالنفاق، وغير ذلك مما نُعِيَ عليهم ارتكابُهُ.

وفي «الخازن»[1]: نزلت هذه الآية في اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: ـ (إنّ منافقي اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم: آمنّا بالذي آمنتم به، وإنّ صاحبكم صادقٌ، وقوله حق، وإنّا نجد نعته في كتابنا)، قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: اللائمون، أو المنافقون، أو كلاهما ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾؛ أي: ما يخفون من التكذيب بمحمّد ﷺ ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ أي: وما يظهرون من التصديق له ﷺ، أو من إخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره، فيرتدعوا عن ذلك. والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ﴾ للاستفهام التقريري، داخلةٌ على مقدّر ينساق إليه الذهن. والواو عاطفة ما بعدها على ذلك المقدَّر[2]، وضمير الفاعل للموبِّخين، والتقدير: أيلومونهم على التحديث بما ذكر مخافة المحاجة، ولا يعلمون أنَّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؛ أي: بجميع ما يسرّونه وما يعلنونه، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان، فحينئذٍ يظهر الله للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحي إلى النبي ﷺ، فتحصل المحاجَّة والتبكيت، كما وقع في آية الرجم، وتحريم بعض المحرّمات عليهم، فأيُّ فائدةٍ في اللوم والعتاب؟

قال أبو حيان: قوله: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ﴾ توبيخ من الله تعالى لهم[3]؛ أي: إذا كان علم الله محيطاً بجميع أفعالهم، وهم عالمون بذلك، فكيف يسوغ لهم أن

---

(١) الخازن.

(٢) جمل.

ينافقوا، ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه؟ فلا يجامع حالة نفاقهم بحالة علمهم بأنّ الله عالم بذلك، والأولى حمل ما يسرّون وما يعلنون على العموم إذ هو ظاهر اللفظ. وقيل: الذي أسرُّوه الكفر، والذي أعلنوه الإيمان. وقيل: العداوة والصداقة. وقيل: قولهم لشياطينهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وقولهم للمؤمنين ﴿ءَامَنَّا﴾ وقيل: صفة النبي ﷺ، وتغيير صفته إلى صفة أخرى حتى لا تقوم عليهم الحُجّة. وقرأ ابن محيصن[1] (أو لا تعلمون) بالتاء، قالوا: فيكون ذلك خطاباً للمؤمنين، وفيه تنبيه لهم على جهلهم بعالم السر والعلانية، ويحتمل أن يكون خطاباً لهم، وفائدته: التنبيه على سماع ما يأتي بعد، ثُمَّ أعرض عن خطابهم، وأعاد الضمير إلى الغيبة إهمالاً لهم، فيكون ذلك من باب الالتفات، ويكون حكمته في الحالتين ما ذكرناه.

﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ أي: ومن اليهود رهْطٌ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون الكتب، ولا يقدرون على القراءة جمع أمّيّ، والأُمّيُّ: من لا يكتب ولا يقرأ، منسوبٌ إلى أمّة العرب، وهي الأمة الخالية عن العلم والقراءة، فاستعير لمن لا يعرف الكتابة والقراءة أو إلى الأُمّ؛ لأنّه على حالة ولادة أُمّه، وظاهر الكلام أنّها نزلت في اليهود المذكورين في الآية التي قبل هذه الآية، قاله ابن عباس. وقيل: في المجوس، قاله عليٌّ بن أبي طالب. وقيل: في اليهود والمنافقين، وقال عكرمة، والضحاك: في نصارى العرب، فإنَّهم كانوا لا يحسنون الكتابة. وقيل: في قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، فصاروا أُمّيِّين؛ لجحودهم الكتاب، فصاروا بمنزلة من لا يحسن شيئاً، والقول الأوّل هو الأظهر؛ لأنَّ سياق الكلام إنّما هو مع اليهود، فالضمير لهم، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة: ﴿أُمِيُّونَ﴾ بتخفيف الميم؛ أي: ومن[2] اليهود جهلةٌ لا يكتبون ولا يقرؤون، ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: لا يعرفون التوراة بكتابةٍ ولا قراءةٍ، وطريقتهم التقليد،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ أي[1]: إلا ما هم عليه من أمانيَّ وأكاذيب، وأحاديث مُختلقةٍ يسمعونها من كبرائهم، والأمانيُّ جمع أُمنيَّةٍ بتشديد الياء فيهما وبتخفيفها فيهما، وهي في الأصل: ما يُقدِّره الإنسان في نفسه من مُنَى إذا قدَّر، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يتمنَّى، وعلى ما يقرأ، والاستثناء[2] فيه منقطعٌ؛ لأنّها ليست من جنس الكتاب؛ أي: لكن الشهوات الباطلة ثابتةٌ عندهم، وهي المفتريات من تغيير صفة محمد ﷺ، وأنَّهم لا يعذَّبون إلاّ أيامّاً معدودة، وأنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنّ الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ويرحمهم، ولا حُجَّة لهم في ذلك، والمعنى؛ أي: لكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً، إلى غير ذلك. وقيل المعنى: إلاّ ما يقرؤون قراءة عارية من معرفة المعنى، وتقدّم لك قريباً أنّ الاستثناء هنا منقطع؛ لأنّ الأماني ليست من جنس الكتاب، ولا مندرجة تحت مدلوله، وهو[3] أحد قسمي الاستثناء المنقطع، وهو الذي يتوجَّهُ عليه العامل. ألا ترى أنّه لوقيل: لا يعلمون إلاّ أمانّي لكان الكلام مستقيماً، وهذا النوع من الاستثناء يجوز فيه وجهان:

أحدهما: النصب على الاستثناء وهي لغة أهل الحجاز.

والوجه الثاني: الاتباع على البدل بشرط التأخُّر وهي لغة تميم، فنصب أمانيّ هنا يصحُّ من الوجهين.

والمعنى: إلاّ ما هم عليه من أمانيّهم، وأمانيُّهم أنّ الله يعفو عنهم، ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، إلى غير ذلك مما مرّ، أو ما يُمنِّيهم أحبارهم من أنَّ النار لا تمسُّهم، إلاّ أيّاماً معدودة، أو لا يعلمون إلاّ أكاذيب مختلقةً سمعوها من علمائهم نقلوها على التقليد، قاله ابن عباس، ومجاهد، واختاره

---

(١) العمدة.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

الفرَّاء. وقيل معناه: لا يعلمون إلاّ تلاوةً؛ أي: لا يعلمون فقه الكتاب، ومعناه: إنّما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم. قال أبو مسلم: حمله على تمنّي القلب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَمَانِيَّ﴾ بالتشديد. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وابن جمَّاز عن نافع، وهارون عن أبي عمرو: ﴿أَمَانِيَ﴾ بالتخفيف، جمعه على أفاعل، ولم يعتدَّ بحرف المدّ الذي في المفرد. قال أبو حاتم: كُلُّ ما جاء من هذا النحو واحده مشددٌ فلك فيه التشديد والتخفيف، مثل: أثافي، وأغاني، وأماني، ونحوها. قال الأخفش: هذا كما يقال: في جمع مفتاح مفاتيح ومفاتح. وقال النحَّاس: الحذف في المعتل أكثر، كما قال:

وَهَلْ رَجَّعَ التَّسْلِيمَ أوْ يَكْشِفُ العَمَى   ثَلاثُ الأثافِي والرُّسُومُ البَلاقِعُ

﴿وَإِنْ هُمۡ﴾[2]؛ أي: وما هم في جحد نبوّة محمد ﷺ، وغيره ممَّا يختلقونه ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: إلاّ ظانُّون ظنّاً وتوهُّماً لا أصل له فيجحدون نبوته بالظنّ، وليسوا على يقين، إلاّ ما سمعوا من المحرِّفين أحبارهم، والمعنى؛ أي: ما هم إلاّ قومٌ قصارى أمرهم الظنُّ والتقليد من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم، فأنّى يُرْجَى منهم الإيمان المُؤسَّسُ على قواعد اليقين.

قال أبو حيان: و﴿إِنۡ﴾[3] هنا هي: النافية بمعنى ما، و﴿هُمۡ﴾ مرفوع بالابتداء، و﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ في موضع الخبر وهو من الاستثناء المفرَّغ، وإذا كانت إن نافية فدخلت على المبتدأ والخبر لم تعمل عمل ما الحجازيّة؛ لانتقاض نفيها هنا بإلا الاستثنائيّة، ومن أجاز شَرَطَ نَفْيَ الخبرِ وتأخيرَهُ، والصحيح أنّه لا يجوز إعمالها؛ لأنّه لم يحفظ من ذلك إلا بيتٌ نادرٌ، وهو قوله:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

إنْ هُو مُسْتَوْلِياً عَلَى أحدٍ إلاّ عَلَى أضْعَفِ المَجَانِين

وأتى بالخبر فعلاً مضارعاً ولم يأت باسم الفاعل؛ لأنّه يدلُّ على حدوث الظنّ وتجدده لهم شيئاً فشيئاً، فليسوا ثابتين على ظنّ واحد، بل يتجدَّد لهم ظنونٌ دالةٌ على اضطراب عقائدهم، واختلاف أهوائهم.

وفي هذه الآية[1]: دليلٌ على أنَّ المعارف كسبيَّةٌ، وعلى بطلان التقليد، وعلى أنّ المغترَّ بإضلال المُضِلّ مذمومٌ، وعلى أنَّ الاكتفاء بالظنّ في الأصول غير جائز، وعلى أنَّ القول بغير دليل باطلٌ، وعلى أنَّ ما تساوى وجوده وعدمه لا يجوز المصير إلى أحدهما إلاّ بدليل سمعيّ، وتمسَّك بها أيضاً منكروا القياس وخبر الواحد؛ لأنَّهما لا يفيدان العلم. ثُمَّ ذكر الله سبحانه وتعالى، جريمة هؤلاء الرؤساء المُضلين الذين أضلُّوا العوامَّ، فقال: ﴿فَوَيۡلٌ﴾؛ أي: عذابٌ شديد، أو وادٍ في جهنّم، والويل كلمةٌ يقولها كُلُّ مَنْ وقع في هلكة بمعنى الدعاء على النفس بالعذاب؛ أي: عقوبةٌ عظيمةٌ وهلكةٌ شديدة، أو هو وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره، كما روي عن أبي سعيد الخدريِّ. وقال سعيد بن المسيّب إنّه وادٍ في جهنّم لو سُجّرت فيه جبال الدنيا، لذابت من شدّة حرّه، رواه الترمذي وغيره مرفوعاً. وهو مبتدأ خبره ما بعده، وسوَّغ الابتداء به مع كونه نكرة؛ ما فيه من معنى الدعاء، إذ الدعاء أحد المسوغات للابتداء بالنكرة، وهي تقارب ثلاثين مسوّغاً، كما هو مبسوط في كتب النحو؛ أي: فعذابٌ شديدٌ وعقوبةٌ عظيمة كائنة ﴿لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: يُحرِّفون التوراة عمَّا أنزلت عليه، ويكتبونه كتابةً مختلقةً من عند أنفسهم موافقةً لهواهم، وهم أحبار اليهود، وقوله: ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ تأكيدٌ؛ لأنَّ الكتابة لا تكون إلاّ بالأيدي؛ أو لأنّه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب، فقال: ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ لرفع هذه الشُّبهة، والمراد[2] بالذين يكتبون الكتابَ اليهودُ، وذلك أنَّ رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم، وزوال رياستهم حين قدم النبيُّ ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق سفلتهم عن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) خازن وأبو سعود.

الإيمان به، فعمدوا إلى صفته في التوراة فغيَّرُوها، وكانت صفته فيها: حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، ربعةً؛ أي: متوسِّط القامة، فغيروا ذلك وكتبوا مكانه: طويلٌ أزرق العينين، سبط الشعر؛ أي: جعده، وكانوا إذا سألتهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا، فيجدونه مخالفاً لصفته ﷺ فيكذبونه. والكتابة معروفة ويقال: أوّل من كتب بالقلم إدريس عليه السلام. وقيل: آدم أبو البشر عليه السلام. وقيل: كتبوا في التوراة ما يدلُّ على خلاف صفة رسول الله ﷺ، وبثُّوها في سفهائهم، وفي العرب وأخفوا تلك النسخ التي كانت عندهم بغير تبديل، وصار سفهاؤهم ومن يأتيهم من مشركي العرب إذا سألوهم عن صفة رسول الله ﷺ يقولون: ما هو هذا الموصوف عندنا في التوراة المبدَّلة المغيَّرة، ويقرؤونها عليهم، ويقولون: هذه التوراة التي أنزلت من عند الله ليشتروا بها ثمناً قليلاً. وقيل: خاف ملوكهم على ملكهم إذا آمن الناس كُلُّهم، فجاؤوا إلى أحبار اليهود فجعلوا لهم عليهم وضائع ومآكل، وكشطوها من التوراة وكتبوا بأيديهم كتاباً، وحلَّلوا فيه ما اختاروا، وحرَّموا ما اختاروا.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال أبو حيان: تأكيدٌ يَرْفَعُ توهُّمَ المجاز؛ لأنّ قولك: زيد يكتب، ظاهره أنّه يباشر الكتابة، ويحتمل أن يُنسب إليه على طريقة المجاز، ويكون آمراً بذلك، كما جاء في الحديث: (إن رسول الله ﷺ كتب)، وإنّما المعنى أمر بالكتابة؛ لأنّ الله تعالى قد أخبر أنّه النبيُّ الأمّيُّ، وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ونظير هذا التأكيد ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ و﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ وقوله:

نظَرْتَ فلم تَنْظُر بَعْينيك مَنْظراً

فهذه كلَّها أُتى بها؛ لتأكيد ما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ ولرفع المجاز الذي كان يحتمله، وفي هذا التأكيد أيضاً تقبيحٌ لفعلهم إذ لم يكتفوا بأن يأمروا بالاختلاق والتغيير، حتى كانوا هم الذين تعاطوا ذلك بأنفسهم واجترحوه بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لأتباعهم[1] وسفلتهم الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قُرِىء لهم، ومعمول

القول هذه الجملة التي هي قوله: ﴿هَٰذَا﴾ المحرَّف هو الذي أنزل ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في التوراة، وقوله: ﴿لِيَشْتَرُوا۟﴾ علةٌ في القول وهي لام كي، وهي مكسورة؛ لأنّها حرف جرّ فيتعلّق بيقولون. وبنو العنبر يفتحون لام كي، قاله مكّيٌّ في «إعراب القرآن» له، وقد أبعد من قال: إنّها متعلِّقة بالاستقرار، وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بقوله: ﴿لِيَشْتَرُوا۟﴾، والضمير عائد على الذي أشاروا إليه بقولهم: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو المكتوب المحرَّف؛ أي: يقولون هذا المحرَّف من عند الله، ليأخذوا لأنفسهم بمقابلة المحرف من سفلتهم، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً لا يُغْبأ به من الدنيا، وهو ما أخذوه من الرُّشَا في مقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل الزائغ. وإنّما عبَّر عن[1] المشترى الذي هو المقصود بالذات في عقد المعاوضة، بالثمن الذي هو وسيلةٌ فيه؛ إيذاناً بتعكيسهم، حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة، والوسيلة مقصودة بالذات، وإنّما وصفه بالقلّة؛ إمّا لفنائه وعدم ثوابه، وإمّا لكونه حراماً؛ لأنّ الحرام لا بركة فيه، ولا يربو عند الله تعالى. كذا في «تفسير القرطبي».

وقد جمعوا[2] في هذا الفعل أنّهم ضلوا وأضلُّوا، وكذبوا على الله، وضمُّوا إلى ذلك حُبَّ الدنيا، وهذا الوعيد مرتَّب على كتابة الكتاب المحرَّف، وعلى إسناده إلى الله تعالى وكلاهما منكرٌ، والجمع بينهما أنكر، وهذا يدلُّ على تحريم أخذ المال على الباطل، وإن كان برضا المعطي ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ أي: العقوبة العظيمة ثابتةٌ لهم ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من أجل كتابهم إيّاه ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ أي: عذابٌ شديد حاصلٌ لهم ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: من أجل كسبهم وأخذهم الرشوة، وعملهم المعاصي، وأصل الكسب: الفعل لجر نفعٍ أو دفع ضرّ، ولهذا لا يوصف به سبحانه وتعالى.

وكتابتهم[3] مقدَّمةٌ نتيجتها كسب المال الحرام، فلذلك كرَّر الويل في كل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

واحد منهما؛ لئلاّ يتوهم أنَّ الوعيد هو على المجموع فقط، فكل واحد من هذين متوعَّد عليه بالهلاك، وظاهر الكسب هو ما أخذوه على تحريفهم الكتاب من الحرام، وهو الأليق بمساق الآية، وقيل المراد: بما يكسبون الأعمال السيّئة، والمعنى: فويلٌ لهم لأجل ما كتبته أيديهم من الكتاب المحرَّف، وويل لهم لأجل ما يصيبونه ويأخذونه من سفلتهم، ومن الرُّشا والحرام على تحريفهم.

وفي الآيات إشاراتٌ[1]:

الأولى: أنَّ علم الرجل، ويقينه، ومعرفته، ومكالمته مع الله لا يفيده الإيمان الحقيقيَّ، إلاَّ أن يتداركه الله سبحانه بفضله ورحمته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ وأنَّ الله تعالى كلَّم إبليس وخاطبه بقوله: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وما أفاده ذلك الإيمانُ الحقيقيُّ، إذ لم يكن مؤيَّداً من الله بفضله ورحمته، ولم يبق على الإيمان بعد العيان، فكيف يؤمن بالبرهان.

والثانية: أنَّ العالم المعاند، والعاميَّ المُقلِّد سواءٌ في الضلال؛ لأنَّ العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكنٌ من العلم، وأنَّ الدين ليس بالتَّمَنِّي، فالذين ركنوا إلى التقليد المحض واغترُّوا بظنونٍ فاسدةٍ، وتخميناتٍ مبهمةٍ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلاّ قراءتها دون معرفة معانيها، وإدراك أسرارها وحقائقها، وهذا حال أكثر أهل زماننا من مدّعي الإسلام بلا معرفة قواعده، وامتثال مأموراته واجتناب منهيّاته، فالمدَّعي والمُتمنِّي عاقبتهما خسرانٌ وضلالٌ، وحسرةٌ وندامة، ووبال وأنكال.

والثالثة: أنَّ من بدَّل، أو غيَّر، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه فهو داخلٌ في الوعيد المذكور، وقد حذَّر رسول الله ﷺ أمته عن ذلك؛ لما علم ما يكون في آخر الزمان، فقال: «ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، كلّها في النار إلاّ واحدةً».

فحذّرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله، أو سنّة رسوله ﷺ، أو سنّة خلفائه، فيضلُّوا به الناس، وقد وقع ما حذره، وشاع، وكثر، وذاع، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فعلى العاقل أن يجتهد في الوصول إلى الحق، ويتخلّص من الموهوم الباطل، ولا يغترَّ بظواهر الحالات غافلاً عن بطون الاعتبارات، فإنَّ طريق الحق أدقُّ من كُلِّ دقيقٍ، وماءٍ عَمِيقٍ، وفجٍّ سحيقٍ، وأجهلُ[1] الناس من يترك يقين ما عنده من صفات نفسه التي لا شكّ فيها، لظنٍّ ما عند الناس من صلاحية حاله. قال الحارث المحاسبيُّ رحمه الله تعالى: الراضي بالمدح الباطل كمن يهزأ به، ويقال له: إنّ العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحةٌ كرائحة المسك، وهو يفرح ويرضى بالسُّخرية به، فالعاقل لا يغترُّ بمثله، بل يجتهد إلى أن يصل إلى رضا ربّه، ويفتح له باب قربه بأن يكون سمعه، وبصره، ولسانه، ورجله، ويده التي يبطش بها، فويلٌ لواعظٍ تكبر وافتخر بتقبيل الناس يده، ورأى نفسه خيراً من السامعين، ويتقيّد بالمدح والذمّ، اللهم إلاّ أن يخرج ذلك من قلبه، والمعيار مساواة المقبِّل، واللاَّطم عنده، بل رجحان اللاطم والضارب عنده. قال الجُنيد البغداديُّ في مجلس وعظه: لو لم أسمع قول النبي ﷺ: «إنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر» لما اجترأت على الوعظ، فأنا ذلك الرجل الفاجر. اهـ. ولمَّا أوعدهم رسول الله ﷺ بالنار عند تكذيبهم إيّاه ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت اليهود زعماً منهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾؛ أي: لن تصيبنا النار، ولن تصل إلينا في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾؛ أي: أياماً قلائل محصورةً يسهل عدُّها قدر سبعة أيّام، فإنّهم يقولون: إنّ أيّام الدنيا سبعة آلاف سنة، فنعذَّب مكان كُل ألف سنةٍ يوماً واحداً، أو قدر أربعين يوماً مقدار عبادة آبائهم العجل، ثم يزول عنّا العذاب.

---

(١) روح البيان.

قال أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: تُصرف الأيام المعدودة إلى العمر الذي عصوا فيه، وهم لم يروا التعذيب إلاّ على قدر وقت العصيان، أو كانوا لا يرون التخليد في النار كالجهميّ، أو لأنّهم كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحبّاؤه فلا نعذَّب أبداً، بل نُعذَّب تعذيب الأب ابنه، والحبيب حبيبه في وقت قليل ثم يرضى. وهذا منهم باطل، وعقوبة الكفر مؤبَّدة، وثواب الإيمان كذلك؛ لأنَّ من اعتقد ديناً إنّما يعتقده للأبد، فعلى ذلك جزاؤه للأبد. وروي أنَّ سبب[1] نزول هذه الآية: أنّهم زعموا أنّهم وجدوا في التوراة مكتوباً: إنَّ ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، قالو: إنّما نعذّب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنّم وتهلك. روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: إنّ النبي ﷺ قال: «إنّ اليهود من أهل النار» فقالوا: نحن، ثُمَّ تخلفوننا أنتم، فقال: «كذبتم لقد علمتم أنّا لا نخلفكم» فنزلت هذه الآية.

والضمير في قوله[2]: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عائد على الذين يكتبون الكتاب، جمعوا إلى تبديل كتاب الله وتحريفه، وأخذهم به المال الحرام، وكذبهم على أنّه من عند الله، الإخبار بالكذب البحت عن مدّة إقامتهم في النار.

فإن قلت[3]: لِمَ قال هنا ﴿مَّعْدُودَةً﴾ بالإفراد، وفي آل عمران ﴿معدودات﴾ بالجمع؟.

قلت: إشارةً إلى الجمع بين الأصل والفرع، إذ الأصل في الجمع بالألف والتاء: إذا كان واحده مذكّراً أن يقتصر في الوصف على تأنيثه مفرداً، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ وقد يقال: (سرر مرفوعات) على الجمع، فهو فرعٌ عن الأول، فذكر في البقرة على الأصل؛ لكونها أوّل، وفي آل عمران على الفرع؛ لكونها آخراً، ثُمَّ قال تعالى رَدّاً عليهم وتكذيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد!

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) فتح الرحمن.

تبكيتاً لهم وتوبيخاً ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ بقطع الهمزة؛ لأنّها همزة استفهام للتوبيخ، والهمزة المجلوبة للوصل حذفت للدرج. وفي «البيضاوي»: قرأ ابن كثير، وحفصٌ: بإظهار الذال، والباقون بإدغامها. انتهى؛ أي: اتّخذتم وجعلتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿عَهْدًا﴾ وموثقاً ووعداً بما تزعمون، فإنّما تدَّعون لا يكون إلاّ بناءً على وعد قويٍّ، ولذلك عبَّر عنه بالعهد؛ أي: هل جعلتم عند الله موثقاً أن لا يعذبكم إلاّ هذه المدة، ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؛ أي: فإذاً لن يخلف الله وعده إيّاكم على ذلك؛ لأنَّ الله لا يخلف الميعاد. وعبارة «الروح» هنا قوله: ﴿فَلَن﴾ الفاء[1] فصيحةٌ معربة عن شرط محذوف؛ أي: إن اتخذتم عند الله عهداً وأماناً، فلن يخلف الله عهده الذي عهده إليكم؛ يعني: ينجز وعده ألبتة؛ والإخلاف نقض العهد، فتكون جملة الشرط معترضة بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الخ، والمعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ قال الإمام أبو منصور: لهذا الكلام وجهان:

أحدهما: هل عندكم خبرٌ عن الله تعالى؟ أنّكم لا تعذَّبون أبداً لكن أياماً معدودة، فإن كان لكم هذا فهو لا يخلف عهده ووعده.

والثاني: ألكم عند الله أعمالٌ صالحةٌ، ووعدكم بها الجنة؟ فهو لا يخلف وعده ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ ذلك مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه؛ أي: أم لم تتَّخذوا من الله عهداً، بل تتقولون على الله الباطل والكذب، وأم معادلةٌ لهمزة الاستفهام، بمعنى: أيُّ الأمرين المتساويين كائنٌ على سبيل التقرير؟ لأنَّ العلم واقعٌ بكون أحدهما. خلاصته: إن لكم عنده عهد فلا ينقض، ولكنّكم تخرصون وتكذبون. روي أنهم إذا مضت تلك المدة عليهم في النار، يقول لهم خزنة جهنّم: يا أعداء الله! ذهب الأجل وبقي الأبد، فأيقنوا بالخلود. انتهت.

والمعنى: قل لهم يا محمد[2] أعَهِد إليكم ربُّكم بذلك، ووعدكم به وعداً حقّاً؟ إن كان كما تقولون، فلن يخلف الله وعده، أم أنتم تقولون على الله شيئاً لا

---

(١) روح البيان.

علم لكم به، فإنَّ مثله لا يكون إلاّ بوحي يبلِّغه الرسل عنه، وبدون هذا يكون افتياتاً على الله وجراءةً عليه؛ لأنَّه قولٌ بلا علم، فهو كفر صراحٌ.

وخلاصة هذا[1]: إنّ مثل ذلك القول لا يصدر إلاّ عن أحد أمرين: إمّا اتخاذ عهدٍ من الله، وإمّا افتراءٌ وتقوُّلٌ عليه، وإنْ كان اتخاذُ العهد لم يحصل، فأنتم كاذبون في دعواكم، مفترون بأنسابكم حين تدَّعون أنَّكم أبناء الله وأحبّاؤه.

ثُمَّ ردَّ الله سبحانه وتعالى على اليهود قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ تمسُّكم النار، وتخلدون فيها أبداً، و﴿بَلَىٰ﴾[2] إثباتٌ لما بعد النفي، فهو جواب النفي، ونعم: جواب الإيجاب؛ أي إنّكم قلتم: لن تمسَّنا النار سوى الأيام المعدودة، بلى تمسُّكم أبداً بدليل ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وبيَّن ذلك بالشرط والجزاء، وهما قوله: ﴿مَن...﴾ إلخ. ومن يحتمل أن تكون موصولة، ودخلت الفاء حينئذٍ في الخبر، لما في المبتدأ من العموم؛ لشبه الموصول بالشرط في العموم ﴿كَسَبَ﴾ وعمل وارتكب ﴿سَيِّئَةً﴾ من السيّئات يعني: كبيرةً من الكبائر، والمراد بالسيئة هنا: الكفر والشرك، قاله ابن عباس، ومجاهد. والكسب: استجلاب النفع، والاكتساب: استجلاب الضرّ. واستعمال الكسب هنا في استجلاب الضرّ، كالسيئة، على سبيل التهكُّم، ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ تلك واستولت عليه من جميع جوانبه، من قلبه، ولسانه، ويده، كما يحيط العدوُّ، وهذا إنّما يتحقَّق في الكافر، ولذلك فسَّر السلف السيئة بالكفر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات، وإحاطة خطاياهم بهم، أشير إليهم بعنوان الجمعيَّة؛ مراعاةً لجانب المعنى في كلمة ﴿مَن﴾ بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها في الآخرة حسب ملازمتهم في الدنيا؛ لما يستوجبها من الأسباب التي من جملتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله، وتحريف كلامه، والافتراء عليه، وغير ذلك، وهو خبر أولئك، والجملة خبر للمبتدأ ﴿هُمْ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون، فأنى لهم التَفَضّي منها بعد سبعة أيّام، أو أربعين يوماً كما زعموا، والجملة في حيِّز النصب على الحالية؛ لورود التصريح به في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ﴾، ولا حُجَّة في الآية على خلود صاحب الكبيرة؛ لما عرفت من اختصاصها بالكافر، والمراد بأصحاب النار: الذين هم أهلها حقيقةً لا مَن دخلها، ثُمَّ خرج منها.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ بالإفراد، ونافع: ﴿خطيئاته﴾ جمع سلامة، وقرأ بعض القرَّاء: ﴿خطاياه﴾ جمع تكسير. وقرىء: ﴿خطيَّته﴾ و﴿خطيَّاته﴾ على القلب والإدغام فيهما، والمعنى: أنَّها أخذته من جميع جوانبه، ومعنى الإحاطة به: أنّه يوافي على الكفر والإشراك، هذا إذا[٢] فسرت الخطيئة بالشرك، ومن فسَّرها بالكبيرة، فمعنى الإحاطة به: أن يموت وهو مُصِرٌّ عليها، فيكون الخلود على القول الأوّل، المراد به الإقامة لا إلى انتهاء، وعلى القول الثاني المراد به: الإقامة دهراً طويلاً؛ إذ مآله إلى الخروج من النار. قال الكلبيُّ: أوثقته ذنوبه. وقال ابن عباس: أحبطت حسناته. وقال مجاهد: غشيت قلبه. وقال مقاتل: أصرَّ عليها. وقال الربيع: مات على الشرك. وقال الحسن: كل ما توعَّد الله عليه بالنار، فهو الخطيئة المحيطة.

ومعنى الآية: ليس[٣] الأمر كما ذكرتم، بل تمسُّكم النار وتمسُّ غيركم دهراً طويلاً، فكلُّ من أحاطت به خطيئته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، واسترسل في شهواته، وأصبح سجين آثامه، فجزاؤه النار خالداً فيها أبداً؛ لما اقترف من أسبابها بانغماسه في الشهوات التي استوجبت ذلك العقاب.

وعبارة «العمدة»[٤]: ﴿بَلَىٰ﴾ تمسُّكم النار، وتخلدون فيها أبداً ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي عمل شركاً ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾؛ أي: أحدقت ﴿بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وذنوبه،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

وغمرته من جميع جوانبه، وسدَّت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه، فأمَّا إذا مات مؤمناً، فأعظم الطاعات وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنب محيطاً به، فلا يتناوله نصُّ الآية، فحينئذٍ فالمراد بالخطيئات: أنواع الكفر المتجدِّدة في كلّ وقتٍ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين كسبوا السيئات، وأحاطت بهم خطيئاتهم، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها في الآخرة، كما أنَّهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون فيها، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله تعالى، وصدَّقوا بما جاء به محمد ﷺ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وأطاعوا الله تعالى بأداء فرائضه، واجتناب محارمه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: ملازموا الجنّة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: مخلَّدون فيها، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها أبداً.

والمعنى[1]: أي وأمَّا الذين صدَّقوا الله ورسله، وآمنوا باليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال، فأدُّوا الواجبات، وانتهوا عن المعاصي، فأولئك جديرون بدخول الجنّة؛ جزاءً وفاقاً على إخباتهم لربّهم، وإنابتهم إليه، وإخلاصهم له في السرّ والعلن.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ دخول الجنّة منوطٌ بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح معاً، كما روي: أنَّ النبي ﷺ، قال لسفيان بن عبد الله الثقفي - رضي الله عنه - وقد قال له: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم. وقد جرت سنّة الله في القرآن، أن يَشْفَع الوعد بالوعيد؛ مراعاةً لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارةً، والترهيب أخرى، والتبشير مرّة، والإنذار أخرى؛ إذ باللُّطف والقهر يَرْقَى الإنسان إلى درجة الكمال، ويفوز برضوان الله، وحسن توفيقه ورضوان الله أكبر. وأتى[2] في الشقّ الأوّل؛ أعني: أصحاب النار، بالفاء دون

---

(١) العمدة.

(٢) المراغي.

الشقّ الثاني؛ أعني: أصحاب الجنّة؛ إيذاناً بتسبُّب الخلود في النار عن الشرك، وعدم تسبّب الخلود في الجنّة عن الإيمان، بل بمحض فضل الله تعالى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوراة، والميثاق: العهد المؤكَّد باليمين، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرةٍ، وعهد نبوّةٍ ورسالةٍ، وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم وجعل على لسان موسى، وغيره من أنبيائهم. قال أبو السعود: وهذا شروع في تعداد بعضٍ آخر من قبائح أسلاف بني إسرائيل، مما ينادي بعدم إيمان أخلافهم. وكلمة ﴿إِذْ﴾ نصبت بإضمار فعل خوطب به اليهود الموجودون في عهد النبي ﷺ؛ توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم، تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! الموجودين في عهد محمد ﷺ إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل الموجودين في زمن موسى عليه السلام، الذين هم أسلافكم وأصولكم، أو خوطب به النبيُّ ﷺ والمؤمنون؛ ليؤدّيهم التأمُّل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمان أخلافهم، لأنَّ قبائح أسلافهم ممَّا يؤدّي إلى عدم إيمانهم، ولا تلد الحيّة إلاّ الحيَّة، ومن ههنا قيل: إذا طاب أصل المرء طابت فروعه؛ أي: واذكروا يا أيها الرسول والمؤمنون! حين جعلنا عليهم الميثاق.

ثم بيَّن الميثاق، فقال: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بأن لا تعبدوا إلاّ الله تعالى، ولا تشركوا به شيئاً؛ أي: فاعبدوه دون غيره؛ لأنّه المستحقّ للعبادة، فلمّا أسقط (أن) رفع تعبدون لزوال الناصب، أو على أن يكون إخباراً بمعنى النهي؛ أي: لا تعبدوا إلاّ الله، ولا تجعلوا الألُوهيَّة إلاّ لله، كأنَّ المخاطب سيمتثل النهي حتماً، ويسارع إلى الترك، فيخبر به الناهي. وقيل: إنّه جواب قسم دلَّ عليه المعنى، كأنَّه قيل: واستحلفناهم، أو قلنا بالله لا تعبدون إلاّ الله، وقد نهوا عن عبادتهم غير الله تعالى، مع أنّهم كانوا يعبدون الله خوفاً من أن يشركوا به سواه، من ملك، أو بشر، أو صنم بدعاء، أو غيره من أنواع العبادات، ودين الله على ألسنة الرسل جميعاً، فيه الحثُّ على عبادة الله وعدم

---

(١) الفتوحات.

الشرك بعبادة أحد سواه ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، فالتوحيد عماده الأمران معاً، وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه. وقرأ نافع[1]، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف العاشر، بالتاء؛ حكايةً لما خوطبوا به. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي بالياء على الغيبة؛ لأنَّ[2] بني إسرائيل اسم ظاهر، والأسماء الظاهرة من قبيل الغيب، ومعناه: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل أن لا يعبدوا، فلمَّا حذفت أن رفع الفعل، كما مرّ.

وقرأ عبدُ الله، وأُبيٌّ: ﴿لا تعبدوا﴾ بصريح النهي، وهذه قراءة شاذة، ﴿و﴾ تحسنون ﴿بالوالدين إحساناً﴾ على لفظ تعبدون؛ لأنّه إخبارٌ، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً على معناه؛ لأنه إنشاءٌ؛ أي: وأحسنوا بالوالدين، وإنْ عَلَيا إحساناً كثيراً؛ أي[3]: برّاً، وعطفاً، ورحمةً لهما، ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى، ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه ولا يؤذيهما ألبتة، وإن كانا كافرين، بل يجب عليه الإحسان إليهما، ومن الإحسان إليهما. أن يدعوهما إلى الإيمان بالرفق واللين، وكذا إن كانا فاسقين، يأمرهما بالمعروف بالرفق واللين من غير عُنْفٍ.

وإنّما عطف[4] برّ الوالدين على الأمر بعبادة الله تعالى، لأنَّ شكر المنعم واجبٌ، ولله على عبده أعظم النعم؛ لأنه أوجده بعد العدم، فيجب تقديم شكره على شكر غيره، ثُمّ إنّ للوالدين على الولد نعمةً عظيمة؛ لأنّهما السبب في وجوده، ولهما عليه حقُّ التربية أيضاً، فحقُّهما يلي حقّ المنعم بالوجود الحقيقيِّ. وقد جاء في التوراة: أنَّ من يسبَّ والديه يقتل. والحكمة في البرّ بهما: أنّهما قد بذلا للولد وهو صغير كُلَّ عنايةٍ وعطفٍ، بتربيته، والقيام بشؤونه حين كان عاجزاً

---

(١) البيضاوي.

(٢) النسفي.

(٣) الخازن.

(٤) جمل.

ضعيفاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، مع الشفقة التي لا مزيد عليها، أفلا يجب عليه بعدئذٍ مكافأتهما جزاءً وفاقاً لما صنعا؟! ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾.
ولِحُبِّ الوالدين لولدهما أسبابٌ:

١ ـ الحنان الفِطريُّ الذي أودعه الله فيهما، إتماماً لحكمته في بقاء الأنواع إلى الأمد الذي قدَّره في سابق علمه.

٢ ـ التفاخر بالأبناء، كما قال ابن الرُّوميِّ:

وَكَمْ أبٍ قَدْ عَلاَ بابْنٍ ذُرَىٰ شَرَفٍ ... كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ الله عَدْنَانُ

٣ ـ الأمل في الاستفادة منهما مالاً وعوْناً على المعيشة، وهذا الحبُّ لا يحتاج إلى ما يُقَرِّبُهْ، ويُوثِقُ صلتهَ، ومن ثَمَّ ترك القرآن النصَّ عليه ﴿و﴾ أحسنوا بـ﴿ذي القربى﴾ أو وتحسنون بـ ﴿ذي القربى﴾؛ أي: بصاحب القرابة لكم، والقربى مصدر، كالرُّجعى بمعنى القرابة، بأن تصلوا رحمه، وتعرفوا حقَّه؛ لأنَّ الإحسان إليهم ممَّا يُقوِّي الروابط بينهم.

أحسن إلى الناسِ تَسْتَعْبِد قُلُوبهم ... فَطالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنْسَانَ إحسانُ

فما الأُمةُ إلاّ مجموعة الأُسَر والبُيوت، فصلاحُهَا بصلاحها، وفسادها بفسادها، ومن لا بيت له لا أُمَّة لهَ، ومَنْ قطع لُحمة النَّسب، فكيف يصل ما دونها؟ وكيف يكون جُزْءاً من الأمّة؟ يسرُّه ما يسرُّها، ويؤلمه ما يؤلمها، ويرى في منفعتها منفعته، وفي مضرّتها مضرّته.

ونظام الفطرة[1] قاضٍ بأنَّ صلة القرابة أَمْتَنُ الصِلات، وجاء الدين حاثًّا عليها، مؤكِّداً لأوَاصِرها، مقوِّياً لأركانها، مقدِّماً لحقوقها على سائر الحقوق بحسب درجات القرابة، وعَطَف على برِّ الوالدين بر ذوي القربى؛ لأنَّ حقَّ القرابة تابعٌ لحقّ الوالدين، والإحسان إليهم إنّما هو بواسطة الوالدين ﴿و﴾ أحسنوا بـ﴿اليتامى﴾ أو وتحسنون إلى ﴿اليتامى﴾، بأن[2] تتعطَّفوا عليهم بالرأفة والرحمة

---

(١) المراغي.
(٢) العمدة

ذكوراً كانوا أو أناثاً، جمع يتيم، كنديمٍ وندامى، واليتيم من الآدميين: من فقد أباه، ومِن غيرهم من فقد أُمّه وهو صغيرٌ، فإذا بلغ الحلم زال عنه اليُتْمُ، فالإحسانُ إلى اليتيم بحسن تربيته، وحفظ حقوقه من الضِياع، والكتابُ والسنة مليئان بالوصيّة به، وحسبك من ذلك قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وأشار بالسَّبابة والوسطى، ويجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمورٍ: لصغره، ويتمه، ولخلوّه عمَّن يقوم بمصلحته، إذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه، ولا يقوم بحوائجه.

والحكمة في وجوب الإحسان إلى اليتيم: أنّه لا يجد في الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته، والقيام بشؤونه، وحفظ أمواله، والأُمُّ وإن وُجدت، تكون في الغالب عاجزةً عن تنشئته وتربيته التربيةَ المُثْلى، إلى أنَّ الأيتام أعضاءٌ في جسم الأمة، فإذا فسدت أخلاقهم، وساءت أحوالهم، تسرَّب الفساد إلى الأُمَّة جمعاء، إذ يُصْبِحُون قُدْوةَ سيّئةً بينَ نَشْئها، فيدِبُّ فيها الفساد، ويتطرَّقُ إليها الانحلال، وتأخذ في الفناء ﴿و﴾ أحسنوا بـ﴿المساكين﴾ أو وتحسنون إلى ﴿المساكين﴾ المتذلّلين من الفاقة والحاجة، وعجزوا عن الكسب بأن تُواسوهم، وتؤتوهم حقوقَهم التي فُرض لهم في أموالكم، جمع مسكين بوزن مفعيل من السكون، كأنَّ الفقر أسكنه عن الحراك؛ أي: الحركة، وأثقله عن التقلّب، والمراد بهم[1]: ما يشمل الفقراء، فإنّ الفقير والمسكين متى اجتمعا افترقا، ومتى افترقا اجتمعا، وإنّما تأخَّرت درجة المساكين عن اليتامى؛ لأنّه قد يُمْكِن أن ينتفع بنفسه، وينفع غيره بالخدمة، بخلاف اليتيم، فإنّ الصغر مانعٌ له من ذلك، والحاصل: أنَّ الإحسان إلى المساكين يكون بالصدقة عليهم، ومواساتهم حين البأس والضراء. روىٰ مسلم، عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر» ﴿و﴾ قلنا لهم ﴿قولوا للناس﴾ عموماً قولاً ﴿حُسْنًا﴾ ونَحْوُه الحديثُ: «وخالق الناس بخلق حسن» وسمَّاه حسناً بفتحتين مبالغةً، لفرط حسنه؛ أي: هو حسنٌ في

---

(١) العمدة.

نفسه، وأمر سبحانه بالإحسان بالمال في حقّ أقوامٍ مخصوصين، وهم الوالدان، والأقرباء، واليتامى، والمساكين، ولمَّا كان[1] المال لا يسع الكُلَّ، أمر بمعاملة الناس كلهم بالقول الجميل الذي لا يعجز عنه العاقل؛ يعني: وألينوا لهم القول بحسن المعاشرة وحسن الخلق، ومروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، إن كان المراد بالمخاطبين الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، كما هو الظاهر، والقول الحسن: هو الذي يحصل انتفاعهم به.

وقيل المعنى: قولوا للناس صدقاً وحقّاً في شأن محمد ﷺ، فمن سألكم عنه فاصدقوه وبيِّنوا صفته، ولا تكتموها، كما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن كان الخطاب للحاضرين في زمن النبي ﷺ، وفي القيام بهذه الفرائض إصلاحٌ لحال المجتمع، وسعيٌ في رُقيّه وتقدُّمه حتى يبلغ ذروة المجد والشرف. وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب[2]: ﴿حَسَناً﴾ بفتحتين على أنّه صفة مشبهة لمصدر محذوف، تقديره: وقولوا للناس قولاً حسناً. وقرأ الباقون: ﴿حُسْنًا﴾ بضمّ الحاء وسكون السين على أنّه مصدر وصف به مبالغةً. وقرأ عطاء بن أبي رباح، وعيسى بن عمر: ﴿حُسُناً﴾ بضمّهما، فضمّة السين اتباع بضمّة الحاء، وهي قراءة شاذة. وقرأ أبي، وطلحة بن مصرف: ﴿حُسْنَىْ﴾ على وزن فُعْلى على أنّه مصدر كالرُّجْعَى، والعُقْبَى، والبشرى. وقرأ الجحدريّ: ﴿إحساناً﴾ على أنّه نعت لمصدر محذوف؛ أي: قولاً إحساناً، وإحساناً مصدرٌ من أحسن الذي همزته للصيرورة؛ أي: قولاً ذا حسنٍ، كما تقول أعشبت الأرض إعشاباً؛ أي: صارت ذات عُشْبٍ.

وبعد أن أمرهم سبحانه بعبادته وحده على سبيل الإجمال، فصَّل بعضاً من ذلك ممَّا لا يُهتدىٰ إليه إلاّ بهُدَى إلٰهيّ، ووحيٍ سماويٍّ، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدُّوا الصلاة التي فرضت عليكم في ملتكم وشريعتكم، فقبلتم

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

الميثاق المذكور إن كان الخطاب مع الأسلاف، كما هو ظاهر السياق، أو أدّوا الصلاة المفروضة كاملةً بالركوع والسجود، والتلاوة والخشوع، إن كان الخطاب مع الحاضرين في عصر النبيِّ ﷺ.

وذكر الصلاة والزكاة مع دخولهما في عموم العبادة المذكور أوّلاً، من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ؛ إظهاراً لمزيته وفضله على غيره؛ لأنَّ الصلاة أفضل عبادات البدن، والزكاة أفضل عبادات المال؛ لأنّ الصلاة هي التي تصلح النفوس، وتنقّيها من أدران الرذائل، وتحلّيها بأنواع الفضائل، وروحها هو الإخلاص لله، والخشوع لعظمته وسلطانه، فإن فقدته كانت صوراً ورسوماً لا تغني فتيلاً، وهم ما تولّوا ولا أعرضوا عن تلك الصُّور والرسوم إلى عصر التنزيل ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وأعطوا الزكاة المفروضة عليكم في ملّتكم، أو ادفعوا زكاة أموالكم إلى المُسْتَحقّين؛ لما[1] في الزكاة من إصلاح شؤون المجتمع، وقد كان لهم ضروبٌ من الزكاة:

منها: مالٌ خاصٌّ يؤدَّى لآل هارون، وهو إلى الآن في اللاَّوِيِّين ـ سبطٌ من أسباطهم ـ.

ومنها: مالٌ للمساكين.

ومنها: ما يؤخذ من ثمرات الأرض.

ومنها: سَبْتُ الأرض، وهو تركها في كلِّ سبع سنين مرَّةً بلا حرث ولا زرعٍ، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقةٌ.

ولمَّا أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به، أخبر عنهم أنّهم ما وَفَوا بذلك بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قبلتم الميثاق أوّلاً ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم، ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾؛ أي: إلاّ قليلاً من أسلافكم، وهم الذين أقاموا اليهوديَّة على طريقتها قبل النسخ، أو من أخلافكم،

---

(١) المراغي.

وهم الذين آمنوا منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه، فإنّهم وفوا بالعهد فآمنوا بمحمد ﷺ، ورُوي عن أبي عمرو أنّه قرأ ﴿إلا قليلٌ﴾ بالرفع. وقرأ بذلك أيضاً قومٌ، قال ابن عطية: وهذا على إبدال قليلٌ من الضمير في تولّيتم. اهـ. من «البحر» تلخيصه: أخذنا عهدكم يا بني إسرائيل! بجميع المذكور، فقبلتم وأقبلتم عليه، ثمّ أعرضتم عن المُضِيِّ على مقتضى الميثاق ورفضتموه، إلاّ قليلاً من أسلافكم وأخلافكم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عمّا عهد إليكم، كأوائلكم، وهذا خطابٌ للفروع؛ أي: أنتم مكذّبون للحقِّ والهدى، وتاركون له حيث أتاكم به محمدٌ ﷺ، وهذه[1] الجملة مؤكدّة لعاملها؛ لأنَّ توليتم يغني عنه. وقيل المعنى: تولّيتم بأبدانكم وأنتم معرضون بقلوبكم، فعلى هذا فهي حال منتقلة.

وقيل هذه الجملة: تذييليَّةٌ[2]؛ أي: وأنتم قومٌ عادتكم الإعراض عن الطاعة، ومراعاة حقوق الميثاق، وليس الواو للحال؛ لاتحاد التولِّي والإعراض، فالجملة اعتراضٌ؛ للتأكيد في التوبيخ، وأصل الإعراض: الذهاب عن المواجهة، والإقبال إلى جانب العرض. وعبارة المراغي: وفي قوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ مبالغةٌ[3] في الترك المستفاد من التولّي؛ لأنّ الإنسان قد يتولّى عن شيء وهو عازمٌ على أن يعود إليه، ويؤدِّي ما يجب عليه، فليس كُلُّ من تولَّى عن شيء يكون معرضاً عنه، وقد كان من تولّيهم وإعراضهم، أن تخذوا الأحبار والرهبان أرباباً مشرِّعين، يُحِلُّون، ويحرّمون، ويبيحون، ويحظرون، ويزيدون، ما شاءوا من الشعائر والمناسك الدينيَّة، فكأنّهم شركاء لله، يشرِّعون لهم ما لم يأذن به الله، كما كان من تولّيهم أن بخلوا بالمال في الواجبات الدينيَّة، كالنفقة على ذوي القربى، وأداء الزكاة، وتركوا النهي عن المنكر، إلى نحو ذلك مما يدل على الاستهتار بأمور الدين.

وفائدة ذكر قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾؛ إفادة عدم بخس العاملين حقَّهم،

---

(١) عكبري.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

والإشادة بذكرهم، والإشارة إلى أنَّ وجود القليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد، وعمَّ البلاء، وقد جرت سنّة الله، بأنَّ بقاء الأمة عزيزةً مرهوبة الجانب ذات سطوة وبأسٍ، إنّما يكون بمحافظة السواد الأعظم فيها على الأخلاق الفاضلة، والدأب على العمل الذي به تستحقُّ العزَّ والشرف. بعد هذا[١]، لا عجب فيما ترى من حلول الكرب والبلاء بالمسلمين، الذين فتنوا في دينهم ودنياهم، وهم غافلون لاهون لا يعتبرون، ولا يذكرون.

فصلٌ فيما يتعلَّق بهذه الآية

واعلم: أنَّ في هذه الآية عدَّة أشياء[٢]:

منها: العبادة، فمِنْ شَرْط العُبودية: تفَرُّد العبد لعبادة المعبود، وتجرُّده عن كل مقصود، فمن لاحظ خلقاً، أو استحلى ثناءً، أو استجلب بطاعته إلى نفسه حظّاً من حظوظ الدنيا والآخرة، أو داخله بوجهٍ من الوجوه مزجٌ، أو شوبٌ، فهو ساقطٌ عن مرتبة الإخلاص برؤية نفسه.

ومنها: الإحسان إلى الوالدين، وقد عظَّم الله حقَّ الوالدين، حيث قرن حقَّه بحقّهما في آياتٍ من القرآن؛ لأنَّ النَّشْأة الأولى من عند الله سبحانه، والنشأة الثانية وهي التربية من جهة الوالدين، ويقال: ثلاث آيات أنزلت مقرونةً بثلاث آيات، ولا تقبل إحداها بغير قرينتها إحداها، قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ والثانية: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ والثالثة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والإحسان إلى الوالدين معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، والامتثال إلى أمرهما، وصلة أهل وُدِّهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما. وفي «التأويلات النجمية»: إنّ في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أعزَّ الخلق على الولد والداه، لأجل أنَّهما سُدَا وجوده في الظاهر، ولكن ينبغي أن يحسن

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

إليهما بعد خروجه من عهدة عبوديّة ربّه، إذ هو موجد وجوده، ووجود والديه في الحقيقة، ولا يختار على أداء عبوديّته إحسان والديه، فكيف الالتفات لغيرهما، وفي الحديث: «ما قعد يتيمٌ مع قوم على قصعتهم، فلا يقرب قصعتهم الشيطان»، وفي الحديث أيضاً: «مَنْ ضمَّ يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله سبحانه، غفرت له ذنوبه ألبتة، إلاّ أن يعمل عملاً لا يغفر، ومن أذهب الله كريمته، فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه» قالوا: وما كريمته؟ قال: «عيناه»، ومن كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، فأنفق عليهنّ، وأحسن إليهنّ حتى يكبرن، أو يمتن، غفرت له ذنوبه ألبتةَ، إلاّ أن يعمل ما لا يغفر، فناداه رجل من الأعراب ممَّن هاجر، فقال: يا رسول الله! أو اثنتان، فقال ﷺ: «أو اثنتان».

وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة». وأشار بالسبابة والوسطى، والسبابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام، وكانت في الجاهليّة تدعى بالسَّبَّابة؛ لأنّهم كانوا يسبُّون بها، فلمَّا جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم، فسمَّوها بالمشيرة؛ لأنّهم كانوا يشيرون بها إلى الله بالتوحيد، والمُشيرة من أصابع رسول الله ﷺ كانت أطول من الوسطى، ثم الوسطى أقصر منها، ثمّ البنصر أقصر من الوسطى، فقوله ﷺ: «أنا وهو كهاتين في الجنّة» وقوله في الحديث الآخر: «أُحْشر أنا، وأبو بكر، وعمر يوم القيامة هكذا». وأشار بأصابعه الثلاث، فإنّما أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق، فقال: نحشر هكذا، ونحن مشرفون، وكذلك كافل اليتيم يكون له منزلةٌ رفيعةٌ، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله ﷺ حمل تأويل الحديث على الانضمام، واقتراب ـ بعضهم من بعض في محل القربة، وهذا معنى بعيد؛ لأنّ منازل الأنبياء، والمرسلين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، مراتب متباينةٌ، ومنازل مختلفةٌ. كذا في «تفسير القرطبي».

ومنها: البِرُّ إلى المساكين، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وذلَّلتهم، وهذا يتضمَّن الحضَّ على الصدقة، والمواساة، وتفقد أحوال المساكين والضعفاء، وفي الحديث: «السَّاعي على الأرملة والمساكين، كالمجاهد في سبيل الله» وكان طاووسٌ يرى السعي على الأخوات، أفضل من الجهاد في سبيل الله.

ومنها: القول الحسن، ولمّا خرج العبد من عهدة حقِّ العبوديّة، وعمت رحمته وشفقته الوالدين، وغيرهما، لَزِمَ له أن يقول للناس حسناً، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الله تعالى، ويهديهم إلى طريق الحقِّ، ويخالقهم بحسن الخلق، وأن يكون قوله ليّناً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسُّنِّيِّ والمبتدع، من غير مداهنةٍ، ومن غير أن يتكلَّم معه بكلام يُظَنُّ أنَّه يرضى مذهبه؛ لأنَّ الله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فليس بأفضل من موسى وهارون عليهما السلام، والفاجر ليس بأخسَّ من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالمبتدع.

الإعراب

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الاستبعاديّ، وتدخل على ثلاثة من حروف العطف، الفاءُ كما هنا، والواو كقوله الآتي: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾، وثُمَّ كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾. واختلف في مثل هذه التراكيب بين الجمهور والزمخشري، فذهب الجمهور: إلى أنّ الهمزة مقدّمة من تأخير؛ لأنّ لها الصدر، ولا حذف في الكلام، والفاء زائدة عندهم، والتقدير: ... (أَتَطْمَعُون) و(أَلاَ يعلمون)، و(ثُمَّ إذا ما وقع). وذهب الزمخشري: إلى أنها داخلة على محذوف دلَّ عليه سياق الكلام، والتقدير هنا: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فتطمعون في إيمانهم. انتهى من «أبي السعود». ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاريِّ، المضمّن للنهي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف؛ أي: أتسمعون، وتعلمون أحوالهم فتطمعون ﴿تطمعون﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة على كونها إنشائيّة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والمعنى: لا تطمعوا في إيمان هؤلاء العتاة الجفاة القاسية قلوبهم، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب

بأن المصدريّة ﴿لَكُمْ﴾ جارّ ومجرور متعلّق بيؤمنوا على تضمينه معنى الانقياد، أو اللام زائدة، والكاف في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدريّة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جَرٍّ محذوف متعلّق بتطمعون، تقديره: أفتطمعون في إيمانهم إيّاكم؛ أي: لا تطمعوا في ذلك فإنّه بعيد عقلاً ﴿وَقَدْ﴾ الواو حالية ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿كَانَ فَرِيقٌ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿مِّنْهُمْ﴾ جارّ ومجرور صفة لفريق ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب خبر كان، وجملة كان في محل النصب حال من الواو في ﴿يُؤْمِنُواْ﴾، تقديره: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم حالة كون فريق منهم سامعين كلام الله ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة يسمعون على كونها خبر لكان، تقديره: ثمّ محرّفين إيّاه ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلّق بيحرّفون، و﴿مَا﴾ مصدريّة ﴿عَقَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، وضمير المفعول في ﴿عَقَلُوهُ﴾ عائد إلى كلام الله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدريّة. و﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد عقلهم وفهمهم إياه؛ أي: كلام الله، ويجوز أن تكون موصولاً اسمياً في محل الجرّ بإضافة الظرف إليه، وجملة ﴿عَقَلُوهُ﴾ صلة لها، والعائد ضمير ﴿عَقَلُوهُ﴾؛ أي: يحرّفون الكلام من بعد المعنى الذي عقلوه وعرفوه، وفهموه ﴿وَهُمْ﴾ الواو حالية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبر المبتدأ، ومفعول العلم محذوف، تقديره: وهم عالمون أنّهم مبطلون، والجملة الإسمية حال من الواو، في يحرّفون؛ تقديره: ثمّ يحرّفونه حالة كونهم عالمين أنّهم مبطلون معاندون.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ الواو استئنافية أو عاطفة ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلّق بالجواب الآتي ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا

محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة، أو في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ والتقدير: كيف تطمعون في إيمانهم وحالهم كيت وكيت. ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لقالوا ﴿وَإِذَا﴾ الواو عاطفة ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان متعلّق بالجواب الآتي ﴿خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جار ومجرور متعلق بخلا ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ على كونها مستأنفة، أو حالاً ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ الهمزة، للاستفهام الإنكاري، ﴿تحدّثونهم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿بِمَا﴾ (الباء) حرف جر (مَا) اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلّق بتحدثونهم ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، أو صفة للموصوفة، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: فتحه الله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بفتح ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ اللام حرف جرّ وتعليل. ﴿يحاجوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، والكاف مفعول به ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بيحاجوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيحاجوا، والجملة الفعلية صلة أنّ المصدرية، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم لمحاجتهم إيّاكم به عند ربّكم يوم القيامة، واللام متعلقة بتحدثونهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والمفعول محذوف، تقديره: أنّ ذلك يكون عليكم حجّة لهم عند ربّكم، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتغفلون عن ذلك فلا تعقلونه، والجملة المحذوفة مع المعطوفة في محل النصب مقول قالوا.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَوَلَا﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ المضمّن للتوبيخ داخلة على محذوف، والاستفهام التقريري: هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده ثبوته، مع التوبيخ والتقريع له، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره:

أيلومونهم على التحديث بما ذكر ولا يعلمون. الخ، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لا﴾ نافية ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ من الفعل والفاعل المستتر في محل الرفع خبر أنّ، تقديره: أنّ الله عالم، وجملة أنّ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي يعلمون إن كانت يقينيّة، أو مسدّ مفعول يعلمون إن كانت عرفانية، تقديره: أو لا يعرفون علم الله ما يسرّون وما يعلنون ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول يعلم، أو مصدريّة ﴿يُسِرُّونَ﴾ فعل وفاعل صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: أنّ الله يعلم الأمر الذي يسرّونه في قلوبهم، أو صلة لما المصدرية، تقديره: أنّ الله يعلم إسرارهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ معطوف على ما يسرّون، يجري فيه ما جرى فيه من أوجه الإعراب.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية منهم جار ومجرور خبر مقدّم ﴿أُمِّيُّونَ﴾ مبتدأ مؤخّر مرفوع بالواو؛ لأنّه جمع مذكر سالم، تقديره: وأمّيون كائنون منهم، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب على الحالية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وقال أبو السعود: هذه الجملة معطوفة على الجمل الثلاث الحالية؛ لمشاركتها لهنّ، فإنّ مضمونها مناف لرجاء الخير منهم، وإن لم يكن فيها ما يحسم مادة الطمع في إيمانهم، كما هو مضمون الجمل الثلاث، فإن الجهل بالكتاب في منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله تعالى، ولا بمثابة النفاق، ولا بمثابة النهي عن إظهار ما في التوراة. اهـ. ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع صفة لأمّيون، تقديره: ومنهم أمّيون عادمون علم الكتاب ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع بمعنى لكن ﴿أَمَانِيَّ﴾ منصوب على الاستثناء، ولكن بعامل محذوف، تقديره: لكن يعتقدون أمّاني، كما أشار إليه البيضاوي في «الحلّ»، ولا يصحّ نصبه بيعلمون؛ لأنّ إدراك الأماني؛ أي: الأكاذيب ليس علماً، بل هو جهل مركّب، أو اعتقاد ناشىء عن تقليد. اهـ. «جمل». ﴿وَإِنْ﴾ الواو استئنافية، أو حالية ﴿إِنْ﴾ نافية لا عمل لها عند الجمهور؛

لانتقاض نفيها بإلاّ، وعاملة عمل ليس عند سيبويه مستدلاً بقول الشاعر:

إن هـو مـسـتـوليـاً عـلـى أحـد   إلاّ عـلـى أضعـف الـمـجـانـيـن

﴿هُمْ﴾ مبتدأ عند الجمهور، واسم ﴿إِنْ﴾ نافية عند سيبويه، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿يَظُنُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ عند الجمهور، أو في محل النصب خبر ﴿إِنْ﴾ النافية، وحذف مفعولي ظنّ؛ للعلم بهما، أو اقتصاراً، والتقدير: وما هم إلاّ ظانون أكاذيب باطلة لا أصل لها، أو ما هم إلاّ ظانّين أكاذيب باطلة، والجملة الإسمية مستأنفة، أو حال من الواو في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تقديره: ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب حالة كونهم ظانّين ومعتقدين أكاذيب باطلة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفت هؤلاء اليهود يسمعون كلام الله، ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه، وأردت بيان عاقبة من فعل ذلك، فأقول لك: ويل للذين يكتبون الكتاب ﴿ويل﴾ مبتدأ مرفوع، وسوّغ الابتداء بالنكرة ما فيه من معنى الدعاء ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيكتبون ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَكْتبونَ﴾ على كونه صلة الموصول ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلقّ بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ليقولون ﴿لِيَشْتَرُوا۟﴾ اللام حرف جرّ وتعليل ﴿يشتروا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي ﴿به﴾ جار ومجرور متعلق بيشتروا ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لثمنا، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاشترائهم به ثمناً قليلاً، الجار والمجرور

متعلق بيكتبون ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء عاطفة كرّرها للتأكيد ﴿ويل﴾ مبتدأ ﴿لَّهُم﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ ﴿مِّمَّا﴾ جارّ ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما كتبته أيديهم ﴿وَوَيْلٌ﴾ الواو عاطفة ﴿ويل﴾ مبتدأ ﴿لَّهُم﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿يَكْسِبُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ممّا يكسبونه، ويصحّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّة في الموضعين، وإنّما كرّر الويل؛ ليفيد أنّ الهلاك مرتّب على كل واحد من الفعلين على حدته لا على مجموع الأمرين، وأخّر ﴿يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنّ الكتابة مقدّمة، ونتيجتها كسب المال، فالكَتْب سبب، والكسب مسبب عنه، فجاء النظم على هذا الترتيب اهـ. «كرخي». وقال أبو السعود: قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ومع ذلك فيه نوع مغايرة؛ لأنّ قوله: ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وقع تعليلاً، فهو مقصود، وقوله فيما سلف: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقع صلة، فهو غير مقصود، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ الكلام فيه كالذي فيما قبله من جهة أنّ التكرير للتأكيد. انتهى.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو استئنافية ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب ﴿تَمَسَّنَا﴾ فعل مضارع ومفعول به منصوب بلن ﴿ٱلنَّارُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿أَيَّامًا﴾ منصوب على الظرفية الزمانيّة بالفعل المذكور قبله متعلق به، والتقدير: لن تمسّنا النار أبداً إلاّ في أيام قلائل يحصرها العدّ؛ لأنّ العدّ يحصر القليل ﴿مَّعْدُودَةً﴾ صفة ﴿أَيَّامًا﴾ ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ،

والجملة الفعلية مستأنفة ﴿أَتَّخَذتُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقل، وإن شئت قلت: ﴿أَتَّخَذتُمْ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري مبنية على الفتح، وحذفت همزة الوصل المتصلة بالماضي الخماسي؛ لاستثقال اجتماع همزتين ﴿أَتَّخَذتُمْ﴾ فعل وفاعل بمعنى جعلتم المتعدّية إلى مفعول واحد، كما في العكبري، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق باتخذ ﴿عَهْدًا﴾ مفعول به ﴿فَلَن﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر وجوباً لكونه مقروناً بلن، تقديره: إن جعلتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب واستقبال ﴿يُخْلِفَ﴾ فعل مضارع منصوب بلن ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿عَهْدَهُۥٓ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة من الفعل والفاعل في محل الجزم جواب للشرط المقدّر، وجملة الشرط المقدّر مع جوابه في محل النصب مقول لقل ﴿أَمْ﴾ حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام فهي متّصلة، أو منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي ﴿تَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بالنون، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَتَّخَذتُمْ﴾ على كونها مقولاً لقل، أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تَقُولُونَ﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول، والعائد محذوف، تقديره: ما لا تعلمونه، وعلم هنا بمعنى عرف يتعدّى لمفعول واحد ﴿لا﴾ نافية ﴿تعلمون﴾ فعل مضارع والواو فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب صلة الموصول.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿بلىٰ﴾ حرف جواب يجاب بها النفي، فيصير إثباتاً بخلاف نعم، وجير، وأجل، وإيْ، فإنها لتقرير ما قبلها إثباتاً أو نفياً ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أوّل، ويصحّ كونها شرطيّة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿كَسَبَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر صلة لمن الموصولة، أو في محل الجزم بمن الشرطيّة على كونها فعل شرط لها ﴿سَيِّئَةً﴾ مفعول به ﴿وَأَحَٰطَتْ﴾ الواو عاطفة ﴿أحاط﴾ فعل ماض،

والتاء علامة تأنيث الفاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بأحاطت، ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ فاعلٌ ومضافٌ إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَسَبَ﴾ على كونها صلةً لمن الموصولة، أو فعل شرطٍ لِمَنِ الشرطية ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً لما في المبتدأ من العموم، لشبه الموصول بأسماء الشرط في الإبهام على كون ﴿مَن﴾ موصولة، أو رابطة الجواب بالشرط وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية على كون ﴿مَن﴾ شرطيّة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أولاء اسم إشارة يشار به للجمع المطلق في محل الرفع مبتدأ ثان، على كون ﴿مَن﴾ موصولة أو في محل الرفع مبتدأ، والكاف حرف دال على الخطاب ﴿أَصْحَـٰبُ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، أو خبر المبتدأ ﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول وخبره جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، على كون ﴿مَن﴾ موصولة، أو جملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في محل الجزم بمن الشرطيّة على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطيّة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿هُمْ﴾ ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل الرفع مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بخالدون و﴿خَـٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب حال من أصحاب النار، تقديره: حالة كونهم خالدين فيها ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، الذين مبتدأ أوّل ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَصْحَـٰبُ﴾ خبر له ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ مضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول وخبره معطوفة على جملة قوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ على كونها جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، أو مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ تقدم إعرابها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لما مضى من الزمان في محل النصب معطوفة على ﴿نِعْمَتِىَ﴾ كالظروف السابقة ﴿أَخَذْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل

الجرّ مضاف إليه لإذ، والتقدير: واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ حين أخذنا ميثاق أسلافكم. ﴿مِيثَٰقَ﴾ مفعول به ﴿بَنِيٓ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء، وهو مضاف ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة جملة مفسّرة للميثاق لا محل لها من الإعراب ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلاَّ أداة استثناء ولفظ الجلالة مفعول به ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ الواو عاطفة ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ متعلق بمحذوف معطوف على جملة ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ على كونها جملة مفسّرة، تقديره: وأحسنوا بالوالدين ﴿إِحْسَانًا﴾ منصوبٌ على المفعولية المطلقة ﴿وَذِى﴾ الواو عاطفة ذي معطوف على الوالدين مجرور بالياء؛ لأنّه من الأسماء الستّة ذي مضاف ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مضاف إليه ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ معطوف على الوالدين، وكذلك ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ معطوف على الوالدين ﴿وَقُولُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿قولوا﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ على كونها مفسّرة للميثاق ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بقولوا ﴿حُسْنًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف، تقديره: قولاً حسناً ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجرّ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ ﴿إذ﴾، أو معطوفة على محذوف، تقديره: فقبلتم الميثاق، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء ﴿مِّنكُمْ﴾ صفة لقليلاً، تقديره: قليلاً كائناً منكم ﴿وَأَنتُم﴾ الواو حالية ﴿أنتم معرضون﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الطمع: تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قويّاً، وهو أشدّ من الرجاء؛ لأنّه لا يحدث إلاّ عن قوّة رغبة، وشدّة إرادة، وإذا اشتدّ صار طمعاً، وإذا ضعف كان رغبة ورجاء، يقال: طمع يطمع طمعاً وطماعة وطماعية مخفّفاً، كطواعية، كقول الشاعر:

طَمَاعِيَةَ أَنْ يَغْفِرَ الْذَنْبَ غَافِرُهُ

واسم الفاعل طَمِعٌ وطامعٌ، ويعدَّى بالهمزة، ويقال: طامعه مطامعةً، ويقال: طمُع بضم الميم كثر طمعه، وضِدُّ الطمع اليأس، قال كُثيِّرٌ:

لاَ خَيْرَ في الحُبِّ وَقْفاً لا يُحرِّكُهُ   عَوَارِضُ اليَأْسِ أَوْ يَرْتَاجُهُ الطَّمَعُ

ويقال: امرأةٌ مِطماعٌ؛ أي: تَطْمَعُ ولا تُمكِّنُ، وقد توسّع في الطمع، فسمِّي به رزقُ الجند، يقال: أمر لهم الأمير بأطماعهم؛ أي: أرزاقهم وهو من وضع المصدر موضع المفعول. اهـ. «بحر».

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط، وقوم. اهـ. «سمين».

﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والكلام: هو القول الدالُّ على نسبةٍ إسناديَّةٍ مقصودةٍ لذاتها، ويطلق أيضاً على الكلمة، ويُعبَّر به أيضاً عن الخَطِّ والإشارة، وما يفهم من حال الشيء، وهل يطلق على المعاني القائمة بالذهن التي يعبّر عنها بالكلام في ذلك خلاف، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ والتحريف: إمالة الشيء من حال إلى حال، والحرف الحدُّ المائل. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ والتحديث: الإخبار عن حادث، ويقال منه: يُحدِّث، وأصله: من الحدوث، وأصل فعله أن يتعدَّى إلى واحد بنفسه، وإلى آخر بعن، وإلى ثالثٍ بالباء، فقال: حدثت زيداً عن بكر بكذا، ثم إنه قد يضمَّن معنى أعلم المنقولة من علم المتعدّية إلى اثنين، فيتعدَّى إلى ثلاثة، ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ والفتح: القضاء بلغة اليمن، ومنه الفتَّاح العليم والإِذْكَار، ومنه فتَحَ على الإمام والظفَرُ، فمنه ﴿فقد جاءكم الفتح﴾. قال الكلبي: وبمعنى القصص. قال الكسائي: وبمعنى التبيين. قال الأخفش: وبمعنى المنِّ، وأصل الفتح: خرق الشيء، والسدُّ ضدُّه.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أصلُ لقوا: لقيوا بوزن فعلوا، استثقلت الحركة على الياء فحذفت للتخفيف، فسكنت الياء لمَّا حذفت حركتها، فالتقت ساكنةً مع واو الجماعة فحذفت، ثُمَّ ضُمّت القاف؛ لمناسبة الواو، فصار وزنها فَعُوا بعد أن كان فعلوا، كما مرّ ﴿خَلَا﴾ أصله: خلَوَ من الخلوة فعلٌ ناقصٌ، واويُّ اللام، قُلبت الواو ألفاً؛ لتحرّكها بعد فتح، ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ أصله يحاجِّجونكم حذفت نون الرفع لمَّا دخلت لام التعليل على الفعل، ونصب بأن

مضمرة بعدها، ثُمَّ أدغمت الجيم الأولى في الثانية، والمُحاجَّة من الاحتجاج وهو القصد للغلبة، يقال: حاجَّهُ قَصَد أن يغلب، والحُجَّة الكلام المستقيم، مأخوذٌ من محجَّة الطريق ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ أصله: يُسْرِرون بوزن يفعلون، نقلت حركة الراء الأُولى إلى السين، فلما سُكِّنت أدغمت في الثانية، يقال: أسرَّ الشيء إذا أَخْفاه، وأعلنه إذا أظهره.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ جمع أُمِّي، والأمّيُّ: هو الذي لا يقرأ في كتاب ولا يكتب، نسب إلى الأمّ؛ لأنّه ليس من شغل النساء أن يكتبن، أو يقرأن في كتاب، أو لأنّه بحال ولدَتْه أُمُّه لم ينتقل عنها، أو نسب إلى الأمّة وهي القامة والخلقة، كأنَّ الذي لا يكتب ولا يقرأ قائمٌ على الفطرة والجِبلَّة، أو إلى الأُمَّة، إذ هي سَاذجَةٌ قبل أن تَعِرف المعارف ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ الأماني: جمع أُمنيَّة بضم الهمزة، وكسر النون، وتشديد الياء، وأصلها: أُمْنُوية بوزن أُفعولة، اجتمعت الواو والياء، وسُبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وكسرت النون؛ لمناسبة الياء، فجمعت على أفاعيل، وما روي من تخفيفها فجَمْعُه على أفاعِل، كما يقال: في جمع مفتاح مفاتحِ، وكأنَّ من قرأ بالتخفيف لم يعتد بحرف المدّ الذي في المفرد، كما مرّ مِن مَنَىٰ إذا قدَّر؛ لأنّ المُتَمنّي يقدِّر في نفسه، ويَحْزَرُ ما يتمنَّاه، أو من تمنَّى إذا كذب، قال أعرابي لابن دأبٍ في شيء حدَّث به: أهذا شيء رويته أم تمنيته؟ أي: اختلقته، وقال عثمان رضي الله عنه: ما تمنيت ولا تغنيت منذ أسلمت، أو من تمنَّى إذا تلا، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾؛ أي: إذا تلا وقرأ، وقال الشاعر:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أوَّل لَيْلِهِ وآخِرَه لاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

والتلاوة والكذب راجعان لمعنى التقدير، فالتقدير أصله، قال الشاعر:

وَلاَ تَقُولَنَّ لشيءٍ سَوْف أَفْعَلُه حتَّى تَبَيَّنَ ما يُمْنِى لَكَ المَانِي

أي: يقدِّر وجمعها بتشديد الياء؛ لأنّه أفاعيل، وإذا جمع على أفاعل خففت الياء، والأصل التشديد؛ لأنّ الياء الأولى في الجمع هي: الواو التي كانت في المفرد التي انقلبت فيه ياءً، ألا ترى أنَّ جمع أُمْلُوْدْ أماليد. اهـ. من «البحر».

والمراد أنّهم لا يعلمون الكتاب إلاّ كما حَدَسوه، أو تخيَّلُوه في هواجسهم من أنهم شعب الله المختار، وأنَّ الله يعفو عنهم، وأنَّ آباءَهم الأنبياء يشفعون لهم، وما ذلك كلُّه إلاّ أكاذيب مُنَمَّقة لفّقها لهم أحبارهم، فتناقلوها من غير تمحيصٍ، أو رويَّةٍ ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أصله: يَظْنُنُون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فسكنت فأدغمت في النون الثانية ﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل: مصدر لا فعل له من لفظه، وما ذكر من قولهم، وَألَ مصنوعٌ، ولم يجيء من هذه المادة التي فاؤها واوٌ وعينها ياء إلاَّ وَيْل، وويح، وويس، وويب، ولا يثنى ولا يجمع، ويقال: ويله، ويجمع على ويلاتٍ. قال امرؤ القيس:

ويَـوْمَ دَخَـلْـتُ الـخِـدْرَ خِـدْرَ عُـنَـيـزةٍ   فـقـالَـتْ لـك الـوَيْـلاَتُ إنّـك مُـرْجِـلي

وإذا أضيف ويْلٌ فالأحسن فيه النصب على المفعولية المطلقة، لأنَّه مصدرٌ لفعل أماته العرب، قال تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وزعم بعضٌ أنَّه إذا أضيف لا يجوز فيه إلاّ النصب، وإذا أفردته اختير الرفع على الابتداء قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ﴾ ويجوز النصب أيضاً. قال الشاعر:

فَويْلاً لِتَيْمٍ مِنْ سَرابِيْلِها الخُضْرِ

والوَيْلُ معناه: الفضيحة والحسرة، وقال الخليل: الوَيْلُ: شِدَّةُ الشرِّ، وقال غيره: الويل: الهلكة، وكُلُّ مَنْ وقع في هلكةٍ دعا بالوَيْلِ، وقال الأصمعيُّ: هي كلمة تفجُّعٍ، وقد يكون ترحُّماً، ومنه قوله:

وَيْلَ أُمِّه مِسْعَرُ حَرْبِ

﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ والأيدي جمع يدٍ، ويدٌ مما حذف منه اللام، كدم، ووزنه فعلٌ، وقد صرح بالأصل، فقالوا يَدْيٌ، وقد أبدلوا من الياء الأولى همزة، قالوا: قطع الله أَدْيَهُ، وأبدلوا منها أيضاً جيماً، قالوا: لا أفعل ذلك جَدَ الدهر، يريدون يد الدهر، وهي حقيقةٌ في الجارحة مجازٌ في غيرها، وأمَّا الأيادي فجمع الجمع، وأكثر استعمال الأيادي في النعم، وأَصْلُ الأيْدي أيْدُي، استثقلت الضمّةُ على الياء، فحذفت، فسكنت الياء، وقبلها ضمّةٌ، فانقلبت واواً، فصار الأَيْدُوُ، كما قيل: في مِيقنٍ موقِنٌ، ثمّ إنّه لم يوجد في لسانهم واوٌ ساكنةٌ قبلها ضمَّةٌ في اسم، وإذا أدَّى القياسُ إلى ذلك قُلِبَت تلك الواو ياءً، وتلك الضمَّةُ قبلها

كسرةً، فصار: الأيدي ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ أصله: يقْوُلون بوزن يفعُلون، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمّة، فصارت حرف مدّ ﴿لِيَشْتَرُواْ﴾ أصله: يشتريون بوزن يفتعلون، حذفت منه نون الرفع لمَّا نصب الفعل بأن المضمرة بعد لام التعليل، ثُمّ استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فسكِّنت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وضُمَّت الراء؛ لمناسبة واو الجماعة. ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ والكسب أصله: اجتلاب النفع، وقد جاء في اجتلاب الضرِّ، ومنه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ والفعل منه يجيء متعدّياً إلى واحد، تقول: كسبت مالاً، وإلى اثنين تقول: كسبت زيداً مالاً، وقال ابن الأعرابي: يقال: كسب هو نفسه، وأكسب غيره. وأنشد:

فأكْسَبَني مَالاً وأكْسبته حمداً

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ المَسُّ: الإصابة، المسُّ: الجمع بين الشيئين على نهاية القرب، واللَّمْسُ مثله لكن مع الإحساس، وقد يجيءُ المسُّ مع الإحساس، وحقيقة المسِّ واللَّمس باليد، ونقل من الإحساس إلى المعاني، مثل: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ كـ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ ومنه سمّي الجنون مسّاً. وقيل: المسُّ واللَّمْسُ والجسُّ متقاربٌ، إلاّ أنّ الجسَّ عامٌ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدقُّ، كنَبْضِ العروق، والمسُّ واللَّمْسُ بظاهر البشرة، والمَسُّ كنايةٌ عن النكاح وعن الجنُون، وقد تقدّم أنَّ ﴿ٱلنَّارُ﴾ ألفها منقلبةٌ عن واو؛ بدليل تصغيرها على نويرة، وأصل أيَّام: أيوامٌ بوزن أفعال، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء فصار أيَّاماً. المعدود: اسم مفعول من عدَّ بمعنى حَسَب، والعدد هو الحساب.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ ﴿قُلْ﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: قُوْلْ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ حذفت منه همزة الوصل؛ للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام؛ لأنّها إنّما جيء بها للتوصُّل إلى النُّطق بالساكن، وهمزة الاستفهام حصل بها ذلك، وتقدَّم الكلام على مادَّة الاتخاذ عند الآية: (٥١)، والإخلاف عدم الإيفاء بالشيء الموعود.

فائدة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ بلى حرف جواب، مثل: نعم، وجير، وأجل، وإي، والفرق بينها وبين بلى: أنَّ بلى جواب لنفي متقدّمٍ، أي: إبطالٍ،

ونقْض، وإيجاب له، سواءٌ دخله استفهامٌ أم لا، فتكون إيجاباً له، نحو: قول القائل: ما قام زيد؟ فتقول: بلى؛ أي: قد قام، وقوله: أليس زيد قائماً؟ فتقول: بلى؛ أي: هو قائم، قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ويُروىٰ عن ابن عباس: (أنّهم لو قالوا: نعم لكفروا). اهـ. «سمين». ومما وقعت فيه جواباً للاستفهام، قول الجَحَّاف بن حكيم:

بَلَى سَوْفَ نُبْكِيْهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ وَنُبْكِي نُمَيْراً بالرِّمَاحِ الخَواطِرِ

وقعت جواباً للذي، قال له الأخطل:

ألا فَاسْأَل الجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ بِقَتْلَى أُصِيْبَتْ مِنْ نُميْر بن عَامِرِ

وبلى عندنا ثلاثيُّ الوضع وليس أصله بل، فزيدت عليها الألف خلافاً للكوفيين. اهـ. من «البحر» ﴿سَيِّئَةً﴾ أصله: سَيْوَأَةٌ بوزن فيعلةٍ، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت فيها الياء، كما في سيّد وميّت؛ لأنَّ المادّة واويُّ العين، يقال: ساءه يسوءهُ سوءاً ومساءةً إذا أحزنه الأمر، وساء زيدٌ إذا حزن، والسيئة تسوء صاحبها عاجلاً وآجلاً، وهي تأنيث السيء ﴿مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَاءِيلَ﴾ تقدَّم أنَّ أصله موثاقٌ، قلبت الواو ياء؛ لسكونها إثر كسرة ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ أمرٌ من قال يقول، وأصل يقول: يَقْوُل بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمَّةٍ، فصارت حرف مدّ، فلمَّا بُنِيَ الأمر منه، حُذفت حرف المضارعة ونون الرفع، فقيل: قولوا. ﴿حُسْنًا﴾ في «القاموس»: الحسن بضمّ الحاء، وسكون السين الجمال، والجمع محاسن على غير قياس، وقياسه أن يكون جمعاً لمحسن، كمسجد ومساجد، وحسن ككرم ونصر، فهو حاسِنٌ وحَسَنٌ، بفتحتين وحَسِينٌ كأمير، وحُسَانٌ كغُراب، وحسَّان كرُمَّان. اهـ.

وأمَّا حَسَنٌ بفتحتين على قراءة حمزة والكسائي، فهو صفة مشبَّهة لا مصدرٌ، كما فهم من عبارة «القاموس»، فسقط ما للكرخي هنا.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أصله: أَقْوِمُوا بوزن أَفْعِلُوا، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ آتوا أصله: أَأْتِيوا، أمرٌ من آتى الرباعيّ، حذفت منه نون الرفع لبناء الأمر، ثُمَّ أبدلت الهمزة الثانية الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى، ثُمَّ استثقلت الضمة على الياء،

فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، ثُمَّ ضمَّت التاء؛ لمناسبة الواو، ﴿الزكاة﴾ تقدَّم أنَّ ألفه منقلبةٌ عن واو؛ لأنّه من: زكا يَزْكُو، كنما ينمو.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ استبعاداً لعدم قبولهم الإيمان مع مشاهدة الآيات الباهرة، وتسليةً للنبي ﷺ، وللمؤمنين؛ لأنّهم كانوا شديدي الحرص على إيمانهم.

ومنها: الإتيان بالجملة الحالية في قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إفادةً لكمال قُبْحِ صنيعهم، وأنَّ تحريفهم للتوراة كان عن قصدٍ وتصميمٍ، لا عن جهل ونسيانٍ، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحقُّ الذمَّ والتوبيخ، أكثر ممن ارتكبها وهو جاهل.

ومنها: الاستفهام بمعنى النهي في قوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾؛ لأنَّ المعنى: لا تحدِّثوهم يعنون المؤمنين.

ومنها: التعبير بالفتح في قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ للإيذان بأنّه سِرٌّ مكنون، وبابٌ مغلقٌ لا يقف عليه أحدٌ.

ومنها: التوبيخ والعتاب في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يسرون ويعلنون﴾ حيث قابل بين لفظتي يسرّون ويعلنون، وهو نوع طباق الإيجاب.

ومنها: ذكر الأيدي في قوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ مع أنَّ الكتابة لا تكون إلاّ بالأيدي؛ لدفع توهمُّ المجاز بأنَّ المراد أَمْلَوْهُ لغيرهم، وللتأكيد بأنَّ الكتابة باشروها بأنفسهم، كما يقول القائل: كتبته بيميني وسمعته بأذني، وفيه الإطناب أيضاً لتصوير حالة الكتابة في النفس، كما وقعت، وتجسيدها أمام السامع حتى يكاد يكون مشاهداً لها، ولتسجيل الأمر عليهم، كما تقول لمن ينكر معرفته: ما كتب ووقع أنت كتبته بيمينك.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ﴾؛ لأنّ الاشتراء مستعارٌ عن الاستبدال.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ للتوبيخ، والتقريع، ولبيان أنَّ جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى.

ومنها: التهكُّم في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾؛ لأنّ الكسب حقيقةٌ في استجلاب النفع، فاستعماله في استجلاب الضُرّ، كالسيئة على سبيل التهكّم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ حيث شبَّه الخطايا بعدوٍ نزل بقوم، وأحاطوا بهم من كل الجوانب إحاطة السِوَار بالمعصم، واستعار لفظة الإحاطة؛ لغلبة السيّئات على الحسنات، فكأنّها أحاطت بها من جميع الجهات.

ومنها: الإشارة بعنوان الجمع في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ مراعاةً لجانب المعنى في كلمة (مَنْ) بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة قبله.

ومنها: المقابلة بين فريقي الأشقياء والسعداء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾.

ومنها: الإتيان بالفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ إشارة إلى أنَّ خلود النار تسبَّب عن الكفر، بخلاف خلود الجنّة، فلا يتسبَّب عن الإيمان، بل بمحض فضل الله تعالى كذا قاله بعض الأشياخ. اهـ. «صاوي».

ومنها: الإتيان بالجملة الخَبَريَّه في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مراداً بها النهي؛ لأنّها أبلغ من صريح النهي؛ لما فيه من الاعتناء بشأن المنهي عنه، وتأكُّد طلب امتثاله حتى كأنّه امتثل وأخبر عنه.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على قراءة التاء؛ لأن ذكر بني إسرائيل إنّما وقع بطريق الغيبة، ومن فوائد الالتفات: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والإملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حبّ التنقُّلات، والسآمة

من الاستمرار على مِنْوال واحدٍ، كما هو مقرَّرٌ في محلّه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جَلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر بني[1] إسرائيل في الآية السابقة بأهمّ ما أُمروا به، من إفراده تعالى بالعبادة، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى، ثُمَّ بيَّن أنّهم لم يأتمروا بذلك. ذكّرهم في هذه الآيات بأهم المنهيات التي أخذ عليهم العهد باجتنابها، ثم نقضوا الميثاق

---

(١) المراغي.

ولم ينتهوا. والخطاب هناك للذين كانوا في عصر موسى عليه السلام، وهو هنا للحاضرين في عصر التنزيل؛ إرشاداً إلى أنَّ الأمَّة كالفرد يصيب خلفها أثر ما كان عليه سلفها إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، ما داموا على سنتهم يحتذون بحذوهم، ويجرون على نهجهم، كما أنَّ ما يفعله الشخص حين الصغر يؤثِّر في قواه العقليَّة، وأخلاقه النفسية حين الكبر، والمشاهدة أكبر برهان على ذلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «الدلائل» بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: (كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلّما التقوا هزموا يهود، فعاذت يهود بهذا الدعاء: اللهمّ! إنّا نسألك بحقّ محمدٍ النبيّ الأمّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلاّ نصرتنا عليهم، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا فيهزمون غطفان، فلمَّا بعث النبيُّ ﷺ كفروا به، فأنزل الله سبحانه ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيدٍ، أو عكرمة عن ابن عباس: (أنَّ يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلمَّا بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يا معشر اليهود! اتَّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمدٍ ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنَّه مبعوثٌ، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني نضير: ما جاءنا بشيءٍ نعرفه، وما هو بالذي كنَّا نذكر لكم) فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وهذا شروع في بيان ما فعلوا بالعهد المتعلِّق بحقوق

---

(١) لباب النقول.

العباد، بعد بيان ما فعلوا بالعهد المتعلّق بحقوق الله، فخانوا كُلّاً من العهدين، وهي متضمنةٌ لأربعة عهود[١]:

الأوّل: لا يسفك بعضهم دماء بعضٍ.

الثاني: لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

الثالث: لا يتظاهر بعضهم على بعض بالإثم والعدوان.

الرابع: إن وجد بعضهم بعضاً أسيراً فداه ولو بجميع ما يملك. والخطاب[٢] هنا لليهود المعاصرين له ﷺ، والمراد أسلافهم المعاصرون لموسى عليه السلام، على سنن التذكيرات السابقة.

أي: واذكروا أيّها اليهود المعاصرون لمحمد ﷺ وقت أن أخذنا الميثاق، وجعلنا العهد على آبائكم في التوراة، وقلنا لهم: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ ولا تريقون ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا يُرِقْ بعضكم دم بعض، ولا يقتله ظلماً وعدواناً، فهو إخبارٌ بمعنى النهي، كأنَّه سورع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه، وإنّما جعل[٣] قتل الرجل غيره قتل نفسه؛ لاتصاله به نسباً أو ديناً؛ أو لأنَّ من أراق دم غيره فكأنَّما أراق دم نفسه؛ لأنّه يوجب قصاصاً.

وقرأ الجمهور[٤]: ﴿تَسْفِكُونَ﴾ بفتح التاء، وسكون السين، وكسر الفاء، وقرأ طلحة، وشعيب بن أبي حمزة كذلك، إلاّ أنهما ضَمَّا الفاء، وقرأ أبو نهيك، وأبو مجلز بضمّ التاء، وفتح السين، وكسر الفاء المشدّدة، وقرأ ابن أبي إسحاق كذلك، إلاّ أنّه سكَّن السين وخفف الفاء. قال أبو حيان: وظاهر قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تفعلون ذلك بأنفسكم لشدَّةِ تُصِيبكُم، وحَنَق يَلْحَقُكم،

---

(١) الصاوي.

(٢) الفتوحات.

(٣) الخازن.

(٤) البحر المحيط.

وقد جاء في الحديث: أَمْرُ الذي وضع نصل سيفه في الأَرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، وإخبارُ رسول الله ﷺ: «إنّه من أهل النار»، وصحَّ: «من قتل نفسه بحديدةٍ فحديدته في يده يتوجَّأ بها في بطنه في نار جهنّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً»، وتظافرت على تحريم قتل النفس المِلَلُ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾.

وقيل معناه: لا تسفكوا دماءَ الناس، فإنَّ من سَفك دماءهم سُفك دمه، قال الشاعر:

سَقَيْناهُمُ كَأْساً سَقُونَا بِمِثْلِهَا ‌ ‌ ‌ وَلَكِنَّهم كانوا على الموت أصبرا

وقيل معناه: لا تقتلوا أنفسكم بارتكابكم ما يوجب ذلك، كالإرتداد والزنا بعد الإحصان، والمحاربة وقتل النفس بغير حق، ونحو ذلك مما يُزيل عصمةَ الدماء. وقيل معناه: لا يسفكْ بعضكم دماء بعض، وإليه أشار بقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»، وكُلُّ أهل دين كنفس واحدة. قاله قتادة، واختاره الزمخشريُّ. اهـ. «ابن عطيّة».

قال ابن عطيّة: إنّ الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفيه، ولا يسترقّه، ولا يدعه يُسترق، إلى غير ذلك من الطاعات. اهـ. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ وأوطانكم، والديار: جمع دار، وهو المنزلة الذي فيه أبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال؛ أي: لا يخرج[1] بعضكم بعضاً من منزله ووطنه، أو لا تسيئوا جوار من جاوركم، فتلجئوهم إلى الخروج من دياركم، أو لا تفعلوا ما تخرجون به أنفسكم من الجنّة التي هي داركم، أو لا تخرجون أنفسكم؛ أي: إخوانكم؛ لأنّكم كنفسٍ واحدةٍ، أو لا تفسدوا فيكون سبباً لإخراجكم من دياركم، كأنَّه يشير إلى تغريب الجاني، أو لا تفسدوا وتشاقوا الأنبياء والمؤمنين، فيكتب عليكم الجلاء، أقوالٌ ستّةٌ.

وفي اقتران الإخراج من الديار بالقتل[2]، إيذان بأنّه بمنزلة القَتْلِ.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] واذكروا إذ أخذنا عليكم العهد، لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم، وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل، كأنّه نفسه، ودمه كأنَّه دمه، إذا اتصل به دِيناً، أو نسباً، إشارةً إلى وحدة الأُمّة وتضامنها، وأنَّ ما يصيب واحداً منها فكأنَّما يصيب الأمّة جَمْعَاءَ، فيجب أن يشعر كُلُّ فرد منها بأنَّ نفسه نفس الآخرين، ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به، والدم الذي يَنْبِضُ في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحَّدت بينهما في المصالح العامة، وهذا ما يؤمىء إليه الحديثُ: «إنّما المؤمنون في تراحمهم، وتعاطفهم، بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهر»، وقد يجوز أن يكون المعنى لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصاً، أو بالإخراج من الديار، فتكونون كأنّكم قد قتلتم أنفسكم؛ لأنّكم فعلتم ما تستحقُّون به القتل، كما يقول الرجل لآخر، قد فعل ما يستحقُّ به العقوبة: أنت الذي جنى على نفسه.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ ذلك الميثاق، وقبلتموه، واعترفتم بلزومه، وبوجوب المحافظة عليه، يعني: قَبِلَ ذلك الميثاق، وأقرّ به أسلافكم ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيّها المعاصرون لمحمدٍ ﷺ ﴿تَشْهَدُونَ﴾ على أسلافكم قَبُولَهم ذلك الميثاقَ والعهدَ، وتعلمون ذلك، أو المعنى؛ أي: ثمّ أقررتم بهذا الميثاق أيها الحاضرون المخاطبون، واعترفتم به، ولم تنكروه بألسنتكم، بل شهدتم به وأعلنتموه، فالحجة قائمةٌ عليكم، وقد يراد وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله، وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه السلام، إمَّا بالنقل المتواتر، وإمّا بما تتلونه في التوراة، وإن كان معنى الشهادة الحضور، فيتعيَّن أن يكون الخطاب لأسلافهم. وقال بعض المفسرين: ثمّ أقررتم عائدٌ إلى الخلق، وأنتم تشهدون عائد إلى السَّلفِ؛ لأنّهم عاينوا سَفْكَ دماءِ بعضهم بعضاً، وقال: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ لأنَّ الأوائل والأصاغر صاروا كالشيء الواحد، فلذلك أطلق عليهم خطاب الحضرة. وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تأكيدٌ للإقرار،

---

(١) المراغي.

كقولك: فلان مقرٌّ على نفسه بكذا شاهدٌ عليها.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ خبرٌ، أي: ثم بعد ذلك الإقرار والشهادة، أنتم أيها المعاصرون لمحمد ﷺ! هؤلاء المشاهدون، الحاضرون، الناقضون، الذين يخالفون ما أخذه الله تعالى عليهم في التوراة، فتقتلون أنفسكم وأهل دينكم مع المشركين إلى آخر الآية؛ يعني: أنكم - أيُّها المعاصرون لمحمد ﷺ - قومٌ آخرون غير أولئك المقرّين الذين هم أسلافكم، وكأنّهم قالوا: كيف نحن، فقيل لهم: إنّكم ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: أهل دينكم مع حلفائكم من المشركين؛ أي: تقتلون الفريق الجارين مجرى أنفسكم باتحادكم في الدين، وهذا وما بعده من الإخراج، والمظاهرة، والمفاداة بيانٌ لقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لأنّ معنى قوله: ﴿أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أنّكم على حالة أسلافكم من نقض الميثاق، وقال الزجاج: هؤلاء بمعنى الذين؛ أي: ثمّ أنتم الذين تقتلون أنفسكم... إلخ.

وقيل: ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منادى، حذف منه حرف النداء، وجملة ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وما بعده خبرٌ له، والمعنى عليه، ثُمَّ بعد إقرار أسلافكم الميثاق، وشهادتكم على أسلافكم بقبول الميثاق، أنتم - يا هؤلاء المعاصرون لمحمد ﷺ - تقتلون أنفسكم؛ أي: أهل دينكم مع المشركين، أي: ثُمَّ أنتم بعذ ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد، فتقتلون أنفسكم؛ أي: يقتل بعضكم بعضاً، كما كان يفعل مَن قبلكم، مع أنّكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم، ومن أمثلة ذلك: أنَّ بني قينقاع من اليهود كانوا حلفاء الأوس، وأعداءً لإخوانهم في الدين بني قريظة، كما كان بنو النضير حلفاء الخزرج، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء يقتتلون، ومع كلٍّ حلفاؤه، وهذا ما نعاه الله على اليهود بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ كما سيأتي بسط هذه القصة عن السدّي.

وقرأ الجمهور ﴿تَقْتُلُونَ﴾ مخففاً من قَتَلَ الثلاثي. وقرأ الحسن ﴿تُقَتِّلونَ﴾ مشدَّداً من قَتَّل الرباعيِّ، هكذا في بعضِ التفاسير، وفي تفسير المهدويِّ: إنّها قراءة أبي نَهِيْك، قال: والزهريِّ والحسنِ ﴿تقتِّلُوْنَ أَنبِيَاءَ ٱللهِ﴾ من قتَّلَ؛ يعني: مشدّداً. والله أعلم بصواب ذلك.

﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ أنتم ـ أيها المعاصرون لمحمد ﷺ ـ ﴿فَرِيقًا﴾ وطائفةً ﴿مِّنكُم﴾ أي: من أهل دينكم مساعدين للمشركين ﴿مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: من ديار أولئك الفريق وأوطانهم، غير مراعين لميثاق الله سبحانه عليكم في التوراة، وقوله: ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾ وتتعاونون بحلفائكم من المشركين، ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على إخراج أولئك الفريق من ديارهم، حالٌ من فاعل ﴿تُخْرِجُونَ﴾ أو من مفعوله مبيِّنةٌ لكيفية الإخراج، رافعةٌ لتوهُّم اختصاص الحرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال، دون المظاهرة والمساعدة للغير، والمعنى: تُقوون ظُهوركَم بالمشركين للغلبة عليه، وقوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ حال من فاعل ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾؛ أي: حال كونكم ملتبسين بالإثم، وهو الفعل الذي يستحقُّ فاعله الذمَّ واللَّوم، ﴿و﴾ ملتبسين بـ ﴿العدوان﴾؛ أي: بالتجاوز للحد في الظلم. وفي «النهر»: الإثم: ما يستحق متعاطيه الذمَّ، أو ما تنفر منه النَّفس، ولا يطمئن إليه القلب، كالقتل ظلماً. والعدوان: مجاوزة الحدِّ في الظلم، كالإخراج من الديار، وأخذ الأموال، وسبْي الذراريِّ. وقرأ عاصمٌ، وحمزة، والكسائي: ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيف الظاء، وأصله: تتظاهرون، فحذفت إحدى التاءين وهي عندنا الثانية، لا الأولى خلافاً لهشامٍ، إذ زعم أنَّ المحذوف هي التي للمضارعة الدالَّة في مثلِ هذا المثال على الخطاب، وكثيراً جاء في القرآن، حذف التاء، وقال الشاعر:

تَعاطسون جميعاً حولَ دارِكُمُ ... فكلُّكُمْ يا بني حمدانَ مزكومُ

يريد تتعاطسون. وقرأ باقي السبعة بتشديد الظاء؛ أي: بإدغام التاء في الظاء. وقرأ أبو حيوة ﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾ بضمّ التاء، وكسر الهاء. وقرأ مجاهدٌ، وقتادة باختلافٍ عنهما ﴿تَظَّهَّرُوْنَ﴾ بفتح التاء والظاء والهاء مشدّدين دون ألف، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ بعضهم: ﴿تتظاهرون﴾ على الأصل، فهذه خمس قراءات، ومعناها كُلِّها: التعاون والتناصر ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ﴾؛ أي: وإن أتاكم هؤلاء الفريق الذين تظاهرون على إخراجهم، وجاءُوكم، ووقعوا في أيديكم حال كونهم ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ أي: مأسورين في يد حلفائكم المشركين، معنى إتيانهم لهم: وقوعهم في يد حلفائهم المشركين الأوس، أو الخزرج، فيتمكَّنون من افتدائهم منهم

بالمال، والأسارى: جمع أسرى بفتح الهمزة وسكون السين، والأسرى: جمع أسير، فالأسارى بضمّ الهمزة والقصر: جمع الجمع، كما ذكره أبو النجا في «حاشيته على متن الأجرُّوميَّة».

والأسير: من أُخذ قهراً، فهو فعيل بمعنى مفعول من الأسر بمعنى الشدِّ والإيثاق، كما سيأتي بسط الكلام فيه في مبحث اللغة. وقرأ الجمهور[1] ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ بضمّ الهمزة بوزن فعالى. وقرأ حمزة أسرى بفتح الهمزة بوزن فَعْلَى، وقوله: ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ جواب إن الشرطيّة؛ أي: تخرجوهم من الأسر بأعطاء الفداء، والمفاداة تجري بين الفادي وبين قابل الفداء. وقرأ عاصم[2]، ونافع، والكسائي ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ بضمّ التاء وفتح الفاء، من فادى الرباعي. وقرأ الباقون ﴿تَفْدُوهُم﴾ بفتح التاء وسكون الفاء من فدى، ومعنى تفادوهم: تفدوهم إذ المفاعلة تكون من اثنين ومن واحدٍ، ففاعل بمعنى فعل المجرد وهو أحد معانيه وقيل: معنى فادى بادل أسيراً باسير، ومعنى فدى: دفع الفداء، ويشهد للأوّل قول العباس: (فادَيْتَ نَفسي وفاديت عقيلاً) ومعلوم أنّه ما بادل أسيراً بأسير. وقيل: معنى تفدوهم بالصلح، وتفادوهم بالعنف. وقيل: تفادوهم: تطلبوا الفدية من الأسير، الذي في أيديكم من أعدائكم، ومنه قوله:

قِفِيْ فَادِيْ أَسِيْرَكِ إنَّ قَوْمِي وَقَوْمَكِ ما أَرَى لَهُمُ اجْتِمَاعَا

وتفدوهم: تعطوا فديتهم. وقال أبو عليّ: معنى تفادوهم في اللغة: تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، وفاديت نفسي؛ أي: أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً، وفادى وفدى يتعدَّيان إلى مفعولين، الثاني بحرف جرّ وهو هنا محذوف، تقديره: تفادوهم به؛ أي: بالمال، ذكره في «البحر».

والمعنى: أي وإن يقع ذلك الفريق الذي تخرجونه من دياره وقت الحرب حال كونه أسيراً في يد حلفائكم المشركين، تُخلِّصونه من الأسر بدفع مال الفداء

---

(١) البحر.

(٢) البحر المحيط.

عنهم، وقوله: ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ؛ أي: الشأن ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متعلّق[1] بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، والضمير للشأن، كما ذكرنا في الحلِّ، أو مبهمٌ يفسِّره إخراجهم، أو راجعٌ إلى ما دلَّ عليه ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ من المصدر، وإخراجهم بدلٌ منه، أو عطف بيان، وقال في «الروح» ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿مُحَرَّمٌ﴾ فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبراً عن ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾، والجملة خبر لضمير الشأن. اهـ.

والمعنى[2]: أي وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، والحال أنَّ الشأن محرَّم عليكم إخراجهم من ديارهم أوّل مرّةٍ، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى، أخذ على بني إسرائيل في التوراة أربعة عهودٍ: ترك القتل؛ أي: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، وترك الإخراج؛ أي: لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وترك المظاهرة على أهل دينهم مع أعدائهم، وفك أسراهم من أيدي أعدائهم، وأيما عبدٍ، أو أمةٍ، وجدتموه من بني إسرائيل، فاشتروه، وأعتِقوه، فأعْرَضوا عن الكلِّ إلاّ الفداء.

وكان النضير[3]، وقريظة أخوين، كالأوس والخزرج، فافترقوا، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة، فكان كُلُّ فريق يقاتل مع حلفائه، فإذا غلبوا خرَّبوا ديارهم، وأخرجوهم من ديارهم، ثُم إذا أُسِرَ رجلٌ من الفريقين فدوه، كما لو أُسِرَ واحدٌ من النضير، ووقع في يد الأوس، افتدته قريظة منهم بالمال، وهكذا يقال في عكس ذلك، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنّةً ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامةً، ولا كتاباً، ولا حلالاً، ولا حراماً، يُعيِّرون قريظة والنضير، ويقولون لهم: كيف تقاتلونهم أوّلاً ثم تفادونهم؟ فيقولون: أُمِرْنَا أن نفديهم، وحُرِّم علينا قتالهم، ولكن نستحي أن تُذَلَّ حلفاؤنا، فذمَّهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ﴾ ما في ﴿الْكِتَـٰبِ﴾ والتوراة، وتصدِّقونه، وتمتثلونه وهو

---

(١) البيضاوي.

(٢) العمدة.

(٣) المراح.

المفاداة ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ ما فيه، وتجحدونه ولا تمتثلونه، وهو ترك القتل، والإخراج، والمظاهرة، والذي في الكتاب فعل جميع الواجبات، وترك جميع المحرمات، فهم فعلوا الواجب الذي هو المفاداة، ولم يتركوا المحرَّم الذي هو القتل، والإخراج، والمظاهرة، وذلك منتهى ما يكون من الحماقة، فإنَّ الإيمان لا يتجزأ، والغرض من ذلك؛ التوبيخ لهم؛ لأنّهم جمعوا بين الكفر والإيمان، والكفرُ ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كِلّه، فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ...﴾ إلخ.

والهمزة في قوله[1]: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمَّن للإنكار، داخلةٌ على محذوف يستدعيه المقام، والفاء عاطفةٌ على ذلك المحذوف، والتقدير: أتفعلون ذلك، فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعضٍ، مع أنَّ قضيَّة الإيمان، الإيمان بالباقي؛ لكون الكل من عند الله تعالى داخلاً في الميثاق، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض ﴿فَمَا جَزَآءُ﴾ نفي؛ أي: ليس جزاء ﴿مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان بالبعض ﴿مِنكُمۡ﴾ يا معشر اليهود: حالٌ من فاعل يفعل، ﴿إِلَّا خِزۡيٞ﴾ استثناءٌ[2] مفرَّغ وقع خبراً للمبتدأ؛ أي: ذُلٌّ وهوانٌ مع الفضيحة، وهو قتل بني قريظة، وأسرهم، وإجلاء بني النضير إلى أذرعات، وأريحا من الشام، وقيل: هو أخذ الجزية ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ صفة خزيٌ، ولعلَّ بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر؛ لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار أنَّه لا أثر له أصلاً مع الكفر بالبعض ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: ويوم تقام فيه الأجزية، وهو عبارةٌ عن زمانٍ مُمْتَدٍّ إلى أن يفصل بين العباد، ويدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار، ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ أي: يرجعون، والردُّ: الرَّجع بعد الأخذ ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ وهو التعذيب في جهنّم، وهو أشدُّ من خزيهم في الدنيا، وأشدُّ من كل عذاب كان قبله، فإنَّه ينقطع وهذا لا ينقطع، وفي الحديث: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»، وإنّما كان أشدَّ؛ لما أنَّ معصيتهم كانت أشدَّ المعاصي.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: بساهٍ ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من القبائح التي من جملتها هذا المنكر؛ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فيجازيهم بها يوم البعث، وهذا تهديدٌ شديدٌ، وزجرٌ عظيمٌ عن المعصية، وبشارةٌ عظيمةٌ على الطاعة؛ لأنّ الغفلة إذا كانت ممتنعة عليه تعالى، مع أنّه أقدر القادرين وصَلَتِ الحُقوقُ إلى مستحقّيها، فهو مجازيكم على ما اجترحتم من السيّئات.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُرَدُّونَ﴾ بالياء، وهو مناسب لما قبله من قوله: ﴿مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ﴾ ويحتمل أن يكون التفاتاً، فيكون راجعاً إلى قوله: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ فيكون قد خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة. وقرأ الحسن، وابن الهرمز باختلافٍ عنهما (تُردُّون) بالتاء، وهو مناسبٌ لقوله: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون التفاتاً بالنسبة إلى قوله: ﴿مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ﴾ فيكون قد خرج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب، وأشدُّ العذاب الخلود في النار، وأشديته من حيث إنه لا انقضاء له، أو أنواع عذاب جهنّم؛ لأنّها دركاتٌ مختلفةٌ، وفيها أوديةٌ، وحَيَّاتٌ، أو العذاب الذي لا فرح فيه ولا رَوح مع اليأس من التخلّصِ، أو الأشدّية بالنسبة إلى عذاب الدنيا، أو الأشدّية بالنسبة إلى عذاب عامّتهم؛ لأنّهم الذين أضلّوهم ودلّسوا عليهم، أقوالٌ خمسةٌ. وقرأ نافع[2]، وابن كثير، وأبو بكر: (عمّا يعملون) بالياء، والباقون بالتاء من فوق، فبالياء ناسب ﴿يُرَدُّونَ﴾ قراءة الجمهور، وبالتاء تُناسب قراءةَ ﴿تُردُّون﴾ بالتاء، فيكون المخاطب بذلك من كان مخاطباً في الآية قبل، ويحتمل أن يكون الخطاب لأمّةِ محمد ﷺ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إنَّ بني إسرائيل قد مضوا، وأنتم الذين تُعنَوْن بهذا يا أُمّة محمدٍ! وبما يجري مجراه). وهذه الآية من أوعظ الآيات إذ المعنى: إنّ الله بالمرصاد لكل كافر وعاصٍ، ثُمّ أكّد عظيم حماقتهم وسيىء إجرامهم، ثم شديد نكالهم على ما اجترحوا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة التي منها الجمع بين

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الإيمان والكفر، هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: استبدلوا الحياة الدنيا ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ أي: عن الآخرة، وأعرضوا عن الآخرة مع تمكّنهم من تحصيلها؛ أي[1] اختاروا لذَّات الحياة الدنيا على لذات الآخرة اختيار المشتري المبيع بدل الثمن؛ لأنّ الجمع بين لذَّات الدنيا ولذات الآخرة غير ممكنٍ، فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة، أي: أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا، واستبدلوها بالآخرة، فقدَّموا حظوظهم في هذه الحياة على حظوظهم في الحياة الآخرة، بما أهملوا من الشرائع، وتركوا من أوامرها التي يعرفونها كما يعرفون أبناءَهم، كالانتصار للحليف المشرك، ومظاهرته على قومه الذين تجمعهم وإيّاه رابطة الدين، والنسب، وإخراج أهله من دياره ابتغاءَ مرضاته ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ دنيويًّا، أو أخرويًّا، فلا يُهَوَّن عليهم العذاب، ولا يُقلَّل بنقص[2] الجزية عنهم في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. وقيل: نفس التخفيف مختصٌّ بالآخرة، والمعنى حينئذٍ: فلا يخفَّف عنهم العذاب في الآخرة بالانقطاع، ولا بالقلَّة في كل وقت، أو في بعض الأوقات ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله؛ أي: ليس[3] لهم ناصرٌ يدفع عنهم العذاب، وينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمديِّ، ويجيرهم منه.

وهذا[4] إخبار من الله سبحانه وتعالى، بأنَّ اليهود لا يزالون في عذاب موفَّر، لازم لهم بالجزية، والصغار، والذلّة، والمهانة، فلا يُخفَّف عنهم ذلك أبداً ما داموا، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم، ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عدوِّهم.

واعلم: أن الجمع بين تحصيل لذات الدنيا ولذات الآخرة ممتنعٌ غير

(١) العمدة.

(٢) البيضاوي.

(٣) ابن كثير.

(٤) الشوكاني.

ممكن، والله سبحانه مكَّن المكلَّف من تحصيل أيّتهما شاء وأراد، فإذا اشتغل بتحصيل أحدهما، فقد فوَّت الأخرى على نفسه، فجعل الله ما أعرض اليهود عنه من الإيمان بما في كتابهم، وما حصل في أيديهم من الكفر ولذات الدنيا، كالبيع والشراء، وذلك من الله نهاية الذمِّ لهم؛ لأنَّ المغبون في البيع والشراء في الدنيا مذمومٌ، فأنْ يُذَمَّ مشتري الدنيا بالآخرة أولى، فعلى العاقل أن يرغب في تجارة الآخرة، ولا يركن إلى الدنيا ولا يسفك دمه بامتثال أوامر الشيطان في استجلاب حظوظ النفس، ولا يخرج من ديار دينه التي عليها في الأصل الفطرة، فإنَّه إذاً يضِلُّ ويشقى.

قال أبو حيان: وقد تضمّنت[1] هذه الآيات الكريمة من قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى هنا، إخبار الله تعالى، أنّه أخذ الميثاق على بني إسرائيل بإفراد العبادة لله تعالى، والإحسان إلى الوالدين، وإلى ذي القربى، واليتامى، والمساكين، وبالقول الحسن للناس، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنّهم نقضوا الميثاق بتولِّيهم، وإعراضهم، وأنه أخذ عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأنهم أقروا، والتزموا ذلك، فإن الميثاق الأول يتضمَّن الأوامر، والميثاق الثاني يتضمَّن النواهي؛ لأنَّ التكاليف الإلٰهيّة مبنيَّةٌ على الأوامر والنواهي، وكان البدء بالأوامر آكد؛ لأنّها تتضمَّن أفعالاً. والنواهي. تتضمَّن تُروكاً، والأفعال أشقُّ من التروك، وكان من الأوامر: الأمر بإفراد الله بالعبادة وهو رأس الإيمان، إذ مُتعلَّقه أشرف المتعلَّقات، فكان البدء به أولى، ثمَّ نعى عليهم التباسهم بما نهوا عنه، وإن كان قد تقدَّم إخباره أنَّهم خالفوا في الأوامر بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ لأنَّ فعل المنهيات أقبح من ترك المأمورات؛ لأنَّها تروك، كما ذكرنا.

ثمّ قرَّعهم بمخالفة نواهي الله، وأنّهم مستعينون في ذلك بغير الحق، بل بالإثم والعدوان، ثمَّ ذكر تناقض آرائهم، وسخف عقولهم بفداء من أتى إليهم

---

(١) البحر المحيط.

منهم، مع أنَّهم هم السبب في إخراجهم وأسرهم مع علمهم بتحريم إخراجهم، وبذكر أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، هذا مع أنَّه كُلَّه حَقٌّ وصِدْقٌ، فلا يناسب ذلك الكفر ببعض والإيمان ببعض، ثم ذكر أنَّ الجزاء لفاعل ذلك هو الخزيُ في الدنيا، وأشدُّ العذاب في الآخرة، وأنَّ الله تعالى لا يغفل عمَّا عملوه فيجازيهم على ذلك. ثم أشار إلى أنَّ من تحلَّى بهذه الأوصاف الذميمة، وخالف أمر الله ونهيه، هو قد اشترى عاجلاً تافهاً بآجلٍ جليلٍ، وآثر فانياً مكدَّراً على بَاقٍ صافٍ، وأنَّ نتيجة هذا الشراء أن لا يخفَّف عنهم ما حلَّ بهم من العذاب، ولا يجدوا ناصراً يدفع عنهم سوء العذاب، وشديد العقاب، لقد خسروا تجارةً، وبدَّلُوا بالنعيم السرمديِّ ناراً وقودها الناس والحجارة، وإذا كان التخفيف قد نفي، فالرفع أولى، وهل هذا إلاّ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؟!. انتهى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: بالله لقد أعطينا يا بني إسرائيل ﴿مُوسَى﴾ بن عمران؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أعطينا موسى بن عمران ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة جملةً واحدةً.

ومناسبة هذه الآية لِمَا قبلها[1]: أنّ إيتاء موسى الكتاب هو نعمة لهم، إذْ فيه أحكامهم وشرائعهم، ثُمَّ قابلوا تلك النعمة بالكفران، وذلك جَرْيٌ على ما سبق من عادتهم، إذ قد أمروا بأشياء ونهوا عن أشياء، فخالفوا أمر الله ونهيه، فناسب ذكْرُ هذه الآية ما قبلها، والإيتاء[2]: الإعطاء، فيحتمل أن يراد به الإنزال؛ لأنَّه أنزله عليه جملةً واحدةً، ويحتمل أن يراد آتيناه: أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود، والأحكام، والأنباء، والقصص، وغير ذلك ممَّا فيه، فيكون على حذف مضاف؛ أي: آتينا موسى علم الكتاب، أو فهم الكتاب، وموسى هو نبيُّ الله موسى بن عمران صلى الله على نبيّنا وعليه وسلّم، وهو لغةٌ عبرانيةٌ، قد سبق عند قوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ...﴾ الآية. والكتاب هنا: التوراة في قول الجمهور، والألف واللام فيه للعهد إذ قرن بموسى، وانتصابه على أنّه مفعول ثان

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

لآتينا، وقال السهيليُّ: إنّه مفعول أوّل له، وموسى هو المفعول الثاني ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ يقال: قفاه به إذا أتبعه إيّاه؛ أي: أتبعنا، وأردفنا، وجئنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد موسى بن عمران ﴿بِٱلرُّسُلِۖ﴾ زمن عيسى عليهم السلام، متواترةً يظهر بعضهم إثر بعضٍ، والشريعة واحدة، وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام، وجاءهم بشريعةٍ جديدةٍ، وغيَّر بعض أحكام التوراة. وقيل إنَّ مدَّة ما بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة وخمسٌ وعشرون سنةً. ذكره السيوطي في «التَّحْبِير».

قيل[1]: إنّ الرسل بعد موسى هم: يوشع بن نون، وشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعياء، وأرميا، وعزيرٌ، وحزقيلٌ، وإلياسُ، واليسعُ، ويونسُ، وزكريا، ويحيىٰ، وغيرهم، ومنْ في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ لابتداء الغاية وهو ظاهرٌ؛ لأنَّه يُحْكَى: أنَّ موسى لم يَمُتْ حتى نُبِّيء يوشعُ، والباء في قوله: ﴿بِٱلرُّسُلِۖ﴾ متعلقةٌ بقفينا، والألف واللام يحتمل أن تكون للجنس الخاص، ويحتمل أن تكون للعهد؛ لما استفيد من القرآن وغيره، أنَّ هؤلاء بعثوا من بعده، ويحتمل أن تكون التقفية هي كونهم يتَّبعون في العمل بالتوراة، وأحكامها، ويأمرون باتباعها والبقاء على التزامها. وقرأ الجمهور[2]. ﴿بِٱلرُّسُلِۖ﴾ بضمّ السين. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر بتسكينها، وهما لغتان فيه، ووافقهما أبو عَمْرو إن أُضيف إلى ضمير جمع، نحو: (رُسْلهم ورُسْلكم ورُسْلنا)؛ استُثقل توالي أربع متحركات، فسُكِّن تخفيفاً ﴿وَءَاتَيْنَا﴾؛ أي: أعطينا ﴿عِيسَى﴾ بالسريانة[3] اليسوع، ومعناه: المبارك، والأصحّ: أنّه لا اشتقاق له ولأمثاله في العربية، وأضافه إلى مريم أمّه؛ ردّاً على اليهود فيما أضافوه إليه. ﴿ٱبْنَ﴾ بإثبات الألف، وإن كان واقعاً بين العلمين؛ لندرة الإضافة إلى الأمّ ﴿مَرْيَمَ﴾ بالسريانية بمعنى الخادمة والعابدة، قد جعلتها أمّها محرّرة لخدمة المسجد، ولكمال عبادتها

---

(١) أبو السعود والخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

لربّها، سمّاها الحقّ تعالى في كتابه الكريم مع الأنبياء عليهم السلام سبع مرّات، وخاطبها كما خُوطِب الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فشاركها مع الرجال.

وقد أجمل[1] الله سبحانه ذكر الرسل، وفصل ذكر عيسى؛ لأنّ من قبله كانوا متّبعين شريعة موسى، وأمّا عيسى فنسَخَ شَرْعُه كثيراً من شرع موسى؛ أي: وآتينا عيسى ابن مريم ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: الحجج الواضحات والمعجزات الباهرات الدَالَّة على نُبوّته، فيشمل كلَّ معجزة أوتيها عيسى عليه السلام، وهذا هو الظاهر. وقيل: الإنجيل. وقيل: الحجج التي أقامها الله على اليهود، كإحياء الموتى وهو أربعةٌ: سامُ بن نوح، والعازِرو ابنُ العَجوز، وبنتُ العَشَّار، ومن الطير الخفاش. قيل: لم يكن مِنْ قَبْلِ عيسى، بل هو صوَّرهُ، والله نفخ فيه الروح، وقيل: كان قَبْلَهُ، فوضَع عيسى على مثاله. قالوا: وإنّما اختصَّ هذا النوع من الطير؛ لأنّه ليس شيءٌ من الطير أشدَّ خلقاً منه؛ لأنه لحمٌ كلُّه، وكإبراء الأكمه سواء كان كمهه خلقيّاً، أو طارئاً، وإبراء الأبرص، والإخبار بالمغيَّبات.

فائدة: ولفظ عيسى[2] لغةٌ عبرانيةٌ معناه: السَّبُوح بفتح السين وضمّ الباء المخفّفة بمعنى: السَّابح، وهو من الخيل السريعُ الجري، وبالسريانية اسمه: أيشوع، ومعناه: المبارك، ولفظ مريم لغةَ سريانية معناه: خادمة الله، وفي كتاب «لسان العرب» هي: المرأة التي تكره مخالطة الرجال، وإنّما خصَّ عيسى بالذكر مع دخوله في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾؛ إشعاراً بفضله، ومزيَّته على غيره لكونه رسولاً مستقلاً بشرع يخصه: لأنّه نسخ بعض ما في التوراة، وردّاً على اليهود حيث ادَّعوا أنهم قتلوه، وما بين موسى وعيسى: أربعة آلاف نبيٍّ، وقيل: سبعون ألف نبيٍّ، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: قوّينا عيسى عليه السلام. وقرأ الجمهور[3] على

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

(٣) البحر المحيط.

وزن فعَّلناه. وقرأ مجاهد، والأعرج، وحميد، وابن محيصن، وحسين عن أبي عمرو ﴿أأْيَدْناه﴾ على وزن أفعلناه. وقرأ ابن كثير ﴿آيَدْنَاه﴾ بمد الهمزة وتخفيف الياء، وهاتان القراءتان من الشواذ والأصحّ أنّها كلها بمعنى: قوَّيناه، وكُلُّها من الأيد وهو القوّة؛ أي: قوَّيناه، وآنسْنَاه، وشدَدْناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ أي: بالروح المُقدَّس؛ أي: المطهَّر الذي هو جبريل عليه السلام، وذلك لأنّه بشَّر مريم بولادتها له، وكان من نفخه في جيبها، وهو الذي ربَّاه في جميع الأحوال، وكان يسير معه حيث سار، وكان معه حين صعد به إلى السماء وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وسُمِّي جبريل روحاً؛ لأنَّ به حياة القلوب بسبب وحيه إلى الأنبياء، كما أنَّ الروح المعروفة بها حياة الأبدان، ووصف بالقدس بمعنى الطُّهْرِ؛ لطهارته من المعاصي، والمخالفات، والأقذار، وقد مدحه تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فمعنى تقويته به: أنّه عصمه من أوّل حاله إلى كبره، فلم يدن منه الشيطان عند الولادة، ورفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. وقيل[1]: أيدناه بالروح المقدَّسة المطهرة، وهي روح عيسى عليه السلام، وُصِفَت بالقدس؛ للكرامة؛ لأنَّ القدس هو الله سبحانه وتعالى، كالقدُّوس. وقرأ الجمهور[2] بضمّ القاف والدال. وقرأ مجاهد، وابن كثير بسكون الدال حيث وقع في القرآن، وفيه لغةٌ: فتحها. وقرأ أبو حيوة: ﴿القُدُوْس﴾ بواوٍ.

قال أبو حيان: والرُّوح هنا: اسم الله الأعظم الذي كان به عيسى عليه السلام يُحيي الموتى. قاله ابن عباس، أو الإنجيل، كما سَمَّى الله تعالى القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ قاله ابن زيد، أو الروح الَّتي نفخها الله تعالى في عيسى عليه السلام، أو جبريل عليه السلام. قاله قتادة، والسديّ، والضحاك، والربيع، ونسب هذا القول لابن عباس. قاله ابن عطيّة. وهذا أصحُّ الأقوال، وقد قال النبيُّ ﷺ لحسَّان بن ثابت: «أُهْجُ قُريشاً وروح القدس معك» ومرَّةً قال له: «وجبريل معك». انتهى كلامه.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قالوا ويُقوّي ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وقال حسان بن ثابت ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

وجبريلُ رسولُ اللهِ فينا ... وروحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وتسمية جبريل بذلك؛ لأنَّ الغالب على جسمه الرُّوحانيَّة، وكذلك سائر الملائكة؛ أو لأنّه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح، فإنَّه هو المتولّي لإنزال الوحي؛ أو لتكوينه روحاً من غير ولادةٍ، وتأييد الله عيسى بجبريل عليهما السلام؛ لإظهار حجته وأمر دينه؛ أو لدفع اليهود عنه إذ أرادوا قتله، أو في جميع أحواله، قالوا: وإطلاق الروح على جبريل، وعلى الإنجيل، وعلى اسم الله الأعظم مجازٌ؛ لأنَّ الرُّوح هو الريح المتردّدُ في مخارق الإنسان، أي: في منافذه، ومعلومٌ أنَّ هذه الثلاثة ما كانت كذلك. اهـ. من «البحر».

وخلاصة معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ إلخ؛ أي[1]: ولقد أعطينا موسى الكتاب المقدس وهي التوراة، ثمّ أتبعنا من بعده رسولاً بعد رسول مقتفين إثره، فلم يمض زمنٌ إلاّ كان فيه نبيٌّ، أو أنبياء، يأمرون وينهون، فلا عذر لهم في نسيان الشرائع، أو تحريفها، وتغيير أوضاعها، ثُمَّ خصَّ من أولئك الرسل عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.. الخ؛ أي: وأعطينا عيسى المعجزات الباهرة التي تدلُّ على صدق نُبوّته، وأنّه مُوحًى إليه من ربّه، وأيّدناه بروح الوحي الذي يُؤيِّد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم، ومعارفهم، وأرسلناه بعد ظهور كثيرٍ من الرسل، ولم يكن حظّهُ بينهم أحسن من حظِّ سابقيه، ثُمَّ بين ماذا كان حظُّ الرسل من بني إسرائيل، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ خاطب بهذا أهل عصر محمد ﷺ، وقد فعله أسلافهم؛ يعني: لم يوجد منهم القتل، وإن وجد منهم الاستكبار؛ لأنّهم يتولّونهم ويرضون بفعلهم، والراضي بفعل الغير كفاعله، وقد كذَّبوا رسول الله ﷺ فيما جاء به، وسقوه السُّمَّ ليقتلوه، وسحروه. ويجوز أن[2] يكون الخطاب عامًّا لجميع بني إسرائيل،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

إذ كانوا على طبق واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم، والشكِّ، والارتياب فيما أتوهم به، ويحتمل أن يكون الخطاب لأسلافهم الذين فعلوا ذلك، وسياق الآيات يدلُّ عليه. والهمزة[1] فيه للاستفهام التوبيخيّ داخلةٌ على محذوف، والفاء عاطفة لجواب كلّما على ذلك المحذوف؛ لأنَّ حقَّ الهمزة والفاء أن يدخلا على الجواب؛ أي: ألم تطيعوهم؟ فكلَّما جاءكم رسول ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ ولا تريد ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ ولا يوافق هواكم من الحق الذي لا انحراف عنه ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: تكبرَّتم، وتعظَّمتم عن الاتباع له، والإيمان بما جاء به من عند الله، واستفعل هنا بمعنى: تفعَّل، وهو أحد معاني استفعل، وفسَّر رسول الله ﷺ الكِبْرَ بأنَّه: «دَفْعُ الحقِ، وغَمْطُ الناس»؛ أي: إنكار الحقِّ، واحتقار الناس.

والمعنى: أدمتم يا معشر اليهود! على التكذيب، فاستكبرتم عن الإيمان كُلَّما جاءكم رسولٌ من الرسل بما لا تهوى، ولا تُحِبُّ أنفسكم؛ أي: استكبرتم عن الإيمان، ودمتم على التكذيب كُلَّ وقتٍ جاءكم رسولٌ منهم بالحقِّ الذي لا يوافق هواكم. ﴿فَفَرِيقًا﴾؛ أي: طائفةً منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى، ومحمدٍ عليهما السلام، والجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: فنشأ عن الاستكبار مبادرتهم فريقاً من الرسل بالتكذيب فقط، حيث لا يقدرون على قتله، ولم يتمكَّنوا منه ﴿وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا، ويحيىٰ، وغيرهما عليهم السلام؛ أي: وفريقاً منهم بادروه بالقتل إذ قدروا على قتله، وتهيَّأ لهم ذلك، ومعلوم[2] أنَّ من قتلوه فقد كذّبوه، واستغنى عن التصريح بتكذيبه؛ للعلم بذلك، فذكر أقبح أفعالهم معه، وأجاز أبو القاسم الراغب أن يكون ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ ويكون قوله: أفكُلَّمَا مع ما بعده اعتراضاً بينهما على سبيل الإنكار، والأظهرُ في ترتيب الكلام الأوّلُ، وهذا أيضاً محتملٌ. وقدَّم المفعول وأخّر العامل في قوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ ليتَواخى رؤُوسُ الآي، وثَمَّ محذوف،

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

تقديرُهُ: ففريقاً منهم كذبتم، وبدأ بالتكذيب؛ لأنَّه أوَّل ما يفعلونه من الشرِّ؛ ولأنه المشترك بين الفريقين المكذَّبِ والمقتولِ، وأَتَى بفعلِ القتل مضارعاً؛ لحكاية الحال الماضية؛ ولِمَا فيه من مناسبةِ رؤوس الآي التي هي فواصلُ، وإمَّا لكونه مستقبلاً، لأنّهم يَرُومُوْن قَتْلَ رسولِ الله ﷺ، ولذلك سَحَرَوه وسَمُّوه. اهـ. من «البحر».

والمعنى: إنَّه نشأ من استبكارهم مبادرتهم لفريق من الرسل بالتكذيب، ومبادرتهم لآخرين بالقتل. وعبارة «الروح» هنا: وقدَّم[1] فريقاً في الموضعين؛ للاهتمام، وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم، لا للقصر، ولم يقل قتلتم، وإن أريد الماضي؛ تفظيعاً لهذه الحالة، فكأنَّها ـ وإن مضت ـ حاضرةٌ لشناعتها، ولثبوت عارها عليهم، وعلى ذرِّيتهم بعدهم، أو يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد، وإنّكم على هذه النيَّة؛ لأنّكم حاولتم قتل محمد ﷺ، لولا أنّي عصمته منكم، ولذلك سحرتموه، وسممتم له الشاة حتى قال ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني»؛ أي: يراجعني أثر سُمِّها في أوقاتٍ معدودة: «فهذا أوان قَطعَتْ أبهري» وهو عرقٌ منبسطٌ في القلب، إذا انقطع مات صاحبه. وقصته: أنّه لمّا فتحت خيبر وهو موضع بالحجاز قرب المدينة، أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيّ فيه» قالوا: نعم يا أبا القاسم! قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا» قالوا: نعم، قال: «فما حملكم على ذلك» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرَّك.

واعلم: أنَّ اليهود أَنِفُوا من أن يكونوا أتباعاً، وكانت لهم رئاسةٌ، وكانوا متبوعين، فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرئاسة، فما دام لم يخرج حُبُّ الرئاسة من القلب، لا تكون النَّفس مؤمنةً بالإيمان الكامل.

وللنفس صفاتٌ سبعٌ مذمومةٌ: العجب، والكبر، والرياء، والغضب، والحسد، وحُبُّ المال، وحبّ الجاه. ولجهنَّم أيضاً أبوابٌ سبعةٌ: فمن زكى نفسه

---

(١) روح البيان.

عن هذه السبع، فقد أغلق سبعة أبواب جهنم، ودخل الجنّة. وأوصى إبراهيم بن أدهم بعض أصحابه، فقال: كُنْ ذَنباً ولا تكن رأساً، فإنَّ الرأس يهلك، والذنب يسلم. ومعنى قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ. . .﴾ إلخ؛ أي: أَبَلَغَ[1] الأمر بكم أنَّكم كُلَّما جاءكم رسولٌ من رسلي بغير الذي تهوى نفوسكم أعرضتم، فاستكبرتم عليه تجبُّراً وبغياً في الأرض، فبعضاً منهم تكذِّبون، وبعضاً تقتلون، فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمدٍ ﷺ، فإنَّ العناد والجحود من طبعكم، وسجيَّةٌ عرفت عنكم، ولا غرابة في صدور ما صدر منكم. قال ابن عطيّة: روي أنَّ بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سُوقهُم آخرَ النهار. وروي: قتلوا سبعين نبياً، ثمّ تقوم سُوقُ بَقْلِهم آخرَ النهار، فضلا عن سوق الأقمشة النفيسة.

ثُمّ أخبر سبحانه وتعالى عن اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ وبيَّن ضلالهم في اقتدائهم بأسلافهم، فقال حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: اليهود المعاصرون لمحمد ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف، كحمر جمع أحمر، مستعارٌ من الأغلف الذي لم يختن؛ أي: قلوبنا مغشّاة مغطّاة بأغشيةٍ جِبِليَّةٍ، وأغطية خِلْقية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد ﷺ، ولا تفقهُهُ، ولا تفهمُهُ. وقرأ الجمهور[2] ﴿غُلْفٌۢ﴾ بإسكان اللام، واختلف في سكون اللام، أهو سكونٌ أصليٌّ، فيكون جمع أغلف، كحمر وأحمر؟ أم هو سكون تخفيف، فيكون جمع غلاف؟ وأصله: الضُمُّ، كحمار وحمر. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وابن هرمز، وابن محيصن ﴿غُلُف﴾ بضمّ اللام وهي مرويّةٌ عن أبي عمرو ـ وليست في المتواتر عنه ـ وهو جمع غلاف، ولا يجوز أن يكون في هذه القراءة جمع أغلف؛ لأنّ تثقيل فُعَّل الصحيح العين لا يجوز إلاّ في الشعر، يقال: غلفت السيف، جعلت فيه غلافاً، وأمّا من قرأ ﴿غُلْفٌۢ﴾ بالإسكان، فمعناه: أنّها مستورة عن الفهم والتمييز، وقال مجاهد؛ أي: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابعٌ. وقال الزجاج: ذوات غلفٍ؛ أي: عليها غُلْفٌ لا تصل إليها الموعظة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقيل معناه: خُلِقَتْ غُلفاً لا تتدبَّر ولا تعتبر. وقيل: محجوبةٌ عن سماع ما تقُولُ، وفهمِ ما تُبيِّن، ويحتمل على هذه القراءة أن يكون قولهم هذا على سبيل البَهْتِ والمدافعة حتى يُسْكِتوا رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يكون ذلك خبراً منهم بحال قلوبهم؛ لأن الأوّل فيه ذَمُّ أنفسهم بما ليس فيها، وكانوا يدفعون بغير ذلك، وأسباب الدفع كثيرةٌ.

وأمّا من قرأ بضمّ اللام[1]، فمعناه: أنّها أوعيةٌ للعلم، أقاموا العلم مقام شيءٍ مجسَّدٍ، وجعلوا الموانع التي يمنعهم غلفاً له؛ ليستدلّ بالمحسوس على المعقول، ويحتمل أن يريدوا بذلك أنَّها أوعية للعلم، فلو كان ما تقوله حقّاً وصدقاً لوَعَتْهُ، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ويحتمل أنّ يكون المعنى: أنَّ قلوبنا غُلُفٌ؛ أي: مملوءة علماً فلا تسع شيئاً، ولا تحتاجُ إلى علم غيرِه، فإنَّ الشيء المغلق لا يسع غلافه غيره، ويحتمل أن يكون المعنى: إنّ قلوبهم غُلْفٌ على ما فيها من دينهم وشريعتهم واعتقادهم؛ أي: أنَّ دوامَ ملَّتهم إلى يوم القيامة، وهي لصلابتها، وقوَّتها، تمنع أن يصل إليها غير ما فيها، كالغلاف الذي يَصُونُ المُغَلَّف أن يصل إليه ما يغيِّره. وقيل المعنى: كالغلاف الخالي الذي لا شيء فيه. اهـ. من «البحر».

والغرض[2]: إقناطه ﷺ من إيمانهم، رَدَّ الله تعالى أن تكون قلوبهم مخلوقةً كذلك؛ لأنها خلقت على الفطرة، والتمكُّن من قبول الحق، وأضرب وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ﴾ وطردهم وأبعدهم ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عن رحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وضلالهم: أي: ليس عدم قبولهم لخللٍ في قلوبهم، ولكنَّ الله سبحانه أبعدهم عن رحمته، وخَذلَهم، وخلاَّهُم وشَأنَهم بسبب كفرهم العارض، وإبطالهم لاستعدادهم بسوءِ اختيارهم بالمرَّةِ. وقال أبو حيَّان. و﴿بَل﴾ هنا[3] للإضراب الإبطاليّ عن النسبة التي تضمَّنها قولهم: إنّ قلوبهم غُلفٌ، وليس

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) البحر المحيط.

إضراباً عن اللفظ المقول؛ لأنّه واقعٌ لا محالة، فلا يضرب عنه، وإنَّما الإضراب عن النسبة المفهومة من قولهم: قلوبنا غلفٌ؛ لأنّها خُلقت متمكنة من قبول الحق، مفطورةً لإدراك الصواب، فأخبروا عنها بما لم تُخْلق عليه، ثمّ أخبر تعالى أنّهم لُعِنُوا بسبب ما تقدّم من كفرهم، وجازاهم بالطرد الذي هو اللَّعن المتسبَّب عن الذنب الذي هو الكفر، فانتصاب ﴿قليلاً﴾ في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ على المصدرية على أنّه نعت لمصدر محذوف، و﴿مَا﴾ مزيدةٌ؛ لتأكيد القلّة، والفاء لسببية[1] اللعن؛ لعدم الإيمان؛ أي: فَبسبَبِ ذلك اللعنِ يؤمنون إيماناً قليلاً في غاية القلّة، قاله قتادة؛ أي: يؤمنون بالقليل مِمَّا كلفوا به؛ لأنّهم يؤمنون بالله، ويكفرون بالرسل، وبما جاؤوا به؛ أي: إيمانهم قليلٌ جدّاً، أو على الظرفية على أنّه نعت لزمان محذوف؛ أي: فيؤمنون زماناً قليلاً في غاية القلة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أو على الحالية من فاعل يؤمنون حال كونهم جمعاً قليلاً؛ أي: المؤمن منهم قليلٌ، كعبد الله بن سلام، وأضرابه، وقال هذا المعنى ابن عباس، وقتادة أيضاً، وهو مذهب سيبويه، والأحسن من هذه المعاني كلِّها هو الأول؛ لأنّ دلالة الفعل على مصدره، أقوى من دلالته على الزمان، وعلى الهيئة، وعلى المفعول، وعلى الفاعل؛ ولموافقته ظاهر قوله تعالى: ﴿فلا يؤمنون إلاّ قليلاً﴾ اهـ. من «البحر».

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: ولما جاء اليهود المعاصرين لمحمدٍ ﷺ ﴿كِتَٰبٌ﴾ وقرآن نازلٌ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ووصفه بقوله: من عند الله؛ للتشريف؛ وللدلالة على أنَّه جديرٌ بأن يقبل، ويُتّبع ما فيه، ويعمل بمضمونه، إذ هو واردٌ من عند خالقهم، وإلٰههم الذي هو ناظرٌ في مصالحهم، ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ أي: موافقٌ ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: لكتابهم؛ أي: للتوراة التي في أيديهم في التوحيد، وبعض الشرائع، وصفة محمد ﷺ، وهو صفةٌ ثانيةٌ، وقُدّمت[2] الأولى عليها؛ لأنّ الوصف بكينونته من عند الله آكد، ووصفه بالتصديق ناشىءٌ عن كونه

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

من عند الله تعالى، لا يقال: إنّه يحتمل أن يكون من عند الله متعلِّقاً بجاءهم، فلا يكون صفة؛ للفصل بين الصفة والموصوف بما هو معمولٌ لغير أحدهما. وفي مصحف أُبَيٍّ ﴿مصدقاً﴾ وبه قرأ ابن أبي عبلة، ونصبه على الحال من كتاب وإن كان نكرة، وقد أجاز ذلك سيبويه بلا شرطٍ، فقد تخصَّص هنا بالصفة فقرَّبَتْهُ من المعرفة، وقوله: ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة والإنجيل، وتصديقه إمّا بكونهما من عند الله، أو بما اشتملا عليه من ذكر بعث الرسول ونعته.

قال ابن التمجيد: المصدَّق به: ما يختصُّ ببعثة محمد ﷺ، وما يدلُّ عليها من العلامات لا الشرائع والأحكام؛ لأنَّ القرآن نسخَ أكثرها.

وجواب[1] ﴿لَمَّا﴾ محذوفٌ دلَّ عليه جواب ﴿لَمَّا﴾ الثانية تقديره: ولمَّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّق لما معهم كذَّبوه. وقيل: جوابها جملة قوله الآتي: ﴿كَفَرُوا بِهِۦ﴾ كما سيأتي قريباً. ﴿و﴾ قد ﴿كانوا﴾؛ أي: اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل مبعث محمد ﷺ، ونزول القرآن، وبُني لقطعِه عن الإضافة إلى معرفة ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ ويستنصرون؛ أي: يطلبون من الله الفتح والنصر ﴿عَلَى﴾ أعدائهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأشركوا بالله؛ أي: يستنصرون به على مشركي العرب، وكفار مكة من أَسَدٍ، وغَطَفَانَ، ومُزَيْنَةَ، وجُهَيْنَةَ، ويقولون: اللهمّ! انصرنا عليهم بالنبيِّ الأميّ المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة، فكانوا يُنصَرون عليهم، وكانوا يقولون: لأعدائهم المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ وظهر لهم ﴿مَّا عَرَفُوا۟﴾ وما سبق لهم تعريفه للمشركين؛ أي: الحقُّ الذي عرفوه أوّلاً من كتابهم حقَّ المعرفة، وأخبروه للمشركين من بعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن: لأنَّ معرفة من أنزل هو عليه معرفةٌ له، والفاء[2] للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلَّل بينهما مدّةٌ مَنْسِيَّةٌ ﴿كَفَرُوا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الحقِ؛ أي:

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

جحدوا، وأنكروا برسالته ﷺ وبِكَوْنِ القرآن من عند الله تعالى حسداً، وخوفاً على الرئاسة، وحرصاً عليها، وغيَّروا صفته، وهو جواب ﴿لمَّا﴾ الأولى، والثانية تكريرٌ لها، كما مرت الإشارة إليه؛ أي: فيكون قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ تكريراً لقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للتأكيد؛ ولطول الفصل بين لمّا الأولى، وجوابها الذي هو جملة قوله: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: إبعادُ الله سبحانه، وطَرْده من خيرات الدنيا والآخرة عليهم؛ أي: على اليهود، ففيه[1] وَضْعُ الظاهر موضع المضمر؛ إشعاراً بأنّهم استحقُّوا اللعنة لكفرهم، والفاء للدلالة على ترتيب اللعنة على الكفر، واللام في الكافرين للعهد، أو للجنس، ودخلوا فيه دخولاً أوَّلياً؛ لأنّ الكلام فيهم.

واعلم: أنّ[2] اللعنة في حقّ الكفار: الطرد والإبعاد من الرحمة، والكرامة، والجنّة على الإطلاق، وفي حقّ المذنبين من المؤمنين: الإبعاد عن الكرامة التي وعد بها من لم يَخُضْ في ذلك الذنب، ومنه قوله ﷺ: «مَن احتكر فهو ملعون»؛ أي: من ادّخر ما يشتريه وقت الغلاء لبيعه وقت زيادة الغلاء، فهو مطرودٌ من درجة الأبرار لا من رحمة الغفار.

واعلم: أن الصفات المقتضية للعن ثلاثٌ: الكفر، والبدعة، والفسق، وله في كل واحدة ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم، كقولك: لعنة الله على الكافرين، أو المبتدعة والفسقة.

والثانية: اللعن بأوصافٍ أخصَّ منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى، أو على القدريّة، والخوارج، والروافض، أو على الزُّناة والظلمة، وآكل الربا، وكُلٌّ ذلك جائزٌ.

والثالثة: اللعن على الشخص، فإن كان ممن ثبت كفرهم شرعاً، يجوز لعنه

---

(١) النسفي.

(٢) روح البيان.

إن لم يكن فيه أذًى على مسلم، كقولك: لعنة الله على فرعون، وقارون، وهامان، وأبي جهل؛ لأنّه ثبت أنَّ هؤلاء ماتوا على الكفر، وعُرف ذلك شرعاً، وإن كان ممن لم يثبت كفره شرعاً كلعنة الله على زيدٍ، أو عمرٍو، أو غيرهما بعينه، فهذا فيه خطرٌ؛ لأنَّ حال خاتمته غير معلوم، ورُبَّما يسلم الكافر، أو يتوب المذنب، فيموت مقرَّباً عند الله تعالى، فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟ ألا ترى أنَّ وحشيًّا قتَلَ عمَّ النبي ﷺ أعني حمزة رضي الله عنه ـ ثُمَّ أسلم على يد النبي ﷺ، وبشَّره الله بالجنّة، وهذا حجةُ مَنْ لم يلعن يزيد بن معاوية؛ لأنّه يحتمل أن يتوب ويرجع عمَّا عليه، فمع هذا الاحتمال لا يُلْعنُ.

قال بعضُهم: لَعْنُ يزيد على اشتهارِ كفره، وتواترِ فظاعةِ شرّه؛ لَمَّا أنَّه كفَرَ حين أمر بقتل الحُسين ـ رضي الله عنه ـ ولِمَا قال في الخمر:

فإنْ حُرِّمَتْ يوماً علىٰ دينِ أحمدٍ   فخُذْهَا على دينِ المسيحِ ابنِ مريمِ

واتَّفقوا على جواز اللَّعن على من قتل الحُسَيْن ـ رضي الله عنه ـ أو أمر به، أو أجازه، أو رضي به، كما قال سعد الدين التفتازانيُّ: الحقُّ إنَّ رِضَى يزيد بقَتْلِ الحسين، واستبشاره به، وإهانَته أهلَ بيت النبي ﷺ ممَّا تواتر معناه، وإن كانت تفاصيله آحاداً، فنحن لا نتوقَّف في شأنه، بل في إيمانه لعنة الله عليه، وعلى أنصاره وأعوانه. انتهى.

ثم اعلم[1]: أنَّ اللعنة ترتدُّ على اللاعن إن لم يكنْ الملعون أهلاً لذلك، ولعن المؤمن كقتله في الإثم، وربَّما يلعن شيئاً من ماله، فتنزع منه البركة، فلا يلعن شيئاً من خلق الله تعالى، لا للجماد ولا للحيوان، ولا للإنسان، قال ﷺ: «إذا قال العبد لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربّه» فالأولى أن يترك، ويشتغل بدله بالذكر والتسبيح، إذ فيه ثوابٌ، ولا ثواب في اللعن، وإن كان يستحقُّ اللعن.

---

(١) روح البيان.

قال أبو حيان[1]: وظاهر قوله: ﴿مَّا عَرَفُواْ﴾ أنه الكتاب؛ لأنّه أتى بلفظ ما، ويحتمل أنّه يراد به النبيُّ ﷺ فإنَّ ﴿مَا﴾ قد يعبَّر بها عن صفات من يعقل، ويجوز أن يكون المعنى: ما عرفوه من الحق، فيندرج فيه معرفة نبوّته، وشريعته، وكتابه، وما تضمنه، وقوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لمَّا كان الكتاب جائياً من عند الله إليهم فكذَّبوه، وستروا ما سبق لهم عرفانه، فكان ذلك استهانةً بالمُرْسَلِ، والمُرسَل به، قابلهم الله تعالى بالاستهانة والطَّرد، وأضاف اللعنة إلى الله تعالى على سبيل المبالغة؛ لأنَّ من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقةً ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، ثـمّ إنّـه لـم يكتف باللعنة حتى جعلها مستعليةً عليهم، كأنّه شيءٌ جاءهم من أعلاهم فجلَّلهم بها، ثُمَّ نبَّه على علّة اللَّعنة وسببها وهي الكفر، كما قال قبل: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ و﴿مَا﴾[2] في قوله: ﴿بِئْسَمَا﴾ نكرةٌ موصوفة منصوبةٌ على التمييز، مفسّرةٌ لفاعل بئس المحذوف وجوباً، تقديره: بئس وقبح الشيء شيئاً ﴿ٱشْتَرَوْاْ﴾ صفة لما، واشترى بمعنى: باع وابتاع، والمراد هنا الأوّل ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد إلى ﴿مَا﴾؛ أي: بذلك الشيء ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ المرادُ[3] بها الإيمان، وإنَّما وضع الأنفسَ موضع الإيمان؛ إيذانا بأنّها إنّما خُلقت للعلم، والعملِ به المُعبَّر عنه الإيمان، ولمّا بدّلوا الإيمان بالكفر كانوا كأنّهم بدَّلُوا الأنفس به؛ أي: بئس الشيء شيئاً باعوا به أنفسهم؛ أي: إيمانَهم، والمخصوص بالذمّ ما ذكره بقوله: ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على محمد ﷺ؛ أي: بالكتاب المصدِّق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته؛ أي: والمخصوص بالذمّ كفرهم بالقرآن الذي أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ، المصدّق للتوارة التي معهم ﴿بَغْيًا﴾ علّة[4] لأنْ يَكْفُروا أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، كما أنّ الحاسد يطلب ما ليس له لنفسه مما للمحسود من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

جاه، أو منزلةٍ، أو خصلة حميدة، والباغي: هو الظالم الذي يفعل ذلك عن حسده، والمعنى: بئس الشيء شيئاً باعوه به إيمانَهم كُفْرُهم المعلَّلُ بالبغي الكائن لأجل ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ أي حسداً على أن ينزّل، فإنَّ الحسد يستعمل بعلى؛ أي: حسداً على أن ينزّل الله سبحانه وتعالى وحْياً وكتاباً ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ويختاره، ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وخلقه المستأهلين لتحمُّل أعباء الرسالة. وهو محمدٌ ﷺ، وطلباً لما أُنزل عليه لأنفسهم، وذلك أنَّ كفر اليهود لم يكن من شكٍ واشتباهٍ، وإنّما كان حسداً حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل، وذلك أنَّ اليهود كانوا يعتقدون نبيَّ آخر الزمان، ويتمنَّون خروجه، وهم يظنُّون أنَّه من ولد إسحاق، فلمَّا ظهر أنّه من ولد إسماعيل حسدوه، وكرهوا أن يخرج الأمر من بني إسرائيل، فيكون لغيرهم من العرب، وعِزُّ النبوّة من يعقوب إلى عيسى عليهما السلام، كان في إسحاق فختم في عيسى، ولم يكن من ولد إسماعيل نبيٌّ غير نبينا محمد ﷺ، فختمت النبوَّة على غيرهم، وعدموا العزّة، والشرف، والفضل، فحسدوا لذلك.

وقرأ أبو عمرو[1]، وابن كثير: جميع المضارع مخفَّفاً من أنزل، إلاّ ما وقع الإجماع على تشديده وهو في الحِجْرِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ إلاّ أن أبا عمرو شدَّد ﴿على أن ننزل﴾ آيةٌ في الأنعام، وابن كثير شدد، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ و﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ وشدَّد الباقون المضارع حيثما وقع إلاّ حمزة، والكسائي فخفَّفا ﴿وينزل الغيث﴾ في آخر لقمان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في الشورى والهمزة والتشديد كُلٌّ منهما للتعدية.

﴿فَبَآءُو﴾ أي: رجعوا وانصرفوا من الله ملتبسين ﴿بِغَضَبٍ﴾ كائنٍ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ أي: احتملوا بلعنةٍ من الله بسبب كفرهم بمحمد ﷺ، وبالقرآن مع غضبٍ استحقّوه، أوّلاً بتضييع التوراة وبتبديله، وبالكفر بعيسى؛ أي: استحقُّوا غضباً لاحقاً مع غضبٍ سابقٍ لهم، فاستحقُّوا لعنةً بعد لعنةٍ لأمور صدرت منهم،

(١) البحر المحيط.

فصاروا مستحقين غضباً مترادفاً، ولعنةً إثر لعنةٍ لعله: بما اقترفوا من كُفْر على كُفْر، فإنّهم كفروا بنبي الحق، وبغوا عليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: الأوّل بعبادتهم العجل، والثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: الأوّل بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني: بمحمد ﷺ، والقرآن ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولهم، والإظهار[1] في مقام الإضمار؛ للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: ذو إهانة وإذلالٍ؛ أَيْ: وللجاحدين بنبوّة محمد ﷺ من الناس كُلِّهم ﴿عَذَابٌ﴾ شديدٌ ﴿مُّهِينٌ﴾؛ أي: مُذِلٌّ لهم؛ أي: ذو إهانة وإذلال لهم، ولا يوصف بذلك إلاّ عذاب الكافرين؛ لأنَّ كفرهم سببه التكبُّر والحسد، فقوبلوا بالإهانة والصغار، وأمّا ما يقع للعصاة في الدنيا من المصائب، وفي الآخرة من دخول النار، فهو تطهيرٌ لهم.

ودلَّت الآية على أنَّ عذاب المؤمنين تأديبٌ وتطهيرٌ، وعذاب الكافرين إهانةٌ وإذلالٌ، وأنّ المراتب الدُّنيويَّة والأخرويَّة كُلَّها من فيض الله وفضله، فليس لأحدٍ أن يعترض عليه، ويحسده على الألطاف الإلٰهيَّة، فإنَّ الكمالات، مثل: النبوّة والولاية، ليست من الأمور الاكتسابيَّة التي يصل إليها العبد بجهد كثير، وكمال اهتمامٍ.

والمعنى: أي[2] ولهم بسبب كفرهم عذابٌ يصحبه إهانةٌ وإذلالٌ في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فيما يصيبهم من الخزي، والنكال، وسوء الحال، ليكونوا عبرة لمن يخلفهم من بعدهم، وأمّا في الآخرة فبخلودهم في جهنَّم وبئس المصير. ثمَّ ذكر ما يكون منهم لدى الحوار مع رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: وإذا قال المسلمون لليهود الموجودين في عصر النبي ﷺ في المدينة وما حولها، ومعنى اللام: الإنهاء، والتبليغ. وإسناد ﴿قِيلَ﴾ إلى ﴿ءَامِنُوا﴾ إسنادٌ له إلى لفظه، كأنّه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول، كقولك: أَلِّف (ضَرَبَ) من

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

ثلاثة أحرف ﴿ءَامِنُواْ﴾ وصدِّقوا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بالقرآن الذي أنزل الله على محمد ﷺ، أو بكُلِّ ما أنزل الله من الكتب الإلٰهيّة جميعاً ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت اليهود في جواب هذا القيل: ﴿نُؤۡمِنُ﴾؛ أي: نستمر على الإيمان ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ يعنون به التوارة، وما أنزل على أنبياء بني إسرائيل لتقرير حكمها، ويدسُّون فيه، أنَّ ما عدا ذلك غير منزل عليهم، وأسندوا الإنزال على أنفسهم؛ لأنّ المنزَّل على نبيٍّ، منزلٌ على أُمّته معنًى؛ لأنّه يلزمهم؛ أي: نؤمن ونصدِّق بما أنزل على أنبيائنا من التوراة، وكتب سائر الأنبياء الذين أتوا بتقرير شريعة موسى عليه السلام؛ أي: يكفينا الإيمان به دون غيره ﴿و﴾ هم ﴿يكفرون بما وراءه﴾؛ أي: سوى ما أنزل عليهم؛ أي: بما بعد ما أنزل عليهم من الإنجيل والقرآن ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنَّ ما وراء التوراة؛ أي: أنّ ما أنزل عليهم من القرآن ﴿الحق﴾ أي: الصدق الثابت من الله تعالى؛ أي: المعروف بالحقيقةِ، الحَقِيقُ بأن يُخَصَّ به اسمُ الحق على الإطلاق حال كونه ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً في التوحيد ﴿لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ من التوراة غير مخالف له حالٌ مؤكّدةٌ من الحق، والعامل فيها ما في الحق من معنى الفعل، وصاحب الحال ضميرٌ دَلَّ عليه الكلام: أي: أُحِقُّه مصدّقاً؟ أي: حال كونه موافقاً لما معهم، وفيه ردٌّ لمقالتهم؛ لأنّهم إذا كفروا بما يوافق التوراة، فقد كفروا بها فلا يصحّ دعواهم الإيمان بالتوراة.

ثمَّ اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع إِدِّعَائهم الإيمانَ بالتوراة[١]، والتوراة لا تسوِّغ قتل نبي بقوله: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد! تبكيتاً لهم من جهة الله تعالى، ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم؛ أي: إلزاماً وبياناً لكفرهم بالتوراة التي ادَّعوا الإيمان بها، إذا كان إيمانكم بالتوراة صحيحاً ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي فلم قتلتم أنبياء الله ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل نزول القرآن، كزكريَّا ويحيىٰ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالتوراة حقّاً، فإنَّ في التوراة تحريمَ القتل بغير حقّ، فأيُّ كتاب جوَّز لكم قتلهم؟ والمعنى: أنّهم لو آمنوا بالتوراة لما قتلوا الأنبياء، فآلَ أمْرُهم إلى كفرهم بجميع ما أنزل الله تعالى، لا بالبعض فقط كما ادَّعوه.

(١) روح البيان.

قوله: ﴿فَلِمَ﴾ أصله: (لما) لامه للتعليل، دخلت على ما الاستفهامية، وسقطت الألف؛ فرقاً بين الاستفهامية والخبريّة. وصيغة الاستقبال في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾؛ لحكاية الحال الماضية، وهو جواب شرط محذوف، تقديره: قُلْ لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فلأيِّ شيءٍ تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام؟.

فإن قلت: الخطاب[1] مع الموجودين في زمن النبي ﷺ، فلم خوطبوا بالقتل مع أنَّ قتل الأنبياء ليس واقعاً منهم، بل من أسلافهم؟.

قلتُ: خوطبوا بذلك؛ لأنّهم رضوا بفعل أسلافهم، والرضا بالكفر كفرٌ؛ أو لأنّهم أصرُّوا على قتل محمدٍ ﷺ، وقد تسبَّبُوا في ذلك مراراً، كما مرّ. وعبارة «الروح»: وأسند فعل الآباء وهو القتل إلى الأبناء؛ للملابسة بين الآباء والأبناء. اهـ.

قال أبو الليث: وفي الآية دليل على أنّ من رضي بالمعصية، فكأنَّه فاعلٌ لها؛ لأنّ اليهود راضون بقتل آبائهم، فسمَّاهم الله تعالى قاتلين، حيث قال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ الآية. وقرأ نافع وحده ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ مهموزاً في جميع القرآن، ووقف[2] البزّيُّ (فَلِمَهْ) بالهاء، ووقف غيره بغير هاء، ولا يجوز هذا الوقف إلا للاختبار، أو لانقطاع النفس. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط جوابه محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه؛ أي: إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم، وهو تكريرٌ للاعتراض؛ لتأكيد الإلزام، وتشديد التهديد. وقيل: ﴿إِن﴾ نافية؛ أي: ما كنتم مؤمنين؛ لأنَّ من قتل أنبياء الله لا يكون مؤمناً، فأخبر تعالى: أنَّ الإيمان لا يجامع مع قتل الأنبياء؛ أي ما اتَّصف بالإيمان مَنْ هذه صفته. قيل: والأظهر أنَّ ﴿إِن﴾ شرطية، والجواب محذوف كما مرَّ آنفاً

ثمّ ذكر سبحانه: أنّهم كفروا بالله مع وضوح الآيات في زمن موسى عليه

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ﴾ وهذا من [1] تمام التبكيت والتوبيخ، داخلٌ تحت الأمر بالقول، واللام موطِّئةٌ للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي: لقد جاءكم وأتاكم موسى بن عمران عليه السلام، حالة كونه ملتبساً ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة الظاهرة الدالّة على صدقه، وصحّة نبوّته؛ يعني: الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام، المذكورةَ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهي العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات، والدم، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، وفلق البحر ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلٰهاً وعبدتموه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد مجيئه بها، أو من بعد ذهاب موسى إلى جبل الطور لأخذ التوراة، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة، والدلالة على نهاية قبح ما فعلوا، وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أنفسكم بعبادته، حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾؛ أي: عبدتم العجل، والحال أنّكم واضعون العبادة في غير موضعها، أو حال كونكم ظالمين أنفسكم بعبادته، وهذه الآية توبيخ لليهود على كفرهم، وعبادتهم العجل بعدما رأوا آيات موسى، وبيان أنّهم كفروا بمحمد ﷺ، فليس بأعجب من كفرهم في زمن موسى؛ لقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب قدرة الله تعالى التي أجراها على يد موسى عليه السلام، ومع ذلك عبدوا العجل وكرّرت هذه الجملة ـ أعني: جملة اتخاذ العجل ـ لدعواهم أنّهم يؤمنون بما أنزل عليهم وهم كاذبون في ذلك، ألا ترى أنّ اتخاذ العجل ليس في التوراة؛ بل فيها أن يفرد الله سبحانه بالعبادة؛ أو لأنّ عبادة غير الله أكبر المعاصي، فكرّر عبادة العجل؛ تنبيهاً على عظيم جرمهم؛ ولأنّ ذكر ذلك أعقبه تعداد النعم بقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ و﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وهنا أعقبه التقريع والتوبيخ، ولأنّ في قصّة الطور ذكر توليهم عما أمروا به من قبول التوراة، وعدم رضاهم أحكامها اختياراً حتى أُلْجِئُوا إلى القبول اضطراراً، فدعواهم الإيمان بما أنزل إليهم غير مقبولة، ثمّ في قصّة الطور تذييلٌ لم يتقدّم ذكره، والعرب متى أرادت التنبيه على تقبيح شيء، أو تعظيمه كرَّرته، وفي هذا ـ التكرار أيضاً من الفائدة: تذكارهم

---

(١) البحر المحيط.

بتعداد نعم الله عليهم، ونقمه منهم؛ ليزدجر الأخلاف بما حلّ بالأسلاف. اهـ. من «البحر».

الإعراب

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجرّ بإضافة ﴿إذ﴾ إليها، والظرف في محل النصب معطوف على الظروف السابقة المعطوفة على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! وقت أخذنا ميثاقكم ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جملة مفسّرة للميثاق لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وإذ أخذنا ميثاقكم وقلنا: لا تسفكون دماءكم ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتخرجون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجرّ معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَشْهَدُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من تاء ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾، تقديره: حالة كونكم شاهدين على آبائكم قبول ذلك الميثاق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه ﴿أولاء﴾ اسم إشارة للجمع المطلق في محل النصب منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء للتخفيف، مبني بضمّ مقدّر على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة البناء الأصلي، وجملة النداء جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المبتدأ والخبر ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به

ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: ثمّ أنتم يا هؤلاء! قاتلون أنفسكم، والجملة الإسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ الواو عاطفة ﴿تُخْرِجون فريقاً﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِّنكُم﴾ جار ومجرور صفة لفريقاً ﴿مِنْ دِيارهم﴾ جار ومجرور متعلّق بتخرجون، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾. ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ فعل مضارع وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تخرجون﴾؛ أي: تخرجونهم من ديارهم حالة كونكم مُتعَاوِنيْن ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلّقٌ بتظاهرون ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ والباء للملابسة ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ معطوف على الإثم، والتقدير: تظاهرون عليهم حالة كونكم ملتبسين بالإثم والعدوان ﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية، أو اعتراضية إنْ حرف شرط وجزم ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل ومفعول به مجزوم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ حال من فاعل ﴿يَأْتُوكُمْ﴾؛ أي: حالة كونهم مأسورين لحلفائكم ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل ومفعول به مجزوم بإن الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف النون، وجملة إن الشرطية مستأنفة، أو معترضة؛ لاعتراضِها بين المعطوف وهو قوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ...﴾ الخ، والمعطوف عليه وهو جملة ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾. أو في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿هو﴾ ضمير الشأن في محل الرفع مبتدأ، ويسمّى ضمير القصّة، ولا يرجع إلاّ على ما بعده، إذ لا يجوز للجملة المفسِّرة له أن تقدَّم هي، ولا شيءٌ منها عليه، وفائدته: الدلالة على تعظيم المخبَر عنه وتفخيمه، وهذا هو الظاهر من الوجوه المنقول فيه، فيكون في محل رفع بالابتداء، قال في «المغني»: خالف القياس في خمسة أوجه:

أحدها: عوده على ما بعده لزوماً، إذ لا يجوز للجملة المفسِّرة له أن تتقدَّم عليه، ولا شيءٌ منه.

الثاني: أنَّ مفسِّره لا يكون إلاّ جملةً.

الثالث: أن لا يتبع بتابع فلا يؤكَّد، ولا يعطف عليه، ولا يبدل منه.
الرابع: أنّه لا يعمل فيه إلاّ الابتداء، أو ناسخٌ.
الخامس: أنّه ملازم للإفراد، ومن أمثلته: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. اهـ. «كرخي».

﴿مُحَرَّمٌ﴾ خبر مقدّم، وفيه ضمير قائم مقام الفاعل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بمحرّم. ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة الإسمية في محل الرفع خبرٌ لضمير الشأن، ولم يحتج هنا إلى عائدٍ على المبتدأ؛ لأنَّ الخبر نفس المبتدأ وعينه. اهـ. «كرخي»، والجملة الإسمية من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿تخرجون﴾، تقديره: وحالة كونكم محرّماً عليكم إخراجهم، ولكنّها حالةٌ سببيّةٌ، أو من مفعوله، أو منهما، وما بينهما اعتراض.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أتفعلون ذلك، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف ﴿تؤمنون﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة ﴿بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتؤمنون ﴿وَتَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تؤمنون﴾ ﴿بِبَعْضٍ﴾ متعلق بتكفرون ﴿فَمَا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفتم قبح صنيعكم، وأردتم بيان جزاء من يفعل ذلك، فأقول لكم: ما جزاء ﴿مَا﴾ نافيةٌ مهملةٌ؛ لانتقاض نفيها بإلاّ ﴿جَزَآءُ﴾ مبتدأ، وهو مضاف ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الجرّ مضاف إليه ﴿يَفْعَلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول به، والجملة صلةُ ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوفٍ حالٍ من فاعل ﴿يَفْعَلُ﴾، تقديره: حالة كونه كائناً منكم ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿خِزْىٌ﴾ خبر

المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ جار ومجرور متعلق بخزيٌ، أو بمحذوفٍ صفةٍ لخزي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو عاطفة ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ ظرفٌ ومضاف إليه متعلّق بيردُّون ﴿يُرَدُّونَ﴾ فعل مغيّر الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ عطف فعليّة على إسميّة ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بيردّون، ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ الواو عاطفة مَا نافية حجازيّة ولفظ الجلالة اسمها مرفوع ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ خبرها منصوب بفتحة مقدّرة والباء زائدة، وجملة مَا الحجازيّة من اسمها وخبرها في محلِّ النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بغافل مَا موصولة، أو موصوفة، أو مصدريّة في محل الجرّ بعن، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة للموصولة، أو صفة للموصوفة، أو صلةٌ لما المصدريَّة؛ أي: عن عملكم، وعائد الموصولة محذوف، تقديره: عمّا تعملونه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد واو الفاعل ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ مفعول به ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلّق باشتروا ﴿فَلَا﴾ الفاء حرف عطف وتفريع، ﴿لَا﴾ نافية ﴿يُخَفَّفُ﴾ فعل مضارع مغيَّر الصيغة ﴿عَنْهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ على كونها صلة الموصول ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ خبره، تقديره: ولا هم منصورون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ عطف إسميةٍ على فعليّة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا

كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية ﴿لقد﴾ اللام موطِّئةٌ للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فعل وفاعل، وهو بمعنى، أعطينا يتعدَّى لمفعولين ﴿مُوسَى﴾ مفعول أوّل ﴿الْكِتَابَ﴾ مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محلٌ لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ الواو عاطفة قفينا فعل وفاعل معطوفٌ على آتينا وهو بمعنى جئنا يتعدّى إلى المفعول بواسطة حرف الجر ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقفَّيْنا، أو متعلقٌ بمحذوفٍ حالٍ من الرُّسل ﴿بِالرُّسُلِ﴾ جار ومجرور متعلِّق بقفينا أيضاً ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل معطوف على ﴿قفينا﴾. ﴿ابْنَ﴾ بدل أو صفة لعيسى ﴿مَرْيَمَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة للعَلَميَّة والعجمية، أو التأنيث المعنوي ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ مفعول ثان منصوب بالكسرة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿آتينا﴾. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأيدناه ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة لجواب كلّما على ذلك المحذوف؛ لأنّ حقَّ الهمزة والفاء أن يدخلا على الجواب؛ لأنّه المستفهم عنه، والموبَّخ عليه، والمعيَّر به، والتقدير: أدمتم على التكذيب يا معشر اليهود! واستكبرتم عن الإيمان كلّما ﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾. ﴿كلّما﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبنيٌّ على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلِّق بالجواب ﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، و﴿جاء﴾ هنا بمعنى: أتى يتعدَّى إلى المفعول بلا واسطة حرف جرٍّ، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿كلّما﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بجاءكم ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَهْوَى﴾ فعل مضارع ﴿أَنْفُسُكُمُ﴾ فاعل، والجملة صِلةٌ لما الموصولة لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف، تقديره: بما لا تهواه أنفسكم ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿كلّما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كلّما﴾ من فعل شرطها وجوابها، جملةٌ إنشائيّة لا محل لها من الإعراب ﴿فَفَرِيقًا﴾ الفاء عاطفة ﴿فَرِيقًا﴾ مفعول به مقدَّم لكذبتم؛ قُدِّم للاهتمام به ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾

على كونها جواباً لكلّما ﴿وَفَرِيقًا﴾ الواو عاطفة ﴿فريقا﴾ مفعول مقدّم لتقتلون؛ لرعاية الفواصل ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبْتُمْ﴾.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو استئنافية ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بَل﴾ حرف إضراب وعطف، للإضراب الإبطالي ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ماض ومفعول مقدّم وفاعل مؤخر وجوباً ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ مُتعلِّق بلعنهم، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُواْ﴾، ﴿فَقَلِيلًا﴾ الفاء استئنافية، أو عاطفة ﴿قليلا﴾ منصوب على المصدرية بيؤمنون، قدّم عليه؛ لرعاية الفاصلة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: يؤمنون إيماناً قليلاً، أو منصوب على الظرفية بيؤمنون أيضاً؛ لأنّه صفة لزمان محذوف، تقديره: أي يؤمنون زماناً قليلاً، أو على الحالية من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: حال كونهم جمعاً قليلاً و﴿مَّا﴾ زائدة؛ زيدت لتأكيد القلّة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أو مستأنفة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو استئنافية ﴿لمَّا﴾ حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به ﴿كِتَٰبٌ﴾ فاعل، والجملة فعل شرطٍ للمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة أولى لكتاب، تقديره: منزَّلٌ من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة ثانية لكتاب، وفي قراءة: بالنصب على الحال من ﴿كِتَٰبٌ﴾ كما مرّ ﴿لِّمَا﴾ اللام حرف جرٍ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجرّ باللام متعلِّق بمصدق ﴿مَعَهُمْ﴾ (مع) منصوب على الظرفية، والهاء ضمير الغائبين في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوفٍ صلة ﴿لِمَا﴾ الموصولة، وجواب ﴿لِمَا﴾ محذوف؛ لعلمه من جواب ﴿لمَّا﴾ الآتية، تقديره: كذّبوه وأنكروه، وجملة ﴿لِمَا﴾ مع جوابها المحذوف مستأنفة ﴿وَكَانُواْ﴾ الواو حالية ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿مِن﴾ حرف جر ﴿قَبْلُ﴾ ظرف زمان في محل الجر بمن، مبني على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى المضاف إليه

المحذوف لنية معناه، والجار والمجرور متعلق بيستفتحون، أو بكانوا ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان في محل النصب حال من فاعل الجواب المحذوف ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بيستفتحون، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ الفاء عاطفة بمعنى الواو ﴿لَمَّا﴾ حرف شرط غير جازم جَاءَهُم فعل ومفعول به ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿عَرَفُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما عرفوه، وجملة ﴿جَآءَهُم﴾ فعل شرط لِلَمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بكفروا، وجملة ﴿لَمَّا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفةٌ على جملة ﴿لَمَّا﴾ الأولى، ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ الفاء استئنافيّة، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت صنعهم القبيح، وأردت بيان ما يستحقون به، فأقول لك: لعنة الله على الكافرين ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿بِئْسَمَا﴾ ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذمّ، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: يعود على شيء ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بمعنى شيء في محل النصب تمييز لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿ٱشْتَرَوْا﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق باشتروا، والجملة صفة لما، والرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لما، ولكنّها سببية، والتقدير: بِئْسَ الشيء شيئاً مشترًى به أنفسهم ﴾ ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَكْفُرُوا﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والواو فاعل ﴿بِمَآ﴾ جار - ومجرور متعلق بيكفروا ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد محذوف، تقديره: بما أنزل الله به، وجملة ﴿يَكْفُرُوا﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، على كونه

مخصوصاً بالذمّ لبئس، وجملة ﴿بئس﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبرٌ عنه، والتقدير: كفرهم بما أنزل الله به، بئس شيئاً باعوا به أنفسهم، والجملة من المبتدأ والخبر جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، أو مرفوعٌ على أنّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: والمخصوص بالذمّ كفرهم بما أنزل الله، كما قال: ابن مالك في «خلاصته»:

وَيُعْرَبُ الْمَخْصُوص بَعْدَ مُبْتَدَا أوْ خَبَر اسْمٍ لَيْسَ يَبْدُو أبدَا

﴿بَغْيًا﴾ مفعول لأجله منصوب بيكفروا ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: بغياً وحسداً على إنزال الله من فضله على من يشاء، والجار المحذوف متعلِّقٌ ببغياً؛ لأنّه بمعنى حسداً ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف معمول لـ﴿يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾، تقديره: أنّ ينزّل الله وحْياً كائناً من فضله وإحسانه ﴿عَلَىٰ مَن﴾ جار ومجرور متعلق بينزّل ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: على من يشاؤهُ ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير المحذوف العائد على ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿فَبَآءُو﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفت بغيهم الشنيع، وحسدهم الفظيع، وأردت بيان جزائهم، فأقول لك: باءوا بغضبٍ ﴿باءوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿بِغَضَبٍ﴾ متعلِّق بباءوا، أو حال من فاعل ﴿باءوا﴾؛ أي: حال كونهم ملتبسين بغضب ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ صفة لغضب ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الواو استئنافية ﴿للكافرين﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة العذاب، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بقيل ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ نائب فاعل محكي لقيل مرفوع بضمّة مقدّرة على لفظ الجلالة الممنوعة بحركة الحكاية، والجملة من الفعل المُغيَّر ونائب فاعله، في محل الجر بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل أمر وفاعله، والجملة في محل الرفع نائب فاعل ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بآمنوا ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، والعائد محذوف، تقديره: بما أنزله الله ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿نُؤْمِنُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على اليهود، تقديره: نحن، والجملة في محل النصب مقول لقالوا ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بنؤمن ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾ تقديره: هو، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الواو حالية ﴿يكفرون﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾ تقديره قالوا ذلك حال كونهم كافرين بما وراءه ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بيكفرون ﴿وَرَآءَهُۥ﴾ منصوب على الظرفيّة، والهاء مضاف إليه، والظرف متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حالٌ من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ والعامل فيها ﴿يكفرون﴾ تقديره: ويكفرون بما وراءه حالة كونه حقاً ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال ثانية من ﴿مَا﴾ أيضاً مؤكّدة لمضمون الجملة؛ لأنّ تصديق القرآن لازم له، لا ينتقل عنه؛ لأنّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قد تضمّن معناها، وصاحبها ضمير دلّ عليه الكلام، وعاملها فعل مضمر، تقديره: أحقّه مصدّقاً ﴿لِمَا﴾ جار ومجرور متعلّق بمصدّقاً ﴿مَعَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليهم متعلق بمحذوف صلة ﴿لِمَا﴾، أو صفة لها ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَلِمَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط

مقدّر، تقديره إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله، اللام حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ فرقاً بينها وبين الموصولة؛ لشبهها بالحرف شبهاً معنوياً، وقد تحمل الاستفهامية على الخبريّة فتثبت ألفها، وقد تحمل الخبريّة على الاستفهامية فتحذف ألفها. انتهى. «سمين». الجار والمجرور متعلق بتقتلون ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بأن الشرطيّة على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية المحذوفة في محل النصب على كونها مقولاً لقل ﴿أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق بتقتلون ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبرها، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم مؤمنين، فلم فعلتم ذلك، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لقل.

وفي «الفتوحات الإلٰهية» قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في ﴿إِن﴾ قولان:

أحدهما: أنّها شرطيّة، وجوابها محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين، فَلِم فعلتم ذلك، ويكون الشرط وجوابه قد ذكر مرتين، فحذف الشرط من الجملة الأولى، وبقي جوابها وهو فلِمَ تقتلون، وحذف الجواب من الثانية، وبقي شرطه، فقد حُذف من كل واحدٌ ما أثبت في الأخرى، فيُسمَّى هذا احتباكاً، عند البديعيين، وقال ابن عطيّة: جوابها متقدّم وهو قوله: ﴿فَلِمَ﴾ وهذا إنّما يتأتّى على قول الكوفيين، وأبي زيد.

والقول الثاني: أنّ ﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)؛ أي: ما كنتم مؤمنين لمنافاة ما صدر منكم للإيمان. اهـ. «سمين».

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو عاطفة جملة القسم على جملة قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ على كونها مقولاً لقل، أو استئنافية، واللام موطّئة للقسم ﴿قَدْ﴾ حرف

تحقيق ﴿جَآءَكُم مُّوسَىٰ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ فهو داخل تحت الأمر السابق، والتقدير: وقل لهم: لقد جاءكم موسى بالبينات، كما في «الجمل». ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من موسى، تقديره: حالة كونه متلبساً بالبينات ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ في الرتبة، والدلالة على نهاية قبح ما صنعوا ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أوّل، والثاني محذوف، تقديره: إلٰهاً، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قد جاءكم﴾ على كونها جواب القسم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باتخذتم ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾، تقديره: ثمّ اتخذتم العجل من بعده حالة كونكم ظالمين؛ أي: واضعين العبادة في غير موضعها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ السفك: الصبُّ والإراقة، وفي «المصباح»: سفكت الدمع والدمّ سَفْكاً من باب ضرب، وفي لغةٍ من باب قتل، أَرَقْتُه، والفاعل السَّافِكُ وسَفَّاكٌ مبالغةٌ. اهـ. وفي «السمين»: وقرىء: ﴿لَا تَسْفُكُون﴾ بضم الفاء، وتُسْفِكُون من أسفك الرباعيّ. اهـ.

﴿دِمَآءَكُمْ﴾ جمع دم، والدم معروفٌ وهو محذوف اللام، وهي ياءٌ لقول الشاعر:

لَقَدْ جَرَى الدَّمْيانِ بِالخَبرِ اليْقِينِ

أو واوٌ لقولهم: (دَمَوان) ووزنه فَعْلٌ، وقيل: فَعَلٌ، وقد سمع مقصوراً، قال:

غَفَلَتْ ثُمَّ أَتَتْ تَطْلُبُهُ　　فَإذا هِيَ بِعِظَامٍ وَدَمَا

وقال: آخر

وَلَكِنْ عَلَى أَعْقَابِنَا يَقْطُرُ الدَّمَا

في رواية من رواه كذلك، وقد سمع مشددَّ الميم، قال الشاعر:

أَهَانَ دَمَّكَ فَرْغاً بَعْدَ عِزَّتِهِ   يَا عَمْرُو بَغْيُكَ إِصْراراً عَلَى الحَسَدِ

قال سيبويه: أصله: دَمْيٌ على وزن فَعْل بالتسكين؛ لأنّه يجمع على دماء نظير ظَبْي وظِبَاءٍ، ولو كان مثل قفا وعصا لما جمع هذا الجمع، وعلى هذا فلامه الذاهبة ياءٌ، وقال المبرّد: أَصْلُهُ: دَمَيٌ بوزن فَعَلٍ بالتحريك، وجاء جمعه مخالِفاً لنظائره، ويثنَّى: على دَمَيان، وقال الجوهري: في «صحاحه»: الدم أصله: دَمَوٌ بالتحريك، وإنّما قالوا: دَمِيَ يَدْمَى؛ لحال الكسرة التي قبل الياء، كما قالوا: رضي يرضى وهو من الرضوان، وعلى كُلِّ حالٍ، فالهمزة في قوله: ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ إمّا بدلٌ من واوٍ، كما هو رأيُ الجوهري ومن وافقه، أو بدلٌ من ياءٍ، كما هو رأي سيبويه، والمبرد، وصاحب «القاموس» ومن وافقهم، تطرَّف حرف العلة بعد ألف زائدةٍ، فقلبت همزةً ﴿مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ جمع دار، وأصل دار: دَوَرٌ، تحرَّكت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فلمّا أُعِلَ اللفظُ في المفرد حُمل عليه الجمعُ، فأُعِلَّ بإبدال الواو ياءً، إذ الأصل في الجمع أن يقال: دِوَارٌ، ولمَّا وقعت الواو بين كسرةٍ وألفٍ قلبت ياءً، كما سيأتي نظائره في المصادر، كالصيام، والقيام، وعبارة «السمين» هنا: وديار جمع دار والأصل: دِوار؛ لأنّها من دار يدور، وإنّما قلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها، واعتلالها في الواحد. اهـ. وقال أبو حيان: الديار: جمع دار وهو قياسٌ في فَعَلٍ الاسم إذا لم يكن مضاعفاً، ولا معتلَّ لامٍ، نحو: طَلَلٍ، وفتى، والياء في هذا الجمع منقلبةٌ عن واو، إذ أصله: دِوَارٌ وهو قياسٌ - أعني: هذا الإبدال - إذا كان جمعاً لواحدٍ معتل العين، كثوب، وحوض، ودار بشرط أن يكون فعالٌ صحيح اللام، فإن كان معتلّه لم يبدل، نحو: رَاوٍ، وقالوا في جمع طويل: طِوالٌ، وطِيالٌ. اهـ.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أقرَّ الشي اعترف به، والإقرار: شهادة المرء على نفسه وهو مجازٌ عن القبول، والرضا بالشيء. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ تتعاونون عليهم كأنَّ المتظاهرين يسند كُلُّ واحد منهم ظهره إلى صاحبه، والظهر المعين، قرىء

بتخفيف الظَّاء على حذف إحدى التاءين، والأصل: تتظاهرون على حدِّ قول ابن مالك في «الخلاصة» في باب الإدغام:

وَمَا بِتَاءَيْنِ ابْتُدِي قَدْ يُقْتَصَرْ فِيهِ عَلَى تَا كَـ (تَبَيَّنُ) العِبَرْ

الأصل: تتبيَّنُ العبر، ولم يكن هناك سبيلٌ إلى الإدغام لاستدعائه همزة الوصل، وهمزة الوصل لا تدخل على المضارع، ومذهب سيبويه، والجمهور: أنَّ المحذوفة الأخيرة؛ لأنَّ الثقل وقع بها؛ ولعدم دلالتها على معنى المضارعة، ومذهب الكوفيين: أنَّ المحذوفة الأولى، ولا طائل تحت هذا الخلاف. وقرىء: ﴿تَظَّاهَرُون﴾ بالتشديد، ووُجِّه ذلك أنَّ التاء الثانية أبدلت ظاءً وأدغمت في الظاء، وكذلك ما سيأتي في سورة التحريم من قوله: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وصلة الفعل محذوفةٌ، والمعنى: تظاهرون بحلفائكم من العرب حال كونكم مُلْتَبسين بالإثم والعدوان. اهـ. شيخنا. والإثم في الأصل: الذَّنْبُ، وجمعه آثام، ويطلق على الفعل الذي يستحقُّ به صاحبه الذم واللَّوْم، وقيل: هو ما تنفر منه النفس، ولا يطمئن إليه القلب، فالإثم في الآية يحتمل أن يكون مراداً به ما ذكرتُ من هذه المعاني، ويحتمل أن يتجوَّز به عمّا يوجب الإثم إقامة للسبب مقام المسبب، والعدوان: التجاوز في الظلم وهو مصدرٌ، كالغفران، والكفران، والمشهور: ضمُّ فائه، وفيه لغةٌ بالكسر. اهـ. «سمين».

﴿أُسَٰرَىٰ﴾ وفي «المصباح»: أنَّ كُلاًّ من أسرى، وأُسارى جمع أسير، وفي «السمين»: يحتمل أنَّ أُسارى جمع أسرى، وأسرى جمع أسير. اهـ. وفي «البحر»: الأسرى: جمع أسير، وفعلى مقيسٌ في فعيلٍ بمعنى: مُمْسَكٍ، أو مُوجَعٍ، كقتيلٍ، وجريحٍ، وأمّا الأُسارى فقيل: جمع أسير، وسمع الأَسارى بفتح الهمزة، وليست بالعالية، وقيل أُسارى: جمع أسرى، فيكون جمع الجمع، قاله المفضَّلُ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى من في اليد، والأسارى من في الوِثاقِ، والأسير هو المأخوذ على سبيل القهر والغلبة ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾؛ أي: تنقذوهم. من الأسر بالمال، وفي «المختار»: فاداه، وفداه: أعطى فداءه من المال، أو الرجال، فأنقذه. اهـ. وفي «البحر» الفداء بالكسر فيُمدُّ، كما قال النابغة:

مَـهْـلاً فِـدَاءً لَـكَ الأقْـوَامُ كُـلُّـهُـم   وَمَـا أثْـمَـرُوا مِـنْ مَـالٍ وَمِـنْ وَلَـدِ

ويقصر قال:

فِـداً لله مِـنْ رَبٍّ طَـرِيْـفِـي وَتـالِـدِي

وإذا فُتح أوّلهُ قصر يقال قُمْ فَداً لَكَ أَبِي قاله الجوهري، ومعنى: فَدَى فلانٌ فلاناً أي أعطى عوضه.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ المحرَّم: اسم مفعول من حرَّم، وهو راجع إلى معنى المنع، تقول: حرَّمه يحرِّمه إذا منعه ﴿فَمَا جَزَآءُ﴾ الجزاء: المقابلة، ويطلق في الخير والشرّ، والهمزة فيه مبدلة من ياء؛ لتطرّفها إثر ألفٍ زائدة، فالأصل: جزايٌ ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ الخزي: الهوان، قال الجوهري: خَزِي بالكسر يخزَىٰ خِزْياً، وقال ابن السكيت: وقع في بليّةٍ، وأخزاه الله أيضاً، وخزِي الرجل في نفسه، يخزى خزايةً إذا استحيا وهو خزيانٌ، وقومٌ خَزَايا، وامرأةٌ خَزْيا، وفي «المصباح»: خَزِي خِزْياً من باب علم، إذا ذَلَّ وهان، وأخزاه الله أذلَّه وأهانه، وخَزِي خَزايةً بالفتح وهو الاستحياء، فهو خَزْيانٌ. اهـ. ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ تقدَّم أن ألف الحياة منقلبةٌ عن واو ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ وصفٌ جاء على وزن فعلى هو من الدُّنُوِّ بمعنى: القرب، والمعروف أنَّ فُعلىٰ إذا كانت وصْفاً، وكانت لامُها واواً أُعِلَّت؛ أي: أبدلت ياءً، كما في الدنيا، أصلها: الدُّنْو، أبدلت الواو ياءً، وسلمت في الاسم فلم تُبْدَل، ولم يأت ذلك في القرآن، ولكن ورد في «لسان العرب»، قال ذُو الرُّمَّةِ:

أَدَارٌ بِـحُـزْوَى هُـجْـتِ لِـلْـعَـيْـنِ عَـبْـرَةً   فَـمَـاءُ الـهَـوَى يَـرْفَـضُّ أوْ يَـتَـرَقْـرَقُ

فَتراهُ قال: حُزْوَى، ولم يَقُلْ حُزْيا؛ لأنه اسمٌ لا وَصْفٌ، وعلى العَكْسِ من ذلك إذا كانَتْ وَصْفاً، أمَّا عَدمُ إعلالِ قُصْوَى في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ فهو فصيحٌ في الاستعمال نادرٌ في القياس، وقد بَيَّن ابنُ مالك هذه الأحكام، فقال:

مِنْ لاَمِ فَـعْـلَـى اسْـمـاً أتَـى الـوَاوُ بَـدَلْ   يَـاءٍ كَـتَـقْـوَى غَـالِـبـاً جَـا ذَا الـبَـدَلْ

بِـالـعَـكْـسِ جَـاءَ لاَمُ فُـعْـلَـى وَصْـفـاَ   وَكَـوْنُ قُـصْـوَى نَـادِراً لا يَـخْـفَـى

قال أبو حيان: والألف في الدنيا للتأنيث، ولا تحذف منها الألف واللام إلاّ في شعرٍ:

فِـي سَـعْـيِ دُنْـيَـا طَـالَـمَـا قَـدْ سُـدَّت

والدنيا تارةً تستعمل صفةً، وتارة تستعمل استعمال الأسماء، فإذا استعملت صفةً، فالياء مُبْدَلة من واوٍ إذْ هي مشتقَّةٌ من الدُّنُوّ، وذلك نحو: العليا، ولذلك جَرَتْ صفةً على الحياة في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأمَّا القصوى والحلوى: فشاذٌ، وإذا استعملت استعمال الأسماء فكذلك، وقال أبو بكر بن السرَّاج في «المقصور والممدود» له: الدُّنيا مؤنّثةُ الأدنى، مقصورةٌ تكتب بالألف، هذه لغة نجدٍ، وتميمٍ خاصَّةً، إلاّ أنَّ أهل الحجاز، وبني أسد يلحقونها ونظائرها بالمصادر ذوات الواو، فيقولون: دُنْوَى، مثل: شُرْوَى، وكذلك يستعملون بكل فُعْلى موضع لامها واواً يفتتحون أوَّلها، ويقلبون الواوَ ياءً؛ لأنّهم يستثقلون الضمّة والواو. انتهى. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ القيامة فيه إعلال بالقلب، فالياء فيه منقلبة عن واو؛ لأنّه من قام يقوم، واويَّ العين، أعلَّت عين المصدر حملاً له على الفعل قام، فالأصل: القوامة، أبدلت الواو ياءً؛ لوقوعها إثر كسرةٍ وبعدها ألفٌ ﴿يُرَدُّونَ﴾ أصله: يردد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أصله: أشدد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: اشتريوا من اشترىٰ بوزن افتعل من الشراء، تحرَّكت الياء وانفتح ما قبلها، فَقُلِبَتْ ألفاً، فالتقى ساكنان الألف، وواو الجماعة، فحذفت الألف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ آتينا أصله: أأْتينا بوزن أَفْعلنا، أبدلت الهمزة الساكنة حرف مدّ للأولى ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يقال: قفوت الأثر اتَّبعته، والأصل: أن يجيء الإنسان تابعاً لقفا الذي اتَّبعه، ثُمَّ تُوسِّع فيه حتى صار لمطلق الاتباع، وإنْ بَعُد زمان المتبوع من زمان التابع، وقال أُميَّةُ:

قَـالَـتْ لأخْـتٍ لَـهُ قُـصِّـيْـهِ عَـنْ جُـنُـبٍ وَكَـيْـفَ تَـقْـفُـو ولا سَـهْـلَ ولا جُـدَدُ

وفي «السمين»: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ التضعيف فيه للتعدية، إذ لو كان

كذلك لتعدَّى إلى اثنين؛ لأنّه قبل التضعيف يتعدَّى لواحدٍ، نحو: قفوت زيداً، ولكنّه ضُمِّن بمعنى جئنا، كأنَّه قيل: وجئنا من بعده بالرسل، وأصله: قفَّونا، ولكن لمَّا وقعت الواو رابعةً قلبت ياء، واشتقاقه من قفوته إذا اتبعت قفاه، ثُمَّ اتسع فيه، فأُطلق على كُلِّ تابع وإن بعد التابع من زمان المتبوع، كما مرّ آنفاً، والقفا: مؤخّر العنق، ويقال له: القافية أيضاً، ومنه قافية الشعر.

﴿بِٱلرُّسُلِۖ﴾ جمع رسول بمعنى: المرسل، ولا ينقاس فُعْلٌ في فعول بمعنى مفعول، وتسكين عينه لغة أهل الحجاز، والتحريك لغة بني تميم ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى: اسمٌ أعجميٌّ، علم لا يصرف للعجمة والعَلَميَّة، ووزنه عند سيبويه: فِعْلى، والياء فيه مُلْحَقةٌ ببنات الأربعة بمنزلة ياء معزى؛ يعني: بالياء، الألف سمَّاها ياءً؛ لكتابتهم إيّاها ياءً. قال أبو علي: وليست، ألفه للتأنيث، كالتي في ذكرى؛ بدلالة صرفهم له في النكرة، ومن زعم أنّه مشتقٌّ من العيس وهو بياضٌ يخالطه شُقْرةٌ، فغير مُصيب؛ لأنَّ الاشتقاق العربيَّ لا يدخل الأسماء الأعجمية ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ مريم باللُّغة السريانية، معناه: الخادم، وسُمّيت به أمُّ عيسى، فصار علماً، فامتنع الصرف للتأنيث والعلمية، ومريم باللِّسان العربي من النساء، كالزِّيْرِ من الرجال، وبه فُسِّر قول رؤْبة:

قُلْتُ لِزِيْرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُهْ

والزِّيْرُ: الذي يُكْثِرُ خُلطةَ النساء وزيارتَهنّ، والياء فيه مبدلة من واو، كالريح، إذ هما من الزَّوْرِ، والرَّوْحِ، فصار هذا اللفظ مشتركاً بالنسبة إلى اللِّسانين، ووزن مَرْيَم عند النحويِّين مَفْعَلٌ؛ لأنَّ فَعْيَلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية، كما ثبت نحو: عَثْيَرٍ، وعَلْيَبٍ. قاله الزمخشري، وغيره ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جمع بَيِّنَة بوزن فَيْعِلَة، فأصلها: بَيْيِنَةٌ بوزن فيْعِلَة، أدغمت ياء فيعل في عين الكلمة، وكذلك بَيِّنَاتٌ وَزْنُه فَيْعِلاتٌ، والبَيِّنُ: الواضح من كل شيء من بان إذا وضح وظهر. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ وفي «المختار»: آد الرجل: اشتدَّ وقوى، وبابه: باع، والأيد والآد بالمدِّ: القوَّةُ، تقول: أيَّده تأييداً، والفاعل منه مُؤيِّد بوزن مُكرِّم، وتأيَّد الشيء تقوَّى، ورجلٌ أيِّدٌ بوزن جَيِّدٍ؛ أي: قَوِيٌّ. اهـ. يقال: أيَّد تأييداً من باب

فَعَّل المضعَّف، وآيد إِئْياداً من باب أفعل، وكلاهما من الأيد، وهو القُوَّة ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ والرُّوح من الحيوان: اسمٌ للجزء الذي تحصل به الحياة، قال الراغب: واختلف الناس فيه وفي النفس، أهما من المشترك أم من المتباين؟ وفي ماهية الروح والنفس، وقد صُنِّف في ذلك ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ الطهارة، وقيل البركة ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الرسول: فعول، بمعنى: المرسل وهو قليلٌ في كلامهم، ومنه الحلوب، والرَّكُوب بمعنى: المحلوب، والمَرْكُوب ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾؛ أي: تُحِبّ وتختار، ماضيه على فَعِل كرضي، ومصدره الهوى، وفيه إعلالٌ بالقلب، أصله: تَهْوَى بوزن تَفْعَل، تحرَّكت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وفي «الجمل»: وتهوى: مضارع هَوِيَ بالكسر إذا مال وأحبَّ، وفي «المختار»: هَوِيَ أحبَّ، وبابه: صَدِيَ، ويقال: هَوَىٰ يَهْوِي، كرمى يرمي، هَوْيًا بالفتح إذا سقط. اهـ. وهُوِيًّا بضمّ الهاء وفتحها. انتهى. اهـ. «مصباح».

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ وفي «السمين»: وغُلْفٌ بسكون اللام: جمع أغلف، كأحمر وحُمْرٍ، وأصفر وصفر، وهو الذي لا يفقه، والمعنى على هذا: إنّها خلقت وجبلت مُغشَّاةً لا يصل إليها الحق. اهـ. أو جمع غلافٍ وهو الغشاء، فيكون أصله التثقيل فخفِّف. اهـ. من «البحر» ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ واللَّعْنُ: الطَّرد والإبعاد، يقال: شَأْوٌ لَعِينٌ؛ أي: بعيدٌ، وقال الشَّمَّاخُ:

ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا وَنُفَيْتُ عَنْهُ ... مَقَامَ الذِئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِيْنِ

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ مضارع شَيِءَ بكسر العين يشاء بفتحها، كعلم يعلم، نقلت حركة الياء إلى الشين في المضارع، فسكنت الياء وفتح ما قبلها، ثُمَّ قلبت ألفاً نظراً إلى حركتها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، فكأنَّها توفَّرت فيها شروط القلب نظراً لحالها الأوَّل، وحالها الرَّاهن، ولهذا نظائر كثيرةٌ في القرآن، مِثْلُ: يكادُ، ويراد، وفي كلام العرب. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ المعرفة: العلم المتعلق بالمفردات، ويسبقه الجهل، بخلاف أصل العلم، فإنّه يتعلَّق بالنِّسَبِ، وقد لا يسبقه الجهل، ولذلك لم يوصَفِ الله تعالى بالمعرفة، ووُصِفَ بالعلم ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ بئس: فعلٌ وضع للذمِّ، وأصله: فعل، وله، ولنِعْم باب معقودٌ في النحو ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾.

البَغْيُ: الظلم، وأصله: الفساد، من قولهم: بغى الجرح إذا فسد. قاله الأصمعي. وقيل: أصله: شدة الطلب، ومنه ما نَبْغِي، ومنه سُمِّيت الزانية: بَغِيًّا؛ لشدّة طلبها للزنا ﴿باءوا بغضب﴾ أصله: بَوَأَ، تحرَّكت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثمّ أسند الفعل إلى ضمير الجماعة، فبني على الضمّ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مهين: اسم فاعل من أهان الرباعي، واشتقاقه من الهوان، فأصله: مُهْوِنٌ على وزن مُفْعِل، نقلت حركة حرف العلة إلى الساكن الصحيح قبله، فسكنت الواو، إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ، والإهانة: الإذلال، ويقال: هان هواناً لم يُحْتَمل به، وهو معنى الذُلِّ، وهو كون الإنسان لا يُؤْبَهُ به، ولا يُلْتَفت إليه ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ والوَرَاءُ من الظروفِ المتوسطةِ التصرفِ، وتكون بمعنى: قُدَّام، وبمعنى: خلف، وهو الأشهر فيه.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تُسَبِّبُوا في إراقة دمائكم؛ لأنَّ من أراق دم غيره، فكأنَّما أراق دم نفسه، فهو من باب المجاز بأدنى ملابسةٍ؛ أو لأنّه يوجب قصاصاً، فهو من باب إطلاق المسبَّب وإرادة السبب.

ومنها: الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾؛ لأنّه استعار الإقرار لقبول الميثاق ورضاه، ثُمَّ اشتقَّ منه أقررتم بمعنى: قبلتم على طريقة الاستعارة التصريحية التبعيَّة.

ومنها: الإسناد العقليُّ في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾؛ لأنَّ الإقرار إنَّما وقع للأسلاف، فأسنده إلى الأخلاف الذين خوطبوا بهذا الكلام؛ لرضاهم بما فعل أسلافهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ عبَّر عن قتل الغير

بقتل النفس؛ لأنَّ من أراق دم غيره، فكأنَّما أراق دم نفسه، فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة، كما مرّ آنفاً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ومنها: بيان جزائهم بطريق القصر في قوله: ﴿إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم بِبَعْضِ الكتاب، وإظهار أنّه لا أثر له أصلاً مع الكفر ببعض.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿إِلَّا خِزْىٌ﴾؛ لإفادة التهويل والتفخيم.

ومنها: الاستعارة المكنية التبعية في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث استعار الشراء للاستبدال تقدّم نظيرها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنّه أطلق الملزوم الذي هو الإيمان، وأراد لازمه الشرعي وهو فعل الواجبات، وترك المنهيات، وقد فعلوا بعض الواجبات، وهو الفداء، ولم يتركوا المحرم، وهو القتال والإخراج.

ومنها: تقديم المفعول على عامله في قوله: ﴿فريقا كذّبتم﴾ وقوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ للاهتمام به، وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه؛ وللفاصلة.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿فريقا تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم، كما قال ﴿كذبتم﴾؛ لأنّ الفعل المضارع كما هو المألوف في أساليب البلاغة، يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً، فكأنّه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السَّامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم، ويسمَّى هذا عند البلغاء: حكاية الحال الماضية، وصورتها: أن يُقدَّر، ويفرض الواقع في الماضي واقعاً وقت التكلُّم، ويخبرَ عنه بالمضارع الدال على الحال اهـ. من «الفتوحات».

ومنها: إضافة الموصوف إلى الصفة في قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي:

بالروح المقدَّس وهو جبريل، وتسميته روحاً على سبيل الاستعارة، لمشابهته الروح الحقيقيَّ في أنَّ كُلّاً جسمٌ لطيفٌ نورانيٌّ، وأنَّ كلّاً مادّة الحياة، فجبريل تحيا به القلوب والأرواح من إتيانه بالوحي، والعلوم، والروح تحيا به الأبدان والأجساد.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف مستعارٌ من الأغلف الذي لا يُختَن؛ أي: مغشّاةٌ بالغشاء المعنويِّ، كما أنَّ الحشفة مُغطّاةٌ بالقُلْفة.

ومنها: زيادة ما في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لإفادة المبالغة في القِلَّة.

ومنها: وصف الكتاب بكونه من عند الله في قوله: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للتشريف.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لم يقل: عليهم؛ للدلالة على أنَّ اللَّعنة لحقتهم لكفرهم.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾؛ حكايةً للحال الماضية، واستحضاراً لفعلهم الشَّنيع.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ حيث لم يقل: ولهم؛ للإشعار بعِلِّية كفرهم لما حاق بهم.

ومنها: المجاز العقليُّ في قوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ حيث أسند الإهانة إلى العذاب؛ لكونه سببها.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ حيث لم يقل: فلم قتلتم أنبياء الله؛ لحكاية الحال الماضية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمّا عدَّد[1] في الآيات السالفة ما أنعم به على بني إسرائيل من النعم، وذكر ما قابلوها به من الكفران، ذكر هنا أنَّ الآيات البينات الدالة على صدق دعوة موسى، ووحدانية الله، وعظيم قدرته، لم تزدهم إلاّ انهماكاً في الشرك، وتوغّلاً في ضروب الوثنية، فالنعم التي أسبغها عليهم لم يكن لها من شكر إلاّ اتخاذ العجل إلٰهاً يعبدونه من دون الله، فكيف يعتذرون عن عدم الإيمان بمحمد ﷺ، بأنّهم لا يؤمنون إلاّ بما أنزل إليهم، وهذا دليل على قسوة قلوبهم، وفساد عقولهم، فلا أمل فيهم لهداية، ولا مطمع لفكرٍ وتأمُّلٍ، بعد أن اختلَّ الوجدان، وضعف الجنان، وهذه الآيات البينات التي ذكرت هنا: كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة، وما ذكر من النعم هناك كان في أرض الميعاد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر في الآيات السالفة معاذير لليهود اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد ﷺ، وما جاء به من الآيات البينات، كقولهم: إنّهم مؤمنون بكتابٍ من ربّهم، فلا حاجة لهم بهداية غيره، فَنَقَض دعواهم، وألْزَمَهم الحجة، وقولَهم: إنّهم ناجون حتماً في الآخرة؛ لأنّهم شَعْبُ الله وأبناؤُه، فأبطل مزاعمهم، ودَحضَ حُجَجهم... ذكر[2] هنا تَعِلَّةً أخرى هي أعجبُ من كل ما تقدَّم، وفنَّدَها كما فنَّد ما قبلها، تلك هي قولهم: إنَّ جبريل الذي يَنزل على محمد ﷺ بالوحي عدوُّهم، فلا يؤمنون بما يجيء به منه، وقد أُثِر عنهم عدَّةُ روايات تشرحُ هذه المقالةَ:

منها: أن أحد علمائهم وهو عبد الله بن صوريا، سأل النبي ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي؟ فقال: هو جبريل، فقال ابن صوريا: هو عدو اليهود؛ لأنّه أنذرهم بخراب بيت المقدس، فكان ما أنذر به.

ومنها: أنّ عمر بن الخطاب دخل مِدْراسهم، فذكر جبريل، فقالوا: ذاك

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

عدونا يطلع محمداً على أسرارنا، وأنّه صاحب كل خسف وعذاب، وأنّ ميكائيل ملك الرحمة ينزل بالغيث والرخاء.

ولا شكّ أنّ هذا منهم دليل على خطل الرأي، وعدم التدبُّر، وإنّما ذكره الكتاب الكريم؛ ليستبين للناس حجج أهل الكتابِ، ويعرفوا مِقدارَ مِرائِهِم وسخفهم في جَدَلِهِم، وأنهم ضعاف الأحلام، قليلوا التَدبَرِ في عواقب ما يقولون.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذَكَّر فيما سبق ببعض أحوالهم الشَّنيعة، ومقالاتهم القبيحة.. بيَّن في هذه الآيات حالاً من أحوالهم هي عِلَّةُ ما يصدر عنهم من جحود، وعناد، ومعاداةٍ للنبي ﷺ، هي أنَّ فريقاً منهم نبذوا كتاب الله الذي به يَفْخَرُون حين جاء الرسول بكتابٍ مصدِّقٍ لما بين أيديهم، فإنَّ ما في كتابهم من البشارة بنبيٍّ يجيءُ من ولد إسماعيل لا ينطبق إلاّ على هذا النبي الكريم، وليس المراد[1]: أنّهم نبذوا الكتاب جملةً وتفصيلاً، بل نبذوا منه ما يُبشّر بالنبي ﷺ، ويُبيِّن صفاته، وما يأمرهم بالإيمان به واتباعه، ولا شك أنَّ ترك بعضه كترك كله، إذ إنَّه يُذْهِب باحترام، ويفتح البابَ لترك الباقي، وهذا الجحود لم يكن بِضَائرٍ للنبي ﷺ، ولا لدعوته، وقد قبلها، واهتدى بها كثيرٌ من اليهود، ومن غيرهم، وحين نبذوه اشتغلوا بصناعات، وأعمال صادَّةٍ عن الأديان من صنع شياطين الإنس والجنّ، فاشتغلوا بالسحر، والشَّعوذة، والطلسمات التي نسبوها إلى سليمان، وزعموا أنَّ ملكه كان قائماً عليها، وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين، فصدَّقوهم فيما زعموا منها، وكذّبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر، ولا يزال حال الدجالين من المسلمين إلى اليوم يتلون العزائم، ويخطُّون خطوطاً، ويعملون طلسمات يسمُّونها خاتم سليمان، وعهوداً يزعمون أنّها تحفظ

---

(١) المراغي.

من يحملها من اعتداء الجنّ، ومسِّ العفاريت. وإنَّما قصَّ القرآن علينا هذا القصص[1]؛ للذكرى؛ وليبيِّن لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر، فكان صادًّا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود، ومن ثمَّ لم يهتدوا بالنبيِّ الذي بشَّر به كتابهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّه سبحانه وتعالى، لما فرغ من الأحاديث الخاصَّة باليهود، انتقل إلى حديثٍ مشترك بينهم وبين المؤمنين، والنصارى في أمرٍ من أمور الدِّين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ. . .﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن جرير عن أبي العالية قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنَّة إلاّ من كان هوداً، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً. . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سمع عبد الله بن سلام، مقدم رسول الله وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النبي ﷺ، فقال: إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبيٌّ ما أوّلُ أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمّه؟ قال: أخبرني بهنّ جبريل آنفاً، قال جبريل: قال نعم، قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ. . .﴾.

قال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانيُّ في «فتح الباري»: ظاهر السياق: أنَّ النبي ﷺ قرأ الآية ردّاً على اليهود، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذٍ، قال: وهذا هو المعتمد: فقد صحَّ في سبب نزول الآية: قصّةٌ غير قصّة عبد الله بن سلام، فأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي من طريق بكر بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن

---

(١) المراغي.   (٢) لباب النقول.

ابن عباس قال: (أقبلت اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم! إنَّا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنّك نبيٌّ) فذكر الحديث، وفيه أنَّهم سألوه عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه، وعن علامة النبي، وعن الرَّعد وصوته، وكيف تذكر المرأة وتؤنث، وعمَّن يأتيه بخبر السماء؛ إلى أن قالوا: فأخبرنا عن صاحبك، قال: جبريل، قالوا: جبريل، ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب، عدوُّنا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر، لكان خيراً، فنزلت.

وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير عن طريق الشعبي: أنَّ عمر كان يأتي اليهود فيسمع من التوراة، فيتعجَّب كيف تُصدِّق ما في القرآن، فمرَّ بهم النبيُّ ﷺ، فقلت: نشدتكم بالله، أتعلمون أنّه رسول الله؟ فقال عالمهم: نعم نعلم أنّه رسول الله، قلت: فلم لا تتبعونه؟ قالوا: سألناه عمَّن يأتيه بنبوّته، فقال: عدوُّنا جبريل؛ لأنّه ينزل بالغلظة، والشدّة، والحرب، والهلاك، قلت: فمن رسلكم من الملائكة؟ قالوا: ميكائيل ينزل بالقطر، والرحمة، قلت: وكيف منزلتهما من ربّهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن الجانب الآخر قلت: فإنّه لا يحلُّ لجبريل أن يعادي ميكائيل، ولا يحلُّ لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبريل، وإنّني أشهد أنَّهما وربَّهما سِلْمٌ لمن سالموا، وحَرْبٌ لمن حاربوا، ثمَّ أتيت النبيَّ ﷺ، وأنا أريد أن أخبره، فلمَّا لقيته قال: ألا أخبرك بآياتٍ ـ أنزلت عليَّ؟ فقلت: بلى يا رسول الله! فقرأ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ حتى بلغ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قلت: يا رسول الله! والله ما قمت من عند اليهود إلاّ إليك، لأخبرك بما قالوا لي وقلت لهم، فوجدت الله سبقني. وإسناده صحيح إلى الشعبي، لكنّه لم يدرك عمر، وقد أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم من طريق آخر عن الشعبي، وأخرجه ابن جرير من طريق السدي، عن عمر، ومن طريق قتادة عن عمر، وهما أيضاً منقطعان.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق آخر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أنَّ يهودياً لقي عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم هو عدوّ لنا، فقال عمر: من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكائيل فإنَّ الله عدوُّه، قال: فنزلت على لسان عمر، فهذه طرقٌ يقوِّي بعضها بعضاً. وقد نقل ابن جرير الإجماع على أنَّ سبب الآية ذلك؛ أي: أنّها نزلت جواباً لليهود، إذْ زعموا

أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ، فيكون الإجماع مؤيِّداً للحديث على ما به من الضعف؛ لأنّ بكير بن شهاب قد خولف فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال ابن صوريا للنبيِّ ﷺ: يا محمد! ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة، فأنزل في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ الآية. وقال: مالكُ بن الصيف حِينَ بُعِثَ رسول الله ﷺ، وذكَرَ ما أُخذ عليهم من الميثاق، وما عُهد إليهم في محمد، والله ما عُهِدَ إلينا في محمدٍ، ولا أُخذَ علينا ميثاق، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن شهر بن حوشب، قال: قالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلُط الحقَّ بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، أفما كان ساحراً يركب الريح؟! فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية: أنَّ اليهود سألوا النبيَّ ﷺ: زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلاّ أنزل الله عليه ما سألوا عنه، فلمَّا رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل إلينا منّا، وأنَّهم سألوا عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر[2]، عن السدي قال: كان رجلان من اليهود مالك ابن الصيف، ورفاعة بن زيد، إذا لقيا النبي ﷺ قالا وهما يكلِّمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، فظنَّ المسلمون أنّ هذا اللفظ كان أهل الكتاب يعظِّمون به أنبيائهم، فقالوا للنبي ﷺ ذلك، فأنزل تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ﴾.

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» من طريق السدي الصغير، عن الكلبي، عن ابن عباس قال: راعنا بلسان ـ اليهود: السَّبُّ القبيح، فلمَّا سمعوا أصحابه يقولون، أعلنوا بها له، فكانوا يقولون ذلك، ويضحكون فيما بينهم، فنزلت هذه الآية، فسمعها منهم سعد بن معاذ، فقال لليهود: يا أعداء الله! لئن سمعتها من رجل منكم بعد هذا المجلس لأضربنَّ عنقه. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال: كان الرجل يقول: أرعني سمعك، فنزلت الآية.

وأخرج عن عطية قال: كان أناسٌ من اليهود يقولون: أرعنا سمعك، حتى قالها أناسٌ من المسلمين، فكره الله لهم ذلك، فنزلت الآية. وأخرج عن قتادة قال: كانوا يقولون: راعنا سمعك؛ فكان اليهود يأتون، فيقولون مثل ذلك، فنزلت الآية. وأخرج عن عطاء قال: كانت لغة الأنصار في الجاهليّة، فنزلت. وأخرج عن أبي العالية قال: إنّ العرب كانوا إذا حدَّث بعضهم يقول أحدهم لصاحبه: أرعني سمعك، فنهوا عن ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾؛ أي: العهد منكم؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! قصّة حين أخذنا العهد المؤكَّد باليمين منكم، على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعۡنَا﴾ أي: قلعنا وحبسنا ﴿فَوۡقَكُمُ﴾؛ أي: فوق رؤوسكم ﴿ٱلطُّورَ﴾ أي: جبله ليسقط عليكم حين أبيتم، وامتنعتم من قبول التوراة قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾؛ أي: اعملوا بما أعطيناكم من الكتاب ﴿بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: بجدٍّ واجتهادٍ ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ ما أمرتم به في الكتاب سماع قبول وطاعةٍ ﴿قَالُواْ﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿سَمِعۡنَا﴾ قولك بآذاننا، ولكن لا سماع طاعةٍ وقبولٍ ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ وخالفنا أمرك بقلوبنا، ولولا مخافة الجبل ما قبلنا في الظاهر، فإذا كان حال أسلافهم هكذا فكيف يتصوَّر من أخلافهم الإيمان؟ وقيل: إنّهم يقولون ذلك بألسنتهم، ولكن لَمّا سمعوه وتلقَّوه، تلقوه بالعصيان، فنسب ذلك إليهم. وقيل كأنَّهم يقولون: لولا

الجبل لسمعنا ذلك، وعصينا أمرك، وجملة قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ والحال أنَّهم أشربوا وسُقوا ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ بيانٌ لمكان الإشراب، كقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ أي: حبَّ عبادة العجل، فهو على حذف مضافين، يقال: أشرب قلبه كذا؛ أي: حلَّ محلَّ الشراب، أو اختلط، كما خلط الصبغ بالثوب.

وحقيقة[1] أُشربَه كذا جعله شارباً لذلك، فالمعنى: جُعلوا شاربين حبَّ العجل نافذاً فيهم نفوذ الماء فيما يَتغَلْغَلُ فيه. قال الراغب: من عاداتهم إذا أرادوا محاصرة حبٍّ، أو بغضٍ في القلب، أن يستعيروا لها اسم الشراب، إذ هو أبلغ مساغاً في البدن، ولذلك قالت الأطباء: الماء مطيَّة الأغذية والأدوية ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم السابق لهم في مصر من الوثنية الموجب لذلك، والمعنى: حُبّب إليهم العجل، وخالط حبُّه قلوبهم، كما يخالط الشراب أجزاء البدن الباطنة. قيل: كانوا مُجسِّمةً، أو حُلُوليَّةً، ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكَّن في قلوبهم ما سوَّل لهم السامريُّ، وجَعَل حلاوةَ عبادةِ العجل في قلوبهم مجازاةً لكفرهم. وفي القصص: أنَّ موسى عليه السلام، لمَّا خرج إلى قومه أمَرَ أَنْ يُبْرَدَ العجل بالمِبْرد ثم يُدرَّىٰ في النهر، فلم يبق نهرٌ يجري يومئذٍ إلاّ وقع فيه منه شيءٌ، ثم قال لهم: اشربوا منه فمن بقي، في قلبه شيءٌ من حبّ العجل ظهَرَتْ سُحَالة الذَهب على شاربه؛ أي: خَرَجت بُرادَتُهُ على شاربه، وهذا[2] قولٌ يردُّهُ قولهُ: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ وروي أنَّ الذين تبيَّن لهم حُبُّ العجل أصابهم من ذلك الماء الجُبْنُ، وبناؤه للمفعول في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ دليلٌ على أنَّ ذلك فُعِل بهم، ولا يفعلُه إلاّ الله تعالى. وقال أبو حيان: ومعناه: أنَّه داخلهم حبُّ عبادته، كما داخل الصبغُ الثوبَ، وأنشدوا:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

إذا مَا القَلْبُ أُشْرِبَ حُبَّ شيءٍ   فَلاَ تَأْمَلْ لَهُ عَنْهُ انْصِرَافا

وقال ابن عرفة: يقال: أُشرب قلْبُه حبَّ كذا؛ أي: حلَّ محلَّ الشراب، ومازَجَهُ. انتهى كلامه. وإنّما عبَّر عن حبّ العجل بالشرب دون الأكل؛ لأنَّ شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، ولهذا قال بعضهم:

جَرَى حُبُّها مَجْرَى دَمِي في مَفَاصِلِي   فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بهَا شُغْلُ

وأمّا الطعام[1]، فقالُوا: هو مجاور لها غير متغلغلٍ فيها، ولا يصل إلى القلب منه إلاّ يسيرٌ، وقال:

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِيْ   فَبَادِيْه مَعَ الخَافِي يَسِيرُ

والظاهر: أنَّ الباء في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ للسبب؛ أي: الحامل لهم على عبادة العجل هو كفرهم السابق لهم في مصر. وقيل ويجوز أن تكون الباء بمعنى مع متعلِّقة بمحذوف وقع حالاً؛ أي: وأشربوا في قلوبهم حبَّ العجل حال كونه مصحوباً بكفرهم السابق من الوثنية ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! توبيخاً[2] لحاضري اليهود، إثر ما بُيِّنَ أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون في كُلِّ ما يأتون ويذرون ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: بئس الشيء شيئاً ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ﴾؛ أي: بذلك الشيء ﴿إِيمَٰنُكُمْ﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدَّعون، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: ما ذكر من قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وعبادتهم العجل، وفي إسناد الأمر إلى الإيمان تهكّم بهم، وإضافة الإيمان إليهم؛ للإيذان بأنّه ليس بإيمانٍ حقيقةً، كما ينبىء عنه قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة، إذ لم يُسوِّغ الإيمان بها مثلَ تلك القبائح، فلستم بمؤمنين بها قطعاً، فقد علم أنَّ من ادَّعى أنّه مؤمن ينبغي أن يكون فعله مصدِّقاً لقوله: وإلاّ لم يكن مؤمناً؛ أي: بئس الشيء شيئاً يأمركم به إيمانكم بما أنزل عليكم من التوراة، والمخصوص بالذمّ قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وعبادتُهم العجل، والمعنى: بئس الإيمان إيمانٌ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

يأمركم بعبادة العجل إن كنتم مؤمنين بالتوارة كما زعمتم، والمعنى: لستم بمؤمنين؛ لأنَّ الإيمان لا يأمركم بعبادة العجل، وهذا تكذيبٌ لقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وذلك أنّ آباءهم ادَّعوا الإيمان ثُمَّ عبدوا العجل، فقيل: لهم بئس الإيمان إيمانٌ يأمر بالكفر.

والخلاصة: لو كنتم مؤمنين ما عبدتم العجل؛ يعني آباءهم، وكذلك كذبهم في قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ حيث قال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! أيضاً: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ أي: نعيمها وهي الجنة مُدَّخرةً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ظَرْفٌ للاستقرار في الخير؛ أعني: لكم حالة كونها ﴿خَالِصَةً﴾؛ أي: خاصَّةً بكم منصوبٌ على الحالية من الدار؛ أي: إن كانت لكم الدار الآخرة حالة كونها سالمةً لكم خاصَّةً بكم ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ في محل النصب بـ﴿خَالِصَةً﴾؛ أي: من دون محمد وأصحابه، فاللام في الناس للعهد، وتستعمل هذه اللفظة للاختصاص، يقال: هذا إليَّ من دون الناس؛ أي: أنا مختصٌّ به؛ أي: ليس لأحد سواكم فيها حقٌّ بأن صحَّ قولكم ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾.

والمعنى: إن صحّ قولكم لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: أَحِبُّوه، واسألوه بالقلب واللسان، وقولوا: اللهم! أمتنا، فإنَّ من أيقن بدخول الجنّة اشتاق إليها، وتمنَّى سرعة الوصول إلى النعيم، والتخلُّص من دار البوار، وقرارة الأكدار، ولا سبيل إلى دخولها إلاّ بعد الموت، فاستَعْجِلُوه بالتَّمنِّي ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إنّ الجنة خاصَّةٌ لكم فتمنَّوه، وأصل التمنّي: تقدير شيء في النفس، وأكثر ما يستعمل فيما لا حقيقة له. قوله: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ فسَّرُوا الدار الآخرة بأنّها هي موضع الإقامة بعد انقضاء الدنيا، وسميت آخرة؛ لأنّها متأخّرة عن الدنيا، أو هي آخر ما يسكن، فتشمل الجنة والنار، ولكن الكلام هنا على تقدير مضاف؛ أي: نعيم الآخرة.

وقرأ الجمهور ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾ بضمّ الواو، وهي اللغة المشهورة في مثل: اخشوا القوم، ويجوز الكسر؛ تشبيهاً لهذه الواو بواو لو استطعنا، كما شبَّهوا واو

لو بواو اخشوا، فضمُّوا، فقالوا: لو استطعنا. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿فَتَمَنَّوِا الْمَوْتَ﴾ بالكسر، وحكى أبو علي الحسن بن إبراهيم بن يَزْداد، عن أبي عمرو، أنّه قرأ ﴿فَتَمَنَّوَا الْمَوْتَ﴾ بفتح الواو وحركها بالفتح؛ طلباً للتخفيف؛ لأنَّ الضمة والكسرة في الواو يثقلان، وحكي أيضاً عن أبي عمرو إختلاس ضمّة الواو وكلها شاذة باستثناء ما عليه الجمهور وجواب الشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفٌ، تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم أنَّ الجنّة لكم دون غيركم، فتمنوا الموت، وعلَّق تمنِّيهم على شرطٍ مفقودٍ وهو كونهم صادقين، وليسوا بصادقين في أنَّ الجنة خالصةٌ لهم دون الناس، فلا يقع التمنِّي، والمقصود من ذلك التحدِّي، وإظهار كذبهم، وذلك أنَّ من أيقن أنّه من أهل الجنة اختار أن ينتقل إليها، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار، وأن يصل إلى دار القرار، كما روي عمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، كعثمان، وعلي، وعمّار، وحذيفة، أنّهم كانوا يختارون الموت، وكذلك الصحابة كانت تختار الشهادة.

وقد روي عن كثير من الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ تمنّي الموت عند القتال، معبِّرين بألسنتهم عمّا يجول في صدورهم من صدق الإيمان بما أعدَّ الله للمؤمنين في الدار الآخرة، فقد جاء في الأخبار: أنَّ عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

يَا حَبَّذَا الجَنَّةُ واقْتِرابها
طَيِّبَةٌ وَبارِدٌ شَرابُها
والرُّومُ رُوْمٌ قَدْ دَنَا عَذابُهَا

وأنَّ عمَّار بن ياسر في حرب صفين قال:

غَداً نَلْقَى الأحِبَّهْ مُحَمَّداً وَصَحْبَه

وروي عن حذيفة أنّه كان يتمنَّى الموت، فلما احتُضِر قال: (حبيبٌ جاء على فاقةٍ). وعن علي أنّه كان يطوف بين الصفين بغلالةٍ، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزيِّ المحاربين، فقال: يا بني! لا يبالي أبوك، أعلى الموت سقط أم عليه سقط الموت. وفي قصتي قتل عثمان، وسعيد بن جبير ما يدلُّ على اختيارهما

الشهادة، وذلك أنّ عثمان جاءه جماعة من الصحابة، فقالوا له: نقاتل عنك، فقال لهم: وكان له قريبٌ من ألف عبد، فشهروا سيوفهم لمَّا هُجِمَ عليه، فقال: من أغمد سيفه فهو حرّ، فصبر حتى قتل، وأمَّا سعيد بن جبير، فإنَّ الموكَّلين به لمَّا طلبه الحجاج لمَّا شاهدوا من لياذ السباع به، وتمسُّحها به، قالوا: لن ندخل في إراقة دم هذا الرجل الصالح، قالوا له: طَلَبك لِيَقْتلَك، فاذهب حيث شئت، ونحن نكون فداءك، فقال: لا والله، إنّي سألت ربّي الشهادة، وقد رزقنيها، والله لا بِرَحْتُ.

وروي عن النبي ﷺ[1]: لو تمنَّوا الموت ـ يعني: اليهود ـ لغص كل إنسانٍ منهم بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ، وذلك: أنَّ الله سبحانه، أمر نبيه أن يدعوهم إلى تمنّي الموت، وأن يعلمهم أنَّه من تمنَّاه منهم مات، ففعل النبيُّ ﷺ فعلم اليهود صدقه، فأحجموا عن تمنيه فرقاً من الله سبحانه، وهذا من المعجزات؛ لأنّه إخبارٌ بالغيب، وكان كما أخبر به ولو وقع من أحد منهم تمني موته لنقل واشتُهر.

وحاصل معنى الآية: أي إن صدق[2] قولكم وصحت دعواكم: أنَّ الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً، وفي أنّكم شعب الله المختار، وأنَّ النار تمسُّكم أياماً معدودات، فتمنَّوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم، الخالص، الدائم، الذي لا ينازعكم فيه أحدٌ، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة، ويختار الشقاء، فإن لم تتمنَّوه، بل كنتم شديدي الحرص على هذه الحياة، فما أنتم بصادقي الإيمان، وهذه حجةٌ تنطبق على الناس عامَّةً، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزاناً يزنون بها دعواهم اليقين بالإيمان، والقيام بحقوق الله، فإن ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم في سبيل الله، والذود عن الدين، كانوا مؤمنين حقّاً، وإن ضنُّوا بها وكانوا شديدي الحرص على الحياة إذا جدَّ الجِدُّ، ودعا الداعي، كانوا بعكس ما يدَّعون.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾؛ أي: الموت ﴿أَبَدًا﴾ أي: في جميع الزمن المستقبل؛ لأنّ

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

أبداً اسم لجميع مستقبل الزمان، كقطُّ لماضيه، وفيه[1] دليلٌ على أنَّ (لن) ليس للتأبيد؛ لأنّهم يتمنَّون الموت في الآخرة، ولا يتمنَّوه في الدنيا؛ أي: لن يسألوا الموت، ولن يطمعوا فيه أبداً ما عاشوا ﴿بـ﴾ سبب ﴿ما قدمتـ﴾ـه وعملته واجترحته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي الموجبة لدخول النار، كالكفر بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، وتحريف نعت محمد ﷺ المذكور في التوراة؛ لأنّهم عرفوا أنهم كفرةً، ولا نصيب لهم في الجنّة.

فإن قلت: لِمَ قال هنا (لن) وفي الجمعة (لا)؟

قلت: لأنَّ (لن) أبلغ في النفي من (لا) حتى قيل: إنّها لتأبيد النفي، ودعواهم في (البقرة) بالغةٌ قاطعةٌ، وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فناسب ذكر (لن) فيها، ودعواهم في الجمعة قاصرةٌ مردودة، وهي زعمهم أنّهم أولياء لله، فناسب ذكر (لا) فيها. انتهى من «فتح الرحمن».

والمعنى: أي ولن يقع منهم هذا التمنِّي بحالٍ؛ لأنّهم يعرفون ما اجترحته أنفسهم من المعاصي، والذنوب التي يستحقون بها العقوبة، كتحريف التوراة وتبديلها، وتكذيب محمد ﷺ مع البشارة به في كتابهم.

وخصَّ الأيدي بالذكر[2]؛ لأنّ الأعمال غالباً تكون بها، وهي من بين جوارح الإنسان مناط عامَّة صنائعه، ومدار أكثر منافعه، ولذا عبَّر بها تارةً عن النفس، والشخص، كما هنا، والأخرى عن القدرة ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ أي: بالكافرين من اليهود، والنصارى، وغيرهم؛ أي: محيط علمه بهم، وبما صدر عنهم، وسيجازيهم عليه، ففيه معنى التهديد، والتخويف لهم، وإنّما[3] خصَّهم بالظلم؛ لأنه أعمّ من الكفر عموماً وخصوصاً مطلقاً؛ لأنّ كلَّ كافر ظالم، وليس كل ظالم كافراً، فلهذا كان أعم، وكانوا أولى به.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ من الوجدان العقليّ وهو جار مجرى العلم، خلا أنّه مختصٌّ بما وقع بعد التجربة، ونحوها، واللام لام قسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لتجدنَّ يا محمد! اليهود ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أشدَّ الناس حرصاً ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ أي: على بقاء في الدنيا، وأشدَّهم كراهيةً للموت، والتنكير[1] للنوع، وهي الحياة المخصوصة المتطاولة، وهي حياتهم التي هم فيها؛ لأنّها نوعٌ من مطلق الحياة. وقرأ أُبيٌّ: ﴿على الحياة﴾ بالتعريف، قال الزمخشريُّ: التنكير أبلغ من قراءة أُبيٍّ لعمومه، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، المعنى: كأنّه قيل: أي: ولتجدنّهم أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا؛ أي: وأحرص من مشركي العرب المنكرين للبعث على الحياة؛ لعلمهم بأنّ مصيرهم إلى النار دون المشركين؛ لإنكارهم له؛ أي: فهم أكره للموت من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث.

فإن قلت: الذين أشركوا قد دخلوا في الناس في قوله: ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ ولِمَ أفردهم بالذكر؟

قلت: أفردهم بالذكر؛ لشدَّة حرصهم على الحياة، وفيه توبيخٌ عظيم لليهود؛ لأنَّ الذين أشركوا لا يؤمنون بالمعاد، ولا بالمجازاة، ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا، فلا يستبعد حرصهم عليها؛ لأنّها جنّتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتابٌ، وهو مقرٌّ بالبعث والجزاء، كان حقيقاً بالتوبيخ العظيم.

فإن قلت: لِمَ زاد حرصهم على حرص المشركين؟

قلت: لأنّهم علموا لعلمهم بحالهم أنّهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل: إنّ الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ استئنافية، تقديره: ومن الذين أشركوا أُناسٌ يودُّون تعميرهم ألف سنة، أو أُناسٌ

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

حريصون على حياةٍ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف؛ أي: يحبُّ ويتمنَّى أحد هؤلاء اليهود، وأحد المشركين ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي؛ تعميره[1]، وعيشه، وحياته، وبقاءه في الدنيا ألف سنة؛ لأنّه يعلم أنَّ آخرته قد فسدت عليه، وليس المراد بألف سنة: خصوص هذا العدد، ولا قول الأعاجم: عشر ألف سنةٍ، بل المراد: التكثير والمبالغة.

وقوله: ﴿أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: واحدٌ[2] منهم، وليس أحدٌ هنا هو الذي في قولهم: (ما قام أحدٌ)؛ لأنَّ هذا مستعملٌ في النَّفْي، أو ما جرى مجراه، والفرق بينهما: أنَّ أحداً هذا أصوله همزةٌ وحاءٌ ودالٌ، وأصول ذلك واو وحاء ودال، فالهمزة في أحدهم بدلٌ من واو، والإتيان[3] بالمضارع في ﴿يَوَدُّ﴾ حكايةٌ لودادهم و﴿لَوْ﴾ مصدريَّةٌ فيه معنى التمنِّي، كأنَّه قيل: ليتني أُعمَّر، إلاّ أنَّه جرى على لفظ الغيبة لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ كقولك: حلف بالله ليفعلنّ، ومحلُّه النصب على أنّه معمول ليودُّ إجراءً له مجرى القول؛ لأنّه فعلٌ قلْبيٌّ، والمعنى: تمنَّى أحدهم أن يعطى البقاء والعمر ألف سنة، وهي للمجوسي، وخصَّ هذا العدد؛ لأنّهم يقولون ذلك فيما بينهم عند العُطَاس والتحية: عشر ألف سنةٍ وألف نورٍ، وصحَّ إطلاق المشركين على المجوس؛ لأنّهم يقولون بالنور والظلمة، ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما طول عمره وتعميره ألف سنة، ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ أي: بمبعده، ومنجيه ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: من عذاب الله؛ لأنّه لا بدَّ للعمر، وإن طال من الفناء، والعمر: مدَّةٌ أجلها الله تعالى لعباده في دار الفناء، وجملة قوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ بدلٌ من الضمير الذي فسَّرناه سابقاً بالتعمير، ويحتمل عود الضمير على أحدهم، وهو اسم ﴿مَا﴾ ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ خبر ﴿مَا﴾ والباء زائدة، و﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعلُ بمزحزحه.

والمعنى عليه: وما أحدهم بمن يزحزحه ويبعده من العذاب والنار تعميره

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ألف سنة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ﴾، أي: عالم ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، والبصير في كلام العرب: العالم بكنه الشيء، الخبير به؛ أي: عالمٌ بخفيَّات أعمالهم من الكفر، والمعاصي، لا يخفى عليه شيءٌ منها، فهو مجازيهم عليها لا محالة بالخزي، والذلِّ في الدنيا، والعقوبة في العقبى، وهذه الحياة العاجلة تنقضي سريعةً، وإن عاش المرء ألف سنةٍ، أو أزيد عليها، فمن أحبَّ طول العمر للصلاح فقد فاز، وفي الحديث: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» ومن أحبَّه للفساد فقد ضلَّ، ولا ينجو ممَّا يخاف، فإن الموت يجيءُ ألبتة، واجتمعت الأمَّة على أنَّ الموت ليس له سِنٌّ معلومٌ، ولا أجلٌ معلومٌ، ولا مرضٌ معلومٌ، وذلك ليكون المرء على أهبةٍ من ذلك، وكان مستعداً لذلك بعض الصالحين ينادي بالليل على سور المدينة: الرحيل الرحيل! فلمَّا توفِّي فقد صوته أمير تلك المدينة، فسأل عنه، فقيل له: إنّه مات.

مَا زَالَ يَلْهَجُ بِالرَّحِيْلِ وذِكْرِهِ   حَتَّى أناخَ بِبَابِهِ الجَمَّالُ
فأَصَابَهُ مُسْتَيْقِظاً مُتَسَمِّراً   ذَا أُهْبَةٍ لَمْ تُلْهِهِ الآمَالُ

فإصابةُ الموت حقٌّ وإن كان العيش طويلاً، والعمر مديداً، وهو ينزل بكل نفسٍ، راضيةً كانت، أو كارهةً. وقرأ الجمهور[1] ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء على نسق الكلام السابق. وقرأ الحسن، وقتادة، والأعرج، ويعقوب: بالتاء على سبيل الالتفات، والخروج من الغيبة إلى الخطاب، وأتى بصيغة المضارع، وإن كان علمه تعالى محيطاً بأعمالهم السالفة، والآتية؛ لتواخي الفواصل.

وقد تضمَّنت هذه الآية الكريمة: الامتنان على بني إسرائيل، وتذكارهم بنعم الله تعالى، إذ أتى موسى التوراة المشتملة على الهدى والنور، ووالى بعده بالرسل؛ لتجديد دين الله وشرائعه، وأتى عيسى الأمور الخارقة للعادة من إحياء الأموات، وإبراء الأكمه والأبرص، وإيجاد المخلوق، ونفخ الروح فيه، والإنباء بالمغيَّبات، وغير ذلك، وأيَّده بمن ينزل الوحي على يديه وهو جبريل عليه

---

(١) البحر المحيط.

السلام، ثُمَّ مع هذه المعجزات والنعم، كانوا أبعد الناس عن قبول ما يأتيهم من عند الله تعالى، وكانوا بحيث إذا جاءهم رسولٌ بما لا يوافقهم، بادروا إلى تكذيبه، أو قتلوه وهم غير مكترثين بما يصدر منهم من الجرائم، حتى حكي أنَّهم في إثر قتلهم الجماعة من الأنبياء، تقوم سوق البقل بينهم التي هي أردأ الأسواق، وأرذلها، فكيف بالأسواق التي تباع فيها الأشياء النَّفيسة؟ ثُمَّ نعى تعالى عليهم أنَّهم باقون على تلك العادة، من تكذيب ما جاء من عند الله، وإن كانوا من قبل مجيئه يذكرون أنّه يأتيهم من عند الله، فحين وافاهم ما كانوا ينتظرونه، ويعرفونه كفروا به، فختم الله عليهم باللعنة، وأنَّ سبب طردهم عن رحمة الله؛ هو ما سبق من كفرهم، وأنَّ إيمانهم كان قليلاً، إذ كانوا قبل مجيء الكتاب يؤمنون بأنّه سيأتي كتابٌ، ثُمّ أخذ في ذكر ذمهم، أن باعوا أنفسهم النفيسة بما يترتَّب لهم على كفرهم بآيات الله، من المآكل، والرياسات المنقضية في الزمن اليسير؛ وأنَّ الحامل على ذلك هو البغي والحسد؛ لأن الله اختصَّ بفضله من شاء من عباده، فلم يرضوا بحكمه، ولا باختياره، فباؤا بالغضب من الله، وأَعَدَّ لهم في الآخرة العذاب الذي يذلُّهم، ويهينهم، إذ كان امتناعهم من الإيمان إنّما هو للتكبُّر، والحسد، وعدم الرضا بالقدر، فناسب ذلك أن يعذَّبوا العذاب الذي فيه صغارٌ لهم، وذلَّةٌ، وإهانةٌ، ثُمَّ أخبر تعالى عنهم أنّهم إذا عُرِضَ عليهم الإيمان بما أنزل الله، أجابوا بأنَّهم يؤمنون بالتوراة، وأنّهم يكفرون بما سوى هذا، والكتب المنزَّلة من عند الله تعالى، سواءٌ إذ كُلُّها حقٌّ يُصدِّق بعضها بعضاً، فالكفر ببعضها كفرٌ بجميعها.

ثُمَّ أخبر تعالى بكذبهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وذلك بأنّهم قتلوا الأنبياء، والتوراة ناطقةٌ باتِّباع الأنبياء، والاقتداء بهم، فقد خالف قولهم فعلهم، ثُمَّ كرَّر عليهم؛ توبيخاً لهم أنَّ موسى الذي أنزل عليه التوراة، وأنّهم يزعمون أنّهم آمنوا بها، قد جاءهم بالأشياء الواضحة، والمعجزات الخارقة، من نجاتهم من فرعون، وفلق البحر، وغير ذلك، ومع ذلك اتخذوا من بعد ذهابه إلى مناجاةِ ربِّه إلٰهاً من أبعد الحيوان ذهناً، وأبلدها، وهو العجل المصنوع من حُليِّهم، المشاهد إنشاؤهُ وعمله، وموسى لم يَمُتْ بَعْدُ، وكتاب الله طريٌّ نزولُه عليهم، لم

يتقادم عهده، وكرَّر تعالى: ذكر رفع الطور عليهم؛ ليقبلوا ما في التوراة، وأمروا بالسمع والطاعة، فأجابوا بالعصيان هذا، وهم ملجؤون إلى الإيمان، أو كالملجئين؛ لأنَّ مثل هذا المزعج العظيم من رفع جبل عليهم لينشد جوابه، جديرٌ بأن يأتي الإنسان ما أُمِر به، ويقبل ما كُلِّف به من التكاليف، وإباؤهم لذلك، وعدمُ قبولهم؛ سببَهُ أنَّ عبادة العجل خامرَتْ قلوبهم، ومازَجَتها حتى لم تسمح قبولاً لشيءٍ من الحق، والقلب إذا امتلأ بحبِّ شيءٍ لم يسمع سواه، ولم يُصْغِ إلى مَلاَم، وأنشدوا:

مَلأْتُ بِبَعْضِ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِي فَإنْ تُرِدْ الزِيَادَة هَاتِ قَلْبَا

ثمَّ ذمَّهم تعالى على ما أمرهم به إيمانهم، ولا إيمان لهم حقيقةً، بل نسب ذلك إليهم على سبيل التهكُّم من عبادة العجل، واتخاذه إلٰهاً من دون الله، ثُمَّ كذَّبهم في دعواهم أنَّ الجنّة هي خالصةٌ لهم لا يدخلها أحدٌ سواهم، فأمرهم بتمنِّي الموت؛ لأنَّ من اعتقد أنّه يصير إلى سرور، وحبور، ولذّةٍ دائمةٍ لا تنقضي، يؤثر الوصول إلى ذلك، وانقضاء ما هو فيه من الذلَّة، والنَّكدِ. وأخبر تعالى أنَّ تمنِّي الموت لا يقع منهم أبداً، وأنَّ امتناعهم من ذلك هو بما قدَّمت أيديهم من الجرائم، فظهر كذبهم في دعواهم بأنَّهم من أهل الجنة، ثُمَّ ذكر ترشيحاً لما قبله من عدم تمنيهم الموت، أنّهم أشدُّ الناس حرصاً على حياةٍ، حتى إنّهم أحرص من الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة، ولا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ثُمَّ ذكر أنَّ أحدهم يودُّ أن يُعَمَّر ألف سنة ومع ذٰلك فتعميره وإن طال ليس بمنجيه من عذاب الله.

ثُمَّ ختم الآيات بأنَّ الله تعالى، مطلع على قبائح أفعالهم، ومجازيهم عليها، وتبيَّن بمجموع هذه الآيات ما جبل عليه اليهود من فرط كذبهم، وتناقض أفعالهم وأقوالهم، ونقص عقولهم، وكثرة بهتهم، أعاذنا الله من ذلك، وسلك بنا أنهج المسالك ﴿قُلْ﴾ يا محمد! لهؤلاء اليهود الذين زعموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم من بين الملائكة؛ لأنّه ينزل بالعذاب والشدّة ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ بِسَبَبَ نزوله بالقرآن المشتمل على سبِّهم وتكذيبهم، فليمت غيظاً؛ لأنَّ من عاداه فقدَ

عادى الله؛ لأنَّ الله تعالى جعله واسطةً بينه وبين رسله ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإنَّ جبريل الأمين ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ أي: نزَّل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد! وإنَّما خصَّ القلب بالذكر؛ لأنّه محلُّ الحفظ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله تعالى، وإذا كان نزوله بإذن الله تعالى، فلا وجه للعداوة، وإنّما كان لها وجهٌ لو كان النزول برأيه، فالضمير[1] في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ الأول لجبريل، والثاني للقرآن، وإضماره في الثاني مع عدم سبق المرجع يدلُّ على فخامة شأن القرآن؛ كأنَّه لتعينه؛ وفرط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره؛ ولدلالة[2] المعنى عليه، ألا ترى إلى قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه كُلُّها من صفات القرآن، ولقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فإنَّ جبريل نزَّل القرآن على قلبك. وقيل: الضمير في ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ على الله، وفي ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ عائدٌ على جبريل، والتقدير: فإن الله نزَّل جبريل بالقرآن على قلبك، وفي كل من هذين التقديرين إضمارٌ يعود على ما عليه سياق المعنى، لكن التقدير الأوَّل أولى لما ذكرناه آنفاً؛ وليكون موافقاً لقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ويُنْظَر للتقدير الثاني قراءةُ مَنْ قرأ ﴿نَزَّل﴾ بالتشديد و﴿الروحَ﴾ بالنصب. وأتى بلفظ على في قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ لأنَّ القرآن مستعلٍ على القلب، إذ القلب سامعٌ له، ومُطيعٌ يمتثل ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه، وكانت أبلغ من إلى؛ لأنَّ إلى تدلُّ على الانتهاء فقط، و(على) تدلُّ على الاستعلاء، وما استعلى على الشيء يُضمَّنُ الانتهاء إليه.

وخصَّ القلب ولم يقل عليك؛ لأن القلب هو محلُّ العقل، والعلم، وتلقِّي الواردات؛ أو لأنَّه صحيفته التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها؛ أو لأنَّه سلطان الجسد. وفي الحديث: «إنَّ في الجسد مضغةً، ثُمَّ قال أخيراً: ألا وهي القلب»؛ أو لأنَّ القلب خيار الشيء وأشرفه، أو لأنّه بيت الله؛ أو لأنّه كنى به عن العقل إطلاقاً للمحلِّ على الحالِّ؛ أو عن الجملة الإنسانية، إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

أو يكون إطلاقاً لبعض الشيء على كلّه أقوالٌ سبعة.

وأضاف القلب إلى الكاف التي للخطاب، ولم يُضفه إلى ياء المتكلم، وإن كان نظم الكلم يقتضيه ظاهراً؛ لأنَّ قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ هو معمولٌ لقول مضمر، التقدير: قل يا محمد! قال الله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله[1] اختاره في المنتخب، ومنه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقد صرَّح ذلك في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، أو بعلمه وتمكينه إيّاه من هذه المنزلة، قاله ابن عطيّة، أو باختياره، قاله الماوردي، أو بتيسيره وتسهيله، قاله الزمخشري.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ من الضمير المنصوب في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ إن كان يعود على القرآن، والمعنى: أي: حالة كون القرآن مصدِّقاً وموافقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما قبله من الكتب الإلٰهية في التوحيد وبعض الشرائع، وإن قلنا: إنّ ضمير ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ عائد على جبريل، فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون حالاً من المجرور المحذوف لفهم المعنى، والمعنى: فإنّ الله نزّل جبريل بالقرآن حال كون القرآن مصدِّقاً لما بين يديه.

والثاني: أن يكون حالاً من جبريل، وما في قوله: ﴿لِّمَا﴾ موصولةٌ، وعنى بها الكتب التي أنزل الله على الأمم قبل إنزاله، أو التوراة والإنجيل. والهاء في ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتمل أن تكون عائدةً على القرآن، ويحتمل أن تعود على جبريل، فالمعنى: مصدّقاً لما بين يديه من الرسل والكتب ﴿و﴾ حالة كون القرآن ﴿هُدًى﴾؛ أي: هادياً للناس من الضلالة إلى دين الحق ﴿و﴾ حالة كونه ﴿بشرى﴾؛ أي: مبشِّراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: للموحِّدين بالجنة، فلا وجه لمعاداته، فلو أنصفوا لأحبُّوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويَنْصَحُ المُنزَّل عليهم.

---

(١) البحر المحيط.

وهذا[١] ردٌّ على اليهود حين قالوا: إنَّ جبريل ينزل بالحرب والشدّة، فقيل لهم: إنْ كان ينزل بالحرب والشدة على الكافرين، فإنّه ينزل بالهدى والبشرى للمؤمنين، وقوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾[٢] معطوفان على ﴿مُصَدِّقًا﴾ فهما حالان، فيكون من وضع المصدر موضع اسم الفاعل، كأنَّه قال: وهادياً ومبشِّراً أو من باب المبالغة، كأنّه لمَّا حصل به الهدى والبشرى، جُعِل نفس الهدى والبشرى، والألف في بشرى للتأنيث، كهي في رجعى وهو مصدر.

والخلاصة: أنَّه وصف القرآن بتصديقه لِمَا تقَّدمه من الكتب الإلٰهية، وأنّه هدى، إذ فيه بيان ما وقع التَّكْليف به من أعمال القلوب والجوارح، وأنّه بشرى لمن حصل له الهدى، فصار هذا الترتيب اللفظيُّ في هذه الأحوال؛ لكون مدلولاتها ترتبت ترتيباً وجودياً:

فالأوّل: كونه مصدِّقاً للكتب، وذلك؛ لأنَّ الكتب كلَّها من ينبوع واحد.

والثاني: أنَّ الهداية حصلت به بعد نزوله على هذه الحال من التصديق.

والثالث: أنَّه بشرى لمن حصلت له به الهداية، وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ الهدى والبشرى بالمؤمنين؛ لأنَّ غير المؤمنين لا يكون لهم هُدًى به ولا بشرى، كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ ولأنَّ المؤمنين هم المبشَّرون، كما قال: ﴿فبشِّر عبادي﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾. ودلَّت هذه الآية على تعظيم جبريل، والتنويه بقدره، حيث جعله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه، والمنزَّل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة، ودلت على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى.

وهذه الآية[٣] تعلَّقت بها الباطنية حيث قالوا: إنّ القرآن إلهامٌ، والحروف

---

(١) الواحدي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

عبارة الرسول. وردَّ عليهم: بأنَّه معجزةٌ ظاهرةٌ بنظمه، وأنَّ الله سمَّاه وحياً، وكتاباً وعربياً، وأنَّ جبريل نزل به، والملهم لا يحتاج إلى جبريل، ثُمَّ عمَّم الشرط والجزاء ردّاً عليهم بقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ بمخالفته أمر الله عناداً، وخروجه عن طاعته مكابرةً، أو بمعاداة المقرَّبين من عباده، وصدَّر[1] الكلم بذكر الله؛ تفخيماً لشأنهم ﴿و﴾ لـ﴿ملائكته﴾ ﴿و﴾ لـ﴿رسله﴾ ﴿و﴾ لـ﴿جبريل و﴾ لـ﴿ميكال﴾ أفردهما بالذكر مع كونهما داخلين في جملة الملائكة؛ لبيان شرفهما؛ وإظهار فضلهما؛ وعلوِّ منزلتهما، فكأنَّهما جنسٌ آخر أشرف ممَّا ذكر تنزيلاً؛ للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الجنس، وللردّ على اليهود حيث قالوا: جبريل عدوُّنا، وميكال وليُّنا. قال عكرمة: جبرَ، وميك، وإسراف، معناها: العبد بالسُّريانية، وإيل، وآيْل، معناهما: الله، ومعنى هذه الأسماء: عبد الله، أو عبد الرحمن، وحكى الماوردي عن ابن عباس: أن جبر بمعنى: عبد بالتكبير، وميكا بمعنى: عبيدٍ بالتصغير، فمعنى جبريل: عبد الله، ومعنى ميكائيل: عبيد الله، قال: ولا نعلم لابن عباس في هذا مخالفاً. اهـ. «سمين».

أي: من عادى هؤلاء المذكورين، فقد كفر، والكافر عدوٌّ لله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب الشرط[2]، ولم يقل: فإنَّه؛ لاحتمال أن يعود إلى جبريل، أو ميكال ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: عدوٌّ لهؤلاء اليهود، وغيرهم من الكفرة، وأظهر في موضع الإضمار؛ لأنَّ مقتضى السياق، فإنَّ الله عدوٌّ لهم؛ ليدلَّ على أنَّ الله إنّما عاداهم لكفرهم، والمعنى: من عاداهم عاداه الله، وعاقبه أشدَّ العقاب، أي: فإنّ الله سبحانه تولّى بنفسه عداوة ذلك الكافر بالانتقام منه، وكفى رسله، وملائكته عن أمر من عاداهم.

قال الواحديُّ: والمعنى: أنَّ من كان عدوّاً لأحد من هؤلاء، فإنَّ الله عدوٌّ له؛ لأنَّ عَدُوَّ الواحد منهم عدوٌّ للجمع، وعدوُّ محمدٍ ﷺ عدوُّ الله، وليس

---

(١) العمدة

(٢) روح البيان.

المراد: مَنْ جَمَعَ عداوة الجميع فالله عدوُّهُ، والواو هنا بمعنى أوْ، وليست للجمع، وقال بعضهم: الواو للتفصيل.

وليس المراد[1]: من كان عدوّاً لجميع الملائكة، وجميع الرسل، بل هذا من باب التعليق على الجنس بصورة الجمع، كقوله: (إنْ كلَّمْتِ الرجال فأنتِ طالق) لا يريد بذلك إن كلمت كُلَّ الرجال، ولا أقلَّ ما ينطلق عليه الجمع، وإنّما علَّق بالجنس، وإن كان بصورة الجمع، فلو كلَّمَتْ رجلاً واحداً طلقتْ، فكذلك هذا الجمع في الملائكة والرسل.

فالمعنى: أن من عادى الله، أو ملكاً من ملائكته، أو رسولاً من رسله، فالله عدوٌّ له، والعداوة بين الله والعبد لا تكون حقيقةً، وعداوة العبد لله تعالى مجازٌ. ومعناها: مخالفة أمره، وعداوة الله للعبد مجازاته على مخالفته. وقرأ حمزة[2]، والكسائي: جبرائيل بفتح الجيم والراء وهمزةٍ مكسورةٍ بعد الراء. وقرأ شعبة كذلك، إلاّ أنه حذف الياء بعد الهمزة وكسر الراء، والباقون بكسر الجيم والراء من غير همزٍ بعد الراء، إلاّ أنَّ ابن كثير: فتح الجيم. وقرأ أبو عمرو، وحفصٌ: ﴿ميكال﴾ بغير همزة، ولا ياءٍ بين الألف واللام. وقرأ نافع بهمزةٍ بعد الألف، ولا ياء بعد الهمزة، والباقون بهمزةٍ بعد الألف وياءٍ.

والخلاصة: أي إنَّ[3] من عادى الله وعادى هؤلاء المقرَّبين عنده، فالله عدوٌّ له؛ لأنَّه كافرٌ به ومعادٍ له، وهو الظالم لنفسه حين دعاه فلم يجب، وفي هذا من شديد الوعيد ما لا يخفى، إذ فيه تصريحٌ بأنّهم أعداء الحق، وأعداء كلِّ من يدعو إليه، ومعاداة القرآن، كمعاداة سائر الكتب السماويّة؛ لأنَّ المقصد من الجميع واحدٌ، وهو هداية الناس، وإرشادهم إلى سبيل الخير، ومعاداة محمد ﷺ، كمعاداة سائر الأنبياء؛ لأنَّ رسالتهم واحدة، والمقصد واحدٌ. والواو في قوله:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ استئنافية، واللام فيه للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أنزلنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد! ﴿ءَايَٰتٍ﴾ من القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله تعالى، مفصّلاتٍ بالحلال والحرام، والحدود، والأحكام ﴿وَمَا يَكْفُرُ﴾ ويجحد، وينكر، ويكذّب ﴿بِهَآ﴾؛ أي: بالآيات التي توضّح الحلال والحرام، وتفصّل الحدود، والأحكام ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعتنا، وما أمروا به، المتمرِّدون في الكفر من سائر الكفرة، فإنّ من لبس على تلك الصفة لا يجترىءُ على الكفر بمثل هاتيك الآيات البينات، فاللام فيه للجنس، والأحسن جعلها للعهد إشارةً إلى أهل الكتاب؛ لأنَّ الكلام فيهم، والمعنى حينئذٍ، إلاّ الخارجون عن دينهم المحرِّفون لكتابهم؛ لأن اليهود خرجت بالكفر بمحمد ﷺ عن شريعة موسى عليه السلام.

واعلم: أنَّ القرآن هو النور الإلٰهيُّ الذي كشف الله به الظُّلمات، واليهود أرادوا أن يُطفِئُوا نور الله، والله متم نوره، وليس لهم في ذلك إلا الفضاحة والخزي، كما إذا دخل الحمام ناسٌ في ليلٍ مظلم، وفيهم الأصحاء وأهل العيوب، فجاء واحدٌ بسراج مضيءٍ لا يسارع إلى إطفائه إلاّ أهل العيوب، مخافة أن يُظهر عيوبهم للأصحَّاء، ويلحق بهم مذمَّةً (أو) الهمزة[1] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلةٌ على محذوف معلوم من السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، كما هو مذهب الزمخشري، والتقدير: أكفروا بهذه الآيات البيِّنات مع كونها في غاية الوضوح؟ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ﴾؛ أي: أعطوا ﴿عَهْدًا﴾ لله سبحانه في حقِّ محمد ﷺ وهو مصدرٌ مؤكِّد لعاهدوا من غير لفظه بمعنى: معاهدةً. وقرأ أبو السمال العدويُّ[2]، وغيره ﴿أَوْكُلَّما﴾ بسكون الواو، وخرَّج ذلك الزمخشري على أن يكون للعطف على الفاسقين وقدَّره: وما يكفر بها إلاّ الذين فسقوا، أو

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

نقضوا عهد الله مراراً كثيرةً، وخرَّجه المهدوي، وغيره على أنَّ (أو) للخروج من كلامٍ إلى غيره بمنزلة أمْ المنقطعة، فكأنَّه قال: بل كُلَّما عاهدوا عهداً. الخ. وهذا التخريج على مذهب الكوفيين، إذْ تكون ﴿أو﴾ عندهم بمعنى بل، ويحتمل أن تكون ﴿أو﴾ على هذه القراءة الشاذة بمعنى: الواو، كأنَّه قيل: وكلَّما عاهدوا عهداً. وقرأ الحسن، وأبو رجاء ﴿أو كلّما عوهدوا﴾ على البناء للمفعول، وهي قراءةٌ شاذة تخالف رسم المصحف. وقرىء ﴿أو كلما عهدوا عهداً﴾ ويكون ﴿عهداً﴾ مصدراً لفظياً؛ أي: نبذ ذلك العهد، وطرحه، أو نقضه، أو ترك العمل به، أو اعتزله، أو رماه، أقوالٌ خمسةٌ، هي متقاربة المعنى، ونسبة النبذ إلى العهد مجازٌ؛ لأنَّ العهد معنى من المعاني، والنَّبْذُ إنّما هو حقيقةٌ في المتجسدات، كقوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وقوله: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: من اليهود، والفريق: الطائفة، وهم اسم جنس يصدق على القليل والكثير، ولا واحد له من لفظه، وإسناد النبذ إلى فريق منهم؛ لأنَّ منهم من لم ينبذه. وقرأ عبد الله (نقضه فريقٌ منهم) وهي قراءة تخالف سواد المصحف، فالأولى حملها على التفسير.

أي: أكفروا[1] بتلك الآيات البينات؟ وكلَّما عاهدوا وأعطوا عهد الله في حق محمد ﷺ نقضه، ورماه جماعةٌ منهم، وقوله: ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ جواب ﴿كلما﴾ وهو محلُّ الاستفهام الإنكاري، والمعنى: أنقضوا العهد كُلَّما عاهدوا عهداً، ولا ينبغي ولا يليق بهم ذلك النقض، وذلك[2] العهد، كقولهم قبل مبعث محمد ﷺ: لئن خرج نبيٌّ آخر الزمان لنؤمننَّ به، ولنخرجنَّ المشركين من ديارهم، وككونهم عاهدوا الله على أن لا يعينوا عليه ﷺ أحداً من المشركين، ثم أعانوا عليه قريشاً يوم الخندق.

وفي «المراغي»: والمراد بالعهود هنا: هي عهودهم للنبي ﷺ، ولمَّا كان لفظ الفريق يُوهم قلّةَ العدد، مع أن الناقِضينَ للعهد هم أكثر، أَضْرَبَ عنه،

---

(١) العمدة. (٢) المراح.

وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنّهم لا عهود لهم؛ أي: بل أكثر اليهود لا يصدِّقون ربَّك أبداً؛ لحَسَدِهم.

وقيل المعنى: بل أكثر اليهود لا يؤمنون بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء، فلا يعتدُّون ـ نقض العهد والمواثيق ذنباً، ولا يبالون، وهذا ردٌّ لما يتوهَّم من أنَّ الفريق النابذين هم الأقلُّون، أو أنّ من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاءً. وهذا من[1] إخبار الغيب، إذ أنَّ أكثر اليهود ما آمنوا بالنبي ﷺ ولن يؤمنوا به، فمثل هذا الحكم لا يصدر إلاّ ممَّن يعلم خفيَّات الأمور.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى، بيَّن في هذه الآية حالين لأهل الكتاب.

أولاهما: أنّه لا يوثق بهم في شيء؛ لما عرف عن كثير منهم من نقض العهود في كل زمان.

ثانيتهما: أنّه لا يرجى إيمان أكثرهم؛ لأنّ الضلال قد استحوذ عليهم، وجعلهم في طغيانهم يعمهون.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: ولمَّا أتى اليهود ﴿رَسُولٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بجاء ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ أي: مُقرِّرٌ ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: لما مع اليهود من التوراة من[2] حيث إنّه ﷺ قرَّر صحتها، أو حقَّق حقيقة نبوّة موسى عليه السلام بما أنزل الله تعالى عليه، أو من حيث إنّه ﷺ جاء على وفق ما نعت له فيها ﴿نَبَذَ﴾؛ أي: طرح ورمى جواب ﴿لَمَّا﴾ ﴿فَرِيقٌ﴾؛ أي: طائفةٌ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ وأعطوا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة، وتمسَّكوا به أوّلاً، يعني: علماء اليهود وأحبارهم ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي أوتوه وهو مفعول نبذ؛ أي: التوراة؛ أي، طرح

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) كرخي.

أحبارهم، ورمى علماؤهم التوراة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأعرضوا عنها بالكلِّية، وتركوا العمل بما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، وجحدوا به، وأصرُّوا على إنكار نبوّته؛ لأنّهم لمَّا كفروا بالرسول المصدِّق لما معهم، فقد نبذوا التوراة التي فيها أنَّ محمداً رسول الله، وقد علموا أنها من الله تعالى، مثل تركهم وإعراضهم عنه بالكلية بما يرمى به وراء الظهر استغناءً، وقلَّة التفاتٍ إليه، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: كأنَّ هؤلاء الفريق لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ، وتصديقه، أو مما بينته من نعوته ﷺ، جملةٌ حاليةٌ من فريقٌ؛ لتخصيصه بالوصف؛ أي: نبذوه وراء ظهورهم حال كونهم متشبِّهين بمن لا يعلمه أنّه كتاب الله.

والنبذُ[١]: كناية عن عدم الالتفات إليها، وعدم الاعتناء بما فيها؛ لأنّ النبذ الحقيقيَّ لم يحصل منهم؛ لأنّها بين أيديهم يقرؤونها. وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير والديباج، وحلَّوه بالذهب والفضة، ولم يُحِلُّوا حلالها، ولم يحرّموا حرامها، فذلك النَّبذ، وهذه الآية تنطبق على كُلِّ من يقرأ القرآن، ولم يعمل بما فيه، وفَّقنا الله تعالى بالعمل بما فيه، وإنَّما عبَّر عنها بكتاب الله، تشريفاً لها، وتعظيماً لحقّها عليهم، وتهويلاً لما اجْترؤُوا عليه من الكفر بها.

قيل[٢]: أصل اليهود: أربع فرقٍ: فرقةٌ آمنوا بالتوراة، وقاموا بحقوقها، كمؤمن أهل الكتاب، وهم الأقلُّون المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفرقةٌ جاهروا بنبذ العهود تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيُّون بقوله عزّ وجلّ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ﴾ وفرقةٌ لم يجاهروا بنبذها، ولكن نبذوها لجهلهم، وهم الأكثرون، وفرقةٌ تمسَّكوا بها ظاهراً، ونبذوها خفيةً وهم المتجاهلون. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ فَعَل فِعْل الجاهل، وتعمَّدَ الخلافَ مع علمه، يلتحقُ بالجُهَّال، وهو والجاهل سواءٌ، فكما أنَّ الجاهلَ لا يَجَيءُ منه خيرٌ، فكذا العالم لا يعمل بعلْمِه، ولذا قال النبي ﷺ: «واعظُ اللِّسان ضائعٌ كلامه، وواعظ القلب نافذٌ

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

سهامه» فالأوّل: هو العالم غير العامل، والثاني: هو العالم العامل الذي يُؤثِّر كلامه في القلوب، وتُنْتِج كلمته ثمراتِ الحكمَة، والعبرةَ، والفكرةَ.

ومعنى الآية[1]: أيْ: إنّه حين جاء النبيُّ ﷺ بكتابٍ مصدِّقٍ للتوراة التي بين أيديهم بما فيه من أصول التوحيد، وقواعد التشريع، وروائع الحكم والمواعظ، وأخبار الأمم الغابرة، نبذ فريقٌ من اليهود كتابهم وهو التوراة؛ لأنّهم حين كفروا بالرسول المصدِّق لما معهم، فقد نبذوا التوراة التي فيها أنَّ محمد رسول الله، وأهملوها إهمالاً تاماً كأنَّهم لا يعلمون أنها من عند الله تعالى، وقد جعل تركهم إيَّاها، وإنكارهم لها إلقاءً لها وراء الظهر؛ لأنَّ من يلقي الشيء وراء ظهره لا يراه فلا يتذكَّره.

فعلى العاقل[2]: أن يسارع إلى الامتثال خوفاً مِنْ بطشِ يدِ ذي الجلال، ويقال: الندامةُ أربعٌ: ندامةُ يومٍ: وهي أنْ يَخْرُج الرجلُ من منزله قبل أن يتغدَّى، وندامةُ سنة: وهي تَرْكُ الزراعةَ في وقتها، وندامةُ عُمْر: وهو أن يتزوَّج امرأة غير موافقة، وندامةُ الأبَدِ: وهي أن يترك أَمْرَ الله، ومجرَّدُ قراءة الكتاب بِتِرْياقِ الظاهر لا يدفع سُمَّ الباطن، فلا بدّ من العمل بما علم، كما أنَّ من كان ينظر إلى كُتُب الطبّ، وكان مريضاً، فما دام لم يباشر العلاج لا يفيد نظره بالأدوية، وكان خُلقه ﷺ: القرآن؛ يعني: يعملُ بأوامره، وينتهي عن نواهيه. وقال السدي[3] لمَّا جاءهم محمدٌ ﷺ خاصموه بالتوراة، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها، وأخذوا بكتابِ آصفِ بن بَرْخِيَا، وسِحْر هاروت وماروت، فلم يوافق ذلك القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ معطوف على نَبَذ؛ أي: ولَّما جاءهم كتاب مِنْ عند الله، نبذ فريق من أهل الكتاب كتاب الله وراءَ ظهورهم واتَّبعوا؛ أي: واتبع أولئك الفريق؛ يعني: علماءَهم وأحبارَهم ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾؛ أي: تَلَتْهُ الشياطين وقرأتْه، والإتيان[4] بصيغة المضارع في تَتْلُوا؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

لحكاية الحال الماضية، والمراد بالإتِّباع: التوغُّل والتمحُّض فيه، والإقبالُ عليه بالكلّية. وقرأ الحسن[1]، والضحَّاك: ﴿الشياطون﴾ بالرفع بالواو وهو شاذٌّ، قاسه على قول ـ العرب: بستان فلانٍ حوله بساتون، رواه الأصمعي، قالوا: والصحيح: أنَّ هذا لحنٌ فاحشٌ، وقال أبو البقاء: شبَّه فيه الياء قبل النون بياء جمع الصحيح، وهو قريبٌ من الغلط، وقال السَّجَاوَنْدِيُّ: خَطَّأَهُ الخَازَرَبَجِيُّ.

أي: واتَّبعوا ما كانت الشياطين تتلوه وتقرؤه ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ بن داود عليهما السلام؛ أي: في عهده وزمان ملكه من السحر، وتكذيبه على سليمان، والكلام على حذف مضاف، وعَلَى بمعنى: في، وكانت الشياطين دفنتهُ تحت كرسيه لمَّا نُزِعِ ملكه، فلم يشعر بذلك سليمان، فلمَّا مات استخرجوه، وقالوا للناس: إنّما مَلككم سليمان بهذا، فتعلَّموه، وأقبلوا على تعلُّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم، وفشَتْ الملامةُ على سليمان، فلم تزل هذه حالَهم حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ وأنزل الله عليه براءةَ سليمان، فقال: وما كفر سليمان الخ.

قال السديُّ[2]: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت، وغيره، ويأتون الكهنة ويُخلِّطون بما سمعوا في كُلِّ كلمة سبعين كذبةً، ويخبرونهم بها، فاكتتبت الناس ذلك، وفشا في بني إسرائيل: أنَّ الجنّ تعلم الغيب، وبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب، وجعلها في صندوق، ودفنه تحت كرسيه، وقال: لا أسمع أحداً يقول: إنّ الشيطان يعلم الغيب إلاّ ضرَبْتُ عنقهَ، فلمَّا مات سليمان، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أَمْرَ سليمان، ودَفْنَه الكُتبَ، وخَلفَ من بعدهم خلفٌ تمثَّل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلُّكم على كنزٍ تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: تحت الكرسي، وذهب معهم، فأراهم المكان، وقام ناحيةً، فقالوا: أُدْنُ، قال: لا ولكني ههنا، فإنْ لم تجدوه، فاقتلوني، وذلك أنَّه

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

لم يكن أحدٌ من الشياطين يَدْنُو من الكرسي إلاّ احترق، فحفروا، وأخرجوا تلك الكتب، قال الشيطان: إنّ سليمان كان يضبط الجنَّ، والإنس، والشياطين، والطير بهذه، ثمّ ـ طار الشيطان، وفشا في الناس أنَّ سليمان كان ساحراً، وأخذ بنو إسرائيل تلك الكُتب، فلذا أكثر ما يُوجَدُ السحرُ في اليهود، فلمَّا جاء محمد ﷺ بَرَّأَ الله سليمان عليه السلام من ذلك، وأنزل عُذْر سليمان، بقوله واتبعوا ما تتلوا الشياطين في زمن ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بالسحر وعمله؛ يعني: لم يكن ساحراً؛ لأنَّ الساحر كافرٌ، والتعرُّض لكونه كفراً؛ للمبالغة في إظهار نزاهته عليه السلام، وكذب باهتيه بذلك.

أي: ما كتب سليمان السحر، وما عمل به؛ لأنّ عمل السحر كفر في شريعته، وأمّا في شريعتنا[1]، فإن اعتقد فاعله حِل استعماله كَفَر، وإلاّ فلا، وأمّا تعلّمه، فإن كان ليعمل به فحرام، أو ليتوقّاه فمباح أولاً، ولا، فمكروه، والسحرُ[2]: كُلُّ ما دَقَّ ولَطُفَ، يقال: سحره إذا أبدى له أمراً يَدِقُّ عليه، ويَخْفَى. وعرَّفه ابنُ العربي[3]: بأنّه كلام مؤلَّف يُعظَّم به غير الله، وتُنْسَب له المقادير، فعليه فهو كفر، حتى في شَرْعِنا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ باستعمال السحر، وتعليمِه، وتدوينِه، وإمّا بتكفيرهم سليمانَ به، ويحتمل كفرهم بغير ذلك، واستعمالُ لكن هنا حَسَنٌ؛ لأنّها بين نفي وإثبات. وقرىء ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بالتشديد، فيجب إعمالها، وهي قراءة نافع، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو. وقرىء بتخفيفِ النون، ورفعِ ما بعدها بالابتداء والخبر، وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وإذا خُفِفت، فهل يجوز إعمالُها؟ مسألةُ خلافٍ: الجمهورُ على المنع، وقال الكسائي، والفراء: الاختيارُ التشديد إذا كان قبلها واو، والتخفيف إذا لم يكن معها واو؛ ذلك لأنّها مخفّفة تكون عاطفة، ولا تحتاجُ إلى واو كبَلْ، وإذا كانت قبلها واوٌ لم تشبه بل؛ لأنَّ بل لا تدخل عليها الواو،

(١) المراح.

(٢) الفتوحات.

(٣) الصاوي.

فإذا كانت لكن مشدَّدةً عملت عمل إن، ولم تكن عاطفة. إنتهى الكلام. أي: ولكنَّ الشياطين من الإنس والجنِ الذين نسَبَوُا إلى سليمان عليه السلام، ما انتحلوه من السحر، وكتبوه، ودوَّنوه، وعلَّموه الناس، هم الذين كفروا حالة كون الشياطين ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ إغواءً لهم، وإضلالاً؛ أي: يقصدون بتعليمهم إياه إضلالهم عن طريق الحق، فعلَّموهم حتى فشا أمر السحر بين الناس وكَثُر.

واعلم: أَنَّهُ[١] قد جاء ذِكرُ السحر في القرآن في مواضع كثيرة، ولا سيما في قِصَص موسى وفرعون، ووصفه بأنه خداعٌ، وتخييلٌ للأعين، حتى ترى ما ليس بكائنٍ كائناً، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ والآية نصٌّ صريحٌ على أنَّ السحر يُعلَّم، ويُلقَّن، والتاريخ يؤيِّد هذا.

والسحر[٢]: إمَّا حيلةٌ وشعوذةٌ، وإما صناعةٌ، وعلمٌ خفيٌّ يعرفه بعض الناس، ويجهله الكثير منهم، ومن ثَمَّ يسمُّون العمل به سحراً؛ لخفاء سببه عليهم، وقد روى المؤرِّخون: أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحِبَال والعِصى بصُوَر الحيَّاتِ والثَّعابِين، حتى خُيِّل إلى الناس أنَّها تَسْعى. وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعةً للمعاش، أن يتكلَّموا بأسماءٍ غريبةٍ، وألفاظ مبهمةٍ اشتهر بين الناس أنها من أسماءِ الشياطين، وملوكِ الجن، لِيوهموُهم أنَّ الجنَّ يَسْتَجِيبون دُعاءهَم، ويُسخرِّون لهم، وهذا هو منشأ اعتقاد العامَّة أنَّ السحر عملٌ يستعان عليه بالشياطينِ، وأرواحِ الكواكب، ولمثل هذا تأثيرٌ في إثارة الوهم دلَّت التجربة على وجوده، وهو يُغْنِي مُنتحِلَ السحر عن توجيهِ هِمَتِه، وتأثير إرادته فيمن يُعملُ له السحرُ، وسيأتي بَسْطهُ أواخرَ هذه الآيات ﴿و﴾ حالة كونهم يعلِّمونهم أيضاً ﴿ما أنزل على الملكين﴾ فهو معطوف على السحر؛ أي:[٣] ويُعلِّمون الناسَ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) الواحدي.

الأمر الذي أنزل على الملكين؛ أي: ما أُلْهِمَ الملكان، وقُذِفَ في قلوبهما من علم التفرقة، وهو رُقْيَةٌ وليس بسحر، قال «المراغي»: وظاهر الآية يدلُّ ـ على أنَّ ما أنزل على الملكين غَيْرُ السحر، لكنه من جنسه، وقد أُلهماه، واهتديا إليه بلا أستاذٍ، ولا معلّمٍ، وقد يُسمَّى مثل هذا وحياً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

وقيل: معطوفٌ على تتلو الشياطين، والمعنى عليه، وكما اتَّبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتَّبعوا ما أنزل على الملكين، وقرىء في الشواذ المَلِكَيْنِ بكسر اللام، قيل: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقيل: عِلْجَان، والقراءة[1] المشهورة بفتح اللام، وهما ملكان من الملائكة، وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو الأسود الدؤلي، والضحَّاك، وابن أبزي المَلِكين بكسر اللام، فقال ابن عباس: هما رجلان ساحران ببابل، واعلم أنَّ الملكيَنِ أنزلا لتعليم السحر امتحاناً من الله تعالى للناس، هل يتعلَّمونه أم لا؟ كما امتحن قوم طالوت بالشرب من النهر، فمَنْ تعلَّمه منهم وعَمِلَ به كان كافراً، ومن تَجنَّبه أو تعلَّمه لا يعمل به، ولكن ليتوقَّاه كان مؤمناً، كما قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشَّرِّ ولكن لِتوَقِّيه

وهذا كما إذا أتى عرَّافاً فسأله عن شيء؛ لِيَمْتَحِن حالَه؛ ويختبر باطنَ ما عنده، وعنده ما يَميَّزُ بِهِ صدقُه من كذبه، فهذا جائزٌ. قال الإمام فخر الدين الرازيُّ: كانت الحكمة في إنزالهما: أنَّ السَّحرة كانوا يسترقُون السمعَ من الشياطين، ويُلقُون ما سمعوا بين الخلق، وكانوا بسببِ ذلك يُثْبِتُون لأنفسهم الوَحْي النازلَ، على الأنبياء، فأَنْزلَهما إلى الأرضِ ليعلِّما الناسَ كيفيةَ السحر، ليظهر بذلك الفَرْقُ بين كلام الله، وكلام السحرة؛ لئلا يغترَّ الناس بالسحر؛ لأنَّ السحرةَ كثُروا في ذلك الزمن، واستنبطوا أبواباً ـ غريبةً من السحر، وكانوا يدَّعون النبوة، فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلِّما الناس أبواب السحر، حتّى يتمكنوا

---

(١) البحر المحيط.

من معارضة أولئك الكذّابين، وإظهار أمرهم على الناس.

﴿بِبَابِلَ﴾ الباء[1] بمعنى في، وهي متعلقةٌ بأنزل، أو بمحذوف وقع حالاً من الملكين، وهي: بابل العراق، أو بابل أرض الكوفة، ومنع الصرف للعجمة والعلمية، وأحسن ما قيل في تسميتها ببابل: أنَّ نوحاً عليه السلام، لمَّا هبط إلى أسفل الجوديِّ، بَنَى قريةً وسمَّاها ثمانين، فأصبح ذات يوم، وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغةً، إحداها اللسان العربيُّ، وكان لا يفهم بعضهم من بعض. كذا في «تفسير القرطبي»، واختصت بابل بالإنزال؛ لأنّها كانت أكثر البلاد سحراً ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطف بيان للملكين؛ لأنَّهما علمان لملكين نَزَلا من السماء، كما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس، ومُنع صرفهما للعلمية والعجمية، وما روي في قصتهما من أنَّها شربا الخمر، وسفكا الدم، وزنيا، وقتلا نفساً، وسجدا للصنم، فَمِمَّا لا تعويل عليه؛ لأنَّ مداره رِوايةُ اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلَّة النقل والعقل.

يقول الفقير: قد تصَفَّحْتُ كتبَ أرباب الخبر والبيان، وأصحاب الشهود والعيان، فوُجدتُ عامَّتَها مشحونةً بذكر ما جرى من قصتهما، وكيف يجوز الاتِّفاق من الجمِّ الغفير على ما مداره ـ روايةُ اليهود، خُصوصاً في مثل هذا الأمر الهائل، فأقول: وَصْفُ الملائكةِ بأنَّهم لا يعصون، ولا يستكبرون، يسبِّحون الليل والنهار، لا يفتُرون، ويفعلون ما يؤمرون، دليلُ تصوُّرِ العصيان منهم، ولولا ذلك لما مدحوا به، إذ لا يُمْدَح أحدٌ على الممتنع، لكن طاعتهم طبعٌ، وعصيانهم تكلُّفٌ، على عكس حال البشر، كما في «التيسير»، فهذا يقتضي جوازُ الوقوع مع أنَّ فيما روي في سبب نزولهما ما يزيل الإشكال قطعاً، وهو أنَّهم لمَّا عيَّروا بني آدم بقلّة الأعمال، وكثرة الذنوب في زمن إدريس عليه السلام، قال الله تعالى: (لو أنزلتكم إلى الأرض وركَّبت فيكم ما ركَّبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا)، فقالوا: سبحانك ربَّنا، ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى:

---

(١) روح البيان.

فاختاروا ملكين من خياركم أَهْبِطْهمُا إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة، وأعبدهم، فأُهِبْطا بالتركيب البشريِّ، فحكما بين الناس، وافتتنا بامرأةٍ تسمَّى بالعربية الزهرة، وبالفارسية: مِيْذَخْتَ، فطَلَباها وامتنعت إلاّ أن يعبدا صنماً، ويَشْرَبا خمراً، ويقتلا نفساً، ففعلا ما فعلا، فخافا على أمرهما، فعلَّماها ما تَصْعَدُ به إلى السماء، وما تنزلُ به، فصعدت ونَسِيَتْ ما تنزلُ به، فمُسخت بالكوكب المضيء في السماء الثانية، وأنَّهما تشفعا بإدريس عليه السلام إلى الله تعالى، فخيَّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا؛ لأنَّه مؤقَّتٌ وعذاب الآخرة مؤبَّدٌ، فهما في بئر بابل مُعلَّقان فيه بشُعورهما إلى يوم القيامة، قال مجاهد: مُلِئَ الجُبُّ ناراً فجُعلاً فيه، وقيل: معلَّقان بأرجلهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ أربع أصابع، فهما يعذَّبان بالعطش، وهذا الذي رُوي فيهما ليس ببعيدٍ، إذْ ليس مجرَّدُ هُبوط الملك ممَّا يقتضي العِصْيانَ، وذلك ظاهرٌ، وإلاَّ لظهر من جبريل، وغيره، ألا ترى أنَّ إبليس له الشهوة والذريَّة مع أنّه كان من الملائكة على أحدِ القولين؛ لأنّها ممَّا حدثَتْ بعد أن مُحي من ديوانهم، فيجوز أن تَحْدُثَ الشهوة في هاروت وماروت، بعد أن أهبطا إلى الأرضِ؛ لاستلزام التركيب البشريِّ ذلك، وقد قال في «آكام المرجان»: إنّ الله تعالى باين بَيْنَ الملائكة، والجنِّ، والإنس في الصورة، والأشكال، فإنْ قلَبَ الله الملك إلى صورة الإنسان ظاهراً وباطناً، خرج عن كونه ملكاً، وكذلك لو قلب الشيطان إلى بِنْيةِ الإنسان، خرج بذلك عن كونه شيطاناً.

وفي الحديث: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الدُّنيا، فوالذي نفسي بيده، إنَّها لأَسْحَرُ من هاروت وماروت» قال العلماء: إنّما كانت الدنيا أسحر منهما؛ لأنّها تدعوك إلى التَّحارص عليها، والتَّنافس فيها، والجمع لها، والمنع حتى تُفرِّق بينك وبين طاعة الله تعالى، وتُفرِّق بينك وبين رؤية الحق ورعايته، وسحر الدنيا محبتها، وتلذُّذك بشهواتها، وتمنِّيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «حُبُّك الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ» أَرادَ النبيُّ ﷺ: أنَّ من الحُبِّ ما يعمي عن طريق الحقّ والرَّشدِ، ويُصِمُّكَ عن استماع الحق، وإنَّ الرجل إذا غلب الحُبُّ على قلبه، ولم يكن له رادعٌ من عقلٍ، أو دينٍ أصمَّهُ حُبُّه عن

العذل، وأعماه عن الرشد، أو يعمي العين عن النظر إلى مساويه، ويُصِمُّ الأذن عن استماع العذل فيه، أو يعمي، ويُصِمُّ عن الآخرة، وفائدته: النَّهي عن حُبِّ ما لا ينبغي الإغراق في حُبِّه، ثُمَّ في هذه[1] القصة إشارةٌ إلى أنّه لا يجوز الاعتماد إلاّ على فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته، فإنَّ العصمة من آثار حفظ الله تعالى.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد من علَّم المُضعَّف، وقرأ طلحة بن مصرِّف: ﴿وما يُعْلِمَان﴾ من أعلم، وقالت طائفةٌ: بالتضعيف وبالهمزة بمعنًى واحدٍ ذكره في «البحر»؛ أي: وما يُعلِّم الملَكان أحداً من الناس السحر، فمن[2] مزيدةٌ في المفعول به؛ لإفادة تَأْكيد الاستغراقِ الذي يفيده أحدٌ، والمعنى: ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناس ما أنزل على الملكين، ويحملونهم على العمل به؛ إغواءً وإضلالاً، والحال أنَّ الملكين ما يُعلِّمان ما أنزل عليهما من السحر أحداً من طالبيه ﴿حَتَّى﴾ يَنْصَحاه أوَّلاً، ويَنْهَيَاه عن العمل به، والكفر بسببه، و﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وابتلاءٌ من الله تعالى، فمن عمل بما تعلَّم مِنَّا، واعتقد حقيته كفر، ومن توقَّى عن العمل به، أو اتخذه ذريعةً للاتقاء عن الإغترار بمثله بقي على الإيمان، والفتنةُ: الاختبارُ والامتحانُ، يقال: فتنت الذهب، كالبَليَّةِ، والمعصيةِ، والقتل، والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، وقد تكون الفتنة في الدين مثل الارتداد والمعاصي، وإكراه الغير على المعاصي، وأُفردت الفتنةُ مع تعدُّد الملكين؛ لكونها مصدراً، وحَمْلُها عليهما؛ مُوَاطأةٌ للمبالغةِ، كأنَّهما نفس الفتنة، والقَصْرُ؛ لبيان أنّه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأنٌ سِواهُ؛ لينصرف الناس عن تعلُّمه ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلُّمِه، واعتقادِ حقيته مع أنّه ليس بباطلٍ شرعاً، وجوازِ العمل به، ويقولان ذلك سَبْع مراتٍ، فإن أبى إلاّ التعلُّم علَّماه.

أي: فلا تتعلَّم السحر[3]، ولا تعمل به؛ لأنَّ عمله كفرٌ بالله؛ أي: لا يصفان السحر لأحدٍ حتى يبذلا ـ النصيحةَ له أوَّلاً، فيقولا لَهُ: هذا الذي نَصِفُه

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) عمدة التفاسير.

لك، وإن كان الغرض منه أن يتميَّز به الفرقُ بين السحر والمعجزة، ولكنَّه يمكنك أن تتوصَّل به إلى المفاسد والمعاصي. فإيَّاك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نُهيت عنه، أو تتوصَّل به إلى شيءٍ من الأغراض العاجلة.

وفي هذا[1] إيماءٌ إلى أنَّ تعلُّم السحر، وكُلِّ ما لا يجوز اتباعه، والعمل به ليس محظوراً، وإنّما الذي يحظر ويمنع هو العمل به فحَسْبُ. وإنما كانا يقولان ذلك إبْقاءً على حسن اعتقاد الناس فيهما، إذ كانا يقولان: إنّهما ملكان، كما نسمع الآن من الدجالين يحترفون مثل ذلك، لمن يعلِّمونهم الكتابة للحبِّ، والبغض، نوصيك بأن لا تكتب هذا لجلب امرأةٍ إلى حبِّ غير زوجها، ولا تكتب لأحد زوجين أن يبغض الآخر، بل تجعل ذلك للمصلحة العامَّة، كالحُبِّ بين الزوجين، والتفريق بين عاشقين فاسقين، وهذا منهم إيهامٌ بأنَّ علومهم إلٰهيَّةٌ، وقرأ الجمهور ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ بفتح التاء، وهما بدلٌ من الملكين، وتكون الفتحة علامةً للجر؛ لأنّهما ممنوعان من الصرف لما مرَّ. وقرأ الحسن، والزهريُّ: ﴿هاروتُ وماروتُ﴾ بالرفع، فيجوز أن يكونا خبر مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هما هاروت وماروت ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ عطف[2] على الجملة المنفيَّة، فإنَّها في قوَّة المثبتة، كأنّه قيل: يعلِّمانهم بعد قولهما، إنما نحن فتنة... الخ، والضمير لأحد حملاً على المعنى، والمراد به: السحرة؛ أي: فالنَّاس يتعلَّمون ﴿مِنْهُمَا﴾؛ أي: من الملكين، أو من السحرِ، والمنزَّلِ على الملكين، أو من الفتنة والكفر؛ أي: فيأتي السحرة من الناس الملكين، فيتعلَّمون من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بسببِهِ واستعمالهِ ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ أي: يتعلَّمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ببغض كل واحدٍ منهما إلى الآخر، فبعد أن كانت المودَّة، والمحبة بينهما، يُصبح الشقاق، والفراق، والخِلاف بينهما، عند ما فعلوا من السحر، كالتَّمويه، والتَّخييل، والنَّفث في العقد، ونحو ذلك ممَّا يُحدث الله عنده البغضاء، والنشوز، والخلافَ بين الزوجين، ابتلاءً من الله تعالى؛ لأنَّ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

السحر هو المؤثِّر في ذلك، بل بحَسَب جري العادة الإلهية، من خلق المسبَّبات عقيب حصول الأسباب العاديَّة ابتلاءً منه تعالى، كما يدلُّ عليه قوله سبحانه الآتي: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، قوله: ﴿وَزَوْجِهِۦ﴾ ظاهره أنه يريديه امرأة الرجل، وقيل: الزوج هنا: الأقارب والإخوان، وهم الصنف الملائم للإنسان، ومنه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ ذكره في «البحر».

قال السدي[1]: كانا يقولان لمن جاءهما: إنّما نحن فتنة فلا تكفر، فإن أبى أنّ يرجع قالا له: ائت الرّماد فَبُلْ فيه، فإذا بال فيه خرج نورٌ يَسْطَعُ إلى السماء، وهو الإيمان، والمعرفةُ، وينزل شيءٌ أسود شِبهُ الدُّخان، فيدخل في أذنيه، ومسامعه، وهو الكفر، وغضبُ الله، فإذا أخبرهما بما رآه من ذلك، علَّماه ما يفرِّق به بين المرء وزوجه، ويقدر الساحر على أكثر ممَّا أخبر الله عنه من التفريق؛ لأنَّ ذلك خُرِّج على الأغلب. قيل: يُؤخذ الرجلُ عن المرأة بالسحر لا يقدر على الجماع. قال في نصابِ الاحتساب: إنَّ الرجل إذا لم يَقْدِر على مجامعة أهله، وأطاق ما سواها، فإنّ ـ المُبْتلى بذلك يأخذ حُزْمَة قصباتٍ، ويطلب فأساً ذا فقارين، ويضعه في وسط تلك الحزمة، ثم يؤجِّجُ ناراً في تلك الحزمة، حتى إذا أُحمي الفأس استخرجه من النار، وبال على حدّه، يبرأ بإذن الله تعالى. انتهى.

والآية[2] لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلَّمُونه من السحر أمؤثرٌ بطبعه، أو بسببٍ. خفيٍّ، أو بخارقٍ من خوارق العادات، أم غير مؤثّر؟ كما أنَّها لم تُبيِّن نوعَ ما يتعلَّمونه، أتمائمٌ وكتابةٌ هو، أم تلاوةُ رُقًى وعزائمَ، أم أسَالِيب سِعَايةٍ، أم دسَائِسُ تنفيرٍ ونكايةٍ، أم تأثيرٌ نفسانيٌّ أم وسواسٌ شيطانيٌّ؟ فأيُّ ذلك أثبته العِلْمُ، كان تفصيلاً لما أَجْملَه القرآن، ولا نتَحكَّم في حَمْله على نوعٍ منها، ولو علم الله الخَيْر في بيَانهِ لبينه، ولكنَّه وَكَل ذلك إلى بُحُوث الناس، وارتقائهم في العلم، فهو الذي يُجلِّي الغوامضَ، ويكشف الحقائق ﴿وَمَا هُم﴾؛ أي: ليس السَّاحرون

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾؛ أي: بما تعلَّموه من السحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: أحداً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إنَّ هؤلاء لم يُعْطَوا شيئاً من القوى الغيبيَّة فوق ما أعطي سائر الناس، بل هي أسبابٌ ربط بها مسبَّباتها، فإذا أُصيب أحدٌ بضررٍ بعمل من أعمالهم، فإنَّما ذلك بإذنه تعالى، فهو الذي يوجد المسبَّبات عند حصول الأسباب، والاستثناء[1] في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ مفرَّغٌ، والباء متعلِّقةٌ بمحذوف وقع حالاً من ضمير ﴿ضارِّين﴾ أو من مفعوله، وإنْ كان نكرةً؛ لاعتمادها على النَّفي، أو الضمير المجرور في ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: ما يضرُّون به أحداً إلاّ مقروناً بعلم الله تعالى، وإرادته، وقضائه لا بأمره؛ لأنّه لا يأمر بالكفر، والإضرار، والفحشاء، ويقضي على الخلق بها، فالسَّاحر يسحر، والله يكوِّن، فقد يُحدث عِنْد استعمالِهم السحر فعلاً من أفعاله ابتلاءً، وقد لا يحدثه، وكُلُّ ذلك بإرادته، ولا يُنْكَر أنَّ السحر له تأثيرٌ في القلوب، بالحُبِّ والبغض، وبإلقاءِ الشرور، حتى يَحُولَ بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام، وعظيم الأسقام، وكُلُّ ذلك مُدْرَكٌ بالحس والمشاهدة، وإنكاره معاندةٌ.

وإن أردت التفصيلَ وحقيقةَ الحال[2]، فاستمع لما نَتْلُو عليك من المقال، وهو أنَّ السحر: إظهار أمرٍ خارقٍ للعادة، من نفسٍ شِرِّيرةٍ خِبَيثةٍ، بمباشرة أعمالٍ مخصوصةٍ، يَجْرِي فيه التعلُّم والتعليم، وبهذين الاعتبارين يُفارق المعجزة، والكرامة؛ وذلك لأنَّ المعجزة: أمرٌ خارق للعادة، يظهر على يد من يدَّعي النبوة والرسالة عند ردِّ الملحدة، والكرامة: أمرٌ خارق للعادة، يظهر على يد عبدٍ من عباد الله الصالحين، والسِّحر: أمرٌ خارقٌ للعادة، يظهر على يد نفسٍ شريرةٍ خبيثةٍ، بمباشرة أعمالٍ مخصوصة.

فَصْلٌ في بيان حقيقة السحر

واختلف العلماء في حقيقة السحر بمعنى ثبوته في الخارج:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فذهب الجمهور: إلى ثبوته في الخارج، وقالت المعتزلة: لا ثبوت له، ولا وجود له في الخارج، بل هو تمويهٌ وتخييلٌ، ومجرَّد إراءة ما لا حقيقة له، يرى الحبال حيَّاتٍ بمنزلة الشعوذة التي سببها: خِفَّة حركات اليد، إو إخفاء وجه الحيلة، وتمسّكوا بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ولنا وجهان: الأوّل: يدل على الجواز، والثاني يدلّ على الوقوع، أمّا الأول: فهو إمكان الأمر في نفسه، وشمول قدرة الله سبحانه وتعالى له، فإنّه الخالق، وإنما الساحر فاعلٌ وكاسبٌ، وأمّا الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، وفيه إشعارٌ بأنّه ثابتٌ حقيقة ليس مجرد إراءةٍ وتمويهٍ، وبأنَّ المؤثّر والخالق هو الله تعالى وحده، وأمّا الشَّعوذة، وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الأدلَّة الهندسية، وخفّة اليد، والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار، فإطلاق السحر عليها مجازٌ، أو لما فيها من الدِقَّة؛ لأنّه في الأصل عبارةٌ عن كل ما لطف مأخذه، وخفي سببه، ولذا يقال: سحرٌ حلالٌ، وأكثرُ من يتعاطى السحر النساء، وخاصةً حالَ حيضهنّ، والأرواحُ الخبيثةُ تُرى غالباً للطبائعِ المغلوبةِ، والنفوسِ الرذيلة، وإن لم يكن لهم رياضةٌ، كالنساء، والصبيان، والمُخنثين، والإنسان إذا فَسَد نفسه، أو مزاجه يشتهي ما يضرُّه، ويتلذّذ به، بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقلَه، ودينَه، وخلقه، وبدنه، وماله، والشياطين خبيثةٌ، فإذا تقرَّب صاحبُ العزائم، والإقسام، وكَتْبِ الرُّوحانيات السحرية، وأمثال ذلك إليهم، بما يحبُّونه من الكفر، والشرك صار ذلك كالرَّشوة والبَرْطِيْلِ لهم، فيقضون بعض أغراضهم، كمن يعطي رجلاً مالاً ـ ليقتل من يريد قتله، أو يعينه على فاحشةٍ، أو ينال منه فاحشةً، ولذلك يكتب السحرة، والمُعْزِمُون في كثيرٍ من الأمور، كلامَ الله تعالى بالنَّجاسة، والدماء، ويتقرَّبون بالقرابين، ومن حيوانٍ ناطقٍ، وغير ناطق، والبُخور، وتَركِ الصلاة، والصومِ، وإباحات الدماء، ونكاح ذوات المحارم، وإلقاء المصحف في القاذورات، وغيرِ ذلك مما ليس فيه رضا الله تعالى، فإذا قالوا كفراً، أو كتبوه، أو فعلوه أعانتهم الشياطين؛ لأغراضهم، أو بعضها، إمَّا بتَغْوِيرِ مَاءٍ، وإمّا بِأَنْ يُحْمَلَ في الهواء إلى بعض الأمكنة، وإمّا بأنْ يأتيه بمالٍ من أموال الناس، كما

يسرقه الشياطينُ من أموالِ الخائِنين، وأموال من لم يذكر اسم الله عليه، ويأتي به، وإمّا بغير ذلك، من قتل أعدائهم، أو إمراضهم، أو جَلْبِ من يهوونه وكثيراً ما يتصوَّر الشيطان بصورة الساحر، ويقف بعرفاتٍ ليظنَّ مَنْ يُحسِن الظنَّ به أنّه وقف بعرفات، وقد زيَّن لهم الشيطان أنَّ هذا كرامات الصالحين، وهو من تلبيس الشيطان، فإنَّ الله تعالى لا يُعبد إلاّ بما هو واجبٌ، أو مستحبٌّ، وما فعلوه ليس بواجبٍ، ولا مستحبٍ شرعاً، بل هو منهيٌّ عنه حرامٌ، ونعوذ بالله من اعتقاد ما هو حرامٌ عبادةً، ولأهل الضلال الذين لهم عبادةٌ على غير الوجه الشرعيّ، مكاشفاتٌ أحياناً، وتأثيراتٌ يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نهي عن الصلاة فيها، كالحمَّام، والمزبلة، والمقبرة، وأعطان الإبل، وغير ذلك مما هو من مواضع النجاسات؛ لأنَّ الشياطين تنزل عليهم فيها، ويخاطبهم ببعض الأمور، كما يخاطبون الكفار، وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلّم عُبَّاد الأصنام.

قال العلماء: إن كان في السحر ما يخل شرطاً من شرائط الإيمان، من قول، وفعل، كان كفراً، وإلا لم يكن كفراً، وعامَّة ما بأيدي الناس من العزائم، والطَّلاسم، والرُّقي التي لا تفهم بالعربية، فيها ما هو شِرْكٌ وتعظيمٌ للجن، ولهذا نهى علماء المسلمين عن الرُّقي التي لا يفهم معناها بالعربية؛ لأنَّها مظنَّة الشرك، وإن لم يعرفِ الرَّاقي أنّها شركٌ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: أنَّه رخّص في الرُّقي ما لم تكن شركاً، وقال «مَن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل» ولذا نقول: إنه يجوز أن يكتب للمصاب، وغيره من المرضى شيءٌ من كتاب الله تعالى، وذكره. بالمداد المباح، ويُسقىٰ، أو يعلَّق عليه، وفي أسماء الله تعالى، وذكره خاصَّةً قمع الشياطين، وإذلالهم، ولأنفاس أهل الحق تأثيراتٌ عجيبةٌ؛ لأنّهم تركوا الشهوات، ولزموا العبادات على الوجه الشرعيِّ، وظهر لهم حكم قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولذا يطيعهم الجنُّ والشياطين، ويستعبدونهم، كما استعبدها سليمان عليه السلام، بتسخير من الله تعالى، وإقداره.

واعلم: أنَّ حكم الساحر القتل ذكراً كان أو أنثى، إذا كان سعيه بالإفساد، والإهلاك في الأرض، وإذا كان سعيه بالكفر، فيقتل الذكر دون الأنثى، فتضرب، وتحبس؛ لأنَّ الساحرة كافرةٌ، والكافرةُ ليست من أهل الحرب، فإذا كان الكفر

الأصليُّ يدفع عنها القتل، فكيف الكفر العارض؟ والساحر إن تاب قبل أن يؤخذ تقبل توبته، وإن أُخِذ ثم تاب لا تقبل، كما قال في «الأشباه»: كُلُّ كافر تاب فتوبته مقبولةٌ في الدنيا والآخرة، إلاّ الكافر بسبِّ نبيٍّ، أو بسبِّ الشيخين، أو أحدهما، وبالسحر ولو امرأةً، وبالزندقة إذا أُخِذَ قبل توبتِهِ، والزنديق: هو الذي يقولُ بقدمِ الدهر، وإسنادِ الحوادث إليه مع اعتراف النبوَّةِ، وإظهارِ الشرع. هذا، وأكثر المنقول إلى هنا من كتاب آكام المرجان، وهو الذي ينبغي أن يكتب على الأحداق لا على القراطيس والأوراق.

قوله بين ﴿ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ قرأ الجمهور[1] بفتح الميم وسكون الراء والهمزة. وقرأ الحسن، والزهري، وقتادة ﴿المَرِ﴾ بغير همز مخففاً. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿المُرءُ﴾ بضمّ الميم والهمزة. وقرأ الأشهب العقيلي ﴿المِرْءِ﴾ بكسر الميم والهمزة، ورُويت عن الحسين. وقرأ الزهري أيضاً ﴿المَرِّ﴾ بفتح الميم وإسقاط الهمزة وتشديد الراء، فأمّا فتح الميم وكسرها وضمُّها، فلغاتٌ، وأمّا المرِ بكسر الراء، فوجهه أنّه نقل حركة الهمزة إلى الراء، وخفَّف الهمزة، وأمّا تشديدها بعد الحذف، فوجهه أنّه نوى الوقف فشدَّد، كما روي عن عاصم مستطرّ بتشديد الراء في الوقف، ثُمَّ أُجري الوصل مجرى الوقف، فأقرَّها على تشديدٍ فيه، قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ قرأ الجمهور بإثبات النون في ﴿بِضَآرِّينَ﴾ وقرأ الأعمش بحذفها، وخرج ذلك على وجهين: أحدهما: أنّها حذفت تخفيفاً، والثاني: أنَّ حذفها لأجل الإضافة إلى أحد، وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور الذي هو ﴿بِهِۦ﴾ كما قال:

هما أخوا في الحرب من لا أخا لَهُ

وكما قال:

كما خُطَّ الكتابُ بِكَفِّ يَوْماً يَهُودِيٍّ

وهذا التخريج ليس بجيد؛ لأنَّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف

---

(١) البحر المحيط.

والجار والمجرور من ضرائر الشعر، وأقبح من ذلك أن لا يكون ثَمَّ مضافٌ إليه؛ لأنّه مشغولٌ بعاملٍ جارٍ، فهو المؤثِّر فيه لا الإضافة، وأمَّا جعل حرف الجر جُزْءاً من المجرور، فهذا ليس بشيءٍ؛ لأنّه مؤثّر فيه، وجزء الشيء لا يؤثر في الشيء، والأجود التخريج الأوّل؛ لأنَّ له نظيراً في نظم العرب ونثرها، فمن النثر قول العرب:

قَطَاقطَا بَيْضُكِ ثِنْتَا وَبَيْضِي مائتا

يُريدُون ثِنْتَان ومِائتَانِ ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ منهما ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ولا ينفعهم، صرَّح[1] بذلك؛ إيذاناً بأنّه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضَّرر، بل هو شرٌّ بحتٌ وضررٌ محضٌ، لأنّهم لا يقصدون به التخلُّصَ عن الاغترار بأكاذيب من يدَّعي النبوَّة مثلاً من السحرة، أو تخليصَ النَّاس منه حتى يكون فيه نفعٌ في الجملة. وعبارة أبي حيان: لمَّا ذكر أنّه يحصل به الضرر لمن يفرِّق بينهما، ذكر أيضاً أنَّ الضرر لا يقتصر على من يُفعل به ذلك، بل هو أيضاً يضرُّ مَن تعلَّمه، ولمَّا كان إثبات الضرر بشيء لا ينفي النَّفع؛ لأنّه قد يوجد الشيء فيحصل به الضرر، ويحصل به النفع، نَفَى النفع عنه بالكليَّة وأتى بلفظ لا؛ لأنّها يُنفىٰ بها الحال والمستقبل، والظاهر أنَّ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ معطوفٌ على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ وكلا الفعلين صلةٌ لما، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وجوَّز بعضهم أن يكون ﴿لا ينفعهم﴾ على إضمار هو؛ أي: وهو لا ينفعهم فيكون في موضع رفعٍ، وتكون الواو للحال، وتكون جملةً حاليَّةً، وهذا الوجه ضعيفٌ، وقد قيل: الضرر وعدم النفع مختصٌّ بالآخرة.

وقيل: هو في الدنيا والآخرة، فإنَّ تعلُّمه إن كان غير مباح، فهو يجرُّ إلى العمل به، وإلى التنكيل به إذا عُثِر عليه، وإلى أنَّ ما يأخذه عليه حرامٌ، هذا في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فلِمَا يترتَّب عليه من العقاب. انتهى. قال المراغي: وهذا مِمّا يعاقبُ الله عليه، ومَنْ عُرِف بإيذاء الناس أبغضوه، واجتنبوه، ولا نفع لهم فيه، فإنَّا نرى منتحلي هذه المِهَنِ مِنْ أفقر الناس وأَحْقِرهم، وذلك حالُهم في

---

(١) روح البيان.

الدنيا، فما بالك بهم في الآخرة يوم يُجزى كلُّ عامل بما عمل. انتهى.

وفي الآية: إيماءٌ إلى أنَّ الاجتناب عما لا يؤمن غوَائِلِهُ واجبُ، كتعلُّم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرَّ إلى الغَواية، وإن قال مَنْ قال:

عرفت الشرَّ لا للشرِّ لكنْ لِتَوَقِّيهِ ومَنْ لا يعرف الشرَّ مِنَ الناسِ يَقَعْ فيهِ

وذكَر في «التَّجْنيس»: أنَّ تعلُّم النجوم حرام إلاّ ما يُحتاج إليه للقبلة، ولمعرفة فصول السنة وحسابها، ومعرفة فيء الزوال من المنازل الثمانية والعشرين، ومِنْ أحاديث «المصابيح»: (مَنِ اقتبس ـ علماً من النجوم، اقتبس شعبةً من السحر) وإذا لم يكن في تعلُّم مثل هذه العلوم خيرٌ، فكذا إمساكُ الكتب التي اشتملت عليها من كتب الفلاسفة وغيرها، بل لا يجوز النظر إليها، كما في «نصابِ الاحتساب» ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾؛ أي: لقد علم هؤلاء اليهود في التوراة، واللام فيه للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد علم اليهود الذين أخذوا السحر، واتَّبعوا الشياطين بدل متابعة رسول الله ﷺ، والإيمان به.

وقال أبو حيان[1]: الضمير في علموا قيل: عائدٌ على اليهود الذين كانوا في عهد سليمان بن داود عليه السلام، وكانوا حاضرين استخراجَ الشياطين السحرَ ودفنه، أو أَخْذَ سليمان السحر ودفنه تحت كرسيّه، ولمَّا أخرجوه بعد موته، قالوا: والله ما هذا مِن عمل سليمان، ولا من ذخائره، وقيل: عائدٌ على من بحضرة رسول الله ﷺ من اليهود، وقيل: يعود على اليهود قاطبةً؛ أي: علموا ذلك في التوراة، وقيل: عائدٌ على علماء اليهود، وقيل: عائدٌ على الشياطين، ـ وقيل: على الملكين؛ لأنَّهما كانا يقولانِ لمن يتعلَّم السحر فلا تكفر، فقد علموا أنَّه لا خَلاق له في الآخرة وأتى بضمير الجمع على قول: مَنْ يرى ذلك وعَلِم هنا يحتمل أن تكون المتعدية لمفعولين وعُلِّقت عن الجملة، ويحتمل أن تكون المتعدية لمفعول واحد، وعلقت أيضاً كما علقت عرفتُ، والفرق بين هذين التقديرين يظهر في العطف على موضعها. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

واللام في قوله: ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ هي لام الابتداء، وهي المانعة من عمل علم وأخواتها، وهي أحد الأسباب المُوجبة للتعليق، وأجازوا حَذْفَها، وهي باقيةٌ على منع العمل، وخرَّجُوا على ذلك قوله:

كَذاكَ أُدِّبْتُ حتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إنّي وجدتُ مِلاكُ الشِيمةِ الأدبُ

يريد لَمُلاكُ الشيمة، و﴿مَنِ﴾ هنا موصولة، وهي مرفوعة بالابتداء، والجملة من قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ في موضع خبرها؛ أي: لقد[1] علموا أنَّ من اشترى السحر، واختاره، واستبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى، ما له في الآخرة من خلاق ونصيبٍ من دار الكرَمة؛ لأنّه من أهل النار؛ أي: ليس لذلك المشتري، والآخذ بالسحر في الآخرة خلاقٌ، وحظٌّ، ونصيبٌ من الجنة، بل هو من أهل النار.

والمعنى[2]: أي إنَّهم عالمون بأنَّ من اختار هذا، وقدَّمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التي توصل إلى السعادة في الدارين، فليس له حظٌّ في الآخرة؛ لأنّه خالف حكم التوراة التي حظَرت تعلُّم السحر، وجعلت عقوبة من اتبع الجنَّ، والشياطين، والكهان، كعقوبة عابدي الأصنام والأوثان، واللام في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ موطئةٌ[3] لقسم محذوف، والشراء هنا بِمَعْنَى: البيعِ؛ لأنَّ الشراء من الأضداد، والمخصوص بالذمّ مِحذوف.

والمعنى[4]: وعزّتي وجلالي: لبئس وقَبُح الشيء شيئاً باعوا به حظوظ أنفسهم في الآخرة، والمخصوص بالذمّ تعلُّم السحر، أو الكفر حيث اختاروا السحر ونبذوا كتاب الله تعالى؛ يعني: أنَّ اليهود لمَّا نبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، وأقبلوا على التَّمسُّكِ بما تتلو الشياطين، فكأنَّهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله تعالى.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) العمدة.

وعبَّر عن إيمانهم بأنفسهم[١]؛ لأنّ النَّفس خلقت للعلم والإيمان، وجواب لو في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ محذوف، تقديره: لو كانوا يعلمون عاقبة أمرهم، وما يصيرون إليه من العذاب، لَما فعلوا ما فعلوا من تعلُّم السحر، والعمل به، أثبت لهم العلم أوَّلاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾، ثُمَّ نفى عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّهم لمَّا لم يعملوا بعلمهم، فكأنَّهم لم يعلموا، فهذا في الحقيقة نفي الانتفاع بالعلم لا نفي العلم.

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت[٢]: كيف أثبت الله لهم العلم أوَّلاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ على ـ التوكيد القسميّ، ثُمَّ نفاه آخراً في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ففيه تناقضٌ؟

قلتُ: إنّهم قد علموا أنَّ من اشترى السحر ماله في الآخرة من خلاق، ثُمَّ مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر، وتركوا العمل بكتاب الله تعالى، وما جاءت به الرسل؛ عناداً منهم وبغياً، وذلك على معرفةٍ منهم بما لِمَنْ فعَلَ ذلك منهم من العقاب، فكأنَّهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه، والمعنى هنا: لو كانوا يَعْمَلُون بعلمهم ذلك ما تعلَّموه؛ فالمثبت أوّلاً العلم، والمنفيُّ هنا العمل به. انتهى. وهذا هو ما يفعلُ مِثْلَهَ بعضُ المسلمين اليوم، إذْ يَنْتَهِكون بعض حرماتِ الدين بمثل تلك التأويلات، فيمنعون الزكاة بحيلةٍ، ويأكلون أموال الناس بحيلةٍ أخرى ويشهدون الزور بحيلةٍ ثالثة، وهكذا. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي ولو أنَّ اليهود الذين اتَّبعوا ما تتلوا الشياطين، وتعلَّموا السحر ﴿ءَامَنُوا﴾ بمحمدٍ ﷺ وبالقرآن ﴿وَاتَّقَوْا﴾؛ أي: واجتنبوا اليهوديَّة، والسحر، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف دَلَّ عليه قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، تقديره: لأُثيبوا ما هو خيرٌ لهم من الكسب بالسحر، والمثوبةُ مَفْعُلةٌ[٣] من الثواب، مِنْ ثاب يثوب إذا رجع، وسُمِّي الجزاء

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

ثواباً؛ لأنّه عوضُ عمَلِ المحسن يرجع إليه، والتنكير فيه للتقليل؛ أي: شيءٌ قليلٌ من الثواب كائنٌ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿خَيْرٌ﴾ لهم من السحر وما اكتسبوا به، واسم التفضيل ليس على بابه، بل المراد بيان أنَّ المثوبة فاضلة على السحر، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ بضم الثاء، كالمَشُورة. وقرأ قتادة، وأبو السمال، وعبد الله بن بريدة بسكون الثاء، كمَشْوُرةٍ، ومعنى قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾؛ أي: لثَوابٌ وهو الجزاء، والأَجر على الإيمان، والتقوى بأنواع الإحسان. وقيل: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ لرجعةٌ إلى الله خيرٌ، والجارُّ والمجرور في قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الصفة؛ أي: كائنةٌ من عند الله تعالى، وهذا الوصف هو المسوِّغ لجواز الابتداء بالنكرة، وفي وصف المثوبة بكونها من عند الله تفخيمٌ وتعظيمٌ لها، ولمناسبة الإيمان والتقوى لذلك كان المعنى: إنّ الذي آمنتم به، واتقيتم محارمه هو الذي ثوابكم منه على ذلك، فهو المُتكفِّل بذلك لكم، وحذف المفضَّل عليه؛ إجلالاً للمفضَّل من أن ينسب إليه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ خيريةَ ثوابِ الله وجزاءه، وجواب ﴿لَّوْ﴾ محذوف، تقديره: ما اختاروا السحر على الإيمان بمحمد ﷺ.

فإن قلت[2]: قد علموا ذلك من كتابهم، فكيف جهَّلهم؟.

قلت: جهَّلهم لعدم عملهم بعلمهم، فإنَّ من لم يعمل بما علم، فهو كمن لم يعلم، ومجرد العلم باللسان لا ينفع بدون أن يصل التأثير إلى القلب، ويظهر ذلك التأثير بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة، والاتباع للكتاب والسنة، فمن أمَّر السُّنَّة على نفسه أخذاً وتركاً، حُبًّا وبغضاً، نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. قال بعض[3] العلماء: زيادة العلم في الرجل السوء، كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد، ريّاً ازداد مرارةً ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا، وتحصيل الرفعة فيها، كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

فما أشرف الوسيلة، وما أخسَّ المتوسَّل إليه، والذي يَحْملُ على تعلُّم ما لا يليق، وذِكْر ما يجبُ صَوْنُه عنه، إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة، والله يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾. وإن أردت معرفة قدرك عند الله تعالى، فانظر إلى أعمالك؛ لأنّ الأعمال علاماتٌ على ذلك، وقد جاء في الخبر: «من سرَّه أن يعرف منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله في قلبه، فإن الله يُنزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه».

ومعنى الآية: أي ولو أنَّهم آمنوا الإيمان الحق بكتابهم، وفيه البشارة بمحمد ﷺ، والأمر باتّباعه، واتقوا الله بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه، لكان هذا الثواب العظيم الذي ينتظرونه من الله جزاءً على أعمالهم الصالحة، خيراً لهم من كُلِّ ما يتوقَّعُون من المنافع، والمصالح الدنيوية. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنّهم[1] ليسوا على شيء من العلم الصحيح، إذْ لو كان كذلك لظهرت نتائجه في أعمالهم، ولآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه، وصاروا من المفلحين، لكنهم يتَّبعون الظنَّ، ويعتمدون على التقليد، ومن جرّاء هذا خالفوا الكتاب، وساروا وراء أهوائهم وشهواتهم، فوقعوا في الضلال البعيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ، وبما جاء به[2]، وهذا النداء وقع في القرآن في ثمانية وثمانين موضعاً، وهذا أوّل خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليه، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين، يذكرهم بأنَّ الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقَّى أوامر الله تعالى ونواهيه، ويحسن الطاعة والامتثال. قال أبو حيان[3]: إنَّ أوّل نداءٍ أتى عاماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وثاني: نداء أتى خاصّاً ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟﴾ وهي الطائفة العظيمة، اشتملت على الملّتين اليهودية والنصرانية، وثالث نداءٍ لأمّة محمد ﷺ المؤمنين، فكان أوّل نداء عامًّا أمروا فيه بأصل الإسلام، وهو عبادة الله، وثاني نداء ذُكّرُوا فيه بالنعم الجزيلة، وتُعبِّدُوا بالتكاليف الجليلة، وخُوّفوا من حلول النقم الوبيلة، والتخويف

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

(٤) العمدة.

من النقم والاتعاظ بمن سبق من الأمم، فلم يبق إلاّ ما أمروا به على سبيل التكميل، من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه، والتبجيل، والخطاب بيا أيها الذين آمنوا، متوجّهٌ إلى من في المدينة من المؤمنين. قيل: ويحتمل أن يكون إلى كل مؤمن في عصره، وروي عن ابن عباس: أنّه حيث جاء هذا الخطاب، فالمراد به أهل المدينة، وحيث ورد يا أيها الناس، فالمراد أهل مكة. انتهى.

﴿لَا تَقُولُواْ﴾[1] لنبيّكم محمد ﷺ، إذا ألقى عليكم شيئاً من العلم، وأكثر عليكم في الإلقاء وتابع فيه، وصَعُب علكيم الأَخْذُ منه مع الموالاة، وطلبتم منه الإمهال والتأنّي في الإلقاء؛ لِيُحفَظَ لكم ما سمعتم منه أوَّلاً، قبل الإلقاء الثاني ﴿رَٰعِنَا﴾ يا رسول الله!؛ أي: أمهلنا وانظرنا في الإلقاء، وتأنَّ، ولا تتابعه علينا؛ لنحفظ ما سمعنا منك أوّلاً قبل أن تُلْقي علينا ثانياً؛ لأنَّ هذه الكلمة وإن كان معناها في لغة العرب هكذا، فإنَّها توَافق في اللفظ كلمةً عبرانيةً، أو سريانيَّةً، وضعت للمَسبَّة كانت اليهود يتسابُّون بها فيما بينهم؛ لأنَّ معنى ﴿رَٰعِنَا﴾ عندهم: اشملَنْا بحُمْقِك، وأَفِدْنا ولَهَك، وخاطِبْنَا بكلامك الخسيس، فإنَّ اليهود إذا سمعت مخاطبتكم للنبي ﷺ بهذ الكلمة، وأنتم تريدون معناها العربيَّ، فإنَّهم يخاطبون النبيَّ بهذه.

روي: أنَّ[2] المسلمين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: إذا تلا عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله! أي: تأنَّ بنا، وأمهل في الإلقاء حتى نفهم كلامك، واليهود كانت لهم كلمةٌ عبرانيةٌ يتسابُّون بها فيما بينهم، فلمَّا سمعوا المؤمنين يقولون: ﴿رَٰعِنَا﴾ خاطبوا به النبيَّ ﷺ، وهم يريدون بها تلك المسبَّة، ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ منهم، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده: لئن سمعتها من أحد منكم يقولها: لرسول الله ﷺ، لأضربنَّ عنقه، قالوا: أو لستم تقولون بها؟ فنهي المؤمنون عنها، فأُمِروا بلفظةٍ أخرى؛ لئلا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم

---

(١) المراح.

النبيِّ ﷺ، وذلك قوله الآتي: ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾ وهو إمَّا مأخوذٌ من الرعاية، والمراعاة: المبالغة في الرعي، وهو النظر في مصالح الإنسان، وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، أو من الرُّعونة، والرَعْنُ: الجَهْلُ، والهَوَجُ، والحُمْقُ، والخِسَّة. وبُدِءَ بالنهي؛ لأنّه من باب التُروك فهو أسهل، ثُمَّ أتى بالأمر بعده الذي هو أشقُّ؛ لحصول الاستئناس قَبْلَ النهي، ثُمَ لم يكن نهياً عن شيء سبق تحريمه، ولكن لمّا كانت لفظةُ المُفاعلة تقتضي الاشتراكَ غالباً صار المعنى: لِيقع منك رَعْيٌ لنا، ومِنّا رَعْيٌ لك، وهذا فيه ما لا يخفى مع مَنْ يُعظَّم؛ نُهوا عن هذه اللفظة لهذه العلةِ، وأُمروا بأن يقولوا: ﴿انظُرْنَا﴾ إذ هو فعلٌ من النبي ﷺ لا مشاركة لهم فيه معه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَاعِنَا﴾ وفي مصحف عبد الله وقراءته، وقراءة أبيّ ﴿راعونا﴾ خاطبوه بذلك؛ إكباراً؛ وتعظيماً إذْ أقاموه مُقامَ الجمع، وتضمَّن هذا النهيُ النَّهْيَ عن كُلِّ ما يكون فيه استواءٌ مع النبي ﷺ.

وقرأ الحسن، وابن أبي ليلى، وأبو حيوة، وابن مُحيصن: ﴿رَاعِناً﴾ بالتنوين جعله صفةً لمصدر محذوف؛ أي: لا تقولوا قولاً راعناً، وهو على طريق النسب، كلابن، وتامر، وقال الحسنُ: الراعن من القول، السُخريُّ منه. اهـ. ولمّا كان القول سبباً في السَّبِّ اتّصف بالرَّعْنِ، فنُهوا في هذه القراءة أن يخاطبوا الرسولَ بلفظٍ يكون، أو يوهم شيئاً من الغَضِّ والنَّقص، ممَّا يستحقُّه ﷺ من التعظيم، وتلطيفِ القول وأدَبِهِ، مأخوذٌ من الرُّعونة وهو الحُمْقُ، وكذا قيل: في ﴿راعونا﴾ إنّه فاعولا من الرعونة، كعاشورا. وقيل: إنّ اليهود تقول: راعنا؛ أي: رَاعِي غنمنا ﴿وَقُولُواْ﴾ أيها المؤمنون عند طلب الإمهال منه، والتأني في الإلقاء ﴿انظُرْنَا﴾؛ أي: انتظرنا وأَمْهِل لنا، ولا تُوال في الإلقاء من نظره إذا انتظره.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿انظُرْنَا﴾ موصولَ الهمزة مضمومَ الظاء من النظرة وهي التأخير؛ أي: انتظرنا وتأنَّ علينا، نحو قوله:

فإنَّكُمَا إنْ تَنْظُرَانِي سَاعَةً ... مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

أو من النَّظَرِ واتُّسِعَ في الفِعْلِ، فعدِّي بنفسه، وأصله: أن يتعدَّى بإلَى، كما قال الشاعر:

ظَاهِراتُ الجَمَالِ والحُسْنِ يَنْظُرْ نَ كَمَا يَنْظُرُ الأَرَاكَ الظِّبَاءُ

يريد إلى الأراك، ومعناه: تَفَقَّدْنا بنظرك، وقال مجاهد معناه: فَهِّمْنَا وبيِّنْ لنا، فسَّر باللازم في الأصل وهو أَنظِرَ؛ لأنّه يلزمُ من الرفقِ والإمهالِ على السائل، والتأنِّي أن يَفْهَم بذلك. وقيل: هو من نَظَرِ البصيرة بالتَّفكُّرِ والتدبُّرِ فيما يَصْلُح للمنظور فيه، فاتُّسِعَ في الفعل أيضاً، إذ أصله: أن يتعدَّى بفي، ويكون أيضاً على حذف مضاف؛ أي: انظر في أمرنا. قال ابن عطيّة: وهذه لفظةٌ مُخلصِةٌ لتعظيم النبيِّ ﷺ، وقرأ أبي[1]، والأعمش: ﴿أَنْظِرْنَا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار، ومعناه: أَخِّرنا وأمهلنا حتى نتلقَّى عنك، وهذه القراءة تشهد للقول الأوّل في قراءة الجمهور، ومنه قول الشاعر:

أبا هند فلا تَعْجَلْ علينا وأَنظِرنا نُخَبِّرْكَ اليقينا

ثُمَّ أمرهم بعد هذا النَّهي والأمر الأول، بأمرٍ آخر بقوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أيُّها المؤمنون ما يقوله النبيُّ ﷺ؛ أي أحسنوا[2] سماعه بآذانٍ واعيةٍ، وأذهانٍ حاضرةٍ، حتى لا تحتاجوا إلى الاسْتعادة، وطلب المراعاة، أو المعنى: واسمعوا ما تؤمرون به في مخاطبته ﷺ وأطيعُوا. نَهَىٰ الله سبحانه وتعالى، عباده المؤمنين أن يقولوا للنبيِّ ﷺ راعنا؛ لئلا يتطرَّق أحدٌ إلى شَتْمِه، وأمرهم بتوقيره وتعظيمه، وأن يتخيَّروا لخطابه ﷺ من الألفاظ أحسنَها، ومن المعاني أدقَّها، وإن سألوه يسألوه بتبجيلٍ، وتعظيمٍ، ولينٍ، ولا يخاطبوه بما يَسُرُ اليهود.

ولمَّا نهى أوّلاً، وأمر ثانياً، وأمر بالسمع وحضَّ عليه إذ في ضِمْنهِ الطاعةُ، أخذَ يَذْكُرُ لِمَنْ خالَف أَمْرَه بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولليهود الذين سبُّوا رسول الله ﷺ، وتهاونوا بأمر الرسول، وظاهره العموم، فيدخل فيه اليهود دخولاً أَوَّليًّا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجعٌ يخلص وجعه إلى قلوبهم، ونحو الآية قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي التعبير بالكافرين الذين هم اليهود هنا:[1] إيماءٌ إلى أنَّ ما صدر منهم من سوء الأدب في خطابه ﷺ، كُفْرٌ لا شكَّ فيه؛ لأنَّ من يصف النبيَّ ﷺ، بأنّه شريرٌ، فقد أنكر نبوّته، وأنّه مُوحًى إليه من قبل ربّه، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحقَّ العذاب الأليم.

قال الأستاذ الإمام[2]: إنَّ هذا التأديب ليس خاصًّا بمن كان في عصره ﷺ من المؤمنين، بل يعم من جاء بعدهم أيضاً، فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب عليهم الاستماع له، والإنصات لتدبره، هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيءٌ، وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولاً تجب طاعته، والاهتداء بهديه، فما هذا الأدب الذي يقابله به الأكثرون، إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون، ولا ينصتون، ومن أنصت، واستمع؛ فإنَّما ينصت طرباً بالصوت، واستلذاذاً بتوقيع نغمات القارىء، وإنّهم ليقولون في استحسان ذلك، واستجادته ما يقولون في مجلس الغناء، ويهتزُّون للتلاوة، ويصوِّتون بأصواتٍ مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيءٍ من معانيه إلاّ ما يرونه مدعاةً لسرورهم في مثل قصة يوسف عليه السلام، مع الغفلة عمَّا فيها من العبرة، وإعلاء شأن الفضيلة، ولا سيما العِفَّةُ والأمانة، أليس هذا أقربَ إلى الاستهانة بالقرآن، منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة، وأمثالها؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

﴿مَّا يَوَدُّ﴾ ويحبُّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأنكروا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، ككعب بن الأشرف ﴿وَلَا﴾ من

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: مشركي العرب عبدة الأوثان، كأبي جهل وأصحابه، وكان فريقٌ من اليهود يُظهرون للمؤمنين محبَّةً، ويزعمون أنَّهم يودُّون لهم الخير، فنزل تكذيباً لهم. والودُّ[1]: حُبُّ الشيء مع تمنيه، ونفي الودِّ كنايةٌ عن الكراهة؛ أي: ما يحبُّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، ومِن للتبيين؛ لأنَّ الذين كفروا جنسٌ تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون، فكأنَّه قيل: ما يودُّ الذين كفروا وهم أهل الكتاب والمشركون، فبيَّن أنَّ الذين كفروا باقٍ على عمومه، وأنَّ المراد كلا نوعيه جميعاً، والمعنى: أنَّ الكفَّار جميعاً لم يُحِبُّوا ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: على نبيكم؛ لأنّ المُنزَّل عليه منزَّلٌ على أُمَّته، وهو في موضع المفعول بيودُّ، وبناؤه للمفعول؛ وحذف للعلم به؛ وللتصريح به في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولو بني للفاعل لم يظهر في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

فائدةٌ: وقرأ أبو عمرو بالتخفيف.

﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ هو قائم مقام فاعله، و﴿مِّنْ﴾ مزيدةٌ لاستغراق الخير، والخير الوحي، والقرآن، والنصرة كائنٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: أن ينزَّل عليكم وحيٌ من ربّكم؛ لأنّهم يحسدونكم فيه، و﴿مِّنْ﴾ هنا لابتداء الغاية، كما تقول: هذا الخير من زيد، ويجوز[2] أن تكون، للتبعيض، والمعنى: من خير كائن من خيوركم، فإذا كانت لابتداء الغاية تعلَّقت بقوله: ﴿يُنَزَّلَ﴾، وإذا كانت للتبعيض تعلَّقت بمحذوف، وكان ذلك على حذف مضافٍ، كما قدَّرناه آنفاً. ذكره في «البحر».

والمعنى[3]: إنّهم يرون أنفسهم أحقَّ بأن يوحى إليهم، فيحسدونكم، ويكرهون أن يُنزَّل عليكم شيءٌ من الوحي، أمَّا اليهود فَبِناءً على أنّهم أهلُ الكتاب وأبناءُ الأنبياء النَّاشِئُون في مَهابِطِ الوحي، وأنتم أميُّون، وأمَّا المشركون فإدْلاَلاً بما كان لهم من الجاه والمال، زعماً منهم أنَّ رياسة الرسالة كسائر الرياسات

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الدنيويّة، منوطةٌ بالأسباب الظاهرة، ولذا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهم كانوا يتمنَّون أن تكون النُبوَّة في أحد الرجلين: نعيم بن مسعودٍ الثقفيِّ بالطَّائف، والوليد بن المغيرة بمكّة، ثُمَّ أجاب عن قول من يقول: لِمَ لَمْ يُنزَّل عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ أي: يخصُّ ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: بوحيه، ونبوّته، وبالهداية ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويختار من عباده؛ أي: من كان أهلاً لذلك وهو محمدٌ ﷺ والمؤمنون.

يقال: خصَّه بالشيء. واختصه، إذا أفرده به دون غيره، ومفعول المشيئة محذوفٌ، تقديره: من يشاء تخصيصه بفضله، والرحمة[1] هنا عامَّةٌ بجميع أنواعها، أو النبوة، والوحي، والحكمة، والنصرة، اختصَّ بها محمدٌ ﷺ قاله عليٌّ، والباقر، ومجاهدٌ، والزجَّاجُ، أو الإسلام، قاله ابن عباس، أو القرآن، أو النبيُّ ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو نبيُّ الرحمة أقوالٌ خمسةٌ أظهرها الأول.

والمعنى: يفرد[2] سبحانه برحمته من يشاء إفراده بها، ويجعَلها مقصورة عليه؛ لاستحقاقه الذاتيِّ الفائض عليهِ بحُبِّ إرادته عزّ وجلّ، لا تتعدَّاهَ إلى غيره، لا يجب عليه شيءٌ، وليس لأحدٍ عليه حقٌّ، وسبب[3] عدم ودهم ذلك، أمَّا في اليهود، فلِكون النبوة كانت في بني إسماعيل؛ ولخوفهم على رئاستهم، وأمَّا النصارى؛ فلتكذيبهم في ادعائهم ألوهيَّة عيسى، وأنّه ابنُ الله؛ ولخوفهم على رئاستهم، وأمَّا المشركون؛ فلسبِّ آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، ولحسدهم أن يكون رجلٌ منهم يختصُّ بالرسالة، واتباع الناس له. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: صاحب المَنِّ الكبير، والعطاء الكثير بالوحي على محمدٍ ﷺ، وبالإسلام بلا غرض، ولا علَّةٍ؛ يعني[4]: أنَّ الله تعالى يخصُّ بنبوّته ورسالته من يشاء من عباده، ويتفضَّل بالإيمان والهداية على من أحبَّ من خلقه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

(٤) العمدة.

رحمةً منه لهم، فكُلُّ خيرٍ ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنَّه منه ابتداءً، وتفضّلاً عليهم من غير استحقاق أحدٍ منهم لذلك، بل له الفضل والمنَّة على خلقه، وفي الآية تعريضٌ بأهل الكتاب في حسدهم للنبيِّ ﷺ، والمؤمنين.

فائدةٌ: قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربَّه من خمسة أوجهٍ:

أولها: أنّه أبغض كُلَّ نعمةٍ ظهرت على غيره.

والثاني: أنّه يتسخَّطُ قسمته تعالى، ويقول لربّه: لِمَ قسمت هكذا.

والثالث: أنَّ فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضله.

والرابع: أنّه خذل وليَّ الله تعالى، لأنّه يريد خذلانه، وزوال النعمة عنه.

والخامس: أنّه أعان عدوَّه؛ يعني: إبليس اللعين.

واعلم: أنَّ حسدك لا ينفذ على عدوِّك، بل على نفسك، بل لو كوشفت بحالك في يقظةٍ، أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي حجراً إلى عدوّه ليصيب به مقلته، فلا يصيبه، بل يرجع إلى حدقته اليُمْنى فيقلعها، فيزيد غضبه ثانياً، فيعود ويرمي أشدَّ من الأولى، فيرجع على عينه اليسرى فيعميها، فيزداد ـ غضبه ثالثاً، فيعود ويرميه، فيرجع الحجر على رأسه فيشُجُّه، وعدوُّه سالمٌ في كُل حال، وهو إليه راجعٌ كرَّةً بعد أُخرى، وأعداؤه حواليه يفرحون ويضحكون، وهذا حال الحسود، وسخرية الشياطين.

وقال بكر بن عبد الله: كان رجل يأتي بعض الملوك، فيقوم بحذائه ويقول: أَحْسِنْ إلى المحسنِ بإحسانه، فإنَّ المسيء يكفيه إساءته، فحسده رجلٌ على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، وقال: إنّ هذا الرجل يَزْعُم أنَّ الملك أَبْخَرُ، فقال الملك: وكيف يصحُّ ذلك عندي؟ قال: تدعو به إليك فانظر، فإنّه إذا دنا منك وضع يده على أنفه أن لا يشمّ ريح البخر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، فقام بحذاء الملك، فقال على عادته مثل ما قال، فقال له الملك: ادن منّي، فدنا منه واضعاً يده على فيه مخافة أن يشمَّ الملك منه ريح الثوم، فصدَّق الملك في نفسه قول

الساعي، قال: وكان الملك لا يكتب بخطّه إلاّ لجائزة، فكتب له كتاباً بخّطه إلى عامل له، إذا أتاك الرجل فاذبحه واسلخه، واحش جلده تبناً، وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به، فاستوهب منه ذلك الكتاب، فأخذه منه بأنواع التضرّع والامتنان، ومضى إلى العامل، فقال له العامل: إنَّ في كتابك أن أذبحك، وأسلخك، قال: إنَّ الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمري حتى أراجع الملك، قال: ليس لكتاب الملك مراجعةٌ، فذبحه،وسلخه، وحشا جلده تبناً، وبعث به، ثمَّ عاد الرجل كعادته، فتعجب منه الملك، فقال: ما فعلت بالكتاب؟ قال لقيني فلانٌ فاستوهبه منّي، فوهبته، قال الملك: إنّه ذكر لي أنَّك تزعم أنَّي أبخر، فقال كلاَّ، قال: فلم وضعت يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمني طعاماً فيه ثومٌ، فكرهت أن تشمَّه منّي، قال: ارجع إلى مكانك، فقد كفى المسيءَ إساءتُه، اللهمّ! احفظنا من مساوىء الأخلاق، فإنَّها بئس الوثاق، وأكرمنا بمكارم الأخلاق، فإنّها نعم الرفاق. ذكره في «روح البيان».

وخلاصة معنى الآية[1]: أي إنَّ الذين عرفتم شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدةٌ لكم، لا يودُّون أن ينزَّل عليكم خيرٌ من ربّكم، والكتاب الكريم أعظم الخيرات، فهو الهداية العظمى، به جمع الله شملكم، ووحَّد شعوبكم، وقبائلكم، وطهَّر عقولكم من زيغ الوثنية، وأقامكم على سنن الفطرة، وكذلك المشركون، إذ يرون في نزول القرآن على طريق التتابع الوقت بعد الوقت قوَّةً للإسلام، ورسوخاً لقواعده، وتثبيتاً لأركانه، وانتشاراً لهديه، وهم يودُّون أن تدور عليكم الدَّوائر، وينتهي أمركم، ويزول دينكم من صفحة الوجود. وحسد الحاسد يدلُّ على أنَّه ساخطٌ على ربّه معترضٌ عليه؛ لأنَّه أنعم على المحسود بما أنعم، والله لا يضيره سخط الساخطين ولا يحول مجاري نعمته حسد الحاسدين، فهو يختص من يشاء برحمته متى شاء، وهو ذو الفضل العظيم على من اختاره للنبوة، وهو صاحب الإحسان والمنَّة، وكُلُّ عباده غارقٌ في بحار نعمته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يحسد أحداً على خيرٍ أصابه، وفضلٍ أوتيه من عند ربه.

---

(١) المراغي.

الإعراب

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ كما مرّ مراراً ﴿أَخَذْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ، والتقدير: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي عليكم، وحين أخذنا ميثاقكم ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿وَرَفَعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿فَوْقَكُمُ﴾ ظرف مكان ومضاف إليه، والظرف متعلق برفعنا ﴿ٱلطُّورَ﴾ مفعول به ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ مقول محكي لقول محذوف معطوف على ﴿رفعنا﴾، تقديره: ورفعنا فوقكم الطور فقلنا خذوا ما آتيناكم، وإن شئت قلت: ﴿خُذُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقلنا المحذوف ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لخذوا ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما آتيناكموه؛ لأنّ آتى بمعنى: أعطى يتعدى إلى مفعولين، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد المفعول الثاني المحذوف ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير المخاطبين، تقديره: حال كونكم ملتبسين بقوّة وعزيمة ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿اسمعوا﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿خُذُوا۟﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ مقول محكي لقالوا منصوب بفتحة مقدّرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: سمعنا قولك، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿سَمِعْنَا﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: وعصينا أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ الواو حالية ﴿أشربوا﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأشربوا ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول به ثان لأشربوا؛ لأنّ الأول كان نائب فاعل، والجملة

من الفعل المغيّر، ونائب فاعله في محل النصب حال من الواو في ﴿قَالُوا﴾، ولكن بتقدير قد لتقرب الماضي إلى الحال، والتقدير: قالوا سمعنا وعصينا حاله كونهم مشْرَبين في قلوبهم حُبَّ عبادة العجل، ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على ﴿قَالُوا﴾ على كونها مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأُشربوا، والباء فيه سببية، ويجوز أن يكون حالاً من الحبّ المحذوف؛ أي: حال كون ذلك الحبّ مختلطاً بكفرهم، كما ذكَره العكبري ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ. . .﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لقل منصوب بفتحة مقدّرة، وإن شئت قلت: ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد من أفعال الذمّ مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: هو يعود على الشيء المبهم ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بمعنى شيء في محل النصب تمييز لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿يَأْمُرُكُم﴾ فعل ومفعول به ﴿بِهِۦٓ﴾ جار ومجرور متعلق بيأمركم ﴿إِيمَٰنُكُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب صفة لما، ولكنها صفة سببية، والرابط ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾ وجملة ﴿بئس﴾ في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف يسمى المخصوص بالذمّ، تقديره: عبادة العجل، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإنْ على كونه فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبر كان منصوب بالياء، وجواب الشرط معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم مؤمنين بالتوراة، فلم عبدتم العجل، والمعنى: لو كنتم مؤمنين ما عبدتموه.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كَانَتْ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بإن الشرطية، والتاء علامة تأنيث اسمها ﴿لَكُمُ﴾ جار ومجرور خبر لكان، مقدّم على اسمها ﴿ٱلدَّارُ﴾ اسمها مؤخّر، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾ صفة للدار ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف مكان ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، والتقدير: إن كانت الدار الآخرة كائنة

لكم عند الله تعالى، ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار تقديره حالة كونها خاصة بكم ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال مؤكّدة للحال المذكور قبلها؛ لأنّ دون تستعمل للاختصاص، يُقال هذا لي دونك؛ أي: من دونك؛ أي: لا حقَّ لك فيه، كما في «الشهاب»، وفي «السمين» في خبر كان هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ﴿خَالِصَةً﴾ فيكون ﴿عِندَ﴾ ظرفاً لخالصةً، وللاستقرار الذي في ﴿لَكُمُ﴾.

والثاني: أنَّ الخبر ﴿لَكُمُ﴾ فيتعلَّق بمحذوف، ونصب ﴿خَالِصَةً﴾ حينئذٍ على الحال.

والثالث: أنَّ الخبر هو الظرف و﴿خَالِصَةً﴾ حال أيضاً. انتهى.

وفي «الكرخي»: ﴿خَالِصَةً﴾ مصدرٌ جاء على وزن فاعلة، كالعافية، والعاقبة، وهو بمعنى الخلوص. اهـ. ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾ الفاء رابطةٌ لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية ﴿تمنّوا﴾ فعل أمر في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونها جواباً لها مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مع جوابها في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر كان منصوب بالياء، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلومٌ مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فتمنَّوا الموت، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محلِّ النصب مقول ﴿قُلْ﴾ أيضاً.

فائدة: ولا تدخل ﴿إِن﴾ الشرطية على فعلٍ ماض في المعنى إلاّ على كان؛ لكثرة استعمالها، وأنّها لا تدلّ على حدث. ذكره العكبريُّ.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَن﴾ الواو استئنافية ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب واستقبال ﴿يَتَمَنَّوْهُ﴾ فعل مضارع منصوب بلن، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والهاء مفعول به ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان متعلق بيتمنوه ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بيتمنوه أيضاً، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فعل وفاعل صلة لما الموصولة، والعائد

محذوف، تقديره: بما قدّمته أيديهم، ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية (ولفظ الجلالة) مبتدأ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبر، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بعليم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم ﴿لتجدنّ﴾ فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أوّل، وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت يعود على محمد ﷺ، أو على أيِّ مخاطب ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ مفعول ثاني لتجد ومضاف إليه ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ جار ومجرور متعلقٌ بأحرص، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة ﴿من الذين﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف دل عليه السياق، معطوف ذلك المحذوف على ﴿أَحْرَصَ﴾ لغرض التخصيص بعد التعميم، والتقدير: ولتجدنّهم أحرص من جميع الناس على حياةٍ متطاولة، وأحرص من الذين أشركوا ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد واو الفاعل ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه ﴿لَوْ﴾ حرف مصدر ﴿يُعَمَّرُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة مرفوع، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُمْ﴾. ﴿أَلْفَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بيعمّر، وهو مضاف ﴿سَنَةٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿يُعَمَّرُ﴾ صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية و﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليودّ، تقديره: يودّ أحدهم تعميره ألف سنة، وجملة ﴿يَوَدُّ﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿تجدنّهم﴾، تقديره: لتجدّن اليهود أحرص الناس على حياة حالة كون أحدهم وادّاً تعميره ألف سنة، أو مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب ﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿مَا﴾ حجازيّة ﴿هُوَ﴾ ضمير يعود على التعمير المفهوم من السياق، في محل الرفع اسم ﴿مَا﴾ الحجازيّة ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ الباء زائدة في خبر ﴿مَا﴾ الحجازيّة ﴿مزحزحه﴾ مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنّه خبر ﴿مَا﴾ وهو مضاف،

والضمير مضاف إليه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُعَمَّرَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بأن المصدرية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُمْ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على البدليّة من اسم ﴿مَا﴾ الحجازيّة، تقديره: وما هو تعميره بمزحزحه من العذاب، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية في محل النصب حال من مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ المؤوّل من ﴿لَوْ﴾ المصدريّة مع فعلها، تقديره: يودّ أحدهم تعميره ألف سنة حالة كون تعميره عادم الزحزحة، والإبعاد له من العذاب، وفي المقام أوجه من الإعراب ضربنا عنها صفحاً؛ خوفاً من الإطالة، فراجع المطوَّلات؛ لأنّ كتابنا مختصرٌ، ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿بَصِيرٌۢ﴾ خبر، والجملة مستأنفة ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق ببصير، و﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، أو مصدرية ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد محذوف، تقديره: يعملونه، أو صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، تقديره: بعملهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ إلخ مقول محكي لقل، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، وفي خبره ثلاثة أقوال: قيل: فعل الشرط وهو الراجح، كما في «أبي النجا على الأجرومية»، وقيل: جوابه، وقيل: هما معاً ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿عَدُوًّا﴾ خبرها ﴿لِّجِبْرِيلَ﴾ اللام حرف جرّ ﴿جبريل﴾ مجرور بالفتحة للعلمية والعجمية، والجار والمجرور متعلق بعدوّاً؛ لأنّه بمعنى معادياً، وجواب الشرط محذوف جوازاً، تقديره: فليمت غيظاً، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الفاء تعليلية للجواب المحذوف ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، والهاء اسمها، وهو عائد على جبريل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ فعل ومفعول، والهاء عائد على القرآن، وفي إضماره على ما لم يسبق ذكره؛ تفخيم لشأن صاحبه، كأنّه يدلُّ على نفسه، وفاعله ضمير مستتر يعود على جبريل، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ جار ومجرور

ومضاف إليه متعلق بنزّله، والجملة الفعلية خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجرّ بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف، تقديره، وإنّما قلنا: فليمت غيظاً لتنزيله إيّاه بإذن الله تعالى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل، في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ العائد على جبريل، تقديره: حالة كونه ملتبساً بإذن الله، أو مأذوناً ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الهاء في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ العائد على القرآن ﴿لِّمَا﴾ اللام حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمصدّقاً ﴿بَيْنَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة ﴿بَيْنَ﴾ مضاف ﴿يَدَيْهِ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنّه مثنّى، أو ملحق به، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه ﴿وَهُدًى﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ منصوب على الحالية، ولكنّه في تأويل مشتقّ؛ أي: هادياً ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ معطوف أيضاً على ﴿مُصَدِّقًا﴾ كذلك؛ أي: مبشّراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور، تنازع فيه هدى وبشرى

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، خبره جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، كما مرّ آنفاً. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿عَدُوًّا﴾ خبرها منصوب ﴿لِّلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بعدوّاً ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، وهو مضاف، والضمير مضاف إليه، وكذلك ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، وكذلك ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوفان على الجلالة مجروران بالفتحة للعلمية والعجمة، وذكرهما من بعد الملائكة من ذكر الخاص بعد العام؛ إظهاراً لمزيّته، كما مرّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاء رابطة لجواب مَن الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية ﴿إنّ الله﴾ ناصب واسمه، وأُظهِر في موضع الإضمار؛ دفعاً لإيهام أنّه يعود إلى جبريل ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط موجود، وهو الاسم الظاهر؛ أعني: لفظ الجلالة؛ لقيامه مقام الضمير، لأنّ الأصل من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، فإنّ الله عدوّ له، أو لهم، وقيل: الرابط العموم، وله في القرآن

نظائر كثيرة ستمر بك إن شاء الله تعالى، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية وجوابها مستأنفة، أو في محل النصب معطوفة بعاطف مقدّر على جملة قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ على كونها مقولاً لقل.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿أَنزَلْنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به ﴿ءَايَـٰتٍۭ﴾ مفعول به ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ صفة لآيات، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، تقديره: وعزّتي وجلالي، لقد أنزلنا إليك... الخ. وجملة القسم مستأنفة ﴿وَمَا يَكْفُرُ﴾ الواو حالية ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَكْفُرُ﴾ فعل مضارع ﴿بِهَآ﴾ متعلق بيكفر ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ فاعل مرفوع بالواو، والجملة الفعلية في محل النصب حال من آيات، وسوّغ مجيء الحال من النكرة وصفها بما بعدها ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿كلما﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمّنه معنى إن الشرطية، والظرف متعلق بالجواب ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لكلما لا محل لها من الإعراب ﴿عَهْدًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، أو منصوب على أنّه مفعول به ثان لعاهدوا، إذا كان ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾ بمعنى أعطوا، والأوّل محذوف، تقديره: عاهدوا الله عهداً ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ فعل ومفعول ﴿فَرِيقٌ﴾ فاعل ﴿مِّنْهُم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لفريق، والجملة جواب ﴿كلما﴾ لا محل لها من الإعراب، وهذه الجملة هي محل الاستفهام الإنكاري، وجملة ﴿كلما﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها مستأنفة ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة السابقة. أو مستأنفة، إن قلنا: إنّ بَلْ حرف ابتداء.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو عاطفة (لَمَّا) حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ماض ومفعول به ﴿رَسُولٌ﴾ فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط للمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، صفة أولى لرسول، تقديره: رسول مرسل من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة ثانية لرسول ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ اللام حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمصدّق ﴿مَعَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة، تقديره: مصدّق للذي استقرّ معهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على جملة ﴿كلما﴾ أو مستأنفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور صفة لفريق ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، والواو نائب فاعل والكتاب مفعول ثانٍ لأوتوا، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به لنبذ ﴿وَرَآءَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بنبذ، وهو مضاف ﴿ظُهُورِهِمْ﴾ مضاف إليه ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ كأنّ حرف نصب وتشبيه، والهاء اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كأنّ﴾ في محل النصب حال من فريق؛ لتخصّصه بالوصف، تقديره: حالة كونهم مشبهين بمن لا يعلم.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ﴾.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: نَبَذَ فَرِيق على كونها جواباً للمّا، وفي «الفتوحات»: والأولى أن تكون هذه الجملة معطوفة على مجموع الجملة السابقة من قوله: وَلَمَّا جاءَهُمْ إلى آخرها؛ لأنّ عطفها على نَّبَذَهُ يقتضي كونها جواباً لقوله: وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ. واتّباعهم لما تتلو الشياطين ليس مترتّباً على مجيء الرسول، بل كان اتباعهم لذلك قبله ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول اتبعوا ﴿تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فعل مضارع معتلّ

بالواو وفاعل، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تتلوه الشياطين ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جرّ بمعنى: في ﴿مُلْكِ﴾ مجرور بعلى ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة، وزيادةُ الألف والنون موقوفةٌ على معرفة الاشتقاق، الجار والمجرور متعلق بتتلوا ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية، أو اعتراضية ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف الذي هو قوله: وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ وبين المعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إن قلنا: إنّ ﴿ما أنزل على الملكين﴾ معطوف على ﴿تَتْلُوا﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو عاطفة ﴿لَٰكِنَّ﴾ حرف نصب واستدراك ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ اسمها منصوب بالفتحة؛ لأنّه جمع تكسير، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ في محل الرفع خبر لَكِنِ وجملة لَكِنِ معطوفة على جملة قوله: وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ على كونها مستأنفة، أو معترضة ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول أوّل ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الشَّيَاطِينَ، أو من فاعل كَفَرُوا أو خبر ثان لـ﴿لكن﴾.

وفي «الفتوحات»: واختلفوا في هذه الجملة على خمسة أقوال:

أحدها: أنها حال من فاعل ﴿كَفَرُوا﴾؛ أي: كفروا معلمين الناس.

الثاني: أنّها حال من ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ وردّه أبو البقاء بأن ﴿لَٰكِنَّ﴾ لا تعمل في الحال، وليس بشيء، فإنّ ﴿لَٰكِنَّ﴾ فيها رائحة الفعل.

الثالث: أنها في محل الرفع على أنّها خبر ثان للشياطين.

الرابع: أنها بدل من ﴿كَفَرُوا﴾ أبدل الفعل من الفعل.

الخامس: أنّها استئنافية أخبر عنهم بذلك.

هذا إذا أعدنا الضمير من ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ على ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أما إذا أعدناه على الدين اتبعوا ما تتلو الشياطين، فتكون حالاً من فاعل اتبعوا، أو استئنافية فقط. انتهى. ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوفة على

السحر، تقديره: ويعلمونهم ما أنزل عليهما، وسوّغ عطفه عليه مع كون هذا سحراً أيضاً؛ تغايرهما لفظاً، أو المراد ﴿بما أنزل على الملكين﴾ نوع أقوى من السحر، فالتغاير بالحقيقة لا بالاعتبار. ذكره «الكرخي» ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية صلة لما الموصولة على الملكين متعلق بأنزل ﴿بِبَابِلَ﴾ الباء حرف جر بمعنى في ﴿بابل﴾ مجرور بالباء، وجره بالفتحة للعلمية والعجمية، أو التأنيث المعنوي؛ لأنّه بمعنى: البلدة، الجار والمجرور متعلق بأنزل، أو الباء على معناها متعلقة بمحذوف حال من ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾. ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ بدل من ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أو عطف بيان لهما، وجرّهما بالفتحة للعلمية والعجمية ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿مَا﴾ نافيه ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية مستأنفة، ولا تغترّ بما قال في «الفتوحات» هنا، من أنّ الجملة معطوفة على ما قبلها؛ لأنّ عطفها عليه لا يصحّ، تأمّل ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿أَحَدٍ﴾ مفعول أوّل، والثاني محذوف، تقديره: وما يعلمان أحداً السحر حتى يقولا ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿يَقُولَآ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة بعد حتّى، والجملة صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: وما يعلمان أحداً إلى قولهما له نصيحة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ مقول محكي ليقولا منصوب بفتحة مقدرة على الأخير، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿فِتْنَةٌ﴾ خبر، والجملة في محل النصب مقول ليقولا ﴿فَلَا﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَكْفُرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله ضمير مستتر يعود على أحد، تقديره: أنت، والجملة الفعلية معطوفة مفرّعة على الجملة الإسمية قبلها على كونها مقولاً ليقولا.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة، مبني على الفتح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الملكين لا يعلمان أحداً حتى

يقولا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وأردت بيان حال الناس هل ينجزون أم لا؟ فأقول لك: يتعلمون ﴿يتعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة ﴿مِنْهُمَا﴾ جار ومجرور متعلق بيتعلمون ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بيفرقون، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيفرقون أيضاً ﴿وَزَوْجِهِۦ﴾ معطوف على المرء ﴿وَمَا﴾ الواو حالية، أو اعتراضية ﴿مَا﴾ حجازية ﴿هُم﴾ اسمها ﴿بِضَآرِّينَ﴾ خبرها، والباء زائدة ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِضَآرِّينَ﴾. ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مفعول ضارين منصوب بفتحة مقدّرة، لأنّه اسم فاعل، و﴿من﴾ زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية في محل النصب حال من واو ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾، تقديره: يتعلمون منهما حالة كونهم غير ضارين به من أحد، أو معترضة؛ لاعتراضها بين المعطوف عليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الضمير المستتر الفاعل لضارين، أو من المفعول به، الذي هو أحد.

وفي «الفتوحات»: وفي صاحب هذه الحال أربعة أوجه:

أحدها: أنّه الفاعل المستكن في ﴿بِضَآرِّينَ﴾ والتقدير: وما هم بضارين به أحداً إلاّ حالة كونهم ملتبسين بإذن الله.

والثاني: أنّه المفعول وهو أحد، وسوّغ مجيء الحال من النكرة اعتمادها على النفي، والتقدير: وما هم بضارين به أحداً إلاّ حالة كونه ملتبساً بإذن الله.

والثالث: أنه الهاء في ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالسحر، والتقدير: وما هم بضارين به أحداً إلاّ حالة كون ذلك السحر مقروناً بإذن الله، وإرادته.

والرابع: أنّه المصدر المعرف وهو الضرر، إلاّ أنّه حذف؛ للدلالة عليه، والتقدير: وما هم بضارين به أحداً الضرر إلاّ حالة كون ذلك الضرر واقعاً بإذن الله وقدرته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر

ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَنفَعُهُمْ﴾ فعل ومفعول، والفاعل ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ على كونها صلة الموصول، قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ...﴾ الخ وفي «الفتوحات» هذا الكلام في المعنى راجع لقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ فهو معطوف عليه في المعنى

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية مسوقة للشروع في بيان حالهم بعد تعلم السحر، واللام موطئة لقسم محذوف ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿عَلِمُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ اللام حرف ابتداء مُعلِّقَةٌ لما قبلها عن العمل فيما بعدها لفظاً ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿اشْتَرَاهُ﴾ فعل ومفعول، والفاعل ضمير مستتر يعود على ﴿مَنِ﴾ والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مَا﴾ نافية ﴿لَهُ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف حال مقدمة على صاحبها الذي هو ﴿خَلَاقٍ﴾. ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿خَلَاقٍ﴾ مبتدأ مؤخّر، والتقدير: ما خلاق كائن له حال كونه في الآخرة، والجملة الإسمية في محل الرفع خبر ﴿لَمَنِ﴾ الموصولة.

وجملة ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ من المبتدأ والخبر في محل النصب سادّة مسدّ مفعولَيْ ﴿عَلِمُوا﴾ إن كان متعدياً لاثنين، ومسد مفعوله إن كان متعدياً لواحد. ﴿وَلَبِئْسَ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة، واللام موطئة لقسم محذوف ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد من أفعال الذم وفاعله ضمير مستتر وجوباً يعود على الشيء المبهم ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بمعنى شيء في محل النصب على التمييز مفسّرة لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿شَرَوْا﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِ﴾ متعلق بشروا، وهذا الضمير هو الرابط بين جملة الصفة والموصوف ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به لشروا، والتقدير: ولبئس الشيء شيئاً شروا به أنفسهم، وجملة ﴿بئس﴾ من الفعل والفاعل جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، أو معطوفة على جملة

قوله: ﴿عَلِمُواْ﴾، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: السحرُ والكفرُ وهو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو السحر ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم ﴿كَانُواْ﴾ فعل ماض ناقص، والواو اسمها، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، تقديره: لو كانوا عالمين عاقبة ما تعلَّموا، وجملة كان فعل شرط للو لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية محذوف دَلَّ عليه السياق، ـ تقديره: لو كانوا يعلمون عاقبة ما تعلَّموا، لما أقدموا على ما اجترحوه من عمل السحر، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو استئنافية ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ والتقدير: ولو أنّهم مؤمنون بالله ومتّقون إيّاه، وجملة أنّ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف جوازاً؛ لأنَّ لَّوْ الشرطية لا يليها إلاّ الفعل، والتقدير: ولو ثبت إيمانهم وتقواهم ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ اللام رابطة لجواب لَّوْ الشرطية، وقيل: هي لام الابتداء مثوبة مبتدأ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ وهذا الوصف سوّغ الابتداء بالنكرة، والتقدير: لمثوبة كائنة من عند الله ﴿خَيْرٌ﴾ لهم خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب لَّوْ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة لَّوْ الشرطية مستأنفة ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجملة كان من اسمها وخبرها فعل شرط للو لا محل لها من الإعراب، وجواب لَّوْ محذوف دلّ عليه ما قبلها، تقديره: لو كانوا يعلمون خيرية الثواب من عند الله لما اختاروا السحر عليه، وجملة لَّوْ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء؛ أي: منادى نكرة مقصودة مبني على الضمّ، ها حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات؛ أي: من الإضافة، كما عوضوا عنها ما الزائدة في نحو: أياً تدعوا، وخصّت ها بالنداء؛ لأنّه محل تنبيه، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من أي، أو عطف بيان له، أو صفة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَقُولُوا۟﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿رَٰعِنَا﴾ مقول محكي لتقولوا، ولو شئت قلت: ﴿راع﴾ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وهي الياء، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنت يعود على محمد ﷺ، ونا ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لتقولوا ﴿وَقُولُوا۟﴾ فعل وفاعل مبني على حذف النون، والجملة معطوفة، على جملة ﴿لَا تَقُولُوا۟﴾ على كونها جواب النداء ﴿ٱنظُرْنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ فعل أمر، ومفعول به، وفاعل مستتر فيه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُولُوا۟﴾. ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿قُولُوا۟﴾ والمفعول محذوف، تقديره: واسمعوا ما يُكلِّمُكم به الرسول، ويُلْقِي عليكم من المسائِلِ المُؤدِّيةِ إلى فَلاَحِكُمْ دينا، ودنيا، ومعاداً ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الواو استئنافية ﴿للكافرين﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة لعذاب، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة للإجمال بعد التفصيل.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿مَّا﴾ نافية، ﴿يَوَدُّ﴾ فعل مضارع مرفوع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الواو في كَفَرُوا ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على أَهْلِ الكِتَابِ وزيدت لا هنا؛ لتأكيد النفي السابق، ولو كان في غير القرآن لجاز حذفها ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُنَزَّلَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بأن المصدرية

﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق بينزّل ﴿مِّنْ﴾ زائدة ﴿خَيْرٍ﴾ نائب فاعل لينزل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ صفة لخير، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليودّ، تقديره. ما يودّ الذين كفروا تنزيل خير كائن من ربّكم عليكم ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَخْتَصُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بيختّص ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: من يشاؤه؛ أيْ: يشاء تخصيصه ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ذُو﴾ خبر مرفوع بالواو المحذوفة؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنّه من الأسماء الستة، وهو مضاف ﴿الْفَضْلِ﴾ مضاف إليه ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة للفضل، والجملة الإسمية مستأنفة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ تقدّم أنّ أصل الميثاق مِوْثاق، قلبت الواو ياءً لَمَّا سُكِّنت بعد كسرةٍ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أمر من أخذ، والقياس أن يسكن فاؤه، ويؤتى بهمزة وصل؛ للتوصل بها إلى النطق بالساكن، كما قالوا: اضرب، اصبر، ولكن قدَّمنا أنَّ هذا الفعل وهو أخذ، وكذلك أكَلَ، وأَمَر، أنَّ الأمر منها دائماً، هكذا: خُذ، كُل، مُر ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أصله: أأتيناكم بهمزتين، أبدلت الثانية ألفاً حرف مدٍّ للأولى ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ وبئس فعلٌ، وضع لإنشاء الذمّ، وأصله. فعِلَ، ولكنّهم خفَّفوا بسكون الوسط وله ولِنِعْمَ باب معقود في النحو، وأصل إيمانكم: إئمانكم بهمزتين، أبدلت الثانية الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى.

﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الدار فيه إعلال بالقلب، فألفه منقلبة عن واو، وأصله: دَوَرٌ تحركت الواو بعد فتح فقلبت ألفاً، ولذلك يصغر على دويرة ﴿خَالِصَةً﴾ الخالص: الذي لا يشوبه شيء، يقال: خلص يخلص خلوصاً، إذا

سلم من شائبة الغير، فالخالصة مصدر جاء على وزن فاعلة، كالعافية، والعاقبة، وهو بمعنى الخلوص، كما ذكره «الكرخي» ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أصله: تمنّيوا بوزن تفعلوا من التمنّي، يقال: تمنّى يتمنّى تمنياً، وأمرُ الجماعة منه تمنّوا، وذلك أنّ المضارع لمّا بني منه الأمر، حذف حرف المضارعة ونون الرفع، فصار تمنّيوا، فتحركت الياء فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف، ثمّ حركت الواو بالضمّ؛ لالتقائها ساكنة مع لام ال بعده؛ لأنّ همزة الوصل ساقطة في الدرج، ومعنى تمنوا الموت: تشوفوا، واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه، وتودُّ المصير إليه ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ والعجل: هو الذي صنعه لهم السامري من حليهم، وجعلوه إلٰهاً وعبدوه، ويقال: أشرب قلبه كذا؛ أي: حُلَّ محلَّ الشراب، كأنَّ الشيء المحبوب شراب يُساغُ، فهو يسري في قلب المحب، ويمازجه كما يسري الشراب العذب البارد في اللَّهاة، وحقيقة أُشْرِبَه كذا جعله شارِباً له.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ تجدنهم مضارع وجَدَ، وأصله: يَوْجِدُ من فَعَل بفتح العين في الماضي يفعِل بكسرها في المضارع، فهو مثالٌ وقعت الواو بين عدوَّتيها الياء المفتوحة والكسرة فحذفت، ثُمَّ بني الفعل على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد المباشرة، وقس على هذا ما شابهه، ومادَّة. وجد مشتركٌ بين الإصابة، والعلم، والغنى، والحرج، ويختلف بالمصادر، كالوجدان، والوجد، والموجدة، والحرص شدَّة الطلب، وفي «المصباح»: وحَرَص عليه حرصاً من باب ضرب إذا اجتهد، والاسم الحِرص بالكسر، وحرص على الدنيا من باب ضرب أيضاً، وحَرِص حرصاً من باب تعب إذا رغب رغبةً مذمومةً. اهـ.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ من الود وهو المحبَّة للشيء والإيثار له، وهو مضارع وَدِدَ بكسر العين في الماضي، يَوْدَدُ بفتحها في المضارع من باب فَعِلَ يَفْعَلَ، نقلت حركة الدال إلى الواو، فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ من عمَّر المضعَّف، والتضعيف فيه للنقل، إذ هو من عَمَّر الرجل إذا طال عمره، وعمَّره الله إذا أطال عمره، والعمر مدَّةُ البقاء ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ والألف عشر من المئين، وقد يتجاوز فيه فيدلُّ على الشيء الكثير وهو من الألفة، إذ هو ما لَفَّ أنواعَ الأعداد، إذ العشرات ما لَفَّ الآحاد، والمئون ما لفَّ العشرات، والألف ما لفَّ المِئين

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ من الزحزحة: وهي الإزالة والتنحية عن المقرّ، وزحزح يستعمل متعدِّياً كما هنا، ولازماً، كقول الشاعرِ:

خَلِيْلَيَّ ما بَالُ الدُّجَى لا يُزَحْزَحُ   وَمَا بالُ ضَوءِ الصُّبْحِ لا يتوضَّحُ

والمعنى: بمنجيه من العذاب، وقيل: من بمعنى عن؛ أي: بمبعده عن العذاب، وتكرار الحروف يشابه تكرار العمل ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ والعدوُّ ضِدُّ الصديق، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والمثنى والجميع، وأصله: عَدُوْوٌ بوزن فَعولٍ، أدغمت وَاوُ فَعول في لام الكلمة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نَبْذُ الشيءِ طَرَحُهُ وإلقاؤهُ، والفريق: العدد القليل، وأصل أوتوا: أؤتيوا مبنياً للمجهول، وفيه همزتان الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، فأبدلت الثانية حرف مدٍّ للأولى من جنس حركتها على حدِّ قول ابن مالك:

وَمَـدّاً ابْـدِل ثَـانِـيَ الـهَـمْـزَيْـنِ مِـنْ   كِـلْـمَـةٍ إنْ يَـسْـكُـنْ كَـآثِـرْ وائـتُـمِـنْ

ثمّ استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فسكنت، فحذفت لالتقاء الساكنين ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿اتبعوا﴾ افتعلوا من الاتباع، أدغمت فاء الفعل في تاء الافتعال، فقيل: اتبعوا بعد أن استجلبت همزة الوصل، للتوصّل إلى النطق بالساكن ﴿تَتْلُواْ﴾ أَصلُهُ: تَتْلُوُ بوزن تَفعُلُ من تلا يتلو، كسما يسمو ناقصٌ واويٌّ، ولمَّا تطرفت الواو إثر ضمة سكنت، وجعلت حرف مدّ ﴿بضارِّين﴾ أَصْلُه: بضارِرِين، أدغمت الراء الأولى بعد تسكينها في الثانية ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ أصله: يَضْرُرْهم بوزن يفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد، فسكنت، فأُدغمت في الراء الثانية ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ علمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهَرْتِ والمَرتِ؛ أي: الكُسْرِ كما زعَمَ بعضهم لانَصْرَفَا ﴿بِبَابِلَ﴾ وبابلُ مدينة قديمة مُنع من الصرف للعلمية والعجمة، وتقعُ انْقاضُها على الفُراتِ قُرْبَ الحُلَّةِ شرقيَّ بغدادَ ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أصله: اشتَرَيَ بوزن افتَعَلَ، قُلبت الياءُ لامُ الفعل ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فهي مِنْ شرَاه يَشْرِيهِ إذا باعه، أو ملَكه بشراءٍ، ودليلُ ذلك قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ بالفتح بمعنى نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ﴾ أصل: شروا كما تقدّم قريباً شَرَيُوا، تحركت الياء وانفتح ما

قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ أصله: أأمنوا، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً حرف مَدٍّ للأولى ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أصله: أوْتَقيُوا، أبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء، وأدغمت في تاء الافتعال، ثم أبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان الألف والواو، فحذفت الألف، وبقيت الفتحة دالةً عليها ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ وَزْنُهُ مَفْعُلَةً بضمّ العين من الثواب، نقلت حركة الواو إلى الفاء، فسكنت الواو إثر ضمة، فجعلت حرف مدّ. ونقل الواحديُّ: أنَّ المثوبة فيها قولان:

أحدهما: أنّ وزنها مَفْعُولة، والأصلُ: مَثْوُوبَةٌ بواوين، فثقلت الضمةُ على الواو الأولى، فنقلت إلى الساكن قبلها، فالتقى ساكنان، فحذف أوّلهما الذي هو عين الكلمة، فصار مثوبة على وزن مفولة، ومحوزة، ومصونة، ومشوبة، وقد جاءت مصادر على وزن مفعول، كالمعقود، فهي مصدر نقل ذلك الواحديُّ.

والثاني: أنها مفعُلةٌ بضم العين، وإنما نُقلت الضمة منها إلى الثاء، وكان من حقّها الإعلال، فيقال: مَثابة، كمَقالة، إلاّ أنّها صحّحوها. اهـ. «سمين».
﴿تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ يقال: تلا يتلو إذا تبع، وتلا القرآن؛ قرأه. وتلا عليه؛ كذَب. قاله أبو مسلم، وقال أيضاً: تلا عنه؛ صدف. فإذا لم يذكر الصِلَتَين احتمل الأمرين ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: في زمنه، وسليمان: اسم أعجمي، وامتنع من الصرف للعلمية والعجمة، ونظيره من الأعجمية في أنَّ آخرُهُ ألفاً ونوناً هامان، وماهان، وسامان، وليس امتناعه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كعثمان؛ لأنَّ زيادة الألف والنون موقوفةٌ على الاشتقاق، والتصريف، والاشتقاق، والتصريف العربيان لا يدخلان الأسماء العجمية ﴿السِّحْرَ﴾ مصدر سَحَر يَسْحَر سِحْراً على وزن فِعْلٍ، ولا يوجد مصدرٌ على وزن فِعْلٍ إلاّ سِحْرٌ وفِعْلٌ، قاله بعض أهل العلم، قال الجوهري: كُلُّ ما لَطَفُ ودقَّ فهو سِحر، يقال: سحَرَهَ؛ أَبْدَىٰ، له أمراً يَدِقُّ عليه ويَخْفَى. انتهى. وقال الشاعر:

أَدَاءٌ عـرَانِـي مِـنْ حَـيـائِـكَ أَمْ سِـحْـرُ

ويقال: سحَرَه إذا خدَعه، ومنه قولُ امرىء القيس:

أرانـا مـوضـعـيـنِ لأمْـرِ غـيْـب   وَنُـسْـحَـرُ بـالـطَّـعَـامِ وَبـالـشـرَابِ

أي نُعَلَّلُ ونُخْدَعُ ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ اسمان أعجميَّان ممنوعان من الصرف، ومن نظائرهما طالوتُ وجالوتُ، ويجمعان على هواريت، ومواريت. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة: الابتلاءُ والاختبار، يقال: فتن يفتن فتوناً، وفتنةً ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ والضُرُّ والنفع معروفان، ويقال: ضرَّ يضُرُّ بضمّ الضاد، وهو قياس المضعَّف المتعدِّي، ومصدره: الضُرُّ والضَرُّ والضرر، ويقال: ضار يضير، قال:

يَـقُـولُ أُنـاسٌ لا يَـضِـيْـرُكَ نَـابُـهَـا   بَـلَـى كُـلُّ مَا شَفَّ الـنُّـفُـوسَ يضيْـرُهَـا

ويقال: نفع ينفع نفعاً، قيل: لا يقال منه اسم مفعول، نحو: منفوع، والقياس النحويُّ يقتضيه ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ الخلاق في اللغة: النصيب، قاله الزجَّاج، قال لكنه أكثر ما يستعمل في الخير، قال:

يَدْعُـوْنَ بـالـوَيْـلِ فِـيْـهَـا لا خَـلاَقَ لَـهُـمْ   إلاَّ الـسَّـرَابِـيْـلُ مِـنْ قَـطْـرٍ وأغـلاَلُ

والخلاقُ أيضاً: القَدْرُ، قال الشاعر:

فَـمَـا لَـكَ بَـيْـتٌ لَـدَى الـشَّـامِـخَـاتِ   وَمـالَـكَ فِـي غَـالِـبٍ مِـنْ خَـلاقْ

﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ مفعلة من الثواب كما مرّ، نقلت حركة الواو إلى الثاء، ويقال: مثوبةٌ، وكان قياسه الإعلال، فتقول: مثابةٌ، ولكنهم صحَّحُوه كما صحَّحُوا في الأعلام مَكْوُرة، ونظيرهُما في الوزنِ من الصحيح مَقْبَرة ومَقْبُرة ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال الراغبُ: العداوةُ: التجاوز، ومُنافاة الالتئام. فبالقَلْبِ يقال: العداوة. وبالمَشْيِ يقال: العَدْوُ. وبالإخلال في العدل يقال: العُدْوان. وبالمكان أو النَّسب، يقال: قومٌ عِدَي؛ أي: غُرباء. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا مثلٌ يضُرب لمن أعرض عن الشيء جملةً، تقول العرب: جعل هذا الأمر وراءَ ظهرِه ودُبُرَ أُذنه، وقال الفرزدق:

تَـمِـيْـمُ بـنُ مُـرٍّ لا تَـكُـونَـنْ حَـاجَـتِـي   بِـظَـهْـرٍ وَلاَ يَـعْـيَـا عَـلَـيْـكَ جَـوَابُـهَـا

وقالت العرب ذلك. لأنَّ ما جُعل وراء الظهر لا يمكن النظرُ إليه، ومنه ﴿واتَّخذتُموه ظهريا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ راعنا وزنه فاعنا،

أُعلّ بحذف لامه؛ لمناسبة باء الأمر؛ لأنّه من الرعاية، يقال: راعىٰ يراعي مراعاة، إذا نظر في مصالح الإنسان، وتدبير أموره.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ حيث شبَّه حبَّ عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبَّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية، قال في «تلخيص البيان»، وهذه استعارةٌ، والمراد: وصف قلوبهم بالمبالغة في حُبِّ العجل، فكأنَّها تشرَّبَتْ حُبَّه، فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ، وقال بعضهم فيه: التشبيه البليغ؛ أي: جعلت قلوبهم لتَمَكُّن حب العجل منها، كأنَّها تشرب، ومثله قول زهير:

فصحوتَ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ داخِلٍ وَالْحُبُّ يَشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَائِماً

وإنما عبَّر عن حُبّ العجل بالشرب دون الأكل؛ لأنَّ شُرْبَ الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصلِ إلى باطنها، والطعامُ لا يتغلغل فيها.

ومنها: التهكُّم في قوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ﴾ حيث أسند الأمر إلى إيمانهم، وكذلك إضافةُ الإيمان إليهم، أمَّا الثاني فظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ تحقيراً ودلالة على أنَّ مثل هذا لا يليق أن يسمَّى إيماناً إلاّ بالإضافة إليكم، وأمَّا الأوّل؛ فلأنَّ الإيمان إنّما يأمر ويدعو إلى عبادة من هو في غاية العلم والحكمة، فالإخبار بأنَّ إيمانهم يأمر بعبادة ما هو في غاية البلادة، في غاية التهكم والاستهزاء، سواءٌ جعل يأمر به بمعنى يدعو إليه أم لا. انتهى. من «الكرخي».

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ للتنبيه على أنَّ المراد بها حياةٌ مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص ألوفاً من السنين.

ومنها: تخصيص هذا العدد في قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنّهم يقولون ذلك فيما بينهم عند العطاس والتحيّة عِشْ ألفَ سنة، وألف نَوْرُوزْ، وأَلْفِ مهرجان.

ومنها: الإتيانُ بالجملة الإسمية في جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لزيادة التقبيح والتشنيع؛ لأنّها تُفِيدُ الثباتَ والدوامَ.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لم يقل: عدوٌّ لهم؛ لتسجيل صفة الكفر عليهم، وأنّهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين.

ومنها: الإظهار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ حيث لم يقل: فإنه؛ دفعاً لاحتمال أن يعود الضمير إلى جبريل، أو ميكائيل.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، إظهاراً لمزيَّتِهِ وشرفه.

ومنها: إسناد النبذ إلى فريق منهم في قوله: ﴿نبذ فريق منهم﴾؛ إشعاراً بأنَّ منهم من لم ينبذ.

ومنها: خُروج الأمر عن معناه الأصليِّ إلى معنى التعجيز، في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ لأنَّ ذلك ليس من سِماتهم، ولا من ظواهرهم المألوفة، فإنَّ تمني الموت من شأن الأبرار المقرَّبين؛ لأنَّ من أيقن بالشهادة اشتاق إليها، وبكى حنيناً إليها، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب (أنّه كان يطوف بين الصفَّين، في غلالة، فقال ابنه الحسن: ما هذا بزيِّ المحاربين؟ فقال: يا بنيّ! لا يبالي أبوك سقط على الموت أم سقط عليه الموت)، ولمَّا احتضر خالد بن الوليد بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: (والله ما أُبالي إشفاقاً من الموت، ولكن لأنّي حضرت كذا وكذا معركةً، ثمّ أموت هكذا، كما تموت العنز، فلا نامت أعين الجبناء) وعن حذيفة أنّه كان يتمنّى الموت، فلمَّا احتضر قال: (حبيبٌ جاء على فاقةٍ لا أفلح من ندم) يعني: على التمنّي، وعن النبي ﷺ: (لو تمنَّوا الموت لغَصَّ كُلُّ إنسان منهم بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ).

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ ففي تنكير حياة فائدةٌ عجيبة، فحواها: أنَّ الحريص لا بُدَّ أن يكون حياً، وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة، فإنّهما حاصلتان، بل على الحياة المستقبلة، ولمَّا لم يكن الحرص متعلِّقاً بالحياة على الإطلاق، بل بالحياة في بعض الأحوال، وجب التنكير، وفي الحذف توبيخٌ عظيمٌ لليهود؛ لأنَّ الذين لا يؤمنون بالمعاد، ولا يعرفون إلاّ الحياة، لا يستبعد حرصهم عليها، فإذا زاد أهل الكتاب عليهم في الحرص، وهم مُقِرُّون بالبعث والجزاء، كانوا أحرى باللَّوم والتوبيخ.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنّه كنايةٌ عن الكثرة، فليس المراد خصوص الألف.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿رَسُولٌ﴾؛ للدلالة على التفخيم والتعظيم.

ومنها: وصفه بقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأنَّه آتٍ من عند الله، إفادةً لمزيد التعظيم.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ كناقة الله وبيت الله.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأنّه تمثيل لتركهم وإعراضهم عن كتاب الله بالكلية، حيث رموه بالعناد، ولم يعملوا به بما يرمى به وراء الظهر استغناءً عنه، وقلَّة التفاتٍ إليه.

ومنها: حكاية حالٍ ماضيةٍ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ حيث لم يقل تلت الشياطين؛ لأنَّ تلاوتهم من الأمور الماضية فعبَّر عنها ـ بالمستقبل حكايةً لها.

ومنها: زيادة مِنْ في المفعول في قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ لإفادة تأكيد الاستغراق المستفاد من أحد.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ لبيان أنّه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأنٌ سواها؛ لِنَصْرِفَ الناسَ عن تعلُّمِه.

ومنها: الطباق بين الضرِّ والنفع في قوله: ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ لأنَّ بينهما طباق السَّلْب.

ومنها: فنٌّ رفيعٌ في فنون البلاغة في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ الخ. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وهو تنزيل العلم منزلة الجاهل، فإنَّ صدر الآية يدلُّ على ثبوت العلم في أنّه لا نفع لهم في اشتراء كتب السحر والشعوذة، واختيارها على كتب الله تعالى، وآخر الآية ينفي عنهم العلم، فإنَّ لو تدلُّ على امتناع الثاني لامتناع الأول، إلا أنَّ نفي العلم عنهم لأمرٍ خطابيٍّ، نظراً إلى أنَّهم لا يعملون على مقتضى العلم، ولكن في ذلك مبالغةٌ من حيث الإشارة، إلى أنَّ علمهم بعدم الثواب كافٍ في الامتناع، فكيف العلم بالذمِّ والرداءة.

ومنها: الإتيان بالجملة الاسمية في جواب لو الشرطية في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بدل الجملة الفعلية؛ للدلالة على الثبوت والاستمرار.

ومنها: تنكير مثوبة في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾؛ لإفادة التقليل؛ أي: شيءٌ قليلٌ من الثواب كائنٌ من عند الله خيرٌ.

ومنها: حذف المفضَّل عليه في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ إجلالاً للمفضَّل من أن ينسب إليه، وهو السحر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لأنَّ نفي الودِّ عنهم كنايةٌ عن الكراهة؛ أي: ما يحب الذين كفروا الخ.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ومنها: تصدير الجملتين بلفظ الجلالة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ﴾ للإيذان بفخامة الأمر.

ومنها: فنُّ التهذيب في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ وهو ترداد النظر فيما يكتبه الكاتب، وينظمه الشاعر، فقد خلصت هذه الآية من الإيهام، ودلَّتْ على آداب المخاطبة ليكون الكلام بريئاً من المطاعن، بعيداً عن الملاحن.

ومنها: زيادة لا النافية في قوله: ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً للنفي المستفاد ممَّا قبلها؛ لأنَّ المعنى ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، بغير زيادة لا. اهـ. «سمين».

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه، لمَّا بيَّن حقيقة الوحي(١)، وردَّ كلام الكارهين له جملةً.. بيَّنَ سرَّ نسخه، وأبطل مقال الطاعنين فيه، بأنّه تعالى يأمر بالشيء لما يعلم فيه من المصلحة، ثمَّ ينهى عنه لما يرى في ذلك من الخير حينئذٍ، فأطيعوا أمره، واتَّبعوا رسله في تصديق ما به أخبروا، وترك ما عنه زجروا.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا نهى في الآيات السابقة عن الاستماع لنصح

---

(١) المراغي.

اليهود، وعدم قبول آرائهم في شيء من أمور دينهم، ذكر هنا وجه العلة في ذلك، وهي أنَّ كثيراً منهم يودون لو ترجعون كفاراً حسداً لكم ولنبيّكم، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي ﷺ، والكيد له بنقض ما عاهدهم عليه، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام، ويتمنون أن تحرموا منها.

وقد كان لأهل الكتاب حيلٌ في تشكيك المسلمين في دينهم، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أوّل النهار، ويكفروا آخره كي يتأسَّى بهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين، ليشككوهم في دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها من حيث إنَّ هذه الآيات في بيان أباطيل أخر لأهل الكتاب وقبائحهم، حيث ادَّعى كلٌّ من الفريقين اليهود والنصارى أنَّ الجنّة خاصَّةٌ به، وطعن في دين الآخر، فأكذب الله الفريقين، وبيَّن أنّ الجنّة إنّما يفوز بها المؤمن التقيُّ الذي عمل الصالحات.

واعلم: أنّ الله سبحانه ذكر في هذه الآية حالين من أحوال اليهود[1]:

أولاهما: تضليل من عداهم، وادعاؤهم أنَّ الحق لا يعدوهم، وأنّ النبوة مقصورةٌ عليهم.

وثانيهما: تضليل اليهود للنصارى، وتضليل النصارى لهم، كذلك مع أنَّ كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمِّمٌ لكتاب اليهود.

والعبرة من هذا القصص: أنَّهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء، لا يعتدُّ معها بقول أحد منهم، لا في نفسه، ولا في غيره، فطعنهم في النبي ﷺ، وإعراضهم عن الإيمان به، لا يثبت دعواهم في أنّه مخالف للحق، فاليهود قد كفروا بعيسى، وقد كانوا ينتظرونه، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا التوراة، وهي حجتهم على دينهم، فكيف بعدئذٍ يعتدُّ برأيهم في محمدٍ ﷺ؟ وهو من غير

---

(١) المراغي.

شعبهم، وجاء بشريعةٍ نسخت شرائعهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ سبحانه الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر افتراء اليهود والنصارى وقولهم: إنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً أو نصارى، وإنّها خاصة بهم.. أردف ذلك بذكر بعض قبائحهم، وقبائح المشركين في ادّعائهم: أنّ لله ولداً، حيث زعمت اليهود: أنَّ عزيراً ابن الله، وزعمت النصارى: أنّ المسيح ابن الله، وزعم المشركون: أنّ الملائكة بنات الله، فأكذبهم الله وردَّ عليهم دعواهم الباطلة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: (كان ربما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه في النهار، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ الآية).

وروي أنَّ هذه الآيات نزلت حين قال المشركون، أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمرٍ، ثُمَّ ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول: اليوم قولا ويرجع عنه غداً، فقد أمر في حد الزنا بإيذاء الزانيين باللِّسان حيث قال: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ ثُمَّ غيَّره وأمر بإمساكهن في البيوت، حيث قال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ ثم غيَّره بقوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فما هذا القرآن إلاّ كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضاً، ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين؛ ليضعِّفوا عزيمة من يريد الدخول فيه، وينضوي تحت لوائه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رفيع بن خزيمة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد! ائتنا بكتابٍ تنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجر لنا أنهاراً نتَّبعك ونصدِّقك، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وما أخرجه ابن جرير، عن مجاهد قال: سألت قريشٌ محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: «نعم، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم» فأبوا، ورجعوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ الآية، سبب نزولها: أنّه كان حُييُّ بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، من أشدّ اليهود حسداً، للعرب، إذْ خصّهم الله تعالى برسوله، وكانوا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، فأنزل ـ الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعن الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد أنّه أخبره: أنَّ رسول الله ﷺ ركب على حمار، فقال لسعد: «ألم تسمع ما قال أبو الحباب» يريد عبد الله بن أبي؟ قال: «كذا وكذا»، فقال سعد بن عبادة: اعف عنه واصفح، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعفو عن أهل الكتاب والمشركين، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: لمَّا قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة من اليهود: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى، وبالإنجيل، وقال: رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية، ما أخرجه ابن جرير، عن ابن زيد قال: نزلت هذه الآية في المشركين حين صدُّوا رسول الله ﷺ، عن مكة يوم الحديبية، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس قال: إنّ قريشاً منعوا النبيَّ ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

ولمَّا حرَّم الله سبحانه وتعالى قولهم: ﴿رَاعِنَا﴾ بعد حلِّه، وكان ذلك من باب النسخ، قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بغير عطف؛ لشدّة ارتباطه بما قبله. و﴿مَا﴾ شرطية جازمة لننسخ، منتصبةٌ به على المفعولية؛ أي: أي شيء ﴿نَنسَخْ﴾! ومحلُّ قوله: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ النَّصب تمييزاً لما الشرطيَّة، والنسخ في اللُّغة: الإزالة والنقل، يقال: نسخت الريح الأثر؛ أي: أزالته، ونسخت الشمس الظلَّ إذا أزالته، ونسخت الكتاب؛ أي: نقلته من نسخةٍ.

واصطلاحاً: بيان انتهاء حكم التعبُّد بتلاوة الآية، وقراءتها، أو انتهاء التعبُّد بالحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً.

فالأوَّل: أعني: نسخ التلاوة دون الحكم، كآية الرجم، كما روي أنَّ مما يتلى عليكم في كتاب الله (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتةَ) فهو منسوخ التلاوة دون الحكم، ومعنى النسخ في مثلها: انتهاء التكليف بقراءتها عند نسخ تلاوتها، وهذا القسم قليلٌ، وهو المراد بقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾.

والثاني: أعني: نسخ الحكم دون التلاوة، فكآية عدّة الوفاة بالحول، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ نسخت بأربعة أشهر وعشراً، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة، كالآيات التي نسخت بآية السيف، وكمصابرة الواحد لعشرة في القتال، نسخت بمصابرة الواحد للاثنين، فهو منسوخ الحكم دون التلاوة، وهو المعروف الكثير من النسخ في القرآن، فتكون الآية الناسخة والمنسوخة ثابتتين في التلاوة، إلاّ أنَّ المنسوخة لا يعمل بها، ومعنى النسخ في مثلها: بيان انتهاء التكليف بالحكم المستفاد منها عند نزول الآية المتأخِّرة عنها، وحسن بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ورفعه؛ ليبقى حصول الثواب بقراءتها، فإنّ القرآن كما يتلى لحفظ حكمه لتيسير العمل به، يتلى أيضاً؛ لكونه كلام الله تعالى، فيثاب عليه.

والثالث: أعني: نسخ الحكم والتلاوة جميعاً، فكما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّها قالت: (كان مما يتلى في كتاب الله ﴿عَشْرُ رضعات يُحَرِّمْنَ﴾ ثُمّ نسخ بـ﴿خمسُ رضعاتٍ يُحرِّمن﴾) فهو منسوخ الحكم والتلاوة جميعاً، ومعنى النسخ في مثلها: بيان انتهاء التكليف بقراءتها وبالحكم المستفاد منها عند نسخها.

وهذان القسمان هما المذكوران بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ فدخل تحت قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ قسمان من أقسام النسخ، وهما: نسخ الحكم واللفظ معاً، أو الحكم فقط، وتحت قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قسمٌ واحد، وهو نسخ اللفظ دون الحكم. قال القرطبي: الجمهور على أنَّ النسخ إنّما هو مختصٌّ بالأوامر، والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ؛ لاستحالة الكذب على الله تعالى.

والمعنى: أيَّ شيء من الآيات ننسخ ونرفع حكمها مع بقاء لفظها؟ كآية عدّة الوفاة بالحول بآية أربعة أشهر وعشرة أيام، أو ننسخ ونرفع لفظها وحكمها جميعاً، كنسخ عشر رضعات بخمس رضعات ﴿أو ننسأها﴾؛ أي: نؤخِّر ونبق حكمها مع رفع تلاوتها، كآية الرجم؛ لأنّه إمّا من النَّسيء إنْ قرأنا بفتح النون والسين، أو من الإنساء إن قرأنا بضمّ النون وكسر السين، وكلاهما بمعنى التأخير، والمراد: تأخير حكمها وإبقاؤه مع نسخ تلاوتها، أو تأخيرها في اللوح المحفوظ عن الإنزال إلى وقتٍ أراد الله سبحانه إنزالها فيه، وفي «الروح» قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ أي: نذهبها عن قلوبكم، فإنساء الآية إذهابها من القلوب، كما روي إنَّ قوماً من الصحابة قاموا ليلةً ليقرؤوا سورةً، فلم يذكروا منها إلاّ البسملة، فغدوا إلى النبي ﷺ وأخبروه، فقال ﷺ: «تلك سورةٌ رفعت بتلاوتها وأحكامها» ﴿نَأْتِ﴾؛ أي: نرسل جبريل ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي: بآيةٍ هي خيرٌ وأسهل على العباد؛ أي: من المنسوخة؛ أي: نرسله[1] بما هو أنفع لكم، وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، وليس معناه: أنَّ آيةً خيرٌ من آية؛ لأنَّ كلام الله تعالى واحدٌ، وكلُّه

---

(١) الخازن.

خيرٌ، فلا يتفاضل بعض الآيات على بعض في أنفسها من حيث إنّه كلام الله تعالى، ووحيه، وكتابه، بل التفاضل فيها إنّما هو بحَسَب ما يحصل منها للعباد، والخيريَّة: إمَّا في السُّهولة، كنسخ وجوب مصابرة الواحد لعشرة، بوجوب مصابرته لاثنين، أو في كثرة الأجر، كنسخ التخيير بين الصوم والفدية، بتعيين الصوم، فالأول من النسخ بالبدل الأخفّ، والثاني من النسخ بالبدل الأثقل ﴿أَوْ﴾ نرسله بـ ﴿مِثْلِهَآ﴾؛ أي: بمثل المنسوخة في النفع، والثواب، والعمل، وذلك كنسخ وجوب استقبال صخرة بيت المقدس، بوجوب استقبال الكعبة، فهما متساويان في الأجر.

والمعنى: إنّ كُلَّ آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة، والمصلحة من إزالة لفظها، أو حكمها، أو كليهما معاً إلى بدلٍ، أو إلى غير بدل، كما في إنسائها، وإذهابها عن القلوب بالكلية، كما روي عن قومٍ من الصحابة ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾؛ أي: نوح إليك غيرها مما هو خيرٌ للعباد، بحسب الحال من الذاهبة، أو ممَّا هو مثلها في النفع والثواب. فكلُّ ما نسخ إلى أيسر، فهو أسهل في العمل، وما نسخ إلى الأشقّ، فهو في الثواب أكثر، أمَّا الأول: فكنسخ الاعتداد بحولٍ، ونقله إلى الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، وأمَّا الثاني: فكنسخ ترك القتال بإيجابه، وقد يكون النسخ بمثل الأول لا أخفَّ ولا أشقَّ، كنسخ التوجُّه إلى بيت المقدس، بالتوجه إلى الكعبة، وهذا الحكم غير مختصٍّ بنسخ الآية التامَّة فما فوقها، بل جارٍ فيما دونها أيضاً، وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب.

واعلم: أنَّ الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً تجوّزاً في الإسناد، بناءً على أنَّ النسخ يقع به، والمنسوخ هو الحكم المزال، والمنسوخ عنه: هو المُتعبِّدُ بالعبادةِ المُزالَةِ وهو المكلَّف، والحكمة[1] في النسخ: أنّ الطبيبَ المباشرَ لإصلاح البدن، يُغيِّر الأغذية، والأدوية، بحسب اختلاف الأمزجة، والأزمنة، كذلك الأنبياء المباشرون لإصلاح النفوس، يغيِّرون الأعمال الشرعية، والأحكام الخلقيَّة التي هي للنفوس بمنزلة العقاقير، والأغذية

---

(١) روح البيان.

للأبدان، فإنَّ أغذية النفوس، وأدويتها: هي الأعمال الشرعية، والأخلاق المرضية، فيغيِّرها الشارع على حسب تغيُّر مصالحها، فكما أنَّ الشَّهْدَ يكون دواءً للبدن في وقتٍ، ثمّ قد يكون داءً في وقتٍ آخر، كذلك الأعمال قد تكون مصلحةً في وقت، ومفسدة في وقت آخر، وخلاصة[1] المعنى: ما نغير حكم آيةٍ، أو نُنْسِيْكَهُ، إلاّ أتينا بما هو خيرٌ منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب، أو بمثله فيه.

قال الاستاذ الإمام: والمعنى الصحيح الذي يَلْتَئِمُ مع السياق: أنَّ الآية هنا ما يؤيِّد الله تعالى به الأنبياء، من الدلائل على نبوتهم؛ أي: ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوّة نبيّ من الأنبياء؛ أي: نزيلها، ونترك تأييد نبيٍّ آخر بها، أو ننسها الناس؛ لطول العهد بمن جاء بها، فإنَّا بما لنا من القدرة الكاملة، والتصرّف في الملك؛ نأت بخير منها في قوّة الإقناع، وإثبات النبوة، أو بمثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته، وسعة ملكه، فلا يتقيَّدُ بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه. اهـ. وقد سبقه إلى مثله محي الدين ابن العربي في «تفسيره». وقرأ الجمهور[2] ﴿مَا نَنسَخْ﴾ من نسخ الثلاثي بمعنى: أزال. وقرأت طائفة، وابن عامر من السبعة ﴿ما نُنسِخ﴾ بضمّ النون الأولى من أنسخ الرباعي، وهو بمعنى: نسخ الثلاثي.

وقرأ عُمر وابن عباس، والنخعيُّ، ومجاهد، وعطاء، وعبيد بن عمير، ومن السبعة ابن كثير، وأبو عمرو ﴿أو نَنْسَأْهَا﴾ بفتح نون المضارعة والسين، وسكون الهمزة. وقرأ طائفة كذلك، إلاّ أنّه بغير همز، وذكر أبو عبيد البكريُّ في كتاب «اللاَّلي» ذلك، عن سعد بن أبي وقاص، وأراه وَهِمَ، وكذا قال ابن عطية، قال: وقرأ سعد بن أبي وقاص: ﴿تَنْسَاها﴾ بالتاء المفتوحة وسكون النون وفتح السين من غير همز، وهي قراءة الحسن، وابن يعمر، وقرأت فرقة كذلك، إلاّ أنهم همَّزوا. وقرأ أبو حيوة كذلك، إلاّ أنّه ضمَّ التاء. وقرأ سعيدٌ كذلك، إلاّ أنه بغير همز، وقرأ باقي السبعة ﴿نُنْسِها﴾ بضمّ النون وكسر السين من غير همزت، وقرأ

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فرقةٌ كذلك إلاّ أنَّها همزت بعد السين. وقرأ الضحاك، وأبو رجاء بضمّ النون الأولى وفتح الثانية، وتشديد السين وبلا همزٍ. وقرأ أُبيٌّ: ﴿أو نُنسِكَ﴾ بضمّ النون الأولى وسكون الثانية، وكسر السين من غير همز، وبكاف الخطاب بدل ضمير الغيبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة كذلك، إلاّ أنّه جمع بين الضميرين، وهي قراءة أبي حذيفة. وقرأ الأعمش: ﴿ما نُنسِكَ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِخْهَا نَجِىءْ بِمِثْلِها﴾ وهكذا ثبت في مصحف عبد الله، فتحصَّل من هذه القراءات دون قراءة الأعمش إحدى عشرة قراءةً، فمعنى هذه اللفظة في الآية: نُؤخّر نسخها، أو نُزُولُها، قاله عطاء، وابن أبي نجيح، أو نمحها لفظاً، وحكماً، قاله ابن زيد، أو نمضها فلا ننسخها، قاله أبو عبيدة، وهذا يضعِّفه قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾؛ لأنّ ما أمضى وأُقِرّ لا يقال فيه نأت بخير منها.

ثمّ أقام الدليل على إمكان النسخ، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد! الخطاب للنبي ﷺ، والمراد[1] غيره من المؤمنين الذين ربّما كان يؤذيهم ما كان يعترض به اليهود، وغيرهم على النسخ، وضعيف الإيمان يؤثّر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به، فيخشى عليه من الرُّكونِ إلى الشُّبهة، أو تدخل في قلبه الحيرة، فجاء ذلك؛ تثبيتاً لهم؛ وتقويةً لإيمانهم ببيان أنَّ القادر على كل شيء، لا يستنكر عليه نسخ الأحكام؛ لأنّها ممَّا تتناولها قدرته. والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: إنك تعلم يا محمد! ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فمنه النسخ والتبديل ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فيقدر على النسخ، والإتيان بمثل المنسوخ، وبما هو خير منه.

والمعنى[2]: ألم تعلم يا محمد؟ أني قادر على تعويضك ممَّا نسخت من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خيرٌ لك، ولعبادي المؤمنين، وأنفع لك ولهم عاجلاً، أو آجلاً، وسبق لك آنفاً أنَّ الهمزة للاستفهام التقريري، والمعنى: أي: أَقرَّ واعترفْ يا محمد! بكون الله

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

قديراً على كُلِّ شيء. وفي هذه الجملة تنبيهٌ للنبيِّ ﷺ، وغيره، على قدرته تعالى، وأنّه القادر المتصرِّف في شؤون الخلق، يحكم بما شاء، ويأمر بما شاء، وأنّه لا دافع لما أراد، ولا مانع لما اختار. ثُم أقام دليلاً آخر، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد! الخطاب للنبي ﷺ، والمراد: هو وأمّته، بدليل قوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾ وإنّما أفرده هنا؛ لأنّه أعلمهم، ومبدأ علمهم ومأخذه. قال بعضهم: وإنّما[1] خصَّه ﷺ بالخطاب، مع أنَّ غيره داخلٌ في الخطاب أيضاً حقيقةً، بناءً على أنَّ المقصود من الخطاب تقرير علم المخاطب بما ذكر، ولا أحد من البشر أعلم بذلك منه ﷺ، إذ قد وقف من أسرار ملكوت السموات والأرض، على ما لا يطَّلع عليه غيره، وعِلْمُ غيره بالنسبة إلى علمه ﷺ، مُلْحَقُ بالعدم؛ لأنّ علم الأولياء من علم الأنبياء، بمنزلة قطرةٍ من سبعة أبحر، وعلم الأنبياء من علم نبيِّنا محمد ﷺ بهذه المنزلة، وعلم نبينا من علم الحقِّ سبحانه بهذه المنزلة. انتهى.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَهُۥ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، وما بينهما، أي: سلطنتهما، فهو المتصرِّف فيهما دون غيره، يحكم فيهما، وفيما فيهما بما شاء من أمر، ونهي، ونسخ، وتبديل، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو كالدليل على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ والملك: تمام القدرة واستحكامها، وتخصيص السموات والأرض بالذكر، وإن كان الله تعالى له ملك الدنيا والآخرة جميعاً؛ لكونهما أعظم المصنوعات المحسوسة، وأعجبها شأناً. وهذا الخبر[2]، وإن كان خطاباً للنبيِّ ﷺ، لكن فيه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا النسخ، وجحدوا نبوّة عيسى، ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، فأخبرهم أنَّ الله سبحانه وتعالى، له ملك السموات والأرض، وأنَّ الخلق كُلَّهم عبيده، وتحت تصرُّفه، يحكم فيهم ما يشاء، وعليهم السمع والطاعة، فعلم أنَّ هذه الجملة، كالدليل على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما مرَّ، أو على جواز النسخ، ولذلك ترك العاطف ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

سبحانه، أي: سوى الله، وهو في حيِّز النصب على الحالية من الوليّ؛ لأنّه في الأصل صفةٌ له، فلمّا قدِّم انتصب حالاً ﴿مِن﴾ زائدة للاستغراق ﴿وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريبٌ وصديقٌ يلي أمركم، وقيل: والٍ، وهو القيِّم بالأمور ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: معينٌ ومانع ينصركم على أعدائكم؛ أي: ناصركم ومعينكم هو الله وحده، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ، أو يعيِّبكم به، وليس في استطاعته أن يلحق بكم أذًى، والفَرْقُ بين الولي والنصير: أنَّ الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، فبينهما عموم وخصوص من وجهٍ، والمقصود: التسكين لقلوب المؤمنين، بأنَّ الله وليُّهم، وناصرهم دون غيره، فلا يجوز الاعتماد إلاّ عليه ولا يصحُّ الالتجاء إلاّ إليه.

والمعنى: إن قضيَّة العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة وهو العلم بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ والعلمُ بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والعلمُ بأنْ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ هو الجَزْمُ والإيقان، بأنّه تعالى لا يفعل بهم في أمرٍ من أمور دينهم، أو دنياهم إلاّ ما هو خيرٌ لهم، والعمل بموجبه شيءٌ من الثقة والتوكّل عليه، وتفويض الأمر إليه من غير إصغاءٍ إلى أقاويلِ الكفرة، وتشكيكاتهم التي هي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ. وقيل: المعنى: ﴿وَمَا لَكُم﴾ يا معشر اليهود والكفار! عند نزول العذاب ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ممَّا سوى الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريبٍ وصديقٍ يحميكم من عذاب الله، وقيل: والٍ يلي أمركم ويقوم به ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ولا ناصر يمنعكم من عذاب الله، وإنما هو الذي يملك أموركم، ويجريها على ما يصلح لكم، وفي هذا تحذيرٌ من عذاب الله، إذ لا مانع منه.

ولمَّا قالت اليهود: يا محمد! ائتنا بكتابٍ من السماء جملةً، كما أتى موسى بالتوراة، نزل قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وأمْ هنا[1] منقطعةٌ تقدَّر ببل والهمزة، ويكون إضراب انتقالٍ من قصّةٍ إلى أخرى، لا إضراب إبطالٍ،

---

(١) العمدة.

والخطاب لليهود؛ أي: بل أتريدون يا معشر اليهود! الذين كانوا في عهد محمدٍ ﷺ ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾؛ أي: الرسول الذي جاءكم؛ أي: محمداً ﷺ؛ لأنّه رسول الخلق أجمعين، أن يأتيكم بكتاب من السماء جملةً ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام؛ أي: سأله أسلافكم وآباؤكم رؤية الربِّ، وسماع كلامه، وغير ذلك حيث قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الرسول محمد ﷺ، فتضلُّوا كما ضلُّوا؛ وذلك لأنَّ السؤال بعد قيام البراهين كفرٌ.

وقيل[1]: أم في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ معادِلةٌ للهمزة في ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ والخطاب للمؤمنين؛ أي: ألم تَعْلَموا؟ أيها المؤمنون! أنّه سبحانه مالك الأمور، وقادرٌ على الأشياء كلِّها، يأمر وينهىٰ كما أراد، أم تعلمون، وتقترحون بالسؤال، كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام، والمراد: توصية المؤمنين بالثقة به، وترك الاقتراح عليه، وهو المفاجأة بالسؤال من غير رويَّةٍ وفكرٍ ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟﴾ وأنتم مؤمنون ﴿رَسُولَكُمْ﴾ محمداً ﷺ، وهو في تلك المرتبة من علوِّ الشأن، وتقترحوا عليه ما تشتهون، غير واثقين بأموركم بفضل الله تعالى، حسبما يوجبه قضيّةُ علمكم بشؤونه تعالى. قيل: لعلَّهم كانوا يطلبون منه ﷺ، تفاصيل الحِكَمِ الداعية إلى النسخ ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ مصدر تشبيهيٌّ! أي: نعت لمصدر مؤكّد محذوف، وما مصدرية؛ أي: تسألون رسولكم سؤالاً مشبهاً لله سؤال موسى عليه السلام، حيث قيل له: اجعل لنا إلٰهاً، وأرنا الله جهرةً، وغير ذلك. وقرىء (سِيْلَ بالياء) ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل محمد ﷺ متعلق بسئل؛ جيء به للتأكيد ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: من يختر الكفر لنفسه، ويأخذه، ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: بدل الإيمان؛ أي: أخذه في مقابلة الإيمان بدلاً عنه؛ أي: ومن يختر الكفر على الإيمان، ويأخذه لنفسه بدل الإيمان.

وحاصله: من يترك الثقة بالآيات البينة المنزَّلة، بحسب المصالح التي من جملتها الآيات الناسخة التي هي خيرٌ محضٌ، وحقٌّ بحتٌ، واقترح غيرها ﴿فَقَدْ

---

(١) روح البيان.

ضَلَّ﴾؛ أي: عدل وجار من حيث لا يدري ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى، وتاه في تيه الهوى، وتردَّى في مهاوي الردى.

ومعنى ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: قصد الطريق السويّ، ووسطه الذي هو بين الغلوّ والتقصير وهو الحق، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: قد أخطأ الطريق المستوي؛ أي: المعتدل الحقَّ. وقرىء ﴿يُبْدِلْ﴾ من أبدل الرباعيِّ. وقد قرىء ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ بالإدغام، وبالإظهار في السبعة، والمعنى: ومن ترك الثقة بالآيات البينات المنزَّلة، وشكّ فيها، واقترح غيرها، فقد ضَلَّ الطريق المستوي حتى وقع في الكفر بعد الإيمان، وحاصل معنى الآية: لا تقترحوا فتضِلُّوا وسط السبيل وقصده، ويؤدِّي بكم إلى البعد عن المقصد، وتبديل الكفر بالإيمان.

وأكثر المفسرين[1]: على أنَّ سبب نزول الآية اليهود حين قالوا: يا محمد! ائتنا بكتاب من عند الله جملةً، كما جاء موسى بالتوارة جملةً، فنزلت هذه الآية كما قال في آية أخرى ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿جهرةً﴾ فالمخاطبون بقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ هم اليهود، وإضافة الرسول إليهم في قوله: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ باعتبار أنّهم من أمة الدعوة، ومعنى تبدُّل الكفر بالإيمان، ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك، وإيثارهم للكفر عليه. قال الإمام: وهذا القول أصحُّ؛ لأنَّ الآية مدنيَّةٌ؛ ولأنّ هذه السورة من أوّل قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ حكايةٌ عنهم، ومحاجَّةٌ معهم، وفي الآية إشارة إلى حفظ الآداب، فمن لم يتأدَّب بين يدي مولاه، ورسوله، وخلفائه، فقد تعرَّض للكفر، وحقيقة الأدب: اجتماع خصال الخير، وعن النبي ﷺ قال: «حقُّ الولد على والده أن يحسن اسمه، ويحسن مرضعه، ويحسن أدبه، فإنّه مسؤولٌ عنه يوم القيامة، ومؤاخذٌ بالتقصير فيه». وسئل ابن سيرين: أيُّ الأدب أقرب إلى الله؟ فقال: معرفة ربوبيته، والعمل بطاعته، والحمد على السراء، والصبر على الضرّاء. انتهى كلامه. ﴿وَدَّ﴾ أي: تمنَّى وأحبَّ ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛

(١) روح البيان.

أي: من أحبار اليهود، ككعب بن الأشرف، وحيّي بن أخطب ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾؛ أي: أن يردّوكم أيها المؤمنون، فإنّ ﴿لَوْ﴾ من حروف المصادر، إذا جاء بعد فعلٍ يفهم منه معنى التمني، كقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ أي: ودّوا أن يصرفوكم عن التوحيد والإسلام ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين! بمحمد ﷺ، وبالقرآن ﴿كُفَّارًا﴾؛ أي: مرتدّين، حال من ضمير المخاطبين في ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ ويحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً ليردُّونكم على تضمينه معنى يصيِّرونكم، وقوله: ﴿حَسَدًا﴾ علةٌ، لقوله: ﴿وَدَّ﴾ كأنَّه قيل: ودَّ كثير منهم ذلك من أجل الحسد، وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ يجوز أن يتعلَّق بودَّ على معنى: أنّهم تمنَّوا ارتدادكم من عند أنفسهم، وقِبَلِ شهوتهم وأهوائهم، لا من قِبَل التديُّنِ، والميل مع الحق، ولو على زعمهم؛ لأنّهم ودُّوا ذلك، فكيف يكون تمنّيهم من قبل الحق؟ ويجوز أن يتعلَّق بحسداً؛ أي: حسداً منبعثاً من أصل نفوسهم، بالغاً أقصى مراتبه، وقوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمُ الْحَقُّ﴾ وعلموا في كتابهم التوارة، أنَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ ودينه، ونعته، وصفته، هو الحقُّ لا يشكُّون فيه، فكفروا به حسداً وبغياً، متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَدَّ﴾؛ أي: ودُّوا ذلك بعد ظهور الحق عندهم، وأولئك الكثير هم رهطٌ من أحبار اليهود. روي أنَّ فنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس، ونفراً من اليهود، قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمّار بن ياسر - رضي الله عنهما - بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا، فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمَّارٌ: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديدٌ، قال: فإنّي قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أمَّا عمَّارٌ فقد صبأ؛ أي: خرج عن ديننا بحيث لا يرجى منه الرجوع إليه أبداً، فكيف أنت حذيفة؟ ألا تبايعنا؟ قال حذيفة: رضيت بالله ربّاً، وبمحمد نبيّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً، فقالوا: وإله موسى، لقد أشرب في قلوبكما حبُّ محمد، ثُمَّ أتيا رسول الله ﷺ، وأخبراه، فقال: أصبتما خيراً، وأفلحتما، والمعنى أحبَّ وأراد كثيرٌ منهم ردَّكم عن دينكم من بعد إيمانكم، حالة كونكم كفاراً مرْتدين، من بعد ما ظهر لهم الحقُّ من

أجل حسدهم إيّاكم حسداً ناشئاً من قبل أنفسهم، وأهوائهم، لا بأمر الله إيّاهم بذلك، وأصل[1] الحسد: تمنّي زوال النعمة عمَّن يستحقُّها، ربّما يكون مع ذلك سعيٌ في إزالتها، والحسد مذمومٌ من الكبائر؛ لما رُوِي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب» أخرجه أبو داود، فإذا أنعم الله على عبده نعمةً فتمنَّى آخر زوالها عنه، فهذا هو الحسد، وهو حرامٌ، فإن استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصي، فتمَّنى آخر زوالها عنه فليس بحسدٍ، ولا يحرم ذلك؛ لأنّه لم يحسده على تلك النعمة من حيث إنّها نعمةٌ، بل من حيث إنّه يتوصَّل بتلك النعمة إلى الشرِّ والفساد.

﴿فَٱعۡفُواْ﴾ واسمحوا عنهم أيها المؤمنون! إساءتهم، أي: اتركوهم، فلا تؤاخذوهم بهذه المقالة بالانتقام الفعلي، كالقتل والضرب ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾؛ أي: أعرضوا عنهم، فلا تلوموهم على أخلاقهم، وكلامهم السيء، ولا تقابلوهم بالانتقام القولي؛ أي: فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عمّا يكون منهم من الجهل، والعداوة. وأصل[2] العفو: ترك عقوبة المذنب، يقال: عفت الريح المنزل درسته، وعفا المنزل يعفو درس، ويتعدّى، ولا يتعدّى، ومن ترك المذنب، فكأنّه درس ذنبه من حيث إنّه ترك المكافأة والمجازاة، وذلك لا يستلزم الصفح، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ فإنّه قد يعفو الإنسان ولا يصفح. والصفح: ترك التقريع باللسان والاستقصاء، يقال: صفحت عن فلانٍ، إذ أعْرضْتَ عن ذنْبه بالكلية، وقد ضربت عنه وتركته، وليس المراد بالعفو والصفح المأمور بهما: الرضى بما فعلوا؛ لأنّ ذلك كفرٌ، والله تعالى لا يأمر به، بل المراد بهما: ترك المقاتلة والإعراض عن الجواب عن مساويّ كلامهم. انتهى من «الروح».

والفرق بين العفو والصفح: أنّ العفو: ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

تقريعه ولومه بالكلام، فبينهما مغايرة، كذا ذكره البيضاوي، وفي «الصاوي»: أنّهما متحدان، ومعناهما: عدم المؤاخذة، ولم يؤمر النبي ﷺ بقتالهم، مع أنّهم ناقضون للعهد بتلك المقالة؛ لأنَّ الواقعة كانت بعد غزوة أحد، فكان الإذن في القتال حاصلاً، فالجواب: أنَّ القتال المأذون فيه كان للمشركين، وأمّا أهل الكتاب، فلم يؤمروا بقتالهم إلاّ في غزوة الأحزاب، قيل: قبلها، وقيل: بعدها، فقتَلَ بني قريظة، وأجلَىٰ بني النضير، وغزا خيبر. وقال ابن كثير[1]: عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وبقوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ فنسخ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة والسدي: إنّها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فيهم؛ أي: فاعفوا واصفحوا عنهم حتى يبيِّن الله سبحانه حكمه فيهم؛ أي: بقتل قريظة، وسبيهم، وإجلاء بني النضير، وإذلالهم، بضرب الجزية عليهم، أو بإذنه في القتال.

والمعنى[2]: حتى يحكم الله بحكمه الذي هو الإذن في قتالهم، وضرب الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير. روي أنَّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ استأذنوا رسول الله ﷺ، في أن يقتلوا هؤلاء اليهود الذين كفروا بأنفسهم، ودعوا المسلمين إلى الكفر، فنزلت الآية بترك القتال، والإعراض عن المكافأة إلى أن يجيء الإذن من الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم بالقتل والإجلاء، وينتقم منهم إذا جاء أوانه، ففيه وعيدٌ وتهديدٌ لهم. والمعنى: أنّه تعالى قويٌّ قادرٌ على كل شيء، إن شاء انتقم منهم، وإن شاء هداهم. له الخلق والأمر. ولمّا أمر الله سبحانه وتعالى، المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود، أمرهم بما فيه صلاحُ أنفسهم من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، الواجبتين، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

---

(١) ابن كثير.
(٢) روح البيان.

أي: أدُّوا الصلاة المفروضة عليكم بشروطها وأركانها، وادفعوا زكاة أموالكم عن طيب نفسٍ منكم إلى مصارفها، فهو معطوف على قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ كأنّه أمرهم بالصبر والمخالفة، واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة والبرِّ، فالمراد: الأمر بملازمة طاعة الله تعالى من الفرائض، والواجبات، والتطوّعات، بقرينة قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ و﴿مَا﴾ شرطية؛ أي: أيَّ شيء تفعلوه، وتسلفوه (لـ) مصلحة ﴿أنفسكم من خير﴾؛ أي: عملٍ صالحٍ، كصلاة، وصدقة، وصيام، لمصلحة أنفسكم ﴿تَجِدُوهُ﴾؛ أي: تجدوا ثوابه وجزاءه لا عينه؛ لأنَّ عين تلك الأعمال لا تبقى؛ ولأنَّ وجدان عينها لا يرغب فيه؛ أي: تجدوه مدَّخراً لكم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، محفوظاً عنده في الآخرة، فتجدوا التمرة واللُّقمة فيها مثل أُحُدٍ، فالخير المذكور في الآية يتناول[1] أعمال البر كُلَّها، إلاّ أنّه تعالى خصَّ من بينها إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، بالذكر؛ تنبيهاً على عظم شأنهما، وعلوِّ قدرهما عند الله تعالى، فإنَّ الصلاة قربةٌ بدنيةٌ، ليكون عمل كل عضوٍ شكراً لما أنعم الله عليه في ذلك، والزكاة قربةٌ مالية، ليكون شكراً للأغنياء الذين فضَّلهم الله في الدنيا بالاستمتاع بلذيذ العيش؛ بسبب سعتهم في صنوف الأموال. وقرىء ﴿تُقْدِمُوا﴾ من أقدم الرباعي. ذكره البيضاوي، ولفظ التقديم في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المقصود الأصليَّ، والحكمة الكلية في جميع ما أنعم الله تعالى به على المكلفين في الدنيا، أن يقدّموه إلى معادهم، ويدَّخروه ليومهم الآجل، كما جاء في الحديث: «إنّ العبد إذا مات قال الناس: ما خلَّف، وقالت الملائكة ما قدَّم» وما أحسن قول بعضهم:

سَابِقْ إلى الخيرِ وبَادِرْ بِهِ ... فإنَّما خَلْفَكَ ما تَعْلَمُ
وقدِّمَ الخَيْرَ فكُلُّ امرىءٍ ... عَلَى الَّذي قدَّمَهُ يَقْدُمُ

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخيرات، وما تنفقون من الصدقات ﴿بَصِيرٌ﴾؛ أي: عليم بنياتكم، لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال

(١) روح البيان.

وكثيرها، ولا يضيع عنده عمل عامل، ففيه ترغيبٌ في الطاعات، وأعمال البرّ، وزجرٌ عن المعاصي؛ أي: فالعمل المذكور في الآية، غير مقيَّد بالخير، أو الشرِّ، فهو عام شامل للترغيب والترهيب، فالترغيب من حيث إنّه يدلُّ على أنّه تعالى يجازي علىٰ القليل من الخير، كما يجازي على الكثير منه، والترهيب من حيث إنّه يجازي على القليل من الشرّ والكثير منه أيضاً، فلا يضيع عنده عمل عامل خيراً أو شرّاً. وقرىء ﴿يعملون﴾ بالياء، فيكون وعيداً. ذكره البيضاوي.

وعن عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنّه مرَّ ببقيع الغرقد، فقال: (السلام عليكم أهل القبور أخبار ما عندنا، إنَّ نساءكم قد تزوَّجْنَ، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت، فأجابه هاتفٌ: يا ابن الخطاب! أخبار ما عندنا: إنّ ما قدَّمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلَّفناه فقد خسرناه). ولقد أحسن هذا القائل:

قَدِّم لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِك صَالِحاً   واعْمَلْ فَلَيْسَ إلَى الخُلُودِ سَبِيلُ

ومن مواعظ عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ أنّه كان إذا دخل المقبرة قال: (السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحالِّ المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات، ثُمَّ قال: أمّا المنازل فقد سكنت، وأمّا الأموال فقد قسمت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعري ما عندكم، والذي نفسي بيده، لو أنَّ لهم في الكلام لقالوا: إنّ خير الزاد التقوى) وفي الحديث الصحيح «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له» والأوّل يشمل بناء المساجد، ومعاهد العلم، والمستشفيات، والملاجىء، والأَحْبَاسَ على المُعْوِزِينَ والمحتاجين، والثاني: يَنْضَوِي تحته ما يُخْلِفهُ الإنسان من تصنيف علمٍ، أو تَعليمٍ للعلوم الدينية، وما يحتاج إليه في تعلُّمِها، كالنحو، والصرف، وما كان آلة لها، وقيَّد الولد بكونه صالحاً؛ لأنّ الأجر لا يحصل من غيره، وأمّا الوزر، فلا يلحق الأب سيئة ابنه إذا كانت نيّته في تحصيله الخَيْرَ، وإنَّما ذكر الدعاء له؛ تحريضاً للولد على الدعاء لأبيه، لا لأنَّه قيدٌ؛ لأنَّ الأجر يحصل للوالد بولدِهِ الصالح كُلّما عمل عملاً صالحاً، سواء

دعا لأبيه، أم لا، كمن غرس شجرة يحصل له مِن أَكْلِ ثمرتها ثوابٌ، سواء دعا له مَنْ أَكَلَها، أم لم يدع، وكذلك الأمُّ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معطوف[1] على ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتقدّم لك في الأسباب: أنَّ هذه المحاورة وقعت بين يهود المدينة ونصارى نجران، حينما اجتمعوا عند رسول الله ﷺ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ لم يقل كانوا؛ حملاً للاسم على لفظ من، وجمع الخبر؛ حملاً على معناه، واليهود: جمع هائدٍ، اسم فاعل من هاد إذا تاب، نظير قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ وكأنَّه في الأصل: اسم مدح لمن تاب من عبادة العجل، ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لجماعتهم، كالعَلَم لهم، والنصارى: جمع نصران كسكران، والمعنى: أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهودياً، ولا دين إلاّ دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصرانياً، ولا دين إلاّ دين النصرانية، و﴿أَوْ﴾ هنا للتفصيل.

وقدّمت اليهود على النصارى[2]؛ لفظاً لتقدّمهم زماناً ﴿تِلْكَ﴾ المقالة الباطلة وهي: أنّ الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً أو نصارى. ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ أي: متمنِّياتهم الكاذبة التي تمنّوها من الله من غير حجة ولا برهان، وشهواتهم الباطلة التي لا أصل لها، وخيالاتهم العاطلة التي لا وجود لها، والأمانيُّ: جمع أمنيَّةٍ أفعولةٌ من التَّمنِّي وهي: ما يتمنَّى، كالأضحوكة، والأعجوبة، والتَّمنِّي: التشهِّي، والعرب تُسمِّي الكلام العاري عن الحجة تمنِّياً، وغروراً، وضلالاً، وأحلاماً مجازاً، وجمع[3] الأمانيّ باعتبار صدورها عن الجميع من اليهود والنصارى، وعبارة «الصاوي» هنا: وإنّما جمع الخبر مع كون المبتدأ مفرداً؛ لأنّه في المعنى جمعٌ؛ لأنّه عائد على القولة، وهي بمعنى: المقالات باعتبار القائلين. اهـ.

(١) البيضاوي.

(٢) كرخي.

(٣) روح البيان.

ثُمّ أومأ الله سبحانه إلى بطلان مقالاتهم بقوله لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد! لهؤلاء الحَمْقى المتقاولين ﴿هَاتُوا۟﴾؛ أي: أحضروا، وقرّبوا، وهو أمرٌ تعجّبيٌّ ﴿بُرْهَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، ولم يقل براهينكم؛ لأنَّ الدعوى كانت واحدة وهي: نفي دخول غيرهم الجنّة، والحجة على تلك الدعوى واحدة ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في مقالتكم هذه، فإنَّ كُلَّ قولٍ لا دليل عليه غير ثابت ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما نفوه من دخول غيرهم الجنّة؛ لأنَّ بلى لإثبات النفي؛ أي: يدخلها غيركم، وعبارة «الروح»: اعلم أنَّ قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ إلخ. مشتملٌ على إيجاب ونفي، أمّا الإيجاب: فهو أن يدخل الجنّة اليهود والنصارى، وأمّا النفي: فهو أن لا يدخل الجنة غيرهم، فقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه في كلامهم، فكأنّهم قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا، فأجيبوا بقوله: بلى يدخل الجنة غيركم، وليس الأمر كما تزعمون ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ وبذل ﴿وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: نفسه (لـ)طاعة ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وأخلص إيمانه لا يشرك به شيئاً، وانقاد لأمره، وأخلص عبادته من شوائب الرياء والسمعة، فإنَّ إسلام[1] شيءٍ لشيٍ جعله سالماً بأن لا يكون لأحد حقٌّ فيه، لا من حيث التخليق والمالكية، ولا من حيث استحقاق العبادة والتعظيم، عبَّر عنها بالوجه؛ لكونه أشرف الأعضاء من حيث إنَّه معدن الحواس، والفكر، والتخيُّل، فهو مجاز من باب ذكر الجزء، وإرادة الكل، ومنهم قولهم: كرَّم الله وجهك، ويحتمل أن يكون إخلاص الوجه كنايةً عن إخلاص الذات؛ لأنَّ من جاد بوجهه لا يبخل بشيء من جوارحه، ويكون الوجه بمعنى العضو المخصوص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حالٌ من ضمير ﴿أَسْلَمَ﴾؛ أي: وهو مع إخلاصه وتسليم النفس إلى الله بالكلية بالخضوع والانقياد، محسنٌ في جميع أعماله، بأن يعملها على وجهةٍ يستصوبها، فإنَّ إخلاصها لله لا يستلزم كونها مستحسنة بحسب الشرع، وحقيقة الإحسان: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وهو حسنه الوصفيُّ التابع لحسنه الذاتيِّ، وقد فسره ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه، وإن لم تكن تراه فإنّه يراك» وهذا

---

(١) روح البيان.

المعنى حقيقة الإيمان، وظاهره الإحسان، وأمّا باطنه، فمرتبةُ، كنتُ سمعه وبصره؛ أي: بلى يدخل الجنة غيركم؛ لأنه من أَسْلَمَ وَجْهَه لله سبحانه، وهو محسن؛ أي: موحِّد مصدِّق بما جاء به محمد ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية؛ أي: فلذلك المسلم المحسن ثوابه، وأجره على انقياده الظاهريِّ، وتصديقه الباطنيِّ: أي: ثوابه الذي وعد له على عمله، وهو عبارةٌ عن دخول الجنّة، وتصويره[1] بصورة الأجر؛ للإيذان بقوّة ارتباطه بالعمل، واستحالة نيله بدونه حال كون ذلك الأجر ثابتاً مدَّخراً له ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ومالك أمره، ومدبِّر شؤونه، ومبلِّغه إلى كماله، لا يضيع ولا ينقص؛ والعندية للتشريف، والجملة جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، كما مرّ آنفاً إن كانت شرطيّة، وخبرها إن كانت موصولة، والفاء حينئذٍ؛ لتضمنها معنى الشرط، وعبارة «الخازن» هنا: وإنّما خصَّ الوجه بالذكر؛ لأنّه أشرف الأعضاء، وإذا جاد الإنسان بوضع وجهه على الأرض في السجود، فقد جاد بجميع أعضائه، قال عمرو بن نفيل:

وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ الأرضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالاً
وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلاَلاَ

يعني بذلك: استسلمت لطاعته الأرض والمزن ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة بالخلود في النار، أمّا في الدنيا، فالمؤمنون أشدُّ خوفاً وحزناً من غيرهم من أجل خوفهم من العاقبة، فإنَّهم يخافون من أن يصيبهم الشدائد، والأهوال العظام قُدَّامَهم، ويحزنون على ما فاتهم من الأعمال، والطاعات، المؤدِّية إلى الفوز بأنواع السعادات، فإنَّ المؤمن، كما لا يقنط من رحمة الله، لا يأمن من غضبه وعقابه، كما قيل: لا يجتمع خوفان ولا أمنان، فمن خاف في الدنيا أمن في الآخرة حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر، وتفويت الثواب، فإنَّ الخوف إنّما يكون مما يتوقَّع في المستقبل، كما أنَّ الحزن على ما وقع سابقاً، ومن أَمِنَ في الدنيا خاف في الآخرة. . . وجمع الضمير هنا؛

---

(١) روح البيان.

اعتباراً لمعنًى مِن ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما خلفوا في الدنيا، والمعنى: أي: إنّ[1] الذين أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا العمل، لا تُساوِرُ نفوسَهم مخاوفُ، ولا أحزانٌ، كما تختلج صدور الذين أشرب قلوبهم حبُّ الوثنية، وأعرضوا عن الهداية، إذ من طبيعة المؤمن أنّه إذا أصابه مكروهٌ بحث عن سببه، واجتهد في تلاوته، فإن لم يمكنه دفعه، فوَّض أمره إلى ربه، ولم يضطرب، ولم تهن له عزيمةٌ، علماً منه بأنَّه قد ركن إلى القوة القادرة على دفع كُلِّ مكروه. وتوكَّل على من بيده دفع كُلِّ محظور.

أمَّا عابدوا الأوثان والأصنام، فهم في خوف مما يستقبلهم، وحزن مما ينزل بهم، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، داخلهم الهلع، ولم يستطيعوا صبراً على البأساء، وهم يَسْتَخْذُون للدجَّالين، والمُشَعْوِذين، ويعتقدون سَلْطَنةً غيبيَّة لكل من يعمل عملاً لا يهتدون إلى معرفة سببه. والآية[2] ترشد إلى أنَّ الإيمان الخالص لا يكفي وحده للنجاة، بل لا بدّ أن يقرن بإحسان العمل، وقد جَرَتْ سنة القرآن، إذا ذكر الإيمان أردفه عمل الصالحات، كقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ وقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ ثُمَّ ذكر مقال كلٍ من الفريقين في الآخرة بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ. . .﴾ إلخ. بيان لتضليل كل فريق من اليهود والنصارى صاحبه بخصوصه، إثر بيان تضليله كُلَّ من عداه على وجه العموم؛ أي: وقالت اليهود ﴿لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ في دينهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ أي: على أمر يصحُّ، ويعتدُّ به عند الله؛ أي: ليسوا على صواب، فكفروا بعيسى ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ في دينهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ أي: على أمر يصحُّ، ويعتدُّ به عند الله تعالى، أي: ليسوا على صواب، فكفروا بموسى، وهذه المقالة منهما أصدق مقالةٍ قالتها اليهود والنصارى، وجملة قوله: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿ٱلْكِتَٰبَۗ﴾ حال من فاعل قالوا؛ أي: قال كُلٌّ[1] من الفريقين ما قالوا، والحال أن كُلاً من الفريقين يقرؤون الكتاب المنزَّل عليهم من التوراة والإنجيل، ويقولون: ما ليس فيه، فكان حقُّ كُلٍّ فريق منهم أن يعترف بحقيقة دين صاحبه حسبما ينطق كتابه، فإنّ كتب الله تعالى متصادقةٌ، واللام في ﴿ٱلْكِتَٰبَۗ﴾ للجنس؛ أي: قالوا ذلك، وهم من أهل العلم والكتاب، والتلاوة للكتب، فحقُّ من تلا كتاباً من كتب الله تعالى، وآمن به، أن لا يكفر بالباقي؛ لأنّ كل واحد من كتب الله يصدِّق ما عداه، وليس في كتابهم هذا الاختلاف، فدلَّت تلاوتهم الكتاب، ومخالفتهم لما فيه على كفرهم، وكونهم على الباطل ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك القول الذي قالته اليهود والنصارى بعينه، لا قولاً مغايراً له، أي: مثل ذلك القول الذي سمعته من هؤلاء الضالَّة، على أنَّ الكاف في موضع النصب على أنّه مفعول، قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كتاب الله، من عبدة الأصنام، والمعطّلة، ونحوهم من الجهلة؛ أي: قال المشركون من العرب، وغيرهم ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾؛ أي: مثل قول اليهود والنصارى، فهذا تأكيدٌ وبيانٌ لمعنى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: قالت الجهلة الذين لا علم عندهم، ولا كتاب، من عبدة الأوثان، والمعطّلة، مثل قول اليهود والنصارى؛ أي: قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء ودينٍ صحيحٍ؛ أي: قالوا ليست اليهود ولا النصارى على شيء، ولا محمدٌ ﷺ على شيء، بل كلُّهم على أباطيل مفترياتٍ، فالغرض من ذلك تسلية رسول الله ﷺ على ما وقع من المشركين، فإنَّ اليهود والنصارى كفروا وضلُّوا مع علمهم بالحق، فكيف بمن لا علم عنده؟! فلا تَسْتَغْرِبْ ذلك منهم، وقوله: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾ بدلٌ من محل الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفيه توبيخٌ عظيمٌ، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم أصلاً.

﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ﴾ ويَفْصِلُ، ويقضى ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين هؤلاء الفرق الثلاثة، وغيرهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، سُمِّي يوم القيامة؛ لأنّه يوم يقوم الناس فيه لربّ العالمين ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ﴾ متعلِّقٌ بيختلفون، قدم عليه؛ للمحافظة على رؤوس الآي؛ أي: يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا

(١) روح البيان.

﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه من أمر الدين، فيقسم لكل فريق منهم من العقاب ما يستحقُّه، ويليق به. وقال الحسن؛ أي: فالله يكذبهم جميعاً، ويدخلهم النار.

وقيل[1]: معنى ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين الفرق المذكورة اليهود، والنصارى، ومشركي العرب، ومن أسلم وجهه لله وهو محسن، فيُدْخِل المحقَّ الجنة، والمبطل النار، وهذا المعنى الذي يقتضيه السياق؛ أي: فهو العليم بما عليه كُلُّ فريق من حقٍّ وباطل، فَيُحِقّ الحقَّ، ويجعل أهله في النعيم، ويبطل الباطل، ويُلْقيَ أهلَه في سواء الجحيم. وفِعْلُ الحُكْم يتعدَّى بجارّين، الباء، وفي، كما يقال: حكم الحاكم في هذه القضية بكذا، وفي الآية قد ذكر المحكوم فيه دون المحكوم به. واعلم أنَّ كُلَّ حزب بما لديهم فرحون، وليس ذلك في الفرق الضالة خاصَّةً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ﴿مَنْ﴾ للاستفهام الإنكاري المضَمَّن للنفي، مبتدأ، و﴿أظلم﴾ خبره، أي: وأيُّ امرىءٍ أشدُّ ظلماً وتعدِّياً على الله تعالى ﴿مِمَّن مَّنَعَ﴾؛ أي: من امرىءٍ منع ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾؟ والمراد بالمساجد: بيت المقدس، والمسجد الحرام، على الخلاف في سبب النزول، كما سيأتي، وصيغة الجمع؛ لكون حكم الآية عامًّا لكل من فعل ذلك في أيِّ مسجد كان، كما تقول: لمن - آذى صالحاً واحداً، ومن أظلم ممَّن آذى الصالحين؛ لأنّه لا عبرة بخصوص السبب، كما هو القاعدة في الأسباب، وقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثاني مفعولَيْ مَنَع، فإنَّه يقتضي ممنوعاً وممنوعاً عنه، فتارةً يتعدى إليهما بنفسه، كما في قَوْلِك: مَنَعْتُه الأمر، وتارة يتعدى إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجرّ، وهو كلمة عن، أو من مذكورةً كانت كما في قولك: منعته من الأمر، أو محذوفةً، كما في الآية؛ أي: من أن يسبَّح ويقدَّس ويصلَّى له فيها ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ أي: عمل واجتهد ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ بالهدم، والخراب: اسم مصدرٍ للتخريب، كالسلام للتسليم، وأصله: الثَّلْمُ والتفريقُ؛ أي: لا أحد من المانعين عن الخيرات أشدُّ ظلماً وتعدياً على الله سبحانه ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه،

---

(١) الصاوي.

بالصلاة، والتسبيح، والأذان، ومدارسة العلوم الدينية، وتدريسها من التفسير، والحديث، والفقه، والتوحيد، وما يحتاج إليه فيها من علوم القواعد العربية، كالنحو، والصرف، والبلاغة، فهذا المانع أشدُّ ظلماً، وأقبح جرماً، لما فيه من الجراءة على الله، وقطع دينه، ومعاداته، فإنَّ الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات؛ أي: لا أحد أظلم ممن منع الناس أن يعبدوا الله تعالى في المساجد، بالصلاة، والأذكار، وغيرها، بغلقها، وتعطيلها عن العبادة، ومنع الوصول إليها، كما فعل المشركون حين صدُّوا النبيَّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن البيت عام ستٍّ من الهجرة ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ أي: عمل واجتهد ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ أي: في أسباب تخريبها بالهدم، وإلقاء الجيف، والقاذورات فيها، قال قتادة: أولئك أعداء الله النصارى خرَّبوا بيت المقدس.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (أنَّ فَلَيْطَيُوسَ الرُّوميّ مَلِكَ النصارى، وأصحابهَ غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسَبَوْا ذرارِيَّهم، وأحرقوا التوراة، وخرَّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل خراباً حتى بناه المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ) وذلك لمَّا استولى عُمر رضي الله عنه على ولاية كِسرى، وغنم أموالَهم، عَمَّر بها بَيْتَ المقدس، ثم صار في أيدي النصارى من الإفرنج أكثر من مائة سنة، حتى فتحه، واستخلصه من أيديهم، الملك الناصر صلاح الدين من آل أيوب، سنة خمسمائة وخمس وثمانين بعد الهجرة. وقيل: نزلت الآية في مشركي العرب الذين منعوا رسول الله عن الدعاء إلى الله تعالى بمكة، وألجؤوه إلى الهجرة، فصاروا بذلك مانعين له ﷺ، ولأصحابه أن يذكروا اسم الله في المسجد الحرام، وأيضاً: أنّهم صدُّوا رسول الله ﷺ، وأصحابه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية، وهي السنة السادسة من الهجرة، والحديبية: موضعٌ على طريق مكة، فعلى هذا يكون المسجد الذي نزلت الآية فيه المسجد الحرام، فالمراد بالخراب في قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ تعطيلهم المسجد الحرام عن الذكر والعبادة، دون تخريبه وهدمه حقيقةً، ويجعل تعطيل المسجد عنهما تخريباً؛ لأنَّ المقصود من بنائه إنما هو الذكرُ والعبادةُ فيه، فما دام لم يترتَّب عليه هذا

المقصود من بنائه صار كأنه هُدِّم وخُرِّب، أو لم يُبْنَ من أصله، فإنَّ عمارة المسجد كما تكون ببنائه، وإصلاحه، تكون أيضاً بحضوره، ولزومه، يقال: فلان يعمر مسجد فلانٍ، إذا كان يحضره ويلزمه، ويقال لسكان السموات من الملائكة: عُمَّارها. وفي الحديث: عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان» وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فجعل حضور المساجد عمارةً لها، وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ (سِتٌّ من المروءة: ثلاثٌ في الحضر، وثلاثٌ في السفر، فأمَّا اللاَّتي في الحضر فتلاوة كتاب الله، وعمارة مساجد الله، واتخاذ الإخوان في الله، وأمَّا اللاتي في السفر فبذل الزاد، وحسن الخلق، والمزاح في غير معاصي الله). وعدَّ من علامات الساعة: تطويل المنارات، وتنقيش المساجد، وتزيينها، وتخريبها عن ذكر الله تعالى، فتعطيل المساجد عن الصلاة والتلاوة، وإظهار شعائر الإسلام، أقبح سيئةٍ لا سيَّما إذا اقترن بفتح أبواب بيوت الخمر، وإغلاق أبواب المكاتب، وغير ذلك، ولقد شوهد في أكثر البلاد الروميَّة، وغيرها في هذا الزمان، فلنبك على غربة الدين أيها الإخوان، فيا لها مصيبةً، أيَّ مصيبة؟! إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فإن قلت: إنّ هذه الآية تقتضي: أنَّ من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، لا يساويه أحدٌ في الظلم، فهي تعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ومع قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المقتضي كُلُّ آيةٍ منها بأنّه لا أحد أظلم ممن ذكر فيها؟

قلت: إنّ معنى المفاضلة في كل منها يعتبر بالنظر إلى صلته، فكأنّه قال: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولاأحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد من الكذابين أظلم ممن كذب على الله سبحانه وتعالى، وهكذا كُلُّ ما جاء من أمثالها، وقد يجاب عنه بأجوبة أخرى، فليرجع إليها في المطولات.

فإن قلتَ: إنّ[1] الممنوعَ بَيْتُ المقدس على قول، أو المسجد الحرام على قول آخر، فكيف التعبير بالجمع هنا؟

أجيب عنه: بأنَّ من خرَّب مسجداً من هذين، فكأنّما خرَّب مساجد كثيرة بالقوّة؛ لأنَّهما أفضل المساجد، وغيرهما تبعٌ لهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المانعون الذين يسعون في تخريب بيوت الله ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾؛ أي: أن يدخلوا المساجد ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ من المسلمين أن يبطشوا بهم فضلاً عن أن يمنعوهم منها، وهذا الحكم عامٌّ لكل من فعل ذلك في أيِّ مسجدٍ كان ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المانعين ﴿فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: هوان بالقتل، والسبي، وضرب الجزية عليهم ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديدٌ أشدَّ مما لهم في الدنيا؛ بسبب كفرهم، وظلمهم، وهو عذاب النار.

الإعراب

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدّم وجوباً؛ لأنّه من أسماء الشروط لننسخ ﴿نَنسَخْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بما الشرطية ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لاسم الشرط، واسم الشرط ليس معرفة، فلا يجوز أن يكون الجار والمجرور حالاً منه، والتقدير: أي شيء كائناً من الآيات ننسخه، فهو مفردٌ وقع موقع الجمع، وهذا مطردٌ بعد الشرط؛ لما فيه من معنى العموم، وعلى هذا يخرَّج كُلُّ ما جاء من هذا التركيب، كقوله: ما يفتح الله للناس من رحمة وما بكم من نعمة فمن الله، وأجاز بعضهم أن تكون من آية في موضع نصب على التمييز والمُميَّز ﴿مَا﴾ وليس ببعيدٍ أيضاً، وأعربها ابن هشام في موضع نصب على الحال، وليس ببعيدٍ أيضاً ﴿أَوْ﴾ حرف

---

(١) العمدة.

عطف وتنويع ﴿نُنسِهَا﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوفٌ على نسخ مجزومٌ بما الشرطية على كونه فعل الشرط، وعلامة جزمه سكون الهمزة المحذوفة للتخفيف، والأصل: ننسئها؛ أي: نرجئها، أو سكونٌ ظاهر على الهمزة على قراءة ﴿نَنسَأها﴾. ﴿نَأْتِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بما الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء؛ لأنّه من أتى يأتي، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب ﴿بِخَيْرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بنأت ﴿مِّنْهَآ﴾ جار ومجرور متعلق بخير، لأنّه اسم تفضيل، ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أَوْ حرف عطف وتفصيل ﴿مثل﴾ معطوف على خير وهو مضاف، والهاء مضاف إليه. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم ﴿تَعْلَمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ مجزوم بلم، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقدير، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر أنّ المفتوحة، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادّ مسدَّ مفعولَيْ علم؛ أي: ألم تعلم كون الله قادراً على كلّ شيء.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم تعلم﴾ جازم وفعل مجزوم وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخّر ومضاف إليه ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر أَنَّ وجملة أَنَّ من اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي ﴿تَعْلَمْ﴾. ﴿وَمَا لَكُم﴾ الواو عاطفة مَا نافية لَكُم جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، أو متعلق بمحذوف حال من قوله: ﴿وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾، والتقدير: وما وليّ ولا نصير كائنان لكم من دون الله، أو حالة كونهما كائنين من دون الله، والجملة من المبتدأ والخبر في

محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، والهمزة الاستفهامية أعني: الإضراب الانتقالي ـ؛ أي: الانتقال من قصّة إلى أخرى، ولم تجعل متّصلة؛ لفقد شرطها وهو تقدم همزة الاستفهام، أو التسوية ﴿تُرِيدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿تَسْـَٔلُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن ﴿رَسُولَكُمْ﴾ مفعول أوّل ومضاف إليه، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إنزال الكتاب جملةً، أو الإتيان بالله والملائكة قبيلاً، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعوليَّة لتريدون، تقديره: بل أتريدون سؤال رسولكم محمدٍ ﷺ إنزال الكتاب جملةً مثلاً ﴿كَمَا سُئِلَ﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿سُئِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ﴿مُوسَىٰ﴾ نائب فاعل، وهو المفعول الأول لسئل، والثاني محذوف، تقديره: رؤية الربّ جهرةً ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلّق بسئل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، و﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كسؤال أسلافكم موسى رؤية الربّ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف، تقديره: أم تريدون أن تسألوا رسولكم سؤالاً كائناً، كسؤال أسلافكم موسى عليه السلام، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾ الواو استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، والأول أصحُّ ﴿يَتَبَدَّلِ﴾ فعل مضارع مجزوم بِمَنْ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ مفعول به ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ جار ومجرور متعلق بيتبدل، وهو المتروك ﴿فَقَدْ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بقد ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿ضَلَّ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿سَوَآءَ﴾ مفعول به على التوسُّع، وهو مضاف ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مضاف إليه وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السبيل المستوي، والجملة الفعلية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة

استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه صفة لكثير ﴿لَوْ﴾ حرف مصدر ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل مرفوع بثبات النون ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيردّون ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثان ليردّونكم؛ لأنّه من أفعال التصيير، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، و﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لودَّ؛ تقديره: ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب ردَّكم كفاراً من بعد إيمانكم ﴿حَسَدًا﴾ مفعولٌ لأجله منصوب بودَّ ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بمحذوف صفةٍ لحسداً، تقديره: حسداً كائناً من عند أنفسهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلّق بودَّ ﴿ما﴾ مصدرية ﴿تَبَيَّنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد تبيُّن الحق، وظهوره لهم ﴿فَٱعْفُوا۟﴾ الفاء فاء الفصيحة، مبنيةٌ على الفتح، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حسدهم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم ﴿اعْفُوا﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة ﴿وَٱصْفَحُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَٱعْفُوا۟﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿يَأْتِىَ﴾ فعل مضارع منصوب بأنْ مضمرة بعد حتى (ولفظ الجلالة) فاعل ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بيأتي، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى إتيان الله بأمره، الجار والمجرور تنازع فيه كُلٌّ من الفعلين، فاعفوا واصفحوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلّق بقدير، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة؛ مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَٱعْفُوا۟﴾. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿فَٱعْفُوا۟﴾.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدّم وجوباً ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بها على كونه فعل الشرط ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتقدّموا ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لاسم الشرط، تقديره: أيَّ شيء كائناً من خيرٍ تقدِّموه لأنفسكم، أو حال من اسم الشرط، ولكنَّه ضعيفٌ، كما مرّ في نظيره ﴿تَجِدُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بما على كونه جواب الشرط ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من المفعول، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: تجدوا ثوابه حال كونه مدّخراً عند الله، أو متعلق بتجدوا، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطيّة مع معموليها مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق ببصير ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لما إن قلنا: إنها موصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما تعملونه، ويصحّ كونها مصدرية؛ أي: بعملكم و﴿بَصِيرٌ﴾ خبر إنّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مع معموليها مستأنفة؛ مسوقة لتعليل ما قبلها، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والضمير لأهل الكتاب ﴿لَن يَدْخُلَ﴾ ناصب ومنصوب ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ مفعول به على السعة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرَّغ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر، تقديره: هو يعود على ﴿مَن﴾، ﴿هُودًا﴾ خبرها منصوب ﴿أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾، والجملة صلة لِمَنْ الموصولة ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الإسمية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الدعوى، وهي قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، ودليلها وهو قوله: ﴿قُلْ...﴾ إلخ. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿هَاتُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فعل

ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، وهو الأصحّ، أو الجواب، أو هما، كما مرّ مراراً ﴿أَسْلَمَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿وَجْهَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بأسلم، ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾. ﴿فَلَهُۥٓ﴾ الفاء رابطة لجواب مَنْ الشرطية وجوباً ﴿له﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿أَجْرُهُۥ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية في محل الجزم بمن على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مع معموليها جملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف حال من أجره؛ أي: فله أجره حال كونه مدّخراً له عند ربّه ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية؛ مهملة لتكرّرها ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ، وسَوَّغَ الابتداء بالنكرة، تقدُّمُ النفي عليه ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ على كونها جواب الشرط لمن، تقديره: بلى من أسلم وجهه لله فلا خوف عليهم ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية مهملة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ﴾ الواو استئنافية ﴿قالت اليهود﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة؛ مسوقة لبيان حالة من حالات جهالتهم المتأصّلة في نفوسهم ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور خبره، وجملة ليس في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قالت

اليهود﴾ ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ خبره، وجملة ليس في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾ ﴿وَهُمْ﴾ الواو حالية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب حال من اليهود والنصارى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف منصوب بقال الآتي، مقدّم عليه؛ لإفادة الحصر، تقديره: قولاً كائناً، كقول اليهود والنصارى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ومفعول العلم محذوف، تقديره: لا يعلمون شيئاً من المعلومات ﴿مِثْلَ﴾ منصوب على كونه بدلاً من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بدل كل من كل، وهو مضاف ﴿قَوْلِهِمْ﴾ مضاف إليه وهو مضاف، والهاء مضاف إليه ﴿فَٱللَّهُ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة، مبنية على الفتح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال كل فريق، وأردت بيان عاقبة أمرهم، فأقول لك: ﴿الله يحكم بينهم﴾ ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَحْكُمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيحكم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بيحكم أيضاً، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فِيمَا﴾ ﴿فِى﴾ حرف جرّ ﴿مَا﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الجر بفي، والجار والمجرور متعلق بيحكم ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِيهِ﴾ متعلق بيختلفون، قدّم عليه؛ لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لما الموصولة، أو صفة لما الموصوفة، والعائد أو الرابط ضمير فيه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ الواو استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة ﴿مِمَّن﴾ ﴿مِن﴾ حرف جرّ ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل

الجر بمن، والجار والمجرور متعلق بأظلم ﴿مَّنَعَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُذْكَرَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بأن ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿ٱسْمُهُۥ﴾ نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية من الفعل المغيّر ونائب فاعله صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. و﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لمنع، ولكنه على تقدير ﴿مِن﴾ الجارة؛ لأنّه يتعدى إلى الثاني بواسطة ﴿مِن﴾ الجارة، تقديره: ممن منع مساجد الله من ذكر اسمه فيها، أو منصوب على كونه مفعولاً لأجله، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: منع مساجد الله كراهية ذكر اسمه فيها، أو منصوب على كونه بدل اشتمال من مساجد، تقديره: منع مساجد الله ذكر اسمه فيها، والأوّل أرجح، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير ﴿وَسَعَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على مَن معطوف على ﴿مَّنَعَ﴾. ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بسعى، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَدْخُلُوهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول به على التوسّع، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخّراً، تقديره: أولئك ما كان دخولهم إيّاها كائناً لهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ﴿خَآئِفِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَدْخُلُوهَآ﴾، أي: ما كان لهم دخولها في جميع الأحوال إلا في حالة الخوف. اهـ. «سمين» ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿خِزْىٌ﴾؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها ﴿خِزْىٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدّم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف حال من عذاب ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخرّ ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لعذاب، والجملة الإسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ على كونها مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ النسخ: الإزالة والنقل، يقال: نسخت الريح الأثر، أي: أزالته، ونسختَ الكتاب إذا نقلتَه من كتاب إلى آخر ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قرىء بغير همز من أنسى ينسى إنساء، يقال: أنسى الشيء جعله منسيًّا، فهو من النسيان الذي هو ضِدُّ الذكر، وهو ذهاب الشيء من الذاكرة؛ أي: نمحها من القلوب، وقرىء ﴿نَنْسَأها﴾ بفتح النون والسين، وبالهمز من قولهم: نَسَأْتُ هذا الأمر إذا أخَّرته، وأنسأ الله أجلك أخَّره وأطاله، والإنساء: تأخير الشيء أو إذهابه عن الذاكرة، والإنساء: إذهاب الآية من ذاكرة النبي ﷺ بعد تبليغه إيّاها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ الوليّ: القريب والصديق، وأصله: ولِيْيٌ على وزن فعِيْل، أدغمت ياء فعيل في ياء لام الكلمة، والنصير: المعين، وتقدم الفرق بينهما في مبحث التفسير.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ وأصل تريدون: تُرْوِدون بوزن تُفْعِلون؛ لأنّه من راد يرود، نقلت حركة الواو إلى الراء قبلها، فسكِّنت الواو بعد كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ فصار تريدون، والسؤال: الاقتراح المقصود به التعنت ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾ بدَّل وتبدَّل واستبدل: جعل شيئاً موضع آخر. بعد الإيمان، أصله: إءمان بوزن إفعال، أبدلت الهمزة الساكنة حرف مد مجانساً لحركة الأولى ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾؛ أي: عَدَلَ وجار، أصله: ضَلَلَ بوزن فعل، أدغمت اللام الأولى في الثانية بعد أن سكنت ﴿سَوَآءَ﴾ تقدم أن الهمزة فيه مبدلة عن ياء ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أصل ودَّ: وَدِدَ بكسر العين في الماضي، ومضارعه ودد، أدغمت الدال الأولى بعد تسكينها في الثانية، أمّا في المضارع، فنقلت حركة الدال إلى الواو، ثمّ أدغمت الدال في الدال، فقيل: يَودُّ ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أصله: يَرْدُدُونكم بوزن يفعُلُون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿فَٱعْفُوا۟﴾ أمر من عفا يعفو، كصفا يصفو من باب فعل بفتح العين في الماضي، يفعُلُ بضمّها في المضارع، ولام الفعل واوٌ، وإذا أسند المضارع إلى واو الجماعة، صار يفعوون بوزن يفعلون، حذفت منه نون الرفع؛ لبناء الأمر على ما يجزم به مضارعه، ثُمّ استثقلت الحركة على الواو، فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان، لام الكلمة وواو الجماعة، فحذفت الأولى التي هي لام الكلمة، فصار

اعْفُوا بوزن أفعوا. والعفو: ترك العقاب على الذنب، كما قال تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، والصَّفح: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، وهو يشمل ترك العقاب، وترك اللوم والتثريب. وفي «المصباح»: عفا الله عنك؛ أي محا ذنوبك، وعفوت عن الحق: أسقطته، كأنّك محوته عن الذي هو عليه، وعافاه الله: محا عنه الأسقام. اهـ.

وفيه أيضاً: صفحت عن الذنب صفحاً من باب نفع: عفوت عنه، وصفحت عن الأمر: أعرضت عنه وتركته اهـ.

فعلى هذا يكون العطف في الآية للتأكيد، وحسَّنه تغاير اللفظين، وقال بعضهم: العفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح: ترك اللوم والعتاب عليه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أصله: أَقْوِموا بوزن أَفْعِلوا، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أصله: أأتيوا بوزن أفعلوا، أمر من أتى الرباعي، أبدلت الهمزة الثانية حرف مدٍّ مجانساً لحركة الأولى، ثم استثقلت الضمة على الياء؛ فحذفت للتخفيف، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء كما حذفت نون الرفع، ثمَّ ضُمَّت التاء؛ لمناسبة الواو ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تقدَّم أنَّ ألفه منقلبة عن واوٍ؛ لأنّه من زكا يزكو زكاءً إذا نما.

﴿كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ والهود: جمع هائد على أظهر القولين فيه، نحو: بازلٍ وبُزْلٍ، وعائذٍ وعوذ، وحائل وحول، وبائر وبور، وهائدٌ من الأوصاف الفارق بين مذكَّرها ومؤنثها تاء التأنيث. اهـ. «سمين» والعوذ بالذال المعجمة، قال الجوهري: الحديثات النتاج من الظباء، والإبل، والخيل واحدها: عائذ. اهـ. زكريا، وفي «المختار»: هاد إذا تاب ورجع، وبابه قال، فهو هائد، وقومُ هود. قال أبو عبيدة: التهوُّد: التوبة والعمل الصالح، يقال أيضاً: هاد وتهوَّد؛ أي: صار يهوديًّا، والهود بوزن العود: اليهود. اهـ. ﴿أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ وفي «المختار»: جمع نصران، ونصرانة كالندامى جمع ندمان، وندمانة، ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب. اهـ. وفي «المصباح»: والنصارى. جمع نصرى، كمهرى ومهارى، فتلخص أنّ نصارى له مفردان: نصرى ونصران ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع

أمنيَّة: وهي ما يُتمنَّى على وزن أفعولة، كأعجوبة، وأضحوكة، وتقدم بسط الكلام عليها في قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ هاتوا: أمرٌ للجماعة، أصله: هاتيوا، حذفت الضمة؛ لثقلها، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار هاتوا؛ لأنّه من هاتى يهاتي على وزن رامي يرامي، وأميت تصريفها إلاّ في الأمر، ويقال للمفرد المذكر: هات، والمؤنث: هاتي. وفي «الفتوحات»: واختلف في هات على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه فعل أمر، وهذا هو الصحيح؛ لاتصاله بالضمائر المرفوعة البارزة، نحو: هاتوا هاتي هاتيا هاتين.

الثاني: أنّه اسم فعل بمعنى أحضروا.

والثالث: وبه قال الزمخشري: أنّه اسم صوت بمعنى ها الَّتي بمعنى أحضروا. اهـ. «سمين».

وقيل: الهاء فيه بدل من الهمزة في آتوا. وقيل: تنبيهٌ، وحذفت همزة آتى لزوماً، كذا في «تفسير ابن عطية» ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ واختلف في برهان على قولين:

أحدهما: أنّه مشتق من البره وهو القطع، وذلك أنّه دليلٌ يفيد العلم القطعيَّ، ومنه برهة الزمان؛ أي: القطعة منه، فوزنه فعلان.

والثاني: أنَّ نونه أصلية؛ لثُبُوتها في برهن يبرهن برهنةً، والبرهنة: البيان، فبرهن من باب فعلل لا من فعلن؛ لأنّ فعلن غير موجود في أبنيتهم، فوزنه فعلان، وعلى هذين القولين يترتَّب الخلاف في صرف برهان وعدمه، إذا سُمِّي به. اهـ. «سمين».

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ وليس فعل ماض ناقص أبداً من أخوات كان، ولا يتصرّف، ووزنه على فَعِل بكسر العين. اهـ. «سمين». وهو بناءٌ نادر في الثلاثي اليائي العين ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ أصله: يتلوون بوزن يفعلون، الواو الأولى لام الكلمة، والثانية واو الجماعة، استثقلت الحركة على الواو، فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الواو الأولى، فوزنه يفعون ﴿يَوۡمَ

﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ تقدّم أنَّ الياء فيه منقلبة عن واو؛ لأنّه من قام يقوم قياماً، أصله: قواما ﴿مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ جمع مسجد: اسم لمكان السجود، وكان قياسه أن يكون على وزن مَفْعَلٍ بالفتح؛ لانضمام عين مضارعه، نظير مدخل من دخل يدخل، ولكنه شذَّ كسره كما شذَّتْ ألفاظٌ أخر في كتب الصرف، كالمشرق، والمغرب، والمطلع، والمنِسك، والمجزِر، والمنِبت، والمسقِط، ويجوز فيها الفتح والكسر، ولكن السماع أفصح. كما بسطنا الكلام في شرحنا «مناهل الرجال على لاميّة الأفعال» وقد سمع مسجَد بالفتح على الأصل، وقد تبدل جيمه ياءً، ومنه: المَسْيِد في لغةٍ. اهـ. «سمين». ﴿وَسَعَىٰ﴾ أصله: سَعَيَ بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ﴿خَآئِفِينَ﴾ أصله: خاوفين لأن مادته خوفَ واوي العين أعلت عين فعله فقلبت ألفاً. فقيل: خاف، فحمل الوصف على فعله في الإعلال، فأعلّ بإبدال الواو همزةً، إذ القياس أن يقال: خاوفين، وقس عليه ما شابهه، فقالوا: قائل بدل قاول، وقالوا بائع بدل بايع ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ تقدّم أنَّ الياء في الدنيا منقلبة عن واوٍ، فأصله: الدنو، وتقدّم علَّةُ هذا القلب.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريريُّ، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما عُلِم عنده ثبوته، أو نفيه في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ أي: إنّك علمت.

ومنها: تخصيصه ﷺ بالخطاب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مع أنَّ غيره داخلٌ في الخطاب أيضاً، بدليل قوله فيما بعد: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ إيذاناً بأنَّ المقصود من الخطاب تقرير علم المخاطب، وهو ﷺ أعلم الخلق.

ومنها: تخصيص السموات والأرض بالذكر مع أنّه تعالى له ملك الدنيا

والآخرة؛ لكونهما أعظم المصنوعات، وأعجبها شأناً.

ومنها: وضع الاسم الجليل موضع الضمير في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومقتضى السياق أن يقال: ألم تعلم أنّه، من دونه؛ لسبق المرجع؛ لتربية الرَّوعة، والمهابة في النفوس.

ومنها: المصدر التشبيهي في قوله: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ لتأكيد الكلام؛ أي: سؤالاً مشبهاً بسؤال موسى عليه السلام.

ومنها: الإتيان بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ لتأكيد الكلام؛ لأنّ كون سؤال موسى من قبل محمد ﷺ من المعلوم، فالإتيان به؛ لتأكيد الكلام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

ومنها: إضافة الصفة إلى الموصوف في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الطريق المستوي، وفي التعبير به نهاية التَّبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق، فعدل عنه إلى الباطل.

ومنها: الاعتراض بين الدعوى ودليلها في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ فإنّها جملة اعتراضية اعترض بها بينهما؛ لغرض بيان بطلان الدعوى، وأنّها دعوى كاذبة.

ومنها: الأمر للتعجيز والتبكيت في قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

ومنها: التعريض بكذبهم، وبطلان دعواهم في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وفيه أيضاً: الإيجاز بالحذف؛ لأنّه حُذف فيه جواب الشرط؛ لعلمه من السابق؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فهاتوا برهانكم.

ومنها: تخصيص الوجه بالذكر في قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ لكونه أشرف أعضاء الإنسان؛ لكونه مركز الحواس، ففيه إمّا استعارة تصريحية؛ لأنّه استعار الوجه للنفس، أو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: العنديَّة؛ للتشريف في قوله ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وفيه أيضاً: وضع

اسم الربّ مضافاً إلى ضمير ﴿مَنْ أسلم﴾ موضع ضمير الجلالة؛ لإظهار مزيد اللُّطف به.

ومنها: تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر مع كونهما داخلين في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ تنبيهاً على عظيم شأنهما، وعلوّ قدرهما عند الله تعالى؛ لأنّ الصلاة قربةٌ بدنية، والزكاة قربة مالية، كما مرّ في مبحث التفسير.

ومنها: التعبير بلفظ التقديم في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ إشارةً إلى أنّ المقصود الأصليَّ، والحكمة الكلية في جميع ما أنعم الله تعالى به على المكلفين في الدنيا، أن يقدِّموه إلى معادهم، ويدّخروه ليومهم الآجل.

ومنها: تقديم المعمول على عامله؛ لإفادة الحصر في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: قال الذين لا يعلمون الكتاب قولاً مثل ذلك القول بعينه، لا قولاً مغايراً له اهـ. «أبو السعود». وفيه أيضاً: توبيخ عظيم، وتقريع لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم أصلاً.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ محافظةً على رؤوس الآي.

ومنها: الاستفهام الإنكاري المضمَّن معنى النفي في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: لا أحد أظلم منه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾؛ للتهويل؛ أي: خزي هائل فظيع، لا يوصف لهوله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ الآية، قال أبو حيان[(١)]: مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها: هو أنَّه تعالى لمَّا ذكر منع المساجد من ذكر الله، والسعي في تخريبها.. نبَّه على أنّ ذلك لا يمنع من أداء الصلوات، ولا من ذكر الله تعالى، إذ المشرق والمغرب كلاهما لله تعالى، فأيُّ جهةٍ أدَّيتم فيها العبادة فهي لله يثيب على ذلك، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد، والمعنى:

(١) البحر المحيط.

ولله بلاد المشرق والمغرب وما بينهما، فيكون على حذف مضافٍ. انتهى.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر أنَّه مالكٌ لجميع من في السموات والأرض، وأنَّ كُلَّهم قانتون له، وهم المظروف للسموات والأرض، ذكر الظرفين، وخصَّهما بالبداعة؛ لأنّهما أعظم ما نشاهده من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر ما دلَّ على الاختراع، ذكر ما يدلُّ على طواعية المخترع، وسرعة تكوينه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لِمَا قبلها: أنّه تعالى لمَّا ذكر[2] فيما سلف الردَّ على من أنكر الوحدانية، واتخذ لله ولداً، ذكر هنا من أنكر نبوَّة محمد ﷺ، وطعن في الآيات التي جاء بها، وتجنَّى بطلب آيات أخرى؛ تعنُّتاً وعناداً؛ كما جاء في نحو قوله حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر فيما سلف أنَّ اليهود والنصارى لن ترضى عنك حتى تتَّبع ملَّتهم، وحذَّر رسوله ﷺ، من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأنّ هدى الله هو الهدى الذي أعطاه، وبعثه به، ذكر هنا أنَّ فريقاً منهم يرجى إيمانهم، وهم الذين يتدبَّرون كتابهم، ويُمَيِّزُونَ بين الحق والباطل، ويفهمون أسرار الدِّين، ويعلمون أنّ ما جئت به هو الحقُّ الذي يتَّفِق مع صالح البشر، فهو الذي يهذِّب نفوسهم، ويصفِّي أرواحهم، ويُنظِّم معايشهم، وبه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وبعد أنَّ أقام عليهم الحجة دعاهم وناداهم بقوله: ﴿يَبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ إلخ. وطلب إليهم أن يتركوا الغرور المانع لهم من الإيمان بمحمد ﷺ، إذ لا ينبغي لمن كرَّمه الله تعالى، وفضّله على غيره من الشعوب، أن يكون حظه من كتابه، كحظّ الحمار يحمل أسفاراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنّه لما جرى ذكر الكعبة والقبلة، وأنَّ اليهود عيَّروا المؤمنين بتوجُّههم إلى الكعبة، وترك بيت المقدس، كما قال: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ ذَكَر حديث إبراهيم، وما ابتلاه الله، واستطرد إلى ذكر البيت، وكيفية بنائه، وأنَّهم لمَّا كانوا من نسل إبراهيم، كان ينبغي أن يكونوا أكثر الناس اتباعاً لشرعه، واقتفاءً لآثاره فكان تعظيم البيت لازماً لهم، فنبَّه الله بذلك على سوء اعتقادهم، وكثرة مخالفتهم، وخروجهم عن سنن من ينبغي اتباعه من آبائهم، وأنّهم وإن كانوا من نسله لا ينالون لظلمهم شيئاً من عهده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه مسلم، والترمذي، والنسائي، وأحمد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كان رسول الله ﷺ، يصلي على راحلته تطوّعاً أينما توجّهت به، وهو مقبل من مكّة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ وقال: في هذه نزلت هذه الآية). وعن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: (أنّ رسول الله ﷺ، لمّا هاجر إلى المدينة، أمره الله سبحانه أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهراً، وكان يحبّ قبلة إبراهيم، وكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

فارتاب في ذلك اليهود، قالت: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ إسناده قويّ، والمعنى: أيضاً يساعده فليُعتمدْ، وفي الآية رواياتٌ أُخر ضعيفةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما رواه البخاري، وغيره، عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: (وافقت ربّي في ثلاثٍ، قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قلت: يا رسول الله! إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرُّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نساءه في الغَيرة، فقلت لهنَّ: عسى ربُّه إن طلَّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ، فنزلت كذلك، وللحديث طرقٌ كثيرةٌ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾؛ أي: مكان شروق الشمس ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ أي: مكان غروبها، يريد[1] بهما ناحيتي الأرض إذ لا وجه لإرادة موضعي الشروق والغروب بخصوصهما؛ أي: له الأرض كلُّها لا يختصُّ به من حيث الملك والتصرف ولا من حيث المحلية، لعبادته مكان منها دون مكان، فإن مُنعتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، أو الأقصى، فقد جعلت لكم الأرض كلَّها مسجداً.

والمعنى: أي له[2] سبحانه وتعالى جميع نواحي الأرض شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً؛ لأنّه خالقها، فإن مُنعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو المسجد الأقصى، فقد جعلت لكم الأرض كلّها مسجداً، فهذه الجملة مرتبطة بقوله: ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ يعني: أنّه إن سعى ساع في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته، فليس ذلك مانعاً من أداء العبادة في غيرها؛

(١) روح البيان. (٢) العمدة.

لأنَّ المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وقرىء بفتح التاء واللام؛ أي: ففي أي مكانٍ فعلتم تولية وجوهكم القبلة.

قال الإمام الراغب: ولَّى: إذا أقبل، ولَّىٰ إذا أدبر، وهو من الأضداد، والمراد ههنا: الإقبال. اهـ. ﴿فَثَمَّ﴾؛ أي: هناك ﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: هناك[1] جهته التي أمر بها، ورضيها لكم قبلةً، فإنَّ إمكان التولية غير مختصٍ بمسجدٍ دون مسجدٍ، أو مكانٍ دون آخر، أو فثمَّة ذاته تعالى، بمعنى: الحضور العِلْميِّ، فيكون الوجه مجازاً من قبل إطلاق اسم الجزء على الكل، والمعنى عليه: ففي أيِّ مكان فعلتم التولية، فهو سبحانه موجودٌ فيه، ويمكنكم الوصول إليه، إذْ ليس هو جوهراً، ولا عرضاً حتى يكون بكونه في جانب مفرِّغاً جانباً، ولمَّا امتنع عليه أن يكون في مكانٍ، أريد أنَّ علمه محيطٌ لما يكون في جميع الأماكن والنواحي؛ أي: فهو عالم بما يُفعل فيه، ومثيب لكم على ذلك. اهـ. من «الروح».

واعلم[2]: أنَّ ﴿أين﴾ اسم شرط في المكان، وهو ههنا منصوب بتُوَلُّوا؛ لأنّه فعل شرطه، و﴿ما﴾ مزيدةٌ؛ للتأكيد، و﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكانٍ بمنزلة هناك، تقول لِمَا قَرُب من المكان هنا، ولِمَا بَعُد ثَمَّ وهناك، وهو خبر مقدَّمٌ، و﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والجملة الاسمية في محل الجزم على أنّها جواب الشرط، كما سيأتي في مبحث الإعراب.

والمعنى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾؛ أي[3]: ففي أيِّ مكانٍ وبقعةٍ، تحوّلوا، وتوجّهوا فيه وجوهكم في الصلاة إلى القبلة التي أمرتم بالاستقبال إليها ﴿فَثَمَّ﴾؛ أي: هناك في الجهة التي أمرتم بالاستقبال إليها ﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: جهته التي ارتضاها لكم قبلةً، وأمر بالتوجُّه إليها، فإن إمكان التولية والتحوّل لا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) العمدة.

يختصُّ بمكانٍ ولا مسجدٍ، فإنَّها ممكنةٌ في كُلِّ مكانٍ. وفي «المختار»: الوجه والجهة بمعنًى، والهاء عوضٌ من الواو.

ومعنى الآية[1]: إنَّ لله المشرق والمغرب وما بينهما خلقاً وملكاً، وإنّما خصَّ المشرق والمغرب؛ اكتفاءً بهما عن جميع الجهات؛ لأنَّ له تعالى كُلَّها، وما بينهما خلقه وعبيده، وإنَّ على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فالجهة التي أمرهم باستقبالها، فهي القبلة، فإنَّ القبلة ليست قبلةً لذاتها؛ بل لأنَّ الله سبحانه جعلها قبلةً، وأمر بالتوجُّه إليها، فإن جعل الكعبة قبلةً، فلا تنكروا ذلك؛ لأنّه تعالى يُدبِّر عباده كيف يريد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فَهُنَالِكَ قبلة الله التي وَجَّهَكُمْ إليها.

وقيل معناه: فثمَّ وجه الله سبحانه وتعالى بلا تأويلٍ، والوجه صفةٌ ثابتة لله تعالى، نثبتها، ونعتقدها من غير تشبيه ولا تمثيل، وهذا القول هو الصحيح الأسلم الذي ينبغي الاعتماد عليه. وقيل: المعنى: فثمَّ رضا الله؛ أي: يريدون بالتوجه إليه رضاه تعالى. وقال ابن العربي: مقتضى التوحيد أنَّ الصلاة لأيِّ جهةٍ تصحُّ، وإنّما أُمِرنا بجهةٍ مخصوصةٍ؛ تعبداً، ولم نعقل له معنى. وقال ابن عباس[2] - رضي الله تعالى عنهما -: (لمَّا حُوِّلت القبلة عن بيت المقدس، أنكر اليهود ذلك، فنزلت هذه الآية ردًّا عليهم). وقال أبو مسلم: إنَّ اليهود إنّما استقبلوا بيت المقدس؛ لأنّهم اعتقدوا أنَّ الله تعالى صعد السماء من الصخرة، والنصارى استقبلوا المشرق؛ لأنَّ عيسى عليه السلام ولد هناك، فردَّ الله سبحانه عليهما بهذه الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَٰسِعٌ﴾ بفضله، ورحمته، جميع الخلائق، يريد التوسعة على عباده في القبلة، وغيرها، أو واسعٌ بإحاطته بالأشياء ملكاً وخلقاً، فيكون تذييلاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وكذا إن فسرت السعة بسعة الرحمة، فإنَّ قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ لمَّا اشتمل على معنى قولنا: لا

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

تختصُّ العبادة والصلاة ببعض المساجد، بل الأرض كلُّها مسجدٌ لكم، فصلُّوا في أيِّ بقعة شئتم من بقاعها فُهِم منه أنَّه واسع الشريعة بالترخيص والتوسعة على عباده في دينهم، لا يضطرُّهم إلى ما يعجزون عن أدائه، والمقصود: التوسعة على عباده والتيسير عليهم في كُلِّ ما يحتاجون إليه، فيدخل فيه التوسعة في أمر القبلة دخولاً أوّلياً، وهذا التعليم مستفادٌ من إطلاق ﴿وَٰسِعٌ﴾، حيث لم يقيَّد بشيء دون شيء. قال الغزاليُّ في «شرح الأسماء الحسنى»: الواسع مشتقٌّ من السعة، والسَّعة تضاف مرَّةً إلى العلم إذا اتَّسع، وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرة أخرى إلى الإحسان، وبسط النعم، وكيفما قُدِّر، وعلى أيِّ شيءٍ نزِّل، فالواسع المطلق هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه إن نُظِر إلى علمه، فلا ساحل لبحر علمه، بل تنفد البحار لو كانت مداداً لكلماته، وإن نظر إلى إحسانه ونعمه، فلا نهاية لقدرته، وكُلُّ سعةٍ وإن عظمت، فتنتهي إلى طرفٍ، والذي لا يتناهى إلى طرف، فهو أحقُّ باسم السعة، والله تعالى هو الواسع المطلق؛ لأنَّ كُلَّ واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيِّقٌ، وكُلُّ سعة تنتهي إلى طرف، فالزيادة عليها متصوَّرة، وما لا نهاية له ولا طرف، فلا يتصوَّر عليه زيادةٌ، فهو تعالى الواسع المطلق الذي ليس لسعته نهايةٌ ولا طرفٌ. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ونياتهم في جميع الأماكن والجهات كلِّها، وهذا لا يخلو عن إفادة التهديد؛ ليكون المصلِّي على حذر من التفريط، والتساهل، كما أنَّه يتضمَّن الوعد بتوفية ثواب المصلِّين في جميع الأماكن.

فقد ظهر أنَّ هذه الآية مرتبطةٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، وأنَّ المعنى: إنَّ بلاد الله تعالى أيها المؤمنون! تسعكم، فلا يمنعكم تخريب من خرَّب مساجد الله، أن تُولُّوا وجوهكم نحو قبلة الله تعالى أينما كنتم من أرضه.

فائدةٌ فقهيَّةٌ تتعلَّق بحكم الآية وهي: أنَّ المسافر إذا كان في مفازة، أو بلاد الشرك، واشتبهت عليه القبلة، فإنّه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل، ويصلّي إلى الجهة التي أدَّى إليها اجتهاده، ولا إعادة عليه، وإن لم يصادف القبلة، فإنّ جهة

الاجتهاد قبلته، وكذا الغريق في البحر إذا بقي على اللوح، فإنَّه يصلي على حسب حاله، وتصحُّ صلاته، وكذلك المشدود على جذع، بحيث لا يمكنه الاستقبال. اهـ. «خازن». قالوا: وكذلك راكب الطائرة إذا علم أنه لا يدرك الوقت بعد نزوله من الطائرة، يجتهد، ويصلِّي إلى أيِّ جهة ظنَّها قبلةً، ولا إعادة عليه إن لم يدرك الوقت بعد نزوله منها.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ أي: له[1] تعالى هاتان الجهتان المعلومتان لكل أحد، والمراد ربُّ الأرض كلِّها، فهو كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أي مكانٍ تستقبلونه في صلاتكم، فهناك القبلة التي يرضاها الله لكم، ويأمركم بالتوجُّه إليها، فأينما توجه المصلِّي في صلاته، فهو متوجِّه إلى الله لا يقصد بصلاته غيره، والله تعالى راضٍ عنه، مقبلٌ عليه، والحكمة في استقبال القبلة: أنّه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، وهو بهذه الطريقة محال على الله تعالى، شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إيّاه، وجعل استقباله كاستقبال وجهه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنّه تعالى لا يُحْصَر، ولا يتحدَّد، فيصحُّ أن يُتوجَّه إليه في كل مكان، وهو عليم بالمتوجِّه إليه أينما كان، فاعبدوه حيثما كنتم، وتوجَّهوا إليه أينما حللتم، ولا تتقيدوا بالأمكنة، والمعبود غير مقيَّد، وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجه إلى استقبال الكعبة في الصلاة، وفيها إبطالٌ لما كان يعتقده أرباب الملل السابقة، من أنَّ العبادة لا تصحُّ إلاّ في الهياكل، والمعابد، وإزالةٌ لما قد يتوهَّم من أنَّ الوعيد إنّما كان على إبطالها في الأماكن المخصوصة، فأبان بها أنَّ الوعيد إنما كان لإبطالها مطلقاً؛ لأنَّ الله تعالى لا تحدِّده الجهات، ولا تحصره الأمكنة. انتهت. وروي[2] عن ابن عباس ومقاتل: أنه عبَّر عن الذات بالوجه، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وقيل المعنى: العمل

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

لله، قاله الفرَّاء، قال:

أَسْتَغْفِرُ الله ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيهِ رَبَّ العِبَادِ إِلَيْه الوَجْهُ والعَمَلُ

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت في اليهود، إذ قالوا: عزير ابن الله، أو في النصارى، إذ قالوا: المسيح ابن الله، أو في المشركين، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، أو في النصارى والمشركين أقوالٌ أربعة، والأخير قاله الزجاج، ولاختلافهم في سبب النزول، اختلفوا في مرجع الضمير في ﴿قالوا﴾ على من يعود، فقيل: عائدٌ على الجميع من غير تخصيص، فإنَّ كلّاً منهم قد جعل لله ولداً، قاله ابن إسحاق، فحينئذٍ ضمير ﴿قالوا﴾ راجع إلى الفرق الثلاثة المذكورة سابقاً، أمَّا اليهود والنصارى، فقد ذُكِروا صريحاً، وأمّا المشركون، فقد ذُكِروا بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

وقرأ الجمهور[1]. ﴿وَقَالُوا﴾ بواو العطف، وهو آكد في الربط، فيكون عطف جملة خبرية على جملة مثلها؛ أي: معطوفاً على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾، أو على منع، أو على مفهوم قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: على معناه، وكأنّه قيل: لا أحد أظلم ممَّن منع مساجد الله، ولا ممَّن قال: اتخذ الله ولداً، وإن كان الثاني أظلم من الأول. وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ فيكون معطوفاً على معطوف على الصلة، وفصل بينهما بالجمل الكثيرة، وهذا بعيدٌ جدّاً ينزَّه القرآن عن مثله. وقرأ ابن عباس، وابن عامر، وغيرهما: ﴿قالوا﴾ بغير واو، استئنافاً وملحوظاً فيه معنى العطف، واكتفى على هذا بالضمير، والربط به عن الربط بالواو. وقال الفارسيُّ: وبغير واوٍ هي في مصاحف أهل الشام، فالقراءتان سبعيتان، وأمَّا آية يونس، فبترك الواو لا غير؛ لعدم ما يناسب العطف؛ أي: وقالت اليهود، والنصارى، ومشركوا العرب ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾؛ أي: صنع الله، وجعل لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ ذكراً أو أنثى، والاتخاذ[2]: إمّا بمعنى الصنع والعمل، فلا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

يتعدَّى إلاّ إلى واحد، وإمّا بمعنى: التصيير، والمفعول الأول محذوف؛ أي: صيَّر بعض مخلوقاته ولداً، وادَّعى أنَّه ولده، لا أنّه ولده حقيقةً، وكما يستحيل عليه تعالى أن يلد حقيقةً، كذا يستحيل عليه التبني واتخاذ الولد؛ أي: قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، فنزَّه تعالى نفسه عمّا قالوا في حقه، فقال ردّاً عليهم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عمَّا يقول هؤلاء الكفرة، فهي كلمة تنزيه، نزَّه الله تعالى بها نفسه عن اتخاذ الولد، ومن قولهم، وافترائهم عليه؛ أي: منزَّهٌ[1] سبحانه عن السبب المقتضي للولد، وهو الاحتياج إلى من يعينه في حياته، ويقوم مقامه بعد مماته، وعمّا يقتضيه الولد وهو التشبيه، فإنّ الولد لا يكون إلاّ من جنس والده، فكيف يكون للحقّ سبحانه ولدٌ وهو لا يشبهه شيءٌ؟

روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: قال الله عزّ وجلّ: (كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له، فأمّا تكذيبه إيَّاي، فزعم أنِّي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمَّا شتمه إيَّاي، فقوله: لي ولدٌ، فسبحاني أن أتَّخذ صاحبةً أو ولداً) ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمَّة، أو من بعضها، فإنَّ أفرادها متكافلون في كلٍّ ما يعملون، وما يقولون ممَّا يعود أثره من خيرٍ أو شرٍّ إلى الجميع ﴿بَل﴾ ليس الأمر كما زعموا ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى عبيداً وملكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما، والملكية تنافي الولدية، فكيف ينسب إليه الولد، وهو داخل فيهما؟ بل هو خالق جميع الموجودات علويّاً وسفليّاً، التي من جملتها عزيرٌ، والمسيح، والملائكة، وهذا ردٌّ لما قالوه، واستدلالٌ على فساده، فإنَّ الإضراب عن قول المبطلين معناه: الردُّ، والإنكار، وفي «الوسيط» ﴿بَل﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، والمعنى: إنّه خالق ما في السموات والأرض جميعاً، الذي يدخل فيه الملائكة، وعزيرٌ، والمسيح، دخولاً أوّليّاً، فكان المستفاد من الدليل، امتناع أن يكون شيءٌ ما مما في السموات والأرض ولداً، سواءً كان ذلك ما زعموا أنّه

---

(١) روح البيان.

ولدٌ، أم لا ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كُلٌّ ما فيهما من أولي العلم، وغيرهم ﴿لَّهُۥ﴾؛ أي: لله سبحانه وتعالى ﴿قَـٰنِتُونَ﴾ جمع الخبر اعتباراً لمعنى كلٍّ؛ أي: منقادون، ولا يمتنع شيءٌ منهم، ولا يستعصي على مشيئته، وتكوينه، وتقديره، ومطيعون له طاعة تسخير وقهرٍ، فالجماد مسخَّر لما أراد الله منه، فالطاعة هنا: طاعة الإرادة والمشيئة، لا طاعة العبادة، أو مقروٌّن له بالعبوديَّة والتوحيد، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكوِّنه الواجب لذاته، فلا يكون له ولدٌ؛ لأنّه من حقّ الولد أن يجانس والده، وإنّما عبَّر عن[1] جميع الموجودات أوّلاً بما يعبَّر به عن غير ذوي العلم، وعبَّر عنه آخراً بما يختصُّ بالعقلاء وهو لفظ ﴿قَـٰنِتُونَ﴾؛ تحقيراً لشأن العقلاء الذين جعلوا ولداً لله سبحانه ﴿قَـٰنِتُونَ﴾ خبرٌ[2] عن كلٌّ؛ وجمع حملاً على المعنى، وكلٌّ إذا حذف ما تضاف إليه جاز فيها مراعاة المعنى فتجمع، ومراعاة اللفظ فتفرد، وإنّما حسنت مراعاة الجمع هنا؛ لأنّها فاصلة رأس آية؛ ولأنَّ الأكثر في لسانهم؛ أنّه إذا قطعت عن الإضافة، كان مراعاة المعنى أكثر وأحسن. قال: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقد جاء إفراد الخبر، كقوله: كلٌّ يعمل على شاكلته، وسيأتي هناك إن شاء الله تعالى، ذكر ما حسَّن إفراد الخبر.

والخلاصة[3]: أي ليس الأمر كما زعموا، بل جميع ما في السموات والأرض ملك له، قانت لعزته، خاضع لسلطانه، منقاد لإرادته، فما وجه تخصيص واحد منهم بالانتساب إليه، وجعله ولداً مجانساً له ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ ثمَّ إن الله سبحانه، يخصُّ من يشاء من عباده بما شاء من الفضل، كالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ولكن هذا لا يرتقي بالمخلوق إلى أن يصل إلى مرتبة الخالق.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هو سبحانه وتعالى مبدعهما، وموجدهما،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

وخالقهما، ومنشئهما على غير مثال سبق، ولم يكونا شيئاً، على أنَّ[١] البديع بمعنى: المبدع وهو الذي يبدع الأشياء؛ أي: يحدثها، أو ينشئها، على غير مثال سبق، والإبداع: اختراع الشيء لا عن شيء دفعةً؛ أي: من غير مادّةٍ ومُدّةٍ، أو المعنى: بديع سمٰواته وأرضه؛ أي: بدعت لمجيئهما على شكلٍ فائقٍ، حسنٍ غريبٍ، فعلى الأول: من أبدع، والإضافة معنويةٌ، وعلى الثاني: من بدع إذا كان على شكلٍ فائقٍ، وحسنٍ رائقٍ، والإضافة لفظيةٌ، فهو من باب إضافة الصفة إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل؛ لأنَّ الأصل بديعٌ سمٰواته وأرضه.

وهذه حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشنيعة[٢]، تقريرها: إنّ الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادّته عنه، والله تعالى مبدع الأشياء كلها على الإطلاق، منزَّهٌ عن الانفعال، فلا يكون والداً، ومن قدر على خلق السموات والأرض من غير شيء، كيف لا يقدر على خلق عيسى من غير أب؟! والمعنى: هو سبحانه وتعالى، موجدهما اختراعاً وابتكاراً لا على مثال سابق، وإذا كان هو المبدع لهما، والموجد لجميع من فيهما، فكيف يصحُّ أن ينسب إليه شيءٌ منهما على أنّه مجانسٌ له؟! تعالى عن ذلك علوّا كبيراً.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقرأ المنصور بالنصب على المدح، وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: وإذا أراد سبحانه وتعالى إيجاد أمر من الأمور، وإحداث شيء من الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الذي أراد إيجاده ﴿كُن﴾؛ أي: احْدُث ﴿فيكون﴾؛ أي: فذلك الأمر المأمور، يكون، ويحدث من غير توقُّفٍ، ولا إباءٍ، وبلا مهلةٍ، وتأخُّرٍ، وأصل القضاء: الإحكام، أطلق هنا على الإرادة الإلٰهيَّة المتعلِّقة بوجود الشيء؛ لإيجابها إيّاه ألبتة، والأمر واحد الأمور، و﴿كُن﴾ و﴿يكون﴾ هنا: من كان التامة بمعنى:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

أحدث يحدث. ففي هذه الجملة: تقرير[١] معنى الإبداع، وذلك أنَّ اتخاذ الولد ممَّا يكون بأطوار، ومهلةٍ، وفعله تعالى يستغني عن ذلك، وقوله ﴿كُن﴾ تمثيلٌ لسهولة حصول المقدورات بحسب تعلُّق مشيئته تعالى، وتصويرٌ لسرعة حدوثها من غير توقُّفٍ، ولا تأخُّرٍ، كطاعة المأمور المطيع للأمر القويِّ المطاع، ولا يكون من المأمور الإباء.

والمعنى: أي[٢] وإذا أراد سبحانه إحداث أمرٍ وإيجاده، فإنَّما يأمره أن يكون موجوداً، فيكون والكلام تمثيلٌ وتشبيهٌ؛ لتعلُّق إرادته بإيجاد الشيء، فيعقبه وجوده بأمرٍ يصدر، فيعقبه الامتثال، والإيجاد، والتكوين من أسرار الألوهية عبَّر عنهما بما يُقَرِّبُهما من الفهم، وهو أن يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وقرأ ابن عامر[٣] ﴿كن فيكونَ﴾ بالنصب في كُلِّ القرآن إلاّ في موضعين: في أوّل آل عمران في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي الأنعام في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ فإنّه رفعه فيهما، وقرأ الكسائي بالنصب في النحل ويسّ، وبالرفع في سائر القرآن، والباقون بالرفع في كُلِّ القرآن، أمَّا النصب فعلى جواب الأمر، وأمّا الرفع فإمّا على أنّه خبر مبتدأ محذوفٍ؛ أي: فهو يكون، أو معطوفٌ على ﴿يَقُولُ﴾ أو معطوفٌ على ﴿كُن﴾ من حيث المعنى، كما هو قول الفارسي.

واعلم: أنَّ[٤] أهل السنة لا يرون تعلُّق وجود الأشياء بهذا الأمر وهو ﴿كُن﴾ بل وجودها متعلِّق بخلقه، وإيجاده وتكوينه، وهو صفةٌ أزليةٌ، وهذا الكلام عبارةٌ عن سرعة حصول المخلوق بإيجاده، وكمال قدرته على ذلك، لكن لا يتعلق علم أحدٍ بكيفية تعلُّق القدرة بالمعدومات، فيجب الإمساك عن بحثها، وكذا عن بحث كيفية وجود الباري سبحانه، وكيفية العذاب بعد الموت، وأمثالها، فإنّها من الغوامض، والأمور المغيبة عنّا.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

(٤) روح البيان.

ثمّ اعلم: أنَّ السبب في هذه الضلالة، وهي نسبة الولد إلى الله تعالى، والقول بأنّه اتخذ ولداً؛ أنَّ أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون على الباري تعالى اسم الأب، وعلى الكبير منهم اسم الإله، حتى قالوا: إنَّ الأب هو الربُّ الأصغر، وإنّ الله تعالى هو الأب الأكبر، وكانوا يريدون بذلك أنّه تعالى هو السبب الأوّل في وجود الإنسان، وأنَّ الأب هو السبب الأخير في وجوده، فإنَّ الأب هو معبود الابن من وجهٍ؛ أي: مخدومه، ثم ظنت الجهلة منهم أنَّ المراد به: معنى الولادة الطبيعية، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كفر قائله، ومنع منه مطلقاً؛ أي: سواءٌ قصد به معنى السببية، أو معنى الولادة الطبيعية؛ حسماً لمادة الفساد. واتخاذ الحبيب أو الخليل جائزٌ من الله تعالى، لأنّ المحبّة تقع على غير جوهر المحبِّ، قالوا: أوحى[1] الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: ولَّدتك، أي أوجدتك بلا والدٍ، وأنت نبيٌّ، فخفَّف النصارى التشديد الذي في ولَّدتك؛ لأنّه من التوليد وصحفوا بعض إعجام النَّبيِّ بتقديم الباء على النون، فقالوا: ولدتك وأنت بُنيَّ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون؟! وقال تعالى: يا أحباري! ويا أبناء رسلي! فغيَّره اليهود، وقالوا: يا أحبائي! ويا أبنائي! فكذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ فالله سبحانه منزَّه عن الحدود والجهات، ومتعالي عن الأزواج، والبنين والبنات، ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السموات، وفي الحديث الصحيح كما مرَّ لك، قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: (كذَّبني ابن آدم)، أي: نسبني إلى الكذب (ولم يكن له ذلك)؛ أي: لم يكن التكذيب لائقاً به، بل كان خطأً (وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيّايَ، فزعم أن لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمَّا شتمه إيّاي، فقوله: لي ولدٌ، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً) وإنّما كان هذا شتّماً؛ لأنّ التولُّد هو انفصال الجزء عن الكل بحيث ينمو، وهذا إنّما يكون في المركَّب، وكُلُّ مركّب محتاجٌ.

فإن قلت: قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ تكذيبٌ أيضاً؛ لأنّه تعالى أخبر أنّه لا

---

(١) روح البيان.

ولد، وقولهم: لن يعيدنا، شتمٌ أيضاً؛ لأنّه نسبةٌ له إلى العجز؛ فَلِمَ خصَّ أحدهما بالشتم، والآخر بالتكذيب؟.

قلت: نفي الإعادة نفي صفة كمالٍ، واتخاذ الولد إثبات صفة نقصانٍ له، والشتم أفحش من التكذيب، والكذب على الله فوق الكذب على النبي ﷺ.

وفي الحديث: «إنّ كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد»؛ يعني: الكذب على النبي ﷺ، أعظم أنواع الكذب سوى الكذب على الله؛ لأنّ الكذب على النبي ﷺ يؤدِّي إلى هدم قواعد الإسلام، وإفساد الشريعة والأحكام. وفي الصحيح أيضاً: (من كذب عليّ متعمّداً، فليتبوَّأ مقعده من النار).

فعلى المؤمن أن يتجنب عن الزيغ والضلال، وأشنع الفعال، وأسوإِ المقال، وأن يداوم على التوحيد في الأسحار والآصال، إلى أن لا يبقى للشرك الخفي أيضاً مجالٌ. وفي الحديث: «لو يعلم الأمير ماله في ذكر الله لترك إمارته، ولو يعلم التاجر ماله في ذكر الله لترك تجارته، ولو أنَّ ثواب تسبيحة قسم على أهل الأرض لأصاب كُلَّ واحد منهم عشرة أضعاف الدنيا» ولكن لا أصل له. وفي الحديث: «للمؤمن حصونٌ ثلاثة: ذكر الله، وقراءة القرآن، والمسجد» والمراد بالمسجد: مُصلاَّه، سواء كان في بيته، أو في الخارج، ولا بُدَّ من الصدق والإخلاص حتى يظهر أثر التوحيد في الملك والملكوت، اللهمّ! أوصلنا إلى اليقين، وهيِّيءْ لنا مقاماً من مقامات التمكين! آمين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ توحيد الله؛ أي: جهلة المشركين من كفار مكة لمحمد ﷺ؛ أي: قال مشركوا العرب الجاهلون حقيقةً، وأهل الكتاب المتجاهلون ونفى عنهم العلم؛ لعدم انتفاعهم بعلمهم؛ لأنَّ المقصود هو العمل ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ مشافهةً بأنّك رسوله؛ أي: هلا يكلِّمنا مشافهةً من غير واسطة بالأمر والنهي، كما يُكلِّم الملائكة، أو موسى، وهلاّ يَنُصُّ لنا على نبوّتك، وهذا منهم استكبارٌ. و﴿لَوۡلَا﴾[1] هنا: للتحضيض، وحرف التحضيض إذ دخلت على

---

(١) روح البيان.

الماضيِّ كان معناها التوبيخ، واللوم على ترك الفعل بمعنى: لِمَ لَمْ يفعله، ومعناها في المضارع: تحضيض الفاعل على الفعلِ، والطلبِ له في المضارع بمعنى: الأمر، والمعنى: هلاَّ يُكلِّمنا الله عياناً بأنّك رسوله، كما يُكلِّم الملائكة بلا واسطة، أو يرسل إلينا ملكاً، ويكلِّمنا بواسطة ذلك، إنّك رسوله، كما كلَّم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على هذا الوجه، وهذا القول من الجهلة استكبارٌ يعنون به: نحن عظماء، كالملائكة، والنبيين، فلم اختصُّوا به دوننا ﴿أَوْ﴾ هلاَّ ﴿تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ وحجةٌ، ومعجزةٌ، تدلُّ على صدقك مما اقترحناه من الأمور الأربعة المذكورة في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...﴾ الآيات. و﴿أَوْ﴾ هنا: للتخيير؛ أي: فإن كان الله لا يكلِّمنا، فلم لا يخصك بآيةٍ ومعجزةٍ تأتينا بها، وهذا جحودٌ منهم لأن يكون ما آتاهم به من القرآن، وسائر المعجزات آيات، لأنهم لو أقروا بكونه معجزة، لاستحال أن يقولوا ذلك، والجحود: هو الإنكار مع العلم، والعجب أنّهم عظَّموا أنفسهم وهي أحقر الأشياء، واستهانوا بآية الله وهي أعظمها، ثم أجاب الله عن هذه الشبهة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل قول هؤلاء الشنيع الصادر عن عنادهم واستكبارهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي: شبه قول هؤلاء لمحمد ﷺ في التشديد، وطلب الآيات المقترحة، فقالت اليهود لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وقالت النصارى لعيسى عليه السلام: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ونحو ذلك ممَّا اقترحوه من أنبيائهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ مع قوله: ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ على[1] تشبيهين، تشبيه المقول بالمقول في المؤدَّى، والمحصول، وتشبيه القول بالقول في الصدور بلا رويّةٍ، بل بمجرد التشهي، واتباع الهوى، والاقتراح على سبيل التعنّت والعناد، لا على سبيل الإرشاد، وقصد الجدوى، والكاف في كذلك منصوب

(١) روح البيان.

المحل على أنّه مفعول ﴿قَالَ﴾ وقوله: ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مفعول مطلق؛ أي: قال كفار الأمم الماضية، مثل ذلك القول الذي قالوه قولاً مثل قولهم فيما ذكر، فظهر أنَّ أحد التشبيهين لا يغني عن الآخر ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تماثلت قلوب هؤلاء ومَن قبلهم في العمى، والقسوة، والعناد، وهو استئنافٌ على وجه تعليل، تشابه مقالتهم بمقالة مَن قبلهم، فإنَّ الألسنة ترجمان القلوب، والقلب إن استحكم فيه الكفر، والقسوة، والعمى، والسفه، والعناد، لا يجري على اللسان إلاّ ما ينبىء عن التَّعلُّل، والتَّباعد عن الإيمان. وقرأ ابن إسحاق[1]، وأبو حيوة ﴿تشَّابهت﴾ بتشديد الشين وقال: أبو عمرو الدانيُّ، وذلك غير جائز؛ لأنّه فعل ماض، يعني: أنّ اجتماع التائين المزيدتين لا يكون في الماضي، إنّما يكون في المضارع، نحو: تتشابه، وحينئذٍ يجوز فيه الإدغام، أمَّا الماضي، فليس أصله: تتشابه، وقد مرَّ نظير هذه القراءة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ وخرَّجنا ذلك على تأويلٍ لا يمكن هنا؛ فليطلب تأويلٌ لهذه القراءة.

والمعنى[2]: أي تشابهت، وتماثلت، وتوافقت، قلوب هؤلاء المكذبين لك يا محمد! مع قلوب كفار الأمم الماضية المكذِّبين لأنبيائهم؛ أي: أشبهت قلوبهم بعضها بعضاً في الكفر، والقسوة، وطلب المحال، وإلاّ لما تشابهت أقاويلهم الباطلة، وفي هذا تسليةٌ له ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ ووضَّحنا ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: الدلالات والمعجزات الدالَّة على صدقك، وصدق ما جئت به من الآيات القرآنية، والمعجزات الباهرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم ينصفون، فيوقنون، ويصدِّقون أنَّها آياتٌ يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والاكتفاء بها عن غيرها، أو المعنى ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي[3]: قد نزلناها بيّنة بأن جعلناها كذلك في أنفسها، كما في قولهم: سبحان من صغر البعوض، وكبَّر الفيل، لا أنّا بيَّناها بعد أن لم تكن بينةً ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم يطلبون اليقين، واليقين أبلغ العلم،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

وأوكده بأن يكون جازماً؛ أي: غير محتمل للنقيض، وثابتاً؛ أي: غير زائل بالتشكيك بعد أن يكون مطابقاً للواقع، فالإيقان هنا مجازٌ عن طلب اليقين على طريق ذكر السبب وإرادة المسبَّب، ولا بُعْد في نصب الدلائل لطلاَّب اليقين ليحصّلوه بها، وإنّما حمل على المجاز؛ لأنّ الموقن بالمعنى المذكور لا يحتاج إلى نصب الدلائل، وبيان الآيات، فبيان الآيات له طلبٌ لتحصيل الحاصل.

وفي الآيات[1]: إشارةٌ إلى أنَّهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات، أو لطلب مزيد اليقين، وإنّما قالوه؛ عتوّاً وعناداً، وحاصل[2] الجواب من الله تعالى: إنّا قد أيّدْنا نبوة محمد ﷺ بالمعجزات، وبَيَّنَّا صدق ما جاء به بالآيات القرآنية، والمعجزات الباهرة، فكان طلب هذه الزوائد من باب التَّعنُّت، فإذا كان كذلك لم تجب إجابتها ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد! كافَّةً للناس حالة كونك ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالدِّين الحق، والهدى المستقيم، والقرآن العظيم، وحالة كونك ﴿بَشِيرٗا﴾؛ أي: مبشِّراً للمؤمنين بالثواب الجسيم، وجنات النعيم ﴿وَنَذِيرٗاۖ﴾؛ أي: ومنذراً ومخوِّفاً للكافرين من العقاب الأليم، وعذاب الجحيم، فلا بأس عليك إن أصرُّوا، أو كابروا.

والمعنى: إنَّ شأنك بعد إظهار صدقك في دعوى الرسالة بالدلائل، والمعجزات، ليس إلاّ الدعوة والإبلاغ، والتبشير والإنذار، لا أنْ تجبرهم على القبول والإيمان، فلا عليك إن أصرُّوا على الكفر والعناد، فإنَّ الأحوال أوصافٌ لذي الحال، والأوصاف مقيّدةٌ للموصوف ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ما لَهُمْ يؤمنوا بعد أن بَلَّغْتَ، والجحيم: المكان الشديد الحرِّ، والمتأجِّجُ من النار؛ أي: ولست يا محمد! بمسؤولٍ عن أصحاب النار؛ أي: وليس عليك عهدةٌ وتبعةٌ في عدم إيمانهم بعد ما بلَّغت ما أرسلت به، وبذلت جهدك في دعوتهم، إنَّما عليك البلاغ، وعلينا الحساب، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لو أنَّ الله عزَّ وجلّ أنزل بأسه باليهود لآمنوا» فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) البيضاوي.

(٢) المراح.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿وَلَا تُسْئَلُ﴾ بضمّ التاء واللام. وقرأ أُبيٌّ ﴿وما تُسألُ﴾ بضمّ التاء واللام. وقرأ ابن مسعود: ﴿ولن تُسأَل﴾ وهذا كُلّه على الخبر والنفي، فالقراءة الأولى، وقراءة أُبيٍّ، يحتمل أن تكون الجملة فيهما مستأنفةً، وهو الأظهر، ويحتمل أن تكون في موضع الحال، وأمَّا قراءة ابن مسعود، فيتعيَّن فيها الاستئناف، والمعنى: على الاستئناف إنَّك لا تسأل عن الكفار ما لهم لم يؤمنوا؛ لأنَّ ذلك ليس إليك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ وفي ذلك تسليةٌ له ﷺ، وتخفيف ما كان يجده من عنادهم، فكأنَّه قيل: لست مسؤولاً عنهم، فلا يحزنك كفرهم، وفي ذلك دليلٌ: على أنَّ أحداً لا يسأل عن ذنب أحدٍ، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى، وأمَّا الحال، فعطفٌ على ما قبلها من الحال، أي: وغير مسؤول عن الكفار ما لهم لا يؤمنون، فيكون قيداً في الإرسال بخلاف الاستئناف.

وقرأ نافعٌ، ويعقوبُ ﴿ولا تَسْأَلْ﴾ بفتح التاء وجزم اللام على النهي؛ أي:[٢] لا تسأل يا محمد! عن حال كفار أهل الكتاب التي تكون لهم يوم القيامة، ولا يمكنك في هذه الدار الاطلاع عليها، وذلك إعلامٌ بكمال شدّة عقوبة الكفار، فلا يستطيع السامع أن يسمع خبرها، ولا يصبر على استماعه لشدّتها ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ﴾ يا محمد! ﴿ٱلْيَهُودُ﴾ ولن تحب دينك، ولو خلَّيتهم وشأنهم حتى تتبع دينهم وقبلتهم ﴿وَلَا﴾ ترضى يا محمد! ﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ ولن تحبّ دينك، ولو تركتهم ودينهم ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وتصلِّي إلى قبلتهم. قال الواحديُّ: الآية نزلت في تحويل القبلة، وذلك أنّ اليهود والنصارى كانوا يرجون أن يرجع محمدٌ ﷺ إلى دينهم، فلمَّا صرف الله القبلة إلى الكعبة، شقَّ عليهم، وأيسوا منه أن يوافقهم، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ يعني: دينهم وتُصلِّي إلى قبلتهم، وفي الآية مبالغةٌ في إقناط الرسول ﷺ، من طمعه في إسلامهم، حيث علَّق رضاهم عنه بما لا سبيل إليه، وما يستحيل وجوده، فإنَّهم إذا لم يرضوا عنه حتّى يتّبع ملتهم، فكيف يتّبعون ملّته؟ أي: دينه، فكأنَّهم قالوا:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

لن نَرْضى عنك، وإن أبلغْتَ في طلب رضانا حتى تتَّبعَ ملتنا إقْناط منهم لرسول الله ﷺ دخولهم في الإسلام، فذكر الله سبحانه كلامهما، والمعنى: أي: لن ترضى عنك اليهود إلاّ بالتهوُّد والصلاة إلى قبلتهم وهي المغرب، ولا النصارى إلاّ بالتنصُّرِ والصلاة إلى قبلتهم وهي المشرق، ووحَّدَ الملّة؛ لأنّ الكفر ملّةٌ واحدةٌ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! ردّاً لقولهم لك: لن نرضى عنك حتىٰ تَتَّبع ملّتنا، وتصلي إلى قبلتنا، بطريق قصر القلب ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنّ دين الله الذي هو الإسلام، وقبلته التي هي الكعبة ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: هو الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ليس وراءه هدى، والذي تدعون إلى اتباعه ما هو هدى، إنّما هو هوى، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي: لئن اتبعت، وسايرت يا محمد! على سبيل الفرض والتقدير ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الفاسدة، وآراءَهم الزائغة، ومللهم الباطلة، وقبلتهم العاطلة، وهي التي عبَّر عنها فيما قَبْلُ بملّتهم، إذ هي التي ينتمون إليها، وأمّا ما شرعه الله تعالى من الشرعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي المعنى الحقيقيُّ للملَّة، فقد غيروها تغييراً، والأهواء: جمع هوًى: وهو رأيٌ عن شهوة داعٍ إلى الضلال، وسُمِّي بذلك؛ لأنّه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهيةٍ، وفي الآخرة إلى الهاوية.

وإنّما قال: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ بلفظ الجمع، ولم يقل: هواهم؛ تنبيهاً على أنَّ لكل واحد هوًى غير هوى الآخر، ثم هوى كُلٍّ واحد منهم لا يتناهى، فلذلك أخبر سبحانه أنّه لا يرضى الكُلُّ إلاّ باتباع أهواء الكل.

واعلم: أنّ الطريقة المشروعة تسمَّى ملّة باعتبار أنَّ الأنبياء الذين أظهروها قد أملوها، وكتبوها لأُمَّتهم، كما أنّها تسمَّى ديناً باعتبار طاعة العباد لمن سنَّها، وانقيادهم لحكمه، وتسمَّى أيضاً شريعة باعتبار كونها مورداً للمتعطّشين إلى زُلاَلِ ثوابه ورحمته.

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والبيان بأنَّ دين الله هو الإسلام، وأنَّ ما هم عليه ضلالٌ، أو بعد ما ظهر لك الحقُّ بالبراهين الساطعة، والحجج القاطعة، أو بعد القرآن الموحى إليك، وهو حالٌ من فاعل جاءك ﴿مَا لَكَ﴾ يا محمد! ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛

أي: من عذاب الله، أو من جهته العزيزة، وهو جواب لئن ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريب ينفعك ويحفظكَ منْ عَذَابِه، من الولي، وهو القرب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ولا ناصر ينصرك ويدفع عنك عذابه، وتقدَّم لك، أنَّ الفرق بين الولي، والنصير: العموم والخصوص من وجهٍ؛ لأنَّ الوليَّ قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، كما يكون من آقرباء المنصور، وهو مادَّة اجتماعهما، وقوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مرفوع على الابتداء، و﴿لَكَ﴾ خبره، و﴿مِنَ﴾ صلةٌ، وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ منصوب المحلِّ على أنه حال؛ لأنّه لما كان متقدِّماً على قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ امتنع أن يكون صفةً له، ونظيره قوله:

لِـمَـيَّـة مـوحـشـاً طـلـلُ

والخطاب في قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ متوجِّهٌ إلى النبي ﷺ في الحقيقة، وقيل: المراد به: أمّته، والمعنى: حينئذٍ إيّاكم أُخاطب، ولكم أُؤَدِّب وأنهى، فقد علمتم أنَّ محمداً ﷺ قد جاءكم بالحق والصدق، وقد عصمته، فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين، ولئن اتبعتم أهواءَهم بعد الذي جاءكم من العلم والبيان، ما لكم من الله من وليّ ولا نصير، وما قيل على القول الأوّل[1]: من أنه تعالى حكم بعصمة الأنبياء، وعلم منهم أنّهم لا يعصون له، ولا يخالفون، ولا يرتكبون ما نهى عنه، فكانت عصمتهم واجبةً، فلا وجه لتحذيرهم عن اتباع هوى الكفرة، فوجب أن يكون التحذير متوجِّهاً إلى الأمّة لا إلى أنفسهم، فالجواب عنه: أنّ التكليف والتحذير؛ إنّما يعتمد على كون المكلف به محتملاً، ومتصوَّراً في ذاته من حيث تحقُّق ما يتوقف عليه وجوده من الآلات، والقوى، والامتناع الحاصل من حكمه تعالى، بعصمتهم، وعلمه بها، امتناعٌ بالغير، وهو لا ينافي الإمكان الذاتي الذي هو شرط التكليف، والتحذير، فثبت أنّ الخطاب متوجِّهٌ إليه ﷺ حقيقةً، فلا اعتراض.

ولمَّا ذكر سبحانه قبائح المتعنِّتين الطالبين للرئّاسة من اليهود والنصارى،

---

(١) روح البيان.

أتبع ذلك بمدح من ترك طريق التعنت وحبَّ الرئاسة منهم، وطلب مرضاة الله تعالى، وحسن ثواب الآخرة، وآثره على الحظوظ العاجلة الفانية، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قبلك يا محمد! من مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وبحيرا الراهب وأصحابه، والنجاشيّ وأصحابه، من الذين أسلموا من اليهود والنصارى، وإنّما خصَّهم بذكر الإيتاء؛ لأنّهم هم الذين عملوا به فخُصُّوا به، والكتاب التوراة والإنجيل، واسم الموصول مبتدأ أول، خبره جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾؛ أي: الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل حال كونهم ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾؛ أي: يتلون ذلك الكتاب ويقرؤونه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف، وبالتدبُّر في معانيه، والعمل بما فيه، وهو حال مقدَّرةٌ من الضمير المنصوب في آتيناهم، أو من الكتاب؛ لأنّهم لم يكونوا تالين له وقت الإيتاء، وقوله[1]: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف دلَّ عليه الفعل المذكور؛ أي: يتلونه تلاوةً حقَّ تلاوته، واختار الكواشيُّ كونه منصوباً على المصدرية على تقدير تلاوةً حقّاً، فإنَّ نعت المصدر إذا قدم عليه، وأضيف إليه نصب المصادر، نحو: ضربت أشدَّ الضرب، بنصب أشدَّ على المصدرية، والمعنى: أي: يقرؤونه قراءةً حقَّةً، كما أنزل، لا يغيّرونه، ولا يحرّفونه، ولا يبدّلون ما فيه من نعت محمد ﷺ.

وقيل المعنى: أي يتبعونه حقَّ اتباعه، فيحلُّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويبيُّنون أمره ونهيه لمن سألهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يتلونه حقَّ تلاوته هو مبتدأٌ ثان، خبره قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾؛ أي: بكتابهم المستلزم إيمانهم به الإيمان بمحمد ﷺ دون المحرِّفين، فإنّ بناء الفعل على المبتدأ، وإن كان اسماً ظاهراً يفيد الحصر، مثل: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ أو يؤمنون بمحمد ﷺ، وبالقرآن المنزَّل عليه ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ﴾؛ أي: بالكتاب المؤتى له بأن يغيِّره، ويحرِّفه، ويجحد ما فيه من فرائض الله، ونبَّوة محمدٍ ﷺ؛ أي: سواءٌ كان كفرهم بنفس التحريف، أو بغيره، كالكفر بالكتاب الذي يصدِّقه، أو يكفر بمحمد ﷺ، وبالقرآن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين كفروا بكتابهم، أو بمحمدٍ ﷺ ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الهالكون، المغبونون

---

(١) روح البيان.

الذين خسروا في الدنيا والآخرة، حيث اشتروا الكفر بالإيمان؛ لمصيرهم إلى النار المؤبَّدة عليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ لمّا صدر[1] قصّتهم بالأمر بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرَّر ذلك وختم به الكلام معهم؛ مبالغةً في النصح لهم؛ وإيذاناً بأنّه فذلكة القصة، والمقصود من القصة، والمعنى: يا بني إسرائيل! اذكروا أياديِّي لديكم، وصنعي بكم، واستنقاذي إيّاكم من أيدي العدو في نعم كثيرة أنعمت بها عليكم، ومن جملة النعم: التوراة، وذكر النعمة إنّما يكون بشكرها، وشكرها الإيمان بجميع ما فيها، ومِنْ لازم الإيمان بها الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنَّ نعت النبي ﷺ من جملة ما فيها ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: واذكروا تفضيلي إيّاكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء فيكم، وإعطاء التوراة لكم.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾؛ أي: واخشوا، وخافوا عذاب يوم رهيب، وهو يوم القيامة ﴿لَّا تَجۡزِي﴾ ولا تدفع فيه، تقول: جزى عنّي هذا الأمر يجزي، كما تقول: قضى عنّي يقضي وزناً، ومعنى؛ أي: لا تقضي في ذلك اليوم ﴿نَفۡسٌ﴾ من النفوس، أو نفسٌ مؤمنةٌ ﴿عَن نَّفۡسٖ﴾ أخرى أو كافرةٍ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الحقوق التي لزمتها؛ أي: لا تقضي نفسٌ ليس عليها شيءٌ شيئاً من الحقوق التي وجبت على نفسٍ أخرى؛ أي: لا تؤخذ نفسٌ بذنب أخرى، ولا تدفع شئياً، وأمّا إذا كان عليها شيءٌ، فإنّها تجزي وتقضي بغير اختيارها، بما لها من حسناتها ما عليها من الحقوق، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرض، أو غيره، فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عملٌ صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه».
﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾؛ أي: من النفس الأولى أو الكافرة ﴿عَدۡلٞ﴾؛ أي: فداءٌ، وهو بفتح العين: الفدية، وهي ما يماثل الشيء قيمةً، وإن لم يكن من جنسه، والعِدْل بالكسر: ما يساوي، الشيء في الوزن والجرم من جنسه.

والمعنى: لا يؤخذ منها فديةٌ تنجو بها من النار، ولا تجد ذلك لتفتدي به،

---

(١) العمدة.

وسميت الفدية عدلاً؛ لأنّها تعادل ما يقصد انقاذه وتخليصه، يقال: فداه إذا أعطى فداءه فأنقذ ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ شافع؛ لأنّها كفرت بالله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يمنعون من عذاب الله تعالى؛ أي: ولا الكفار ينصرون فيه؛ أي: يمنعون فيه ممَّا يريد الله بهم من الانتقام الأليم؛ أي: لا يدفع عنهم أحدٌ عذاب الله، ولا يجيرهم من سطوة عذابه.

والمعنى: أي: واتقوا يا معشر بني إسرائيل! المبدِّلين كتابي، المحرِّفين له عن وجهه، المكذّبين برسولي محمد ﷺ عذاب يوم لا تقضي فيه نفسٌ عن نفس شيئاً من الحقوق التي لزمتها، فلا تؤخذ نفسٌ بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئاً. وفي «الصحيحين»: «يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت! لا أغني عنك من الله شيئاً» ولا يؤخذ فيه من نفسٍ فديةٌ تنجو بها من النار، إذ هي لا تجد ذلك لتفتدي به، ولا يشفع فيما وجب عليها من حقٍّ شافع، وقد كانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ فديةٌ عمَّا فرَّطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله تعالى أنّه لا يقوم مقام الاهتداء به شيءٌ آخر، وأنّهم لا يأتيهم ناصر ينصرهم، فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم، وهذا ترهيبٌ لمن سلفت عظتهم في الآية قبلها.

﴿و﴾ اذكر يا محمد! لقومك قصّة ﴿إذ ابتلى﴾ واختبر وكلَّف ﴿إبراهيم﴾ عليه السلام، وهو اسم أعجميٌّ معناه: أبٌ رحيمٌ، قال السهيليُّ: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، أو تقاربه في اللفظ ألا ترى: أن إبراهيم تفسيره: أب رحيمٍ؛ لمرحمته بالأطفال ﴿رَبُّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى، والضمير لإبراهيم، وقُدّم المفعول لفظاً وإن كان مؤخّراً رتبةً؛ لاتصال الفاعل بضميرٍ يعود عليه؛ وللاهتمام به، فإنّ الذهن يتشوَّق، ويطلب معرفة المبتلى، والابتلاء في الأصل: الامتحان والاختبار، والتكليف بالأمر الشاقّ؛ ليُعلم ما جُهل من حال الإنسان، من جودته، أو رداءته، ولكن ابتلاء الله سبحانه لعباده ليس ليعلم ما خفي عليه من أحوالهم؛ لأنّه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد؛ ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة أو رداءة، فالمراد هنا: عامله معاملة المختبر؛ ليظهر ذلك للخلق، فاختبر إبراهيم، فظهر صدقه، وإبليس، فظهر كذبه؛ أي: واذكر وقت اختباري إبراهيم، والمقصود من ذكر

الوقت، ذكرما وقع فيه من الحوادث؛ لأنَّ الوقت مشتملٌ عليها، فإذا استحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها، كأنّها مشاهدةٌ عياناً ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ أي: اختبره، وكلَّفه بأوامر ونواهٍ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إبراهيم، وأدَّاهُنَّ أحسن التأدية، وقام بهنّ حقَّ القيام من غير تفريط، ولا تقصير، ولا توان، ولذا قيل: لم يُبْتَلَ أحدٌ بهذا الدين، فأقامه كلَّه إلا إبراهيم، فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ والقرآن الكريم لم يعيِّن تلك الكلمات، ولذلك اختلف المفسّرون في تفسير تلك الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام، فقال عكرمة عن ابن عباس: هي ثلاثون من شرائع الإسلام: عشرٌ في براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ...﴾ إلخ. وعشرٌ في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلخ. وعشرٌ في المؤمنون إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وفي سأل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾. وقال طاووس عن ابن عباس: ابتلاه الله بعشرة أشياء هي: الفطرة: خمسٌ في الرأس الشامل للوجه: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وخمس في الجسد: تقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء بالماء؛ أي: غسل مكان الغائط والبول بالماء، وأمَّا بالحجر، فهو من خصائص هذه الأمّة. كانت فرضاً في شرعه، وهي سنة في شرعنا، وقال قتادة: هي مناسك الحج؛ أي: فرائضه، وسننه، كالطواف، والسعي، والرَّمى، والإحرام، والتعريف، وغيرهنَّ.

وقال الحسن: ابتلاه الله بذبح ولده، فصبر على ذلك، وابتلاه بالنظر في الكواكب، والشمس والقمر، إقامةً للحجة على قومه، فأحسن النظر في ذلك، وعرف أنّ ربّه دائم لا يزول، ثمّ ابتلاه بالهجرة من وطنه، فخرج مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالإلقاء في النار، فصبر عليها، وبالختان بعد الكبر، فصبر عليه، وهذا القول الأخير أرجح ما قيل هنا، وفي الخبر: أنّ إبراهيم أوّل من قصّ الشارب، وأوّل من اختتن، وأوّل من قلّم الأظفار، وأوّل من رأى الشيب، فلمّا رآه قال: يا ربّ! ما هو؟ قال: الوقار، قال: يا ربّ! زدني وقاراً.

وقرأ الجمهور ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بالألف والياء. وقرأ ابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان في البقرة بألفين، زاد هشام أنّه قرأ كذلك في إبراهيم والنحل ومريم

والشورى والذاريات والنجم والحديد وأول الممتحنة وثلاثةٍ آخر النساء وآخر التوبة وآخر الأنعام والعنكبوت وقرأ المفضّل إبراهام بألفين إلاّ في التوبة والأعلى. وقرأ ابن الزبير (إبراهام) أيضاً، وقرأ أبو بكرة (إبراهم) بألفٍ وحذف الياء وكسر الهاء. وقرأ الجمهور: بنصب ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ورفع ﴿رَبُّهُۥ﴾، وقرأ ابن عباس، وأبو الشعثاء، وأبو حنيفة: برفع ﴿إبراهيمُ﴾ ونصب ﴿ربَّهُ﴾، والمعنى حينئذٍ: وإذا دعا إبراهيم ربَّه بكلمات؛ أي: بدعواتٍ، فأتّمهنّ الله تعالى؛ أي: فأجابهنّ، وأعطاه إياهنّ، وتلك الدعوات، كقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقولهُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وقوله ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وإبراهيم الخليل عليه السلام، هو الجد الحادي والثلاثون لنبيّنا محمد ﷺ، وهو خليل الله بن تارخ، وهو آزر بن ناخور، بن شاروخ بن أرغو، بن فالغ، بن عابر، وهو هود النبيّ ﷺ، بن شالح، بن أرفَخْشَذْ، بن سام، بن نوح عليه السلام، ومولده بأرض الأهواز، وقيل: بكوثى، وقيل: ببابل، وقيل: بنجران، ونقله أبوه إلى بابل أرض نمروذ بن كنعان، وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف أيضاً واقعٌ في جواب سؤال مقدّر، كأنّه قيل: فماذا قال له ربُّه حين أتمَّ الكلمات؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبراهيم بعدما أتمهنَّ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ ومُصَيِّرُكَ ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يأتمون به في هذه الخصال، ويقتدى به الصالحون، فهو نبي في عصره، ومقتدًى به لكافة الناس إلى يوم القيامة؛ أي: جاعلك قدوة لهم في الدين إلى يوم القيامة، إذ لم يبعث بعده نبيٌّ إلاّ كان من ذريته مأموراً باتباعه في الجملة، والمعنى: أي؛ ثُمّ قال له ربّه: يا إبراهيم! إنّي مصيِّرك إماماً للناس في الخيرات، يقتدون بأفعالك، ويهتدون بهديك، ويستنون بسنتك، فلذلك اجتمعت أهل الأديان كلُّهم على تعظيمه، وجميع أمّة محمد ﷺ يقولون في آخر صلاتهم: اللهمّ صلّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ كلام مستأنف أيضاً واقعٌ في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيم عنده؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَ﴾ اجعل يا ربّ! ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: من بعض أولادي أئمّةً يقتدى بهم في الدين؛ أي: أنبياء وملوكاً عدولاً، وعلماء يقتدى بهم، وتخصيص البعض بذلك؛ لبداهة استحالة

إمامة الكل، وإن كانوا على الحق، وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓ﴾ عطفٌ على الكاف في ﴿جَاعِلُكَ﴾ و﴿من﴾ تبعيضية متعلِّقة بجاعل؛ أي: وجاعل بعض ذريتي إماماً يقتدى به؛ أي: اجعل، لكنَّه راعى الأدب بالاحتراز عن صورة الأمر. وقرأ زيد بن ثابت ﴿ذِرِّيَّتِيٓ﴾ بكسر الذال. وقرأ أبو جعفر بفتحها وليست في المتواتر عنه. وقرأ الجمهور بالضمّ، وهي لغاتٌ فيها، وقوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ﴾ كلام مستأنف أيضاً واقعٌ في جواب سؤال مقدّر، كأنّه قيل: فماذا قال الربُّ جلَّ جلاله؟ فأجيب: ﴿قال﴾ الله سبحانه وتعالى لإبراهيم ﴿لَا يَنَالُ﴾ ولا يصيب ﴿عَهْدِى﴾؛ أي: لا يصل ما عهدته، ووعدته لك من الإمامة، والنبوة في أولادك إلى ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والكافرين منهم، يعني: أنّ أولادك منهم مسلمون، وكافرون، فلا تصل الإمامة والاستخلاف بالنبوة الذي عهدت إليك من كان ظالماً من أولادك، وغيرهم، وإنما ينال عهدي من كان بريئاً من الظلم؛ لأنَّ الإمام لمنع الظلم، فكيف يجوز أن يكون ظالماً؟! وإن جاز، فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب الغنم ظلم.

ودلَّت الآية بمفهومها على أنّه ينالها ويصيبها غير الظالم؛ يعني: من كان ظالماً من أولادك، لا يكون إماماً وقدوة للناس؛ لأنّ الإمامة في أوليائه لا في أعدائه. وقرأ قتادة والأعمش وأبو رجاء ﴿الظالمون﴾ بالرفع على الفاعلية و﴿عَهْدِى﴾ مفعول به؛ لأنّ العهد يَنال كما يُنال، أي: عهدي لا يصل إلى الظالمين، أو لا يصل الظالمون إليه، ولا يُدْرِكُونَهُ، ومعنى: عهدي نبوّتي، وفي هذا دليلٌ على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر. وفي[1] ذكر الظلم مانعاً من الإمامة، تنفيرٌ لذرية إبراهيم منه، وتبغيضٌ لهم فيه ليتحاموه، ويُنَشِّئُوا أولادهم على كراهته كيلا يَقَعُوْا فيه ويُحرَموا من هذا المنصب العظيم الذي هو أعلى المناصب وأشرفها، كما هو تنفيرٌ من الظالمين، وعن مخالطتهم، فالإمامة الصالحة لا تكون إلاّ لذوي النفوس الفاضلة التي تَسوق صاحبهَا إلى خير العمل، وتَزَعُهُ عن الشرورِ والآثام، ولاحظَّ للظالمين في شيء من هذا.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنَّ الإمامة والنبوة لا ينالها من دنس نفسه، ودسّاها بالظلم، وقبيح الخلال، وإنّما ينالها من شرفت خلاله، وكملت أخلاقه، وصفت نفسه؛ لأنَّ أهمَّ أعمال الإمام رفع الظلم والفساد، حتى ينتظم العمران، وتَسُوْد السكينةُ بين الناس. ﴿و﴾ اذكر يا محمد! لقومك قصة ﴿إذ جعلنا البيت﴾؛ أي: الكعبة، أو جميع الحرم، فإنَّه تعالى وصفه بكونه آمناً، وهذا صفة جميع الحرم ﴿مَثَابَةً﴾ أي: مرجعاً ومعاداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعودون إليه، ويقضون منه وطراً، كلما انصرفوا اشتاقوا إليه، فإنّهم يثوبون إليه كل عام بأعيانهم، وبأمثالهم، كما قاله الحسن، أو المراد: لا ينصرف عنه أحد إلاّ وهو يتمنّى العود إليه، كما قاله ابن عباس ومجاهد، أو المعنى: جعلنا الكعبة موضع ثواب، يثابون بحجِّهِ واعتماره، وعبارة «الروح» هنا: أي:[1] واذكر يا محمد! لقومك قصة وقت تصييرنا الكعبة المعظَّمة ﴿مَثَابَةً﴾ كائنةً للناس؛ أي: مباءةً، ومرجعاً للحجَّاج والمعتمرين، يتفرَّقون عنه، ثم يثوبون إليه؛ أي: يرجع إليه أعيان الذين يزورونه بأن يحجوه مرّةً بعد أخرى، أو يرجع أمثالهم وأشباههم في كونهم وفد الله، وزوار بيته، فإنَّهم لما كانوا أشباهاً للزائرين أوَّلاً، كان ما وقع منهم من الزيارة ابتداءً بمنزلة عود الأوَّلين، فتعريف الناس؛ للعهد الذهنيِّ، وهم الزوار؛ أو للاستغراق، كما سيأتي، والتاء في ﴿مثابة﴾؛ للمبالغة لكثرة ما يثوب إليه، قاله الأخفش؛ أو لتأنيث المصدر؛ أو لتأنيث البقعة، كما يقال: مقامٌ ومقامةٌ، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الأَرْضَ رَحْبٌ فَسِيحَةْ ... فَهَلْ يُعْجِزَنِّي بُقْعَةٌ مِنْ بِقَاعِهَا

ذكَّرَ رَحْباً على مراعاة المكان، وأنث فسيحةً على اللفظ، وقرأ الأعمش، وطلحة: ﴿مثاباتٍ﴾ على الجمع، وقال ورقة بن نوفل:

مَثَاباً لأفناء القبائل كُلِّها ... تَخِبُّ إِلَيْهَا اليَعْمُلاتُ الطَّلائِحُ

ويروى الذَّوابل، ووجه قراءة الجمع: أنَّه مثابةٌ لكلٍ من الناس لا يختصُّ

---

(١) روح البيان.

به واحدٌ منهم، سواء العاكف فيه والباد. وقال مجاهد وابن جبير معناه: يثوبون إليه من كل جانب؛ أي: يحجونه في كل عام، فهم يتفرقون، ثم يثوبون إليه أعيانهم، أو أمثالهم، ولا يقضي أحدٌ منهم وطراً، وقال الشاعر:

جَعَلَ البَيْتَ مَثَاباً لَهُمُ لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرَ يَقْضُونَ الوَطَرْ

وقال ابن عباس: معاذاً وملجأً، وقال قتادة والخليل: مجمعاً، والألف واللام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ إمّا لاستغراق الجنس على مذهب من يرى أنَّ الناس كلهم مخاطبون بفروع الإيمان، وإمَّا للجنس الخاص على مذهب من لا يرى ذلك. ﴿وَأَمْنًا﴾؛ أي: محلَّ أمنٍ لمن يسكنه ويلجأ إليه من الأعداء، والخسف، والمسخ، فإنّ المشركين كانوا لا يتعرَّضون لسكان الحرم، ويقولون: البيت بيت الله، وسكَّانه أهل الله، بمعنى: أهل بيته، وكان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم، فلا يتعرَّض له، ويتعرَّضون لمن حوله، وهذا شيء توارثوه من دين إسماعيل عليه السلام، فبقوا عليه إلى أيام النبي ﷺ، أو يأمن لمن حجَّه من عذاب الآخرة من حيث إنّ الحج يجبُّ ما قبله؛ أي: يقطع ويمحو ما وجب قبله من حقوق الله تعالى غير الماليَّة، مثل: كفارة اليمين، وأمَّا حقوق العباد، فلا يجبُّها الحجُّ. ﴿و﴾ قلنا ﴿اتخذوا﴾؛ أي: اجعلوا يا أمّة محمد! لأنفسكم ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام؛ أي: عند مقام إبراهيم ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: موضع صلاة، فمن هنا بمعنى: عند، والعندية تصدق بجهاته الأربع، والتخصيص بكون المصلى خلفه، إنّما استفيد من فعله ﷺ، وفعل الصحابة بعده؛ أي: واذكر إذ جعلنا البيت مثابةً، وقلنا لكم: اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فهو على تقدير القول؛ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار، ومقام إبراهيم: الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وفيه أثر قدميه، أو الموضع الذي كان فيه حين قام عليه، ودعا الناس إلى الحج، أو حين رفع بناء البيت، والذي يسمى اليوم مقام إبراهيم هو موضع ذلك الحَجَر.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والجمهور ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ بكسر الخاء على صيغة الأمر، فلا بدّ على هذه القراءة من تقدير

القول، كما مرّ آنفاً. وقرأ نافع، وابن عامر ﴿واتَّخَذُوا﴾ بفتحها، جعلوه فعلاً ماضياً عطفاً على ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي: واتَّخذ الناس مقامه الموسوم به؛ يعني: الكعبة قبلةً يصلُّون إليها، فهو إخبار عن قوم إبراهيم أنّهم اتخذوا من مقامه مصلى. وفي «الفتوحات» قرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ فعلاً ماضياً على لفظ الخبر، والباقون على صيغة الأمر، فأمَّا قراءة الخبر، ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ المخفوض بإذ تقديراً، فيكون الكلام جملة واحدة.

الثاني: أنّه معطوف على مجموع قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ فيحتاج إلى تقدير: إذ؛ أي، وإذ اتخذوا، ويكون الكلام جملتين.

الثالث: ذكره أبو البقاء: أن يكون معطوفاً على محذوف، تقديره: فثابوا واتخذوا.

وأمّا قراءة الأمر ففيها أربعة أوجه:

أحدها: أنّه عطف على ﴿اذْكروا﴾ إذ قيل إنَّ الخطاب هنا لبني إسرائيل؛ أي: اذكروا نعمتي، واتخذوا.

الثاني: أنها عطفٌ على الأمر الذي تضمنه قوله ﴿مَثَابَةً﴾ كأنَّه قال: ثوبوا، واتخذوا، ذكر هذين الوجهين المهدويّ.

الثالث: أنّه معمولٌ لقول محذوف؛ أي: وقلنا اتخذوا بأن قيل: إنّ الخطاب لإبراهيم وذرّيته، أو لمحمد ﷺ وأمّته.

الرابع: أن يكون مستأنفاً. اهـ. «سمين».

وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (أنّ إبراهيم عليه السلام كان يبني البيت، وإسماعيل يناول الحجارة، ويقول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾! فلمَّا ارتفع البنيان، وضعف إبراهيم عن وضع الحجارة، قام على حجرٍ وهو مقام إبراهيم عليه السلام فبناء البيت كان متأخّراً من بناء مكة، وكُلّ منهما في زمن إبراهيم، أمّا الأول، فبناء إبراهيم، وأمّا الثاني، فبناء طائفة من جرهم، كما في تاريخ مكة.

وروي: أنّه لمَّا أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر، ووضعهما بمكة، وأتت على ذلك مُدّةٌ، ونزلها الجرهميُّون، وتزوَّج إسماعيل منهم امرأة، وماتت هاجر، استأذن إبراهيم سارة في أن يأتي هاجر، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم، وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيَّد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم، فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليست عندي، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن في ضيق وشدّةٍ، فشكت إليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: فليغيِّر عتبة بابه، والمراد: ليطلِّقكِ، فإنّك لا تصلحين له امرأةً، وذهب إبراهيم، فجاء إسماعيل، فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحدٌ؟ قالت: جاءني شيخٌ صفته كذا وكذا، كالمستخفَّة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال: أقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغيِّر عتبة بابه، قال: ذلك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك، ألحقي بأهلك، فطلَّقها وتزوَّج منهم أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثُمَّ استأذن سارة في أن يزور إسماعيل، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيَّد، وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل رحمك، قال: هل عندك ضيافةٌ؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن، واللحم، وسألها عن عيشهم؟ قالت: نحن في خير وسعة، فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذٍ بخبز بُرٍّ، أو شعيرٍ، أو تمرٍ لكانت أكثر أرض الله بُرّاً، أو شعيراً، أو تمراً، وقالت له: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءت بالمقام فوضعته على شقِّه الأيمن، فوضع قدمه عليه وهو راكبٌ، فغسلت شقَّ رأسه الأيمن، ثمّ حوَّلته إلى شقه الأيسر، فغسلت شقَّ رأسه فبقي أثر قدميه عليه، وقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت بابك، فلمَّا جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، جاء شيخٌ أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، فقال لي: كذا وكذا، وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه، فقال: ذلك إبراهيم، وأنت عتبة بابي، أمرني أن أمسكك، ثُمَّ لبث عنهم ما شاء الله، ثُمَّ جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريبة من زمزم، فلمَّا رآه قام

إليه، فصنع كما يصنع الولد بالوالد، ثمّ قال: يا إسماعيل! إنّ الله أمرني بأمرٍ، أتعينني عليه؟ قال: أعينك عليه، قال: أمرني أن أبني ههنا بيتاً، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، فلمّا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام إبراهيم على حجر المقام وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجر، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ثمَّ لمَّا فرغ من بناء الكعبة قيل له: أَذِّنْ في الناس بالحج، فقال: أنادي وأنا بين الجبال! ولم يحضرني أحدٌ! فقال الله: عليك النداء، وعليَّ البلاغ، فصعد أَبَا قُبيسٍ، وصعد هذا الحجر، وكان قد خُبِىءَ في أبي قُبيسٍ أيامَ الطوفان، فارتفع هذا الحجر حتى علا كُلَّ حجر في الدنيا، وجمع الله له الأرض كالسفرة، فنادى: يا معشر المسلمين! إنّ ربّكم بنى لكم بيتاً، وأمركم أن تحجُّوه، فأجابه الناس من أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، فمن أجابه مرّةً حجَّ مرة ومن أجابه عشراً حج عشراً. وفي الحديث: «إنَّ الركنَ والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا مماسة أيدي المشركين لأضاءتا. ما بَيْنَ المشرقِ والمغربِ» والمرادُ منهما: الحجر الأسود والحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد! لأمّتك قصّة إذ ﴿عهدنا﴾ وأوصينا ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وأمرناهما بـ﴿أن﴾ أسّسا بيتي على التقوى و﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الأوثان والأنجاس كُلِّها؛ يعني: الكعبة وأضافه إليه؛ تشريفاً له؛ أي: عهدنا إليهما، وأمرناهما أمراً مؤكَّداً، ووصَّينا إليهما، فإنَّ العهد قد يكون بمعنى الأمر والوصيّة، يقال: عهد إليه؛ أي: أمره ووصَّاه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ وسمَّاه بيته؛ لأنه جعله معبداً للعبادة الصحيحة، وأمر المُصلِّين بأن يتوجَّهُوا إليها، وفي إبراهيم[1] سبع لغات: أشهرها إبراهيم بألفٍ وياءٍ، وإبراهام بألفين، والثالثة: إبراهم بألف بعد الراء وكسر الهاء دون ياء، الرابعة: كذلك إلاّ أنّه بفتح الهاء، والخامسة: كذلك إلاّ أنّه بضمّ الهاء، السادسة: أبْرَهَم بفتح الهاء

---

(١) الفتوحات.

من غير ألف وياء، السابعة: أبراهوم بالواو. اهـ. «سمين». وإسماعيل: اسم أعجمي، وفيه لغتان: اللام والنون، ويجمع على سماعلة، وسماعيل، وأساميع، ومن أغرب ما نقل في تسميته: أنَّ إبراهيم لما دعا الله تعالى أن يرزقه ولداً، كان يقول في دعائه: اسمع إيل! اسمع إيل! وإيل: اسم الله تعالى بالسريانية، فلمَّا ولد سمَّاه بذلك؛ أي: أمرناهما، وألزمناهما، وأوجبنا عليهما أن طهِّرا بيتي؛ أي: أن أسساه وابنياه على التوحيد، وطهِّراه من الأوثان والأنجاس، وعن كُلِّ ما لا يليق به من كُلِّ رجسٍ حسيٍّ ومعنوي، كاللغو، والرَّفث، والتنازع فيه حين أداء العبادات، كالطواف، والسعي بين الصفا والمروة، والعكوف فيه، وكالشرك، والرياء، والسمعة، إلى غير ذلك، والمراد: احفظاه من أن ينصب حوله شيءٌ منها، وأقراه على طهارته، وإلاّ لم يكن هناك إذ ذاك أوثانٌ عند البيت حتى يطهَّر منها، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فإنّهنّ لم يُطهَّرن من نجس، بل خلقهن طاهراتٍ، كقولك للخياط: وسِّع كم القميص، فإنّك لا تريد أن تقول: أزل ما فيه من الضِّيْق، بل المراد: اصنعه ابتداءً واسع الكمّ.

والحكمة في جعل الله سبحانه معبداً لعباده، وهو هذا البيت؛ لأنَّ الخلق في حاجةٍ إلى التوجه إلى خالقهم بشكر، والثناء عليه، والتوسّل إليه لاستمداد رحمته، ومعونته، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجودٍ غيبيٍّ، لا يتقيَّد بمكان، ولا ينحصر في جهة، فعيَّن لهم مكاناً نسبه إليه رمزاً إلى أنَّ ذاته المقدَّسة تحضره والحضور الحقيقيُّ مَحالٌ عليه، فالمراد: أنَّ رحمته الإلٰهية تحضره، ومن ثمَّ كان التوجُّه إلى هذا المكان، كالتوجُّه إلى تلك الذات العليَّة لو وجد العبد إلى ذلك سبيلاً، وانظر حكمة تخصيص هذه البقعة من بين بقاع الأرض باتخاذه معبداً، فإنَّه من الذخائر المدفونة في قلوب خواص عباده.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ أي: للزائرين الدائرين حوله ﴿وَالْعَٰكِفِينَ﴾؛ أي: المقيمين عنده، والمعتكفين فيه؛ أي: المجاورين الذين عكفوا عنده؛ أي: أقاموا عنده لا يرجعون، ولا يذهبون، ولا يرتحلون منه، وهذا في أهل الحرم، والأول؛ أعني: الطائفين في الغرباء القادمين إلى مكة للزيارة والطواف، وإن كان الطواف لا

يختصُّ بهم، إلاّ أن له مزيد اختصاص بهم من حيث إن مجاوزة الميقات لا تجوز لهم إلاّ بالإحرام ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: المصلِّين إليه من سائر البلدان جمع راكعٍ وساجدٍ؛ لأن القيام، والرُّكوع، والسجود من هيئات المصلِّي، ولتقارب الركوع والسجود ذاتاً وزماناً، ترك العاطف بين موصوفيهما، والجلوس في المسجد الحرام ناظراً إلى الكعبة من جملة العبادات الشريفة المرضية، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ لله تعالى في كُلِّ يوم مائةً وعشرين رحمةً، تنزل على هذا البيت ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين».

واعلم: أنّه تعالى لمّا قال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى: جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير، والنظافة، وإنّما خصَّ الكعبة بالذكر؛ لأنّه لم يكن هناك غيرها، وفي الآية: إيماء إلى أنَّ إبراهيم كان مأموراً هو ومن بعده بهذه العبادات، ولكن لا دليل إلى معرفة الطريق التي كانوا يؤدُّونها بها. فالمراد بالطائفين: من يقصد البيت حاجّاً، أو معتمراً، فيطوف به، وبالعاكفين: من يقوم هناك ويجاور فيه، وبالركع السجود: من يصلّي إليه الصلوات الخمس، وغيرها. وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: إنّ الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل ﴿و﴾ اذكر يا محمد! لأمّتك قصّة ﴿إذ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام؛ أي: قصّة إذ دعا إبراهيم ربَّه، فقال: في دعائه يا ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ الوادي الأقفر الخالي عن الأنيس، الذي ليس فيه زرعٌ، ولا ماءٌ، ولا بناءٌ ﴿بَلَدًا﴾ مَسْكناً ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمنٍ يأمن فيه أهله من القحط، والجدب، والخسف، والمسخ، والزَّلازل، والجذام، والبرص، ونحو ذلك من المَثُلاَتِ التي تَحُلُّ بالبلاد غيرها، فهو من باب النَّسب؛ أي: بلداً منسوباً إلى الأمن، كلابن، وتامر، فإنّهما لنسبة موصوفهما إلى مأخذهما، كأنّه قيل: لبنيٌّ وتمريٌّ، فالإسناد حقيقيٌّ، أو المعنى: بلداً آمناً أهله، فيكون من قبيل الإسناد المجازي؛ لأنَّ الأمن الذي هو صفةٌ لأهل البلد حقيقةً، قَدْ أُسْنِدَ إلى مكانهم للملابسة بينهما. وكان هذا الدعاء في أوَّلِ ما قَدِم إبراهيم عليه السلام مكة؛ لأنّه لما أسكن إسماعيلِ وهاجر هناكِ، وعاد مُتوجِّهاً إلى الشام تبعته هاجر، فجعلت تقول: إلى مَنْ تكلنا في هذا البَلْقَعِ؛ أي: المكانِ الخالي من الماء، والنبات،

وهو لا يردُّ عليها جواباً، حتى قالتَ: آلله أمرك بهذا؟ فقال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيِّعنا، فرضِيَتْ، ومضَى، حتى إذا استوى على ثنية كداء، أقبل على الوادي، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ...﴾ إلى آخر الآية، وإنما[١] دعا إبراهيم له بالأمن؛ لأنه ليس فيه زرع، ولا ثمرٌ، فإذا لم يكن آمناً، لم يجلب إليه شيءٌ من النَّواحي، فيتعذَّر المقام فيه، فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم، فجعله بلداً آمناً لا يُسْفَك فيه دم إنسان، ولا يظلم أحد، ولا يصاد صيده، ولا يُختَلَى خلاه، فما قُصده جَبَّارٌ إلاّ قصَمَه الله تعالى، كما فعل بأصحاب الفيل، وغيرهم من الجبابرة.

فإن قُلْتَ: ما الفائدة في قول إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ مع قوله تعالى أوّلاً: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا﴾؟

قلت: المراد من الأمن المذكور: أوّلاً الأمن من الأعداء، والخسف، والمسخ، ومن المذكور في دعاء إبراهيم: الأمن من القحط، والجوع، وقيل: معنى بلداً آمناً؛ أي: كثير الخصب، يؤمن فيه من الجوع، والقحط، فإنّ الدنيا إذا طلبت ليُتقوّى على الدين، كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً، وحصل فيه الخصب تفرَّغ أهله لطاعة الله، وأيضاً إنَّ الخصب مما يدعو الناس إلى تلك البلدة، فهو سبب اتصاله في الطاعة.

والمعنى[٢]: أي قال إبراهيم: ربّ اجعل هذا الوادي من البلاد الآمنة! وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمناً في نفسه من الجبابرة، وغيرهم، أن يسلَّطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان من خسف، وزلزال، وغرق، ونحو ذلك ممَّا يُنْبِىءُ عن سخط الله، ومثلاته التي تصيب سائر البلاد، وقد استجاب الله دعاءه، فلم يقصده أحدٌ بسوءٍ إلا قصم ظهره، ومن تعدَّى عليه لم يطل زمن تعدِّيه، بل يكون تعدّياً عارضاً ثمَّ يزول.

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

﴿وارزق﴾ يا ربّ! ﴿أَهْلَهُ﴾؛ أي: أهل هذا البلد وسُكَّانه مواطناً كان، أو مقيماً ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: من أنواع الثمرات، وحمل الشجر: جمع ثمرة وهي المأكولات مما يخرج من الأرض والشجر، فهو سؤال الطعام والفواكه، وقيل: هي الفواكه، وإنّما خصَّ هذا بالسؤال؛ لأنّ الطعام المعهود مما يكون في كُل موضع، وأمّا الفواكه، فقد تندر، فسأل لأهله الأمن، والسعة، مما يطيب العيش، ويدوم، وقد تحصل في مكّة الفواكه الربيعيَّة، والصيفيَّة، والخريفيَّة في يوم واحد، فاستجاب له في ذلك؛ لما روي أنّه لما دعا هذا الدعاء، أمر الله سبحانه جبريل بنقل قرية من قرى فلسطين كثيرة الثمار إليها، فأتى جبريل فقلعها، وجاء بها، وطاف بها حول البيت سبعاً، ثم وضعها على ثلاث مراحل من مكة وهي الطائف، ولذلك سُميِّت به، ومنها أكثر ثمرات مكة، ويجيءُ إليها أيضاً من الأقطار الشَّاسِعَة، والبلاد النَّائية، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، خصوصاً في هذا الزمان بالطائرات، والباخرات، والسيَّارات، وهذا آيةٌ من آيات الله، فسبحانه فعالاً لما يريد، وخصّ الثمرات حيث لم يقل من الحبوب؛ لما في تحصيلها من الذلّ الحاصل بالحرث، وغيره، فاقتصاره على الثمرات؛ لتشريفهم، ثم أبدل قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من أهله بدل بعض من كل؛ مراعاة لحسن الأدب، وترغيباً لقومه في الإيمان؛ أي: وارزق المؤمنين بالله وباليوم الآخر من أهله خاصة ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: أي: ارزق من آمن منهم ومن كفر أيضاً.

قاس إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة، حيث سأل الرزق لأجل المؤمنين خاصة، كما خصّ الله تعالى الإمامة بهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فلمّا ردّ سؤال الإمامة في حقّ ذرّيته على الإطلاق، حسب أن يردَّ سؤاله الرزق في حقّ أهل مكة على الإطلاق، فلذلك قيد بالإيمان تأدُّباً بالسؤال الأول، فنبَّه سبحانه على أنَّ الرزق رحمةٌ دنيويَّةٌ تعمُّ المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدُّم؛ أي: وأَرْزُقُ أيضاً من كفر بالله واليوم الآخر ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾؛ أي: أمدُّ له ليتناول من لذات الدنيا؛ إثباتاً للحجة عليه، وأمتعه تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ فإنّ الدنيا بكليتها قليلةٌ، وما يتمتَّع الكافر به منها قليلٌ من القليل، فإنَّ نعمته تعالى في الدنيا

وإن كانت كثيرة بإضافة بعضها إلى بعض، فإنّها قليلةٌ بإضافتها إلى نعمة الآخرة، وكيف لا يقلُّ ما يتناهى بالإضافة إلى ما لا يتناهى، فقليلاً: صفة لمصدر محذوف، كما قدَّرنا، ويجوز أن يكون صفة لظرف محذوف؛ أي: أُمتِّعُه زماناً قليلاً، وهو مدَّة حياته ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾؛ أي: ثمّ بعد تمتيع ذلك الكافر مدّة حياته أضطرُّه؛ أي: ألجئه، وأرجعه، وأسوقه في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ فلا يجد عنها محيصاً، والاضطرار في اللُّغة: حمل الإنسان على ما يضرُّه، وهو في المتعارف: حمل الإنسان بكفره على أن يفعل ما أكره عليه باختياره، فلا يكون اضطرارهم إلى عذاب النار مستعملاً في معناه العرفي، فهو مستعارٌ لِلَزِّهِمْ، وإلصاقِهِم به، بحيث يتعذَّر عليهم التخلّصُ منه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فإنَّه صريحٌ في أن لا مدخل لهم في لحوق عذاب الآخرة بهم، ولا اختيار إلاّ أنّهم سُمُّوا مضطرين إليه مختارين إيّاه على كُره، تشبيهاً لهم بالمضطر الذي لا يملك الامتناع عمَّا اضطرّ إليه، فالمعنى: أَلُزُّهُ إليه لَزَّ المضطرِّ لكُفْرِه، وتضييعهِ ما متَّعتُهُ به من النِعَم بحيث لا يمكن الامتناعَ منه ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: قَبُح المرجع مرجعُه المخصوص بالذمّ محذوف؛ أي: بئس المرجع الذي يرجع إليه للإقامة فيه النارُ، أو عذابها، فللعبد في هذه الدنيا الفانية الإمهالُ أيّاماً لا لإهمالٍ، إذ كُلُّ نفس تُجزى بما كسبت، ولا تغرَّنك الزخارف الدنيوية، فإنَّ للمطيع والعاصِي نصيباً منها، وليس ذلك من موجبات الرفعة في الآخرة، فعلى العاقل أن لا يغترَّ بالزخارف الدُّنيوية، بل لا يفرح بشيء سوى الله تعالى، فإنَّ ما خلا الله باطلٌ وزائلٌ، والاغترار بالزائل الفاني ليس من قضيّة كمال العقل، والفهم، والعرفان.

وقرأ الجمهور[1] من السبعة ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ مشدَّداً على الخبر. وقرأ ابن عامر ﴿فأمتعه﴾ مخفَّفاً على الخبر. وقرأ هؤلاء ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ خبراً، وقرأ يحيىٰ بن وثاب: ﴿فأُمْتِعهُ﴾ مخفَّفاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ بكسر الهمزة، وهما خبران. وقرأ ابن محيصن ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ بإدغام الضاد في الطاء خبراً. وقرأ يزيد بن أبي حبيب ﴿ثُمَّ

(١) البحر المحيط.

أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ بضمّ الطاء خبراً. وقرأ أبيُّ بن كعب ﴿فنُمتِّعُه ثمّ نضطرُّه﴾ بالنون فيهما. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿فأَمْتِعْهُ قليلاً ثم اضْطرَّه﴾ على صيغة الأمر فيهما، فأمَّا على هذه ـ القراءة، فيتعيَّن أن يكون الضمير في ﴿قَالَ﴾ عائداً على إبراهيم لمَّا دعا للمؤمنين بالرزق، دعا على الكافرين بالإمتاع القليل، والإلزاز إلى العذاب، ومَنْ على هذه القراءة يحتمل أن تكون في موضع رفع بالابتداء على أن تكون موصولة، أو شرطية، وفي موضع نصب على الاشتغال على الوصل أيضاً وأمّا على قراءة الباقين، فيتعيَّن أن يكون الضمير في قال عائداً على الله تعالى، ومَنْ يحتمل أن يكون في موضع نصب على إضمار فعل، تقديره: قال الله: وأرزق مَنْ كفر فأمتعه، ويكون ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ معطوفاً على ذلك الفعلِ المحذوف الناصب لِمَنْ، ويحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع على الابتداء إمّا موصولاً، وإمّا شرطاً، والفاء فاءُ جواب الشرط، أو الداخلة في خبر الموصول؛ لشبهه باسم الشرط. انتهى. ملخصاً من «البحر».

وحاصل مَعنى الآية: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. الخ. أي: وارزق[1] أهله من أنواع الثمار، إمّا بزرعها بالقرب منه، وإمّا بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما استجابةً لدعوة إبراهيم، كما هو مشاهدٌ، وقد جاء في سورة القصص ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وخصَّ إبراهيم بدعائه المؤمنين، وإن كان سبحانه لواسع رحمته، جعل رزق الدنيا عاماً للمؤمنين والكافرين ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾؛ لأنَّ تمتيع الكافرين قصيرٌ محدودٌ بذلك العمر القصير، ثمَّ إلى النار وبئس المصير، وهذا ما بيَّنه عزَّ اسمه بقوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ...﴾ إلخ. أي: قال الله سبحانه: يا إبراهيم! قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمن أهل البلد من الثمرات، ورزقت كفارهم أيضاً، وأمتعهم بهذا الرزق أمداً قليلاً، وهو مدّة وجودهم في الدنيا، ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوقاً اضطرارياً لا اختيار لهم فيه، ولا يعلمون أنَّ عملهم ينتهي بهم إليه.

---

(١) المراغي.

ذاك أنَّ أعمال البشر التي تقع باختيارهم، لها آثارٌ وغاياتٌ اضطراريَّةٌ تنتهي بهم إليها، وتكون نتيجةً لها، بحسب ما وضعه الله سبحانه في نظام الكون، من وجود المسببات عقب وجود أسبابها، فالإسراف في الشهوات يفضي إلى بعض الأمراض في الدنيا، كذلك الكفار، والفساق، مختارون في كفرهم، وفسوقهم، وتكون نتيجة ذلك سوقهم إلى عذاب النار بمقتضى السُّنن الموضوعة. وكُل أعمال الإنسان النفسانية، والبدنية، لها الأثر الذي يفضي بصاحبها إلى السعادة، أو الشقاء، وهي أعمال كسبية اختيارية، فالإنسان متمكّن من اختيار الحق، وترك الباطل، وترك الخبيث، وفعل الطيّب بما أعطاه الله من العقل، وبما نزَّل عليه من الوحي، فإذا حاد عن ذلك يكون قد ظلم نفسه، وعرَّضها للعذاب، والشَّقاء بأعماله التي مبدؤها كسبي، وأثرها اضطراريٌّ، وهذه السُّنن بقضاء الله وتقديره، ومن ثَمّ يصحُّ أن يقال: إنَّ الله قد اضطرّ الكافر إلى العذاب، وأَلْجَأَهُ إليه، وجعل الأرواح المدنَّسة بالأخلاق الذميمة، أو بالعقائد الفاسدة محلَّ سخطه، وموضع انتقامه في الآخرة، كما جعل أصحاب الأمراض القذرة عرضةً للأمراض في الدنيا.

الإعراب

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ الواو استئنافية ﴿لله﴾ خبر مقدّم ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ والجملة الإسمية مستأنفة، ولكنّها مرتبطة من حيث المعنى بقوله: ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ يعني: أنّه إن سعى ساع في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته، فليس ذلك مانعاً من أداء العبادة في غيرها؛ لأنّ المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى. ذكره في «الفتوحات» ﴿فَأَيْنَمَا﴾ الفاء فاء الفصيحة، مبنية على الفتح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن المشرق والمغرب لله تعالى، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ ﴿أين﴾ اسم شرط جازم يجزم فعلين في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بفعل الشرط؛ أعني:

تولّوا ﴿ما﴾ زائدة زيدت، لإفادة العموم ﴿تُوَلُّواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بأين على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، والواو ضمير لجماعة المخاطبين في محل الرفع فاعل ﴿فَثَمَّ﴾ الفاء رابطة لجواب أين الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿ثَمَّ﴾ اسم إشارة يشار به للمكان البعيد في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً مقدّماً ﴿وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ مبتدأ مؤخّر ومضاف إليه، والجملة الإسمية في محل الجزم بأين على كونها جواباً لها، وجملة أين الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿وَٰسِعٌ﴾ خبر أوّل له ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ و﴿ٱتَّخَذَ﴾ هنا بمعنى: صنع، يتعدّى إلى مفعول واحد ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ ﴿سبحان﴾ مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبّح سبحانه؛ أي: أنزّه الله تعالى عن اتخاذ الولد تنزيهاً، والهاء ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة في محل الجر مضاف إليه، وجملة التسبيح معترضة، فهو تعالى نزّه نفسه بنفسه ﴿بَل﴾ حرف عطف وإضراب، أو حرف ابتداء وإضراب ﴿لَّهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بمحذوف صلة الموصول ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾ عطف اسمية على فعلية، أو مستأنفة ﴿كُلّٞ﴾ مبتدأ وسوّغ الابتداء بالنكرة؛ ما فيه من العموم، والتنوين عوض عن مضاف إليه محذوف؛ أي: كل فرد من أفراد المخلوقات ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بقانتون، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة

الإسمية مستأنفة، وجمع الخبر؛ مراعاة لمعنى كل، وجمعه جمع العقلاء؛ تغليباً لهم على غيرهم ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو بديع السموات، والجملة مستأنفة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات، وهو من باب إضافة الصفة المُشبَّهة إلى فاعلها، والأصل: بديعٌ سمواته ﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه متعلّق بالجواب ﴿قَضَىٰٓ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿أَمْرًا﴾ مفعولٌ به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذا على كونها فعل شرط لها ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء رابطة لجواب إذا جوازاً ﴿إنما﴾ أداة حصر ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلّق بيقول، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿كُن﴾ مقولٌ محكي ليقول منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بسكون الحكاية، وهو أمر من كان التامة، بمعنى: أُحْدُثْ، وكذلك قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: يحدث ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء استئنافية ﴿يكون﴾ فعل مضارع تام، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَمْرًا﴾ والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو يكون، والجملة الإسمية مستأنفة أيضاً، ويعزى هذا القول إلى سيبويه، وقال الزجاج، والطبري: إنّ جملة قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ معطوف على جملة ﴿يَقُولُ﴾ والفاء حينئذٍ عاطفة، وقال الفارسي: معطوفة على ﴿كُن﴾ من حيث المعنى. ذكره في «الفتوحات».

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: ﴿وقالوا﴾ أو مستأنفة، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ مقول محكي، لقال، منصوب بفتحة مقدرة على الأخير، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى: هلاّ، والتحضيض: الطلب بحثّ وازعاج ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿أَوْ﴾

حرف عطف وتفصيل، ﴿تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُكَلِّمُنَا﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف اسم بمعنى: مثل، في محل النصب على أنّه صفة لمصدر محذوف قدّم على عامله؛ لإفادة الحصر، تقديره: قولاً مثل قول الذين لا يعلمون، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول، تقديره: قال الذين كانوا من قبلهم ﴿مِّثْلَ﴾ بدل من الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بدل كل من كل، جيء به؛ لتأكيد معنى المثلية، وهو مضاف ﴿قَوْلِهِمْ﴾ مضاف إليه مجرور ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة؛ لتقرير ما قبلها ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق ببينا، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لقوم.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من المفعول في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: حال كونك ملتبساً بالحق، أو من الفاعل؛ أي: حالة كوننا ملتبسين بالحق، والأوّل أولى؛ لموافقة ما بعده ﴿بَشِيرًا﴾ حال ثانية من الكاف أيضاً، تقديره: حالة كونك مبشراً بالجنة لمن اتبعك ﴿وَنَذِيرًا﴾ معطوف على ﴿بَشِيرًا﴾؛ أي: وحالة كونك منذراً لمن خالفك بالعذاب ﴿وَلَا﴾ الواو استئنافية على الأرجح، أو عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿تُسْـَٔلُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالضمّة، ونائب فاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿إن﴾ ﴿عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتسأل.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَلَن﴾: الواو استئنافية ﴿لن﴾ حرف نصب ونفي ﴿تَرْضَىٰ﴾ فعل مضارع منصوب بلن ﴿عَنكَ﴾ متعلق بترضى، ﴿ٱلْيَهُودُ﴾ فاعل ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ معطوف على

﴿ٱلْيَهُودُ﴾ والجملة مستأنفة ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جرّ وغاية بمعنى: إلى ﴿تَتَّبِعَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، منصوب بأن مضمرة وجوباً، بَعْدَ حتى بمعنى: إلى ﴿مِلَّتَهُمْۗ﴾ مفعول به ومضاف إليه، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى: إلى، تقديره إلى اتباعك ملّتهم، الجار والمجرور متعلق بترضى ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ﴾ مقول محكي لقل، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْهُدَىٰۗ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَئِنِ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿ٱتَّبَعْتَ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه جواب القسم، تقديره: إن اتبعت أهواءهم فما لك من ولي ولا نصير، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق باتبعت ﴿جَآءَكَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِۙ﴾ حال من فاعل ﴿جاءَكَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية ﴿لَكَ﴾ خبر مقدم، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور تنازع فيه، كل من ولي ونصير ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخّر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾، والتقدير: ما ولي ولا نصير من عذاب الله كائنان لك، والجملة الإسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب؛ جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: من أنّه إذا اجتمع شرط وقسم، يحذف جواب المتأخر منهما، كما قال ابن مالك:

واحـذف لـدى اجتـمـاع شـرط وقَـسَـمْ　　جــواب مــا أخــرّت فــهــو مــلــتَــزَمْ

وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ أول ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ ولكنّها حال

مقدّرة؛ لأنّهم لم يكونوا تالين حال إبتائه، تقديره: حالة كونهم تالين إياه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بالنون ﴿بِهِۦۗ﴾ متعلق بيؤمنون، والجملة الفعلية خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿يَكۡفُرۡ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على مَن مجزوم بمَن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بيكفر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط وجوباً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يا حرف نداء ﴿بني إِسْرَائيلَ﴾ منادى مضاف منصوب بالياء ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة الطلبية جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ اسم موصول صفة لنعمتي، ﴿أَنۡعَمۡتُ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: التي أنعمتها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق بأنعمت ﴿وَأَنِّي﴾ الواو عاطفة ﴿أنى﴾ ناصب واسمه ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بفضّلت، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ تقديره: اذكروا نعمتي التي أنعمتها عليكم، وتفضيلي إياكم على العالمين.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فعل أمر معطوف على ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿يَوۡمٗا﴾ مفعول به ﴿لَّا﴾ نافية ﴿تَجۡزِي نَفۡسٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ليوماً، ولكنّها سببية، والرابط محذوف، تقديره: لا تجزي فيه نفس ﴿عَن نَّفۡسٖ﴾ متعلق بتجزي ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفعول به لتجزي ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَّا﴾ زائدة زيدت؛ لتأكيد نفي ما قبلها ﴿يُقۡبَلُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة ﴿مِنۡهَا﴾ متعلق بيقبل

﴿عَدْلٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة لا تجزي، والرابط أيضاً محذوف، تقديره: فيه ﴿وَلَا تَنفَعُهَا﴾ فعل ومفعول به ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تَجْزِى﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَّا﴾ نافية مهملة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ من الفعل المغيّر، ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّا تَجْزِى﴾.

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذِ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذِ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! لأمتك قصة إذ ابتلى إبراهيم، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾ فعل ماض ﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾ مفعول مقدّم على فاعله وجوباً؛ لاتصال الفاعل بضميره، فلو قدم الفاعل عليه لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، قال ابن مالك:

وشاع نحو خاف ربَّه عمرْ وشذّ نحو زان نوره الشجر

﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، وهذا على القراءة المشهورة، وأمّا على القراءة غير المشهورة فـ﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾ فاعل و﴿رَبَّهُ﴾ مفعول به، والتركيب جار على أصله ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ متعلق بابتلى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الفاء عاطفة ﴿أتمهن﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، ومفعول به معطوف على ابتلى، ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الربّ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال ربّه حين أتمّ الكلمات؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّى﴾ ناصب واسمه ﴿جَاعِلُكَ﴾ خبره ومضاف إليه، وهو من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله الأول ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بجاعلك، أو بمحذوف حال من ﴿إِمَامًا﴾؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، والأصل إماماً كائناً للناس ﴿إِمَامًا﴾ مفعول ثانٍ لجاعلك، وجملة إنّ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة واقعة

في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد قول الربّ: إني جاعلك للناس إماماً. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيْ﴾ الواو عاطفة في المعنى على معنى ﴿جَاعِلُكَ﴾ عطفاً تلقينياً ﴿من ذريتي﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف، تقديره: واجعل من ذرّيتي إماماً للناس، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر أيضاً، كأنّه قيل: ماذا قال ربّه؟ فقيل: قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى. . .﴾ الخ؛ ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَنَالُ﴾ فعل مضارع ﴿عَهْدِى﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! قصة ﴿إذ قال ربّك﴾، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أو مستأنفة ﴿جَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ مفعول أول ﴿مَثَابَةً﴾ مفعول ثان ﴿لِّلنَّاسِ﴾ متعلق بجعلنا، أو محذوف صفة لـ﴿مَثَابَةً﴾. ﴿وَأَمْنًا﴾ معطوف على ﴿مَثَابَةً﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ الواو عاطفة لقول محذوف، تقديره: وقلنا لهم، قلنا: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿اتخذوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باتخذوا ﴿مُصَلًّى﴾ مفعول ﴿اتخذوا﴾. ﴿وَعَهِدْنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ متعلق بعهدنا ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ معطوف على ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. ﴿أَن﴾ مفسرة، بمعنى: أي، مبني على السكون ﴿طَهِّرَا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعل ﴿بَيْتِىَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ متعلق بطهّراً ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ معطوف على ﴿الطائفين﴾ ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ معطوف أيضاً على ﴿الطائفين﴾ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ معطوف عليه أيضاً، ولما كان الركوع

والسجود بمثابة كلمة واحدة؛ لأنّ الركوع والسجود ركنان متّصلان، أسقط حرف العطف من بينهما، ونزّلهما منزلة الكلمة الواحدة، ولو عطف السجود بالواو، ولأوهم أنهما عبادتان منفصلتان.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! قصة ﴿إذ قال إبراهيم﴾، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لقال إبراهيم، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱجْعَلْ﴾ فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة في محل النصب مفعول أوّل لأجْعل ﴿بَلَدًا﴾ مفعول ثان ﴿ءَامِنًا﴾ صفة لبلداً، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به معطوف على ﴿ٱجْعَلْ﴾. ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بارزق ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب بدل من ﴿أَهْلَهُۥ﴾ بدل بعض من كل، والرابط ضمير ﴿مِنْهُم﴾ ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿مِنْهُم﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بآمن ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿وَمَن كَفَرَ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة عطفاً تلقينياً على محذوف، تقديره: من آمن أرزقه من الثمرات، ومن كفر أمتعه قليلاً، والجملة المحذوفة مع ما عطف عليها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، أو اسم شرط في محل الرفع مبتدأ ﴿كَفَرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونه فعل شرط لها، إن قلنا:

﴿مَنْ﴾ اسم شرط، وجملة الشرط في محل الرفع خبر ﴿مَنْ﴾ الشرطية، أو الخبر جملة الجواب، أو هما. إن قلنا: ﴿مَنْ﴾ شرطية، أو الجملة الفعلية صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة إن قلنا: ﴿مَنْ﴾ موصولة، والعائد ضمير الفاعل في ﴿كَفَرَ﴾ ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية جوازاً. إن قلنا: ﴿مَنْ﴾ شرطية، أو زائدة في خبر المبتدأ، لما في المبتدأ من شبه الشرط إن قلنا ﴿مَنْ﴾ موصولة ﴿أمتّعه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو على الظرفية، أي: زماناً قليلاً، والجملة الفعلية في محل الجزم بمن الشرطية. إن قلنا: إنّها اسم شرط، أو خبر المبتدأ. إن قلنا: إنها موصولة، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أمتّعه﴾ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأَضطّره ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو استئنافية، ولا يصحّ هنا كونها عاطفة؛ لئلاّ يلزم علينا عطف الإنشاء على الإخبار، كما في المغني ﴿بئس﴾ فعل ماض لإنشاء الذمّ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل بئس، والجملة مستأنفة لإنشاء الذمّ، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: النار أو عذابها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ هما من الألفاظ الشاذة التي انفردت بالكسر على الشذّوذ، لما علم عند الصرفيين أنّه إذا لم تكسر عين المضارع، فحق اسم المصدر، والمكان، والزمان، فتح العين قياساً لا تلاوة ﴿أينما تولوا﴾ أصل تولّوا: تُولِّيُون، حذفت منه نون الرفع للجازم، ثم استثقلت الضمة على الياء؛ فحذفت تخفيفاً، فسكنت فالتقى ساكنان، الياء، والواو، فحذفت الياء، وصُحّحت حركة اللام بجعلها ضمة، لتناسب الواو، فصار تولّوا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وثَمَّ: اسم إشارة للمكان البعيد خاصّةً، مثل: هَنَّا وهِنَّا بتشديد النون، وهو مبني؛ لتضمّنه معنى حرف الإشارة، وفي «المختار»: الوجه والجهة بمعنًى، والهاء عِوضٌ عن الواو؛ أي: فثمّ جهته التي ارتضاها قبلةً، وأمر بالتوجه نحوها ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ واتخذ افتعَلَ من تَخِذَ بكسر العين يَتْخَذُ، بفتحها، في المضارع،

فأدغمت فاءُ الفعلِ التي هي التاء الأولى في تاء الافتعال، والمادةُ معناها بمعنى: أخذ، فتَخِذَ وأخذ بمعنى واحدٍ، خلافاً لابن الأثير القائل: بأنّها مادّة مستقلّة، وليست من الأخذ في شيء محتجّاً بأنّ فاء الأخذ همزة، والهمزة لا تدغم في التاء؛ يعني: أنّ افتعل من أخذ قياسه ائتخذ.

قلت: قول ابن الأثير: إنّ فاء الكلمة إذا كان همزة لا يبدل تاء إن كان يعني قياساً، فمسلَّمٌ، وإلاّ فإبدال الهمزة ياءً، وإبدال الياء تاءً، وإدغامها في تاء الافتعال واردٌ، لكنّه شاذٌّ كما عقد ذلك ابن مالك في باب التصريف بقوله:

ذو اللِّيْنِ فَاتَا في افْتِعالٍ أُبْدِلا وَشذّ في ذي الهمز نَحْوُ ائْتَكَلا

يعني: أنَّ فاء الكلمة إذا كان همزةً شذَّ إبدالها تاءً، كما قالوا: اتكل، واتَّزَرَ بإبدال الياء المبدلة من الهمزة تاءً، ولكن الأشمونيَّ وافق ابن الأثير، ونسب الجوهريَّ إلى الوهم في دعواه أنّها من الأخذ، كما نسبه ابن الأثير في النهاية، أمّا صاحب «القاموس»: فقد وافق الجوهري في مذهبه مصدِّراً به كلامه، ثم ذكر كلام ابن الأثير الذي نقَلْتُه، وعلى كل حالٍ اتخذ وزنه افتعل، سواء أكان من الأخذ، أو من تخذ، وذهب بعض المتأخّرين إلى أنَّ اتخذ أصله: وخذ واويُّ الفاء، وعليه يكون إبدالها تاءً جاء على اللغة الفصحى من إبدال فاء الكلمة تاء إذا كان حرف لين، وبني منها افتعالٌ، والله أعلم.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من باب الصفة المشبهة التي أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل، والأصل: بديعٌ سمواته؛ أي: بدعت لمجيئها على شكلٍ فائق حسنٍ غريب، ثمّ شبّهت هذه الصفة باسم الفاعل، فتنصب ما كان فاعلاً، ثُمَّ أضيفت إليه تخفيفاً، وهكذا كل ما جاء من نظائره بالإضافة لا بدّ، وأن تكون من نصبٍ؛ لئلا يلزم إضافة الصفة إلى فاعلها، وهو لا يجوز، كما لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل. اهـ. «سمين». وفي «القاموس»: وبَدُعَ، ككرم بداعةً وبدوعاً. اهـ.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أصله: قَضَيَ بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، والقضاء له معانٍ كثيرةٌ، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، فيكون

بمعنى خلق، نحو: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ وبمعنى: أعلم، نحو: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وبمعنى: أمر، نحو: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وبمعنى: وفى، نحو: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ وبمعنى: ألزم، نحو: قضى بكذا، وبمعنى: أراد، نحو: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ وبمعنى: قدر وأمضى تقول: قضى يقضي قضاء. اهـ. من «السمين». ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ أمرٌ من كان التامة، فأصل كن: يَكْوُن بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فسكنت فالتقى ساكنان، الواو، وآخر الفعل المسكن لبناء الأمر، فحذفت الواو، فصار كن بوزن فل ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أصله: ييقنون من اليقين، أبدلت الياء واواً؛ لسكونها إثر ضمة، كما قال ابن مالك في باب الإبدال من «الخلاصة»:

ووجب:

إبــدالُ واوٍ بَــعْــدَ ضــمٍ مِــنْ أَلِــفْ　　وَيــا كَــمُــوقِــنٍ بِــذَالِــهــا اعْــتَــرِف

بمعنى: أنَّ الألف إذا كانت قبلها ضمَّة أبدل واواً، كوارى إذا بُني للمجهول، يقال: وُورِي، وأنَّ الياء إذا سُكِّنت بعد ضمٍّ أُبدلت واواً، كما في يوقنون، يُيْقنون من اليقين، وكذلك موسرٌ، أصله: مُيْسِرٌ من اليسار ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وفي «القاموس»: الجحيم: النار الشديدة التأجُّج، وكُلُّ نار بعضها فوق بعض، وجحمها كمنعها أوقدها، فجَحُمَت، ككَرُمت جحوماً، وجَحِمت، كفَرِح جحماً وجحماً وجحوماً اضطرمت، والجاحم: الجمر الشديد الاشتعال، ومن الحرب معظمها. اهـ.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾ أصل ترضى: ترضَي بوزن تفعَل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، والرضا ضدُّ الغضب، وهو من ذوات الواو لقولهم: الرضوان، والمصدر رِضًى ورضاءً بالقصر والمدّ، ورضوانٌ بكسر الراء وضمّها، وقد يضمَّن معنى عطف، فيتعدَّى بعلى، كقوله:

إذا رَضِــيَــتْ عــلــيَّ بــنــو قــشــيــر　　لــعــمــر الله أعــجــبــنــي رضــاهــا

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يتلون مضارع من تلا يتلو واويُّ اللام، وأصل يتلون: يتلوون بواوين الأولى لام الكلمة، والثانية واو الجماعة، فحذفت حركة الواو

الأولى لام الكلمة؛ للتخفيف، فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت لام الكلمة، وبقيت واو الجماعة، فوزنه يفعون.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أصله: ابتلَيَ بوزن افتعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أصله: أتممهنَّ بوزن أفعل، نقلت حركة الميم الأولى إلى التاء، فسكنت فأدغمت في الميم الثانية ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ جاعلك: اسم فاعل من جعل بمعنى صيَّر، فيتعدَّى لاثنين أحدهما الكاف، وفيها الخلاف المشهور، والإمام: اسمٌ لكل ما يُؤْتَمُّ به؛ أي: يقصد ويتَّبع، كالإزار: اسمٌ لما يؤتزر به، ومنه قيل لخيط البناء: إمام. اهـ. «سمين».

﴿يَنَالُ عَهْدِى﴾ أصله: يَنْيَل بوزن يفعل؛ لأنَّ نال أصله نيل بكسر العين في الماضي يائيُّ العين، نقلت حركة الياء إلى النون، ثمّ قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. فقيل: ينال. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أصله: مَثْوُبةٌ بوزن مفعلة: اسم مكان من ثاب يثوب، نقلت حركة الواو إلى الثاء، فسكنت الواو، وتحركت الثاء بالفتح، لكن الواو قلبت ألفاً؛ نظراً لتحركها في الأصل، ونظراً إلى فتح ما قبلها في الحال، ويحتمل أن تكون من الثواب، لأنَّ الناس يثابون عند البيت على الطواف به، والصلاة حوله، أمَّا على المعنى الأول، فلأنَّ الناس يثوبون إلى البيت؛ أي: يرجعون إليه لا يقضون وطرهم منه ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ اسم مكان من قام يقوم ووزنه مفعلٌ بفتح العين، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت ثمّ أبدلت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن ﴿مُصَلًّى﴾ أصله: مصلوٌ، لأنّ ألفه منقلبةٌ عن واو؛ لأنّ الصلاة من ذوات الواو ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أصله: للطاوفين من طاف يطوف، وأصل طاف: طَوَف، أعِلَّت بقلب الواو في الفعل ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ولمّا أُعلّ الفعل حمل عليه الوصف، فأُعِلَّ بإبدال الواو همزةً، وهو جمع طائف اسم فاعل من طاف يطوف، ويقال: أطاف رباعيًّا، وهذا من باب فعل وأفعل بمعنًى ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ جمع عاكف من العكوف، وهو لغة: اللزوم واللُّبْث، يقال: عكف يعكف، ويعكف بالفتح في الماضي، والضمّ والكسر في المضارع ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أصله: اضطرره بوزن افتعل، أبدلت تاء الافتعال طاء، ثمّ أدغمت الراء الأولى في الثانية ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصدرٌ ميميٌّ من صار،

أصله: مَصْيِر بوزن مَفْعِل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مدّ، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، لغرض بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا أن لله ولداً.

ومنها: تغليب العقلاء على غيرهم في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ لأنَّ غيرهم لا يجمع هذا الجمع؛ لأن التغليب من المحسنات البديعيَّة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بأن شبِّهت الحال التي تتصوَّر من تعلق إرادته تعالى بشيءٍ من المكوَّنات، وسرعة إيجاده إياه بحالة أمر الآمر النافذ تصرُّفه في المطيع، لا يتوقَّف في الامتثال، فأطلق على هذه الحالة ما كان يستعمل في تلك، من غير أن يكون هناك أمر ولا قولٌ.

ومنها: التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة أصحاب الجحيم في قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ إيذاناً بأنَّ أولئك المعانِدِيْنَ من المطبوع على قلوبهم، فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال، إلى الإيمان والإذعان.

ومنها: إيراد الهدى معرَّفاً باللام، مع اقترانه بضمير الفصل في قوله؛ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ لإفادة القصر؛ أي: قصر الهداية على دين الله، فهو من باب قصر الصفة على الموصوف، فالإسلام هو الهدى كلُّه، وما عداه فهو هوًى وعمًى.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ. حيث كرَّره في أوّل السورة وهنا؛ لإفادة التوكيد، وتذكيراً للنعم.

ومنها: التعرض بعنوان الربوبية في قوله: ﴿إذ ابتلى إبراهيم ربُّه﴾؛ إيذاناً بأنّ ذلك الابتلاء تربيةٌ له، وترشيحٌ لأمرٍ خطيرٍ، إذ المعنى: عامله معاملة

المختبر، كلَّفه بأوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿رَبُّهُۥ﴾؛ لتشريف المضاف إليه الذي هو ضمير الخليل عليه السلام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَمْنًا﴾؛ أي: ذا أمْنٍ، وهو أظهر من جعله بمعنى: اسم الفاعل؛ أي: آمنا على سبيل المجاز.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ نظير ناقة الله.

ومنها: عطف أحد الوصفين على الآخر في قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾؛ إفادةً لتباين ما بينهما.

ومنها: ترك عطف إحدى الصفتين على الأخرى في قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ إفادةً بأنَّ المراد منهما شيءٌ واحدٌ وهو الصلاة، إذ لو عطف لتوهّم أنَّ كلا منهما عبادةٌ مستقلة.

ومنها: جمع الصفتين الأوليين جمع سلامة، والأخريين جمع تكسير؛ لغرض المقابلة، وهو نوع من الفصاحة.

ومنها: تأخير صيغة فُعول عن فعَّلٍ؛ لكونها فاصلةً.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ حيث أسند الأمن إلى البلد؛ للمبالغة، مع أنّ المقصود: أمن المتلجىء إليه من إسناد ما للحال إلى المحل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ حيث شبه حالة الكافر المذكور، بحالة من لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، فاستعمل في المشبَّه ما استعمل في المشبه به.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا[1] ذكر العرب بما أنعم عليهم من بناء البيت، وجَعْلِهِ مثابةً للناس وأمْناً، وبدعاء إبراهيم عليه السلام لقاطن هذا البلد الحرام باستجابته تعالى دعاءَه، إذ جعله بلداً آمناً تجبى إليه الثمرات من شاسع الأقطار؛ ليتمتَّع بها أهله، وبعهده إلى إبراهيم وإسماعيل بأن طهّرا بيته للطائفين، والعاكفين، والركّع السجود؛ تنبيهاً لهم إلى أنّه لا ينبغي أن يعبد فيه غيره، فيجب تنزيهه عن الأصنام، والتماثيل، وعبادتها الفاسدة انتقل بهم إلى التذكير بأنَّ الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم الخليل، بمعونة ابنه إسماعيل عليهما السلام؛ ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذي ينتمون إليه، ويفاخرون به، وقد كانت قريشٌ تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل، وتدّعي أنها على ملّة إبراهيم، وسائر العرب في ذلك تَبَعٌ لقريش.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر[1] أنّه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمَّهنّ، وأنّه عهد إليه ببناء البيت، وتطهيره للعبادة، فصدع بما أمر.. أردف ذلك بذكر أنَّ ملّة إبراهيم التي كان يدعو إليها، وهي التوحيد، وإسلام القلب لله، والإخلاص له في العمل لا ينبغي التحوُّل عنها، ولا يرضى عاقلٌ أن يتركها إلاَّ إذا ذلَّ نفسه، واحتقرها، وبها وصَّى يعقوب بنيه، ووصَّى بها من قبله إبراهيم بنيه، ثم ردَّ على شُبْهَةٍ لليهود، إذْ قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ يعقوب كان يهوديًّا وكذَّبهم بما قال له بنوه حين موته: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ... إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ الآية، قد روي في سبب نزول هذه الآية: أنَّ عبد الله بن سلام، دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، قال لهما: قد علمتما أنَّ الله تعالى قال في التوراة: إنّي باعثٌ من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى، ومن لم يؤمن فهو ملعون، فأسلم سلمة، وأَبَىٰ مهاجرٌ الإسلام، فنزلت فيه هذه الآية، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هي القاعدة، عندهم وفيه تعريضٌ لليهود، والنصارى، ومشركي العرب.

التفسير وأوجه القراءة

ثُمَّ قال تعالى: حكايةً عن قصة بناء البيت العتيق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فيه[2] حكاية حالٍ ماضيةٍ، حيث عبَّر بلفظ المضارع عن الرفع الواقع في الزمان المتقدِّم على زمان نزول الوحي، بأن يقدَّر ذلك الرفع السابق واقعاً في الحال، كَأَنَّكَ تُصَوِّرُه للمخاطب، وتُرِيْهِ على وَجْهِ المشاهدةِ والعِيان ﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ جمع

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

قاعدة، وهي في الأصل: صفةٌ بمعنى الثابتة، ثُمَّ صارت بالغلبة من قبيل الأسماء بحيث لا يذكر لها موصوفٌ، ولا يقدَّر، ولعل لفظ القعود حقيقةٌ في الهيئة: المقابلة للقيام، ومستعارٌ للثبات والاستقرار؛ تشبيهاً له بها في أنَّ كُلاًّ منهما حالةٌ مباينةٌ للانتقال والنزول، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ حالٌ من القواعد، وكلمة من ابتدائية لا بيانية؛ لعدم صحّة أن يقال: الَّتي هي البيت.

فإن قلت: رفع الشي أن يفصل عن الأرض، ويجعل عالياً مرتفعاً، والأساس أبداً ثابتٌ على الأرض، فما معنى رفعه؟

قلت: المراد برفع الأساس: البناء عليه، وعبَّر عن البناء على الأساس برفعه؛ لأنَّ البناء ينقله عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، فيوجد الرفع حقيقةً إلاّ أنَّ أساس البيت واحدٌ، وعبَّر عنه بلفظ القواعد باعتبار أجزائه، كأنَّ كُلَّ جزء من الأساس أساسٌ لما فوقه، والمعنى: واذكر يا محمد! وقت رفع إبراهيم أساس البيت؛ أي: الكعبة ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ ولده، وكان له أربعة بنين: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ومدين، ومداين من امرأة أخرى، وهو عطفٌ على إبراهيم، وتأخيره عن المفعول مع أنَّ حقَّ ما عطف على الفاعل أنْ يُقدَّم على المفعول؛ للإيذان بأنَّ الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبعٌ له. قيل: إنّه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها.

واعلم: أنَّ رفع الأساس الذي هو البناء عليه، يدلّ على أنَّ البيت كان مؤسَّسا قبل إبراهيم، وأنّه إنما بنى على الأساس الموجودة قبله، واختلف الناس فيمن بنى البيت أوّلاً، وأسَّسه؟ فقيل: هو الملائكة، وذلك أنَّ الله تعالى لما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فغضب عليهم، فعاذوا بعرشه، وطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم حتى رضي عنهم، وقال لهم: (ابْنُوا لي بيتاً في الأرض، يتعوَّذ به من سخطت عليه من بني آدم، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي، فأرضى عنهم) فبنوا هذا البيت. وقيل: إنّ الله بنى في السماء

بيتاً وهو البيت المعمور، ويسمَّى ضراحاً، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله. وقيل: أوّل من بنى الكعبة: آدم، واندرست زمن الطوفان، ثُمَّ أظهرها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: (لمّا أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض، قال له: (يا آدم! اذهب فَابْنِ لي بيتاً، وطف به، واذكرني عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي) فأقبل آدم يتخطَّى، وطويت له الأرض، وقيِّضت له المفاوز، فلا يقع قدمه على شيء من الأرض إلاّ صار عامراً، حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام، وأنَّ جبريل ضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن الأسِّ الثابت على الأرض السابعة السفلى، وقدَّمت إليه الملائكة بالصخر، فما يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وأنَّه بناه من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتاء، ولبنان وهو جبلٌ بالشام، والجوديّ هو جبلٌ بالجزيرة، وحراء وهو جبلٌ بمكة، وكان رَبَضُهُ من حراء؛ أي: الأساس المستدير بالبيت من الصخر، فهذا بناء آدم) وروي أنَّ الله خلق موضع البيت قبل الأرض بألفي عام، وكانت زُبَيْدَةً بيضاء على الماء، فدحيت الأرض من تحته، فلما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض استوحش، فشكا إلى الله، فأنزل الله البيت المعمور من ياقوتةٍ من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد أخضر، بابٌ شرقيٌّ، وبابٌ غربيٌّ، فوضعه على موضع البيت، وقال (يا آدم! إنّي أهبطت لك بيتاً، فطف به كما يطاف حول عرشي، وصلّ عنده كما يُصلَّى عند عرشي، وأنزل الحجر، وكان أبيض، فاسودَّ من لمس الحيَّض في الجاهلية. فتوجَّه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشياً، وقيَّض الله له ملكاً يدله على البيت، قيل لمجاهد: لِمَ لَمْ يركب قال: وأيُّ شيء كان يحمله إنَّ خُطْوَتَهُ مسيرة ثلاثة أيام، فأتى مكة، وحجَّ البيت، وأقام المناسك، فلمَّا فرغ تلقَّته الملائكة، فقالوا: برَّ حجُّك يا آدم! لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (حَجَّ آدم أربعين حجةً من الهند إلى مكة على رجليه، فبقي البيت يطوف به هو والمؤمنون من ولده إلى أيام الطوفان، فرفعه الله تعالى في تلك الأيام إلى السماء الرابعة، يدخله كُلَّ يوم سبعون ألف ملك، ثمّ لا يعودون إليه، وبعث الله جبرائيل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل

أبي قبيس؛ صيانةً من الغرق، وكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام، ثُمَّ إنّ الله تعالى أمر إبراهيم ببناء بيت يذكر فيه، فسأل الله تعالى أن يُبيِّن له موضعه، فبعث الله السكينة لتدلَّه على موضع البيت، وهي ريحٌ حجوجٌ لها رأسان شبه الحيَّة، وأمر إبراهيم أن يبني حيث استقرَّت السكينة، فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة، فتطوَّت السكينة على موضع البيت؛ أي: تحوت، وتجمَّعت، واستدارت، كتطوِّي الحجفة، ودورانها، فقالت لإبراهيم: ابن على موضعي الأساس، فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، فقال لابنه: يا بني! ائتني بحجرٍ أبيض يكون للناس علماً، فأتاه بحجر، فقال: ائتني بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه، فصاح أبو قبيسٍ، يا إبراهيم! إنّ لك عندي وديعةً، فخذها، فإذا هو بحجرٍ أبيض من ياقوت الجنة، كان آدم قد نزل به من الجنة، كما وجد في بعض الروايات، أو أنزله الله تعالى حين إنزال البيت المعمور، كما مرَّ، فأخذ إبراهيم ذلك الحجر فوضعه مكانه، فلمَّا رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، جاءت سحابة مربَّعة فيها رأسٌ فنادت: أن ارفعا على تربيعي، فهذه بناء إبراهيم عليه السلام.

وروي أنَّ إبراهيم وإسماعيل لمَّا فرغا من بناء البيت، أعطاهما الله تعالى الخيل جزاء معجَّلاً على رفع قواعد البيت، وكان الخيل قبل ذلك وحشيَّةً كسائر الوحوش، فلمَّا أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع القواعد، قال الله تعالى: (إنّي معطيكما كنزاً ادّخرته لكما، ثُمّ أوحى إلى إسماعيل أن أخرج إلى أجياد، فادع يأتك الكنز) فخرج إلى أجياد ولا يدري ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه الله تعالى، فدعا، فلم يبق على وجه الأرض فرسٌ بأرض العرب إلاّ جاءته، فأمكنه من ناصيتها، وذلّلها له وقال النبي ﷺ: «فاركبوها واعلفوها، فإنّها ميامين، وهي ميراث أبيكم إسماعيل» وإنّما سمّي الفرس عربيًّا؛ لأنَّ إسماعيل هو الذي أمر بدعائه، وهو أتى إليه، والعربيُّ: نسبةٌ إلى عربة بفتحتين، وهي باحة العرب؛ لأنَّ أباهم إسماعيل نشأ بها. قيل: كان إبراهيم يتكلَّم بالسريانية، وإسماعيل بالعربية، وكُلٌّ واحد منهما يفهم ما يقوله صاحبه، ولا يمكنه التَّفوُّه به. وأمَّا بنيان قريش إياه فمشهور، فخبر الحيَّة في ذلك مذكور، وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن

اجتمعت قريش، فعجُّوا إلى الله تعالى؛ أي: رفعوا أصواتهم، وقالوا: لم تراع وقد أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فإنْ كنت ترضى بذلك، وإلاّ فما بدا لك فافعل، فأُسمِعوا خوّاتاً في السماء، والخوّات: دَوِيُّ جناح الطير الضَّخم؛ أي: صوته، فإذا هم بطائر أعظم من النَّسر، أسود الظهر، أبيض البطن والرجلين، فغمز مخالبه في قفا الحيَّة، ثمّ انطلق بها تَجُرُّ ذَنبَها أَعْظَمَ مِنْ كذا وكذا، حتى انطلق بها إلى أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريشٌ على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً. وذكر عن الزهري: أنّهم بنوها حتى إذا بلغوا موضع الركن، اختصمت قريشٌ في الرُّكْن، أيُّ القبائل تلي رفعه؟ حتى شجر بينهم، فقالوا: حتى نحكِّم أوّل من يطلع علينا من هذه السكَّة، فاصطلحوا على ذلك، فاطَّلع عليهم رسول الله ﷺ، فحكَّموه، فأمر بالركن، فوضع في ثوب، ثُمّ أمر سيّد كُلِّ قبيلة، فأعطاه ناحيةً من الثوب، ثمّ ارتقى هو على البناء، فرفعوا إليه الركن، فأخذه من الثوب، فوضعه في مكانه.

قيل: إنّ قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية، فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجلٌ من اليهود، فإذا فيه: أنا الله ذو مكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصوَّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاكٍ احتفاءً لا يزول حتى يزول أخشباها، مبارك لأهلها في الماء، واللبن. وعن أبي جعفر: كان باب الكعبة على عهد العماليق، وجرهم، وإبراهيم بالأرض، حتى بنته قريش. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سألت رسول الله ﷺ عن الجدار، أمن البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فلم لَمْ يدخلوه؟ قال: «إنّ قومك قصرت بهم النفقة» قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك، ولو حِدْثَانُهُمْ بالجاهليَّة لهدمت الكعبة، فأُلزِقُ بابها بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيه ستَّ أذرع من الحِجْر، فإنَّ قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة، فهذا بناء قريش. ثُمَّ لمّا غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير، ووهنت الكعبة من حريقهم، هدَّمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة، فجعل لها بابين باباً يدخلون منه، وباباً يخرجون منه، وزاد فيه مما يلي الحجر ستَّ أذرعٍ، وكان طولها قبل ذلك ثماني أذرع، ولمَّا زاد في البناء مما يلي الحجر، استقصر ما كان من طولها تسع أذرع، فلمَّا

قتل ابن الزبير، أمر الحجّاج أن يُقرِّر ما زاده ابن الزبير في طولها، وأن يُنقص ما زاده من الحجر، ويردَّها إلى ما بناها قريشٌ، وأن يسدَّ الباب الذي فتحه إلى جانب الغرب. وروي: أنَّ هارون الرشيد ذكر لمالك بن أنس، أنَّه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وأن يردَّها إلى بناء ابن الزبير، لِمَا جاء عن النبي ﷺ، وامتثلَهَ ابن الزبير، فقال له مالكٌ: ناشدتُك اللَّهَ يا أمير المؤمنين! أن لا تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك، لا يشاء أحدٌ منهم إلاّ نقض البيت بناءه، فتذهب الهيبة من صدور الناس. وفي «القسطلاني على البخاري»: ما نصُّه: وبنيت الكعبة عشرة مرات.

الأول: بناء الملائكة. روي أنّ الله أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتاً، وفي كل أرض بيتاً. قال مجاهد: هي أربعة عشر بيتاً. روي أنَّ الملائكة حين أسست الكعبة، انشقت الأرض إلى منتهاها، وقذفت الملائكة فيها حجارة، كأمثال الإبل، فتلك القواعد من البيت التي وضع عليها إبراهيم وإسماعيل بناءهما.

الثاني: بناء آدم. روي أنّه قيل له: أنت أوّل الناس، وهذا أوّل بيتٍ وضع للناس.

الثالث: بناء ابنه شيثٍ بالطين والحجارة، فلم يزل معموراً به، وبأولاده، ومَن بعدهم حتى كان زمن نوح، فأغرقه الطوفان، وغيَّر مكانه.

الرابع: بناء إبراهيم، وقد كان المُبلِّغ له ببنائه جبريل من الملك الجليل، ومن ثمَّ قيل: ليس ثمَّ في هذا العالم بيت أشرف من الكعبة؛ لأنَّ الآمر ببنائها الملك الجليل، والمبلِّغ، والمهندس جبريل، والباني الخليل، والمعين إسماعيل.

الخامس: بناء العمالقة.

السادس: بناء جرهم، والذي بناه منهم هو الحارث بن مضَّاض الأصفر.

السابع: بناء قصيٍّ خامس جدِّ النبي ﷺ.

الثامن: بناء قريش وحضره النبيُّ ﷺ وهو ابن خمسٍ وثلاثين سنة.

التاسع: بناء عبد الله بن الزبير، وسببه: توهين الكعبة من حجارة المنجنيق

التي أصابتها، حين حوصر ابن الزبير بمكة في أوائل سنة أربعٍ وستين، بمعاهدة يزيد بن معاوية، فهدمها بعد أن استخار واستشار، وكان يوم السبت منتصف جمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين، وبلغ بالهدم قامةً ونصفاً حتى وصل قواعد إبراهيم، فوجدها كالإبل المسنَّمة، وبعضها متصلٌ ببعضٍ، حتى إن من ضرب بالمعول طرف البناء تحرَّك طرفه الآخر، فبناها على قواعد إبراهيم، وأدخل فيها ما أخرجته منها قريشٌ من الحجر بكسر الحاء، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض، أحدهما: بابها الموجود الآن، والآخر: المقابل له المسدود، وكان ابتداء البناء في جمادى الآخرة، وختمه في رجب سنة خمسٍ وستين، ثمَّ ذبح مائة بدنةٍ للفقراء وكساهم.

العاشر: بناء الحجاج، وكان بناؤه للجدار الذي من جهة الحجر بكسر الحاء، والباب الغربيُّ المسدود عند الركن اليماني، وما تحت عتبة الباب الشرقيّ، وهو أربع أذرع وشبر، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير، واستمرَّ بناء الحجاج إلى الآن. انتهى ملخصاً. وهذا بحسب ما اطلع عليه رحمه الله تعالى، وإلاَّ فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألفٍ وتسعٍ وثلاثين، كما نقله بعض المؤرِّخين. اهـ. وقد نظم العشرة الأولى بعضهم، فقال:

بَنَى بَيْتَ ربِّ العَرْشِ عَشْرٌ فخذْهُمُ ... مـلائكـةُ الله الـكِـرامِ وآدَمُ

فَشِيثٌ فَإبْرَاهِيمُ ثُمَّ عَمَالِقٌ ... قُصَيٌّ قُرَيْشٌ قَبْلَ هَذَيـنِ جُرْهُمُ

وَعَبْدُ الإلـهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ بَنَى كَذَا ... بِنَاءٌ لِحَجَّاجٍ وَهَذَا مُتَمِّمُ

والمعنى: أي واذكر يا محمد! لأمّتك قصّة إذ يرفع ويبني إبراهيم الخليل، وولده إسماعيل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، القواعد، والأساس، والجدار المستتر في الأرض التي هي من بعض جدران البيت الموجودة قبله، والمراد برفعهما: البناء عليها، فإنَّها كانت موجودةً من قبل بنائه، غائصةً في الأرض إلى منتهاها، وإنما بنى عليها ورفع البناء فوقها؛ لأنَّها إذا بُنِيَ عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولت بعد التقاصر، وبناؤهما أنَّ إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة، ولكنَّه لمّا كان له دخلٌ في البناء عطف

عليه، وقيل كانا يبنيان في طرفين، أو على التناوب يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ وقد أظهر عبد الله (يقولان) في قراءته؛ أي: يرفعانها حالة كونهما قائلين ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ الدعاء، وغيره من القرب، والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من البناء؛ أي: حالة كونهما قائلين: ربّنا واقبل منّا ما عملنا لك! وطاعتنا إياك، وعبادتنا لك، وبناءَنا بيتك، وفُرِّق[1] بين القبول والتقبُّل: بأنَّ التَّقبُّل لكونه على بناء التكلُّف، إنّما يطلق حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحق أن يقبل إلا على طريق التفضُّل، والكرم، ولفظ القبول لا دلالة فيه على هذا المعنى، فاختيار لفظ التقبُّل اعتراف منهما بالعجز، والانكسار، والقصور في العمل ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها دعاؤُنا، وتضرُّعنا إليك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات التي من زُمْرَتها نياتنا في جميع أعمالنا، ودلَّ هذا القول، على أنّه لم يقع منهما تَقْصِير بوجه في إتيان المأمور به، بل بذلا في ذلك غاية ما في وسعهما، فإنّ المقصِّر المتساهل كيف يتجاسر على أن يقول بأطلق لسانٍ، وأرقِّ جنانٍ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟!

ودلت الآية أيضاً[2] على أنَّ الواجب على كُلِّ مأمور بعبادةٍ وقربةٍ إذا فرغ منها، وأدَّاها كما أمر بها، وبذل في ذلك ما في وسعه أن يتضرَّع إلى الله سبحانه، ويبتهل ليتقبَّل منه، ولا يردَّ عليه، فيضيع سعيه، وأن لا يقطع القول بأنَّ من أدَّى عبادةً وطاعةً تقبل منه لا محالةٍ، إذ لو كان هكذا لما كان لدعائهما بطريق التضرع ليقبل منهما معنًى، فالقبول والردُّ إليه تعالى، ولا يجب عليه شيءٌ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ أي: منقادين لحكمك مخلصين ﴿لَكَ﴾ بالتوحيد والعبادة، لا نعبد إلاّ إياك فالمراد بالمسلم: من يجعل نفسه وذاته خالصاً لله تعالى، بأن يجعل التذلُّلَ، والتعظيم الواقع منه لِلّسانِ، والأركانِ، والجَنَان خالصاً له تعالى، ولا يُعظِّم معه تعالى غيره، ويعتقد بأنَّ ذاتَه، وصفاتِه، وأفعالَه خالصةٌ له تعالى، خلقاً، وملكاً، لا مدخل في شيءٍ منها لأحدٍ سواه، أو المعنى: واجعلنا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

مستسلمين لك، منقادين بالرضى بكل ما قدَّرت، وبترك المنازعة في أحكامك، فإنّ الإسلام إذا وصل باللام الجارة يكون بمعنى الاستسلام والانقياد، والرضا بالقضاء.

فإنْ قلت[1]: لا شكَّ أنَّهما كانا مخلصين، ومستسلمين في زمان صدور هذا الدعاء منهما.

قلت: المراد طلب الزيادة في الإخلاص، والإذعان، أو الثبات عليه، فهذا تعليمٌ منهما الناس الدعاء؛ للتثبيت على الإيمان، فإنّهما لمّا سألا ذلك مع أمنهما من زواله عنهما، فكيف غيرهما مع خوفه، وسألا أيضاً الثبات على الانقياد، فأجيبا إلى ذلك حتى أسلم إبراهيم للإلقاء في النار، وإسماعيل للأمر بالذبح. ﴿و﴾ اجعل ﴿من ذرّيتنا﴾؛ أي: بعض أولادنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ أي: جماعةً منقادة لأمرك، مخلصةً لك بالتوحيد، والطاعة، والعبادة، خاضعةً لعظمتك؛ وإنَّما خصَّا الذريَّة بالدعاء مع أنَّ الأنسب بحال أصحاب الهمم، لا سيما الأنبياء أن لا يخصُّوا ذرّيَّتهم بالدعاء، لكنهما خصّاهم لوجهين:

الأول: كونهم أحقَّ بالشفقة، كما في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ فدعوا لأولادهما؛ ليكثر ثوابهما بهم، وفي الحديث: «ما مِن رجلٍ من المسلمين، يخلف من بعده ذريةٌ يعبدون الله تعالى، إلاَّ جعل الله له مثل أجورهم ما عبد الله منهم عابدٌ حتى تقوم الساعة».

والثاني: إنّه وإن كان تخصيصاً صورةً، إلاّ أنّه تعميمٌ معنى؛ لأنَّ صلاح أولاد الأنبياء سببٌ وطريقٌ لصلاح العامَّة، فكأنَّهما قالا: وأصلح عامة عبادك بإصلاح بعض ذريّتنا.

وخصَّا البعض من ذريّتهما[2]؛ لما علما أنَّ من ذريّتهما محسنٌ، وظالمٌ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

لنفسه مبينٌ، وطريق علمهما بذلك أمران، تنصيص الله تعالى بذلك بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والاستدلال بأنَّ حكمته تعالى تقتضي أن لا يخلو العالم عن أفاضل، وأواسط، وأراذل، فالأفاضل: هم أهل الله الذين أخلصوا أنفسهم لله تعالى، بالإقبال الكليِّ عليه. والأواسط: هم أهل الآخرة الذين يجتنبون المنكرات، ويواظبون على الطاعات؛ رغبةً في نيل المثوبات. والأراذل: هم أهل الدنيا الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، جُلُّ همَّتهم عمارة الدنيا، وتهيئة أسبابها.

وقد قيل: عمارة الدنيا بثلاثة أشياء: أحدها: الزراعة والغرس، والثاني: الحماية والحرب، والثالث: جلب الأشياء من مصرٍ إلى مصرٍ، ومن أكبَّ على هذه الأشياء، ونسي الموت، والبعث، والحساب، وسعى لعمارة الدنيا سعياً بليغاً، ودقَّق في إعمال فكره تدقيقاً عجيباً، فهو متوغِّلٌ في الجهل، والحماقة، ولهذا قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا. ﴿وَأَرِنَا﴾ أي بصرنا، أو عرفنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾؛ أي: مواضع نسكنا، أو أعمال نسكنا، والمناسك: جمع منسكٍ بفتح السين وكسرها، ويحتمل أن يكون المراد به: اسم مكان، فتكون الرُّؤية حنيئذٍ بصريةً، والمعنى: بصّرنا مواضع نسكنا؛ أي: المواضع التي يتعلَّق بها النسك؛ أي: أفعال الحج، نحو: المواقيت التي يحرم منها، والموضع الذي يوقف بعرفة، ومزدلفة، وموضع الطواف، والصفا والمروة، وما بينهما من المسعى، وموضع رمي الجمار، ويحتمل أن يكون المراد به: مصدراً لا اسم مكان؛ أي: أفعال الحج نفسها لا مواضعها، ويكون جمعه حينئذٍ لاختلاف أنواعه، وتكون الرُّؤية حينئذٍ علميَّةً؛ لأنَّ نفس الأفعال لا تدرك بالبصر بل ترى بعين القلب، والمعنى حينئذٍ: وعرِّفنا أفعال حجنا، وكيفيتها من الطواف، والوقوف، والرمي، والنُّسُك: كُلُّ ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى، وشاع في أعمال الحج؛ لكونها أشقَّ الأعمال بحيث لا تتأتَّى إلاّ بمزيد سعيٍ واجتهادٍ، فأجاب[1]

---

(١) الخازن.

الله تعالى دعاءَهما، فبعث جبريل، فأراهما المناسك في يوم عرفة، فلمَّا بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم! قال إبراهيم: نعم، فَسمِّي ذلك الوقت عرفة، والموضع عرفات. وفي قراءة ابن مسعود ﴿وأرهِم مناسكَهم﴾ بإعادة الضمير إلى الذرية. وقرأ[1] ابن كثير، والسُّوسيُّ عن أبي عمرو، ويعقوب ﴿أَرْنَا﴾ بإسكان الراء قياساً على فخذ في فخذٍ، ولكن أبو عمرو يُشِمُّ الكسرة، وقد سمع الإسكان في هذا الحرف نصًّا عن العرب، قال الشاعر:

أَرْنَــا إدَاوَةَ عَــبْــدِ الله نَــمْــلَــؤُهَــا مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ إنَّ الـقَـوْمَ قَـدْ ظَـمِـئُـوا

ولا اعتبار بإنكار من أنكرها؛ لأنّها قراءةٌ متواترةٌ، فإنكارها ليس بشيءٍ ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ عمَّا فَرَط منا سَهْواً من الصغائر، ومن ترك الأولى، ولعلهما قالا ذلك؛ هضماً لأنفسهما، وإرشاداً لذريتهما؛ أي: سامح لنا تقصيرنا في طاعتك، وتجاوز عنَّا، فإنّ العبد وإن اجتهد في طاعة ربّه، فإنّه لا ينفكُّ عن التقصير من بعض الوجوه، إمّا على سبيل السهو، أو على سبيل ترك الأولى، والأفضل، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك لا لذنبهما؛ لأنّهما معصومان، أو المعنى: وتب على ظلمة أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك، فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما، والمراد به ذريتهما، فإنّهما لمَّا بنيا البيت أرادا أن يَسنَّا للناس، ويعرِّفاهم أنَّ ذلك البيت، وما يتبعه من المناسك، والمواقف، أمكنة التفصِّي من الذنوب، وطلب التوبة من علام الغيوب ﴿إِنَّكَ﴾ يا ربّنا ﴿أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: كثير القبول لتوبة من تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة والإنعام على عباده. وأصل التوبة: الرجوع، وتوبة الله على العبد قبوله توبته، وأن يخلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء، ويزيِّن جوارحه الظاهرة بالطاعات، بعد ما لوَّثها بالمعاصي والخطيئات، وتوّابٌ: من صيغة المبالغة، أُطلق عليه تعالى في صدور الفعل منه، وكثرة قبوله توبة المذنبين؛ لكثرة من يتوب إليه يا ﴿رَبَّنَا﴾ ﴿و﴾ يا مَالِكَ أمرِنا ﴿ابعث﴾ وأرسل ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في جماعة الأمة المسلمة من أولادنا، وهم

---

(١) البيضاوي.

العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ﴿رَسُولًا﴾ ونبيًّا ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أنفسهم ونسبهم، ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما، كما قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أُمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج لها نور ساطع أضاءت لها منه قصور الشام» أخرجه أحمد من حديث العرباض بن سارية. وقال: ﴿مِّنْهُمْ﴾ ولم يقل: فيهم؛ لأنَّ البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم، بل يكون منهم، ومن غيرهم. وجملة قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يقرأ عليهم ﴿ءَايَٰتِكَ﴾؛ أي: آيات القرآن صفةٌ لرسولاً؛ أي: رسولاً يملي عليهم آياتك القرآنية ليأخذوها منه، ويتعلَّموها، أو يأمرهم بتلاوة القرآن، وحفظ ألفاظه، أو يقرؤها عليهم ويبلِّغها إياهم بلا كتمان شيءٍ منها.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على يتلو؛ أي: يعلِّمهم بحسب قوّتهم النظريَّة معاني الكتاب والقرآن، بتعليمهم ما فيه من دلائل التوحيد، والنبوة، والأحكام الشرعية، فلمَّا ذكر الله تعالى أوَّلاً أمر التلاوة، وهي حفظ القرآن، ودراسته؛ ليبقى مصوناً من التحريف والتبديل، وفيه إشارةٌ إلى فنِّ القراءة، وما يتعلَّق به، ذكر بعده تعليم معانيه، وحقائقه، وأسراره، وفيه إشارةٌ إلى فنِّ التفسير، وما يتعلَّق به ﴿و﴾ يعلمهم ﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة والحديث، وفهم ما في القرآن، قاله قتادة، وفيه إشارةٌ إلى فنِّ الحديث، وما يتعلَّق به درايةً وروايةً، أو يعلِّمهم ما يُكمّل به نفوسهم من المعارف الحقّة، والأحكام الشرعيَّة. قال أبو بكر ابن دريد: وكُلُّ كلمةٍ وَعَظَتْك، أودعتك إلى مكرمةٍ، أو نَهَتْك عن قبيحٍ، فهي حكمةٌ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بحسب قوّتهم العمليَّة؛ أي: يطهِّرهم عن دنس الشرك والوثنيَّة، وفنون المعاصي، سواء كانت بترك الواجبات، أو بفعل المنكرات، وفيه إشارةٌ إلى علم العقائد. ثمَّ إنّ إبراهيم لمَّا ذكر هذه الدعوات الثلاث، ختمها بالثناء على الله تعالى؛ لأنّه أرجى للقبول، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا ربَّنا! ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغالب ويقهر على ما يريد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلاّ ما تقتضيه الحكمة البالغة، والمصلحة العامَّة لعباده، فهو سبحانه عزيزٌ حكيمٌ بذاته، وكُلُّ ما سواه ذليلٌ جاهلٌ في نفسه.

فائدة: فإن قلت[1]: ما الحكمة في ذكر إبراهيم، وآله مع محمد ﷺ في باب الصلاة حيث يقال: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم دون سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟.

قلت: أجيب عنها بأجوبة كثيرة:

منها: أنّ إبراهيم دعا لمحمد بهذه الدعوات، فأجرى الله سبحانه ذكر إبراهيم على ألسنة أمَّة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، أداءً لحقٍّ واجبٍ على محمد لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ومنها: أنَّ إبراهيم سأل ربَّه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾؛ أي: أبق لي ثناءً حسناً في أمّة محمد ﷺ.

ومنها: أنّ إبراهيم كان منادي الشريعة في الحجِّ، ومحمداً كان منادي الإيمان، فجمع الله بينهما في الذكر الجميل إلى غير ذلك من الأجوبة.

ومَن في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخيِّ، فهو بمعنى: النفي؛ أي: لا يرغب، ولا يعرض ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام، ولا يترك دينه، وشريعته التي منها ما أرسل به محمدٌ ﷺ ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: إلا من استخفَّ، وأذلَّ، وامتهن نفسه، وأهلكها، وخسَّرها، وجهل قدرها بأن لم يعلم أنّها مخلوقةٌ لله، يجب عليها عبادة خالقها؛ لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه؛ لأنّه لم يعترف بأنَّ الله خالقها، وقد ورد: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه). وعنى بذلك اليهود، والنصارى، ومشركي العرب لاختيارهم اليهوديَّة، والنصرانيَّة، والوثنية، على الإسلام.

فائدة: فالمِلَّة والدِّين والشريعة بمعنى واحد، وهي: الأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده للتَّعبُّد بها، فمن حيث إملاء الرسول إيَّاها علينا تسمَّى ملَّةً، ومن حيث إنَّها شرعها الله على لسان رسوله تسمَّى شريعةً، ومن حيث إنّا نتديَّن بها

---

(١) المراح.

تسمى ديناً، كما مرَّ لك ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد اصطفينا إبراهيم واخترناه ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ من بين سائر الخلق، للرسالة والخلَّة، وعرَّفناه الملة التي هي جامعة للتوحيد، والعدل، والشرائع ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنّ إبراهيم ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: في اليوم الآخر ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: لمن الفائزين بالرضا والكرامة مع الأنبياء، والمرسلين، وسائر عباد الله الصالحين، ففيه بيان[1] الخطأ من رغب عن ملَّته؛ لأنَّ من جمع كرامة الدارين لم يكن أحدٌ يرغب عن طريقته إلا من سفيه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ متعلق[2] بقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: لمن المشهود لهم بالثبات على الاستقامة، والخير، والصلاح، فمن كان صفوة العباد في الدنيا، مشهوداً له في الآخرة بالصلاح، كان حقيقاً بالاتباع، لا يرغب عن مِلَتِهِ إلاّ سفيهٌ؛ أي: في أصل الخلقة، أو متسفِّهٌ يتكلَّف السَّفاهة بمباشرة أفعال السفهاء باختياره، فيذلُّ نفسه بالجهل، والإعراض عن النظر، والتأمُّل، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بشارةٌ عظيمةٌ له في الدنيا بصلاح الخاتمة، ووعد له بذلك، وكم من صالحٍ في أوَّل حاله ذهب صلاحه في ماله، وكان في الآخرة لعذابه، ونكاله، كبلعم بن باعوراء، وبرصيصا، وقارون. والمعنى[3]: أي: إنّ ملتكم هي ملة أبيكم إبراهيم الذي إليه تنسبون، وبه تفخرون، فكيف ترغبون وتحتقرون عقولكم، وتدعون أولياء من دون الله لا يملكون لكم ضرّاً ولا نفعاً؟! ولقد اجتبيناه من بين خلقنا، وجعلنا في ذريته أئمةً يهدون بأمرنا، وجعلناه في الآخرة من المشهود لهم بالخير، والصلاح، وإرشاد الناس للعمل بهذه الملّة، ولا شكّ[4] أنَّ ملّةً هذا شأنها، وبها كانت له المكانة عند ربّه، لا يرغب عنها إلاّ سفيهٌ يعرض عن التأمل في ملكوت السموات والأرض، ورؤية الآثار الكونية

---

(١) النسفي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

(٤) المراغي.

والنفسية الدالَّة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ متعلِّق باصطفيناه، وتعليلٌ له؛ أي: اصطفيناه واخترناه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ أي: أخلص دينك لربّك، واستقم على الإسلام، واثبت عليه، وذلك حين كان في السُّرب، ونظر إلى الكواكب، والقمر، والشمس، فألهمه الله الإخلاص ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أخلصت ديني له، كقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. وقد امتثل ما أمر به من الإخلاص والاستسلام، وأقام على ما قال، فسلَّم القلب، والنفس، والولد، والمال، ولمَّا قال له جبريل حين ألقي في النار: هل لك من حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، فقال: ألا تسأل ربَّك؟ فقال: حسبي بسؤالي علمه بحالي.

وقيل: الظرف متعلق بمحذوف، كنظائره، تقديره: واذكر يا محمد! لأمَّتك قصة ﴿إذ قال له﴾؛ أي: لإبراهيم ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَسْلِمْ﴾؛ أي: أخلص دينك وعملك لله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أخلصت ديني وعملي لمالك الخلائق، ومدبِّرها، ومحدثها، ويقال: قال له ربُّه حين ألقي في النار: أسلم نفسك إليَّ. قال: أسلمت نفسي لله ربِّ العالمين؛ أي: فوَّضْتُ أمري إليه، وقد حقَّق ذلك حيث لم يستعن بأحدٍ من الملائكة حين ألقي في النار.

قال أهل التفسير(١): إنَّ إبراهيم ولد في زمن النمروذ بن كنعان، وكان النمروذ أوّل من وضع التاج على رأسه، ودعا الناس إلى عبادته، وكان له كُهَّانٌ ومنجِّمون، فقالوا له: إنّه يولد في بلدك في هذه السنة غلامٌ يغيِّر دين أهل الأرض، ويكون هلاكك، وزوال ملكك على يديه. قالوا: فأمر بذبح كُلِّ غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، فلمَّا دنت ولادة أُمّ إبراهيم، وأخذها المخاض خرجت هاربةً مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها، فولدته في نهرٍ يابسٍ، ثُمَّ لفَّته في خرقةٍ، ووضعته في حلفاء، وهو نبتٌ في الماء، يقال له بالتركي: حَصِير قَمشَي، ثُمَّ رجعت فأخبرت زوجها بأنَّها ولدت، وأنَّ الولد في موضع كذا، فانطلق أبوه، فأخذه من ذلك المكان، وحفر له سُرْباً؛ أي: بيتاً في الأرض

---

(١) روح البيان.

كالمغارة، فواراه فيه، وسدَّ عليه بابه بصخرةٍ مخافة السباع، وكانت أمُّه تختلف إليه فترضعه، وكان اليوم على إبراهيم في الشباب والقوّة، كالشهر في حقّ سائر الصبيان، والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلاّ خمسة عشرة شهراً، أو سبع سنين، أو أكثر من ذلك فلمَّا شبَّ إبراهيم في السرب قال لأمّه: من ربّي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربّك؟ قالت: أبوك. قال: فمن ربُّ أبي؟ قالت: أسكت. ثمَّ رجعت إلى زوجها، فقالت: أرأيت الغلام الذي كنَّا نحدَّث أنّه يغيِّر دين أهل الأرض؟ فإنَّه ابنك، ثُمَّ أخبرته بما قال، فأتى أبوه، وقال له إبراهيم: يا أبتاه! من ربي؟ قال: أمُّك. قال: فمن ربُّ أمي؟ قال: أنا. قال فمن ربُّك؟ قال: النمروذ. قال: فمن ربُّ نمروذ؟ فلطمه لطمةً، وقال له: اسكت، فلمَّا جنَّ عليه الليل، دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة، فرأى السماء، وما فيها من الكواكب، ففكَّر في خلق السموات والأرض، فقال: إنَّ الذي خلقني ورزقني، وأطعمني وسقاني، ربّي الذي مالي إلٰهٌ غيره، ثمّ نظر في السماء، فرأى كوكباً، فقال: هذا ربّي، ثُمّ أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب، فلمَّا أفل قال: لا أحبُّ الآفلين، ثم رأى القمر، ثمّ الشمس، فقال فيهما كما قال في حقِّ الكواكب، وقد نشأ إبراهيم في قومٍ عبدة أصنام وكواكب، فأنار الله بصيرته، وألهمه الحق والصواب، فأدرك أنَّ للعالم ربّاً واحداً يدبِّره في شؤونه، وإليه مصيره، وحاجَّ قومه في ذلك، وبهرهم بحجته، فقال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ الخ.

والحاصل[1]: أنَّ إبراهيم مستسلم للربّ الكريم، وأنّه على الصراط المستقيم، لا يرغب عن طريقته إلاّ من سفه نفسه؛ أي: لم يتفكّر فيها كما تفكّر إبراهيم في الأنفس، والآفاق، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ والسَّفاهة: الجهل وضعف الرأي، وكلُّ سفيه جاهلٌ، وذلك أنَّ من عبد غير الله فقد جهل نفسه؛ لأنّه لم يعرف الله خالقها، ولمَّا كمل إبراهيم في نفسه كمَّل غيره بالتوصية المذكورة في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾. قرأ نافع وابن عامر ﴿وأوصى﴾ بالهمزة

(١) روح البيان.

المفتوحة. وقرأ الباقون ﴿وَوَصَّىٰ﴾ وبها متعلق بوصّى، والضمير عائدٌ على الملّة المذكورة في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ وبه قال الزمخشري، أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والتوصية: هي التقديم إلى الغير بما فيه خيرٌ وصلاحٌ من قول، أو فعل على وجه التفضُّل والإحسان، سواءٌ كان أمراً دينيًّا، أو دنيوياً، وأصلها: الوصل، يقال: وصَّاه إذا أَوْصَلَه، وهي أبلغ من الإيصاء؛ أي: وأوصى إبراهيم عليه السلام بالملّة المذكورة في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ أو بكلمة: أسلمت لله ربّ العالمين، أو بكلمة: لا إلٰه إلاّ الله ﴿بَنِيهِ﴾؛ أي: أولاده الذُّكور، وقد سبق أنّهم كانوا أربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومدائن. وقيل[1]: هم ثمانية: إسماعيل وهو أكبر أولاده، وأُمُهُ هاجر القبطية، وإسحاق وأمّه سارةُ، ومدين، ومداين، وبُقْشَانُ، وزُمْرَانُ، وشَبقٌ، ونُوحٌ، وأمُّهم قنَطُوراءُ بنتُ يَقْطَنَ الكنعانيةُ، تزوَّجها إبراهيم بعد وفاة سارة. وقيل أولادهُ: أربعة عشرة، والذي بقي نسله من هؤلاء الثمانية: إسماعيل، وإسحاق والمعنى: أي: أمر إبراهيم عليه السلام بنيه عند موته باتباع هذه الملة الحنيفية، وإنّما خصَّهم بهذه الوصية؛ لأنّ شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم، وقيل: لأنّهم كانوا أئمّة يقتدى بهم، وكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم. ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بن إسحاق بالرفع عطفاً على إبراهيم؛ أي: ووصّى يعقوب بنيه عند موته بهذه الملة، كوصيّة إبراهيم، وقرئ بالنصب عطفاً على بنيه، والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب نافلته بهذه الملة عند موته. وقرأ الجمهور ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بالرفع. وقرأ إسماعيل بن عبد الله المكيُّ الضرير، وعمر بن فائد الأسواريُّ بالنصب، فأمّا قراءة الرفع فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معطوفاً على إبراهيم، ويكون دَاخِلاً في حكم توصية بنيه؛ أي: ووصى يعقوب بنيه.

الثاني: أن يكون مرفوعاً على الابتداء، وخبره محذوف، تقديره: ويعقوب

---

(١) المراغي.

قال يا بَنيّ: إنّ الله اصطفى لكم الدين، والأوّل أظهر.

وأمّا قراة النصب فيكون عليها معطوفاً على بنيه؛ أي: ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب نافلته؛ أي: ابن ابنه إسحاق، وكان[1] جملة أولاد يعقوب اثني عشر: روبين، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وشنوخون، وزبولون، وزَوَابِي، ونَفْتُونِي، وكُوْدا، وأوشيز، وبنيامين، ويوسف، وسُمّي يعقوب؛ لأنّه مع أخيه عَيْصُو كانا توأمين، فتقدَّم عيصو في الخروج من بطن أمِّه، وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقبه، وذلك أنَّ أُمَّ يعقوب حملَتْ في بطنٍ واحد بولدين توأمين، فلمَّا تكامل عدَّةُ أشهر الحمل، وجاء وقت الوضع تكلَّما في بطنها وهي تسمع، فقال: أحدهما للآخر: طرِّق لي حتى أخرج قبلك، وقال الآخر: لئن خرجت قبلي لأشُقَّن بطنها حتى أخرج من خصرها، فقال الآخر: اخرج قبلي، ولا تقتل أمي. قال: فخرج الأول فسمَّته عيصو؛ لأنَّه عصاها في بطنها، وخرج الثاني وقد أمسك بعقبه فسمَّته يعقوب، فنشأ عيصو بالغلظة والفظاظة، صاحب صَيْدٍ وقَنَصٍ، ويعقوب بالرحمة واللين، صاحب زرع وماشية.

وروي: أنّهما ماتا في يوم واحد، ودُفنا في قبر واحد. قيل: عاش يعقوب مائةً وسبعاً وأربعين سنة بمصر، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدَّسة، ويدفن عند أبيه إسحاق، فحمله يوسف فدفنه عند أبيه. وقال المؤرِّخون: نقل إبراهيم ولده إسماعيل إلى مكة وهو رضيعٌ، وقيل: ابن سنتين، وقيل: ابن أربع عشرة سنة، وولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة، ومات إسماعيلُ وله مائةٌ وثلاثون سنة، وكان لإسماعيل حين مات أبوه إبراهيم تسعٌ وثمانون سنةً، وعاش إسحاق مائةً وثمانين سنةً، ومات بالأرض المقدَّسة، ودفن عند أبيه، وكان بين وفاة إبراهيم الخليل ومولد محمد ﷺ نحوٌ من ألف سنةٍ وستمائة سنة، على ما قيل واليهود تنقص من ذلك نحواً من أربعمائة سنة، وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ على إضمار القول عند البصريين، تقديره: ووصّى بها بنيه، وقال ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ الخ. وذلك؛ لأنّ يا بني

(١) البيضاوي.

جملةٌ، والجملة لا تقع مفعولاً إلاّ لأفعال القلوب، أو فعل القول، وأمَّا عند الكوفيين فمنصوبٌ بفعل الوصية؛ لأنّها في معنى القول على رأيهم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنّه مقول إبراهيم، وذلك على القول بعطف يعقوب على إبراهيم، وهو الأظهر كما مرّ، ومقول يعقوب محذوفٌ؛ لدلالة مقول إبراهيم عليه، والتقدير: ووصَّى بها إبراهيم بنيه، وقال: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الخ. ووصَّى بها يعقوب بنيه، وقال: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ الخ.

والثاني: أنه من مقول يعقوب؛ إن قلنا رفعه بالابتداء، ومقول إبراهيم محذوف؛ لدلالة مقول يعقوب عليه، والتقدير: ووصَّى بها إبراهيم بنيه، وقال: ﴿يَٰبَنِيَّ. . .﴾ الخ. ويعقوب وصَّى بها بنيه، وقال: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱصۡطَفَىٰ﴾ واختار ﴿لَكُمُ﴾ من بين الأديان ﴿ٱلدِّينَ﴾؛ أي: دين الإسلام الحنيفي الذي هو صفوة الأديان، ولا دين عنده غيره، والألف واللام في الدين للعهد؛ لأنّهم كانوا قد عرفوا، كما في «الكرخي» ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾؛ أي: لا يصادفنكم الموت في الظاهر، وفي الحقيقة: نهى عن ترك الإسلام؛ لأنَّ الموت ليس في أيديهم، فكأنَّه قال: لا تموتوا على حالةٍ غير حالة الإسلام، فليس فيه نهيٌ عن الموت الذي هو قَهْريٌّ، والاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال ﴿وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محلِّ النصب على الحال، والعامل فيها ما قبل ﴿إِلَّا﴾، كأنّه قال: لا تموتنَّ على حالٍ من الأحوال إلاّ على هذه الحالة التي هي اتصافكم بالإسلام.

والمعنى: أي فاثبتوا على الإسلام حتى تموتوا مسلمين مخلصين له تعالى بالتوحيد والعبادة، والمراد: نهيهم عن ترك الإسلام، وأمرهم بالثبات عليه إلى مصادفة الموت، وإلاَّ فالموت قهريٌّ ليس باختيارهم. وذلك حين دخل يعقوب مصر، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الإسلام، فإنَّ موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موتٌ لا خير فيه، وأنَّه ليس بموت السعداء، وأنَّ من حقّ هذا الموت أن لا يحلَّ فيهم. وتخصيص الأبناء بهذه

الوصية مع أنّه معلومٌ من حال إبراهيم إنّه كان يدعو الكُلَّ أبداً إلى الإسلام والدين؛ للدلالة على أنَّ أمر الإسلام أولى الأمور بالاهتمام، حيث وصَّى به أقرب الناس إليه، وأحراهم بالشفقة، والمحبَّة، وإرادة الخير، مع أنَّ صلاح أبنائه سببٌ لصلاح العامَّة؛ لأنَّ المتبوع إذا صلح في جميع أحواله صلح التابع. وروي أنَّ اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألست تعلم أنَّ يعقوب أوصى بنيه باليهوديَّة يوم مات؟ فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ وأم فيه منقطعةٌ مقدَّرةٌ ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري. قال في «التيسير»: أم إذا لم يتقدَّمها ألف الاستفهام كانت بمنزلة مجرَّد الاستفهام، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والشهداء: جمع شهيد بمعنى حاضر؛ أي: بل كنتم يا معشر اليهود! حاضرين وصيّة يعقوب، ﴿إِذْ حَضَرَ﴾ وقرىء بكسر[1] الضاد ﴿يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وقرأ الجمهور[2] بنصب يعقوب، ورفع الموت، وقرىء بالعكس، والمعنيان متقاربان؛ أي: أكنتم حاضرين يعقوب حين حضره أسباب الموت ومقدّماته؟ أي:[3] إنّكم لم تحضروا ذلك فلا تدَّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتنسبوهم إلى اليهوديَّة، فإنّي ما ابتعثت خليلي إبراهيم، وولده، وأولاده إلا بدين الإسلام، وبذلك وصّوا أولادهم، وبه عهدوا إليهم.

ثُمَّ بيَّن ما قال يعقوب لبنيه بقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ﴾ يعقوب، ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من إذ الأولى بدل اشتمال، والعامل فيهما شهداء، أو ظرفٌ لحضر؛ أي: أكنتم حاضرين وصيّته؟ إذ قال: ﴿لِبَنِيهِ﴾؛ أي: لأولاده الاثني عشر ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أيَّ شيء تعبدونه؟ ﴿مِنْ بَعْدِى﴾؛ أي: من بعد موتي، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما؛ أي: فأنتم لم تحضروا وصيته، فكيف تنسبونه إلى اليهودية؟ قيل: إنّ الله تعالى لم يقبض نبياً حتى يخيِّره بين الحياة والموت، فلمَّا خيِّر يعقوب، وكان قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران، قال: أنظروني حتى أسأل أولادي، وأوصيهم، فأمهل، فجمع أولاده،

---

(١) البيضاوي.

(٢) العكبري.

(٣) الخازن.

وأولاد أولاده، وقال لهم: قد حضر أجلي، ما تعبدون من بعدي؟ قال الراغب: لم يَعْنِ بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ العبادة المشروعة فقط، وإنَّما عنى أن يكون مقصودهم في جميع الأعمال وجه الله تعالى ومرضاته، وأن يتباعدوا عمَّا لا يتوسَّل به إليهما، وكأنَّه دعاهم إلى أن لا يتحرَّوا في أعمالهم غير وجه الله تعالى، ولم يَخَفْ عليهم الاشتغالَ بعبادة الأصنام، وإنّما خاف أن تشغلهم دنياهم، ولهذا قيل: ما قطعك عن الله فهو طاغوتٌ، ولهذا قال في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ أي: أن نخدم ما دون الله تعالى. قال النحرير التفتازانيُّ: و(ما) عامٌّ؛ أي: يصحُّ إطلاقه على ذي العقل، وغيره عند الإبهام، سواءٌ كان للاستفهام، أو غيره، وإذا علم أنَّ الشيء من ذي العقل والعلم، فُرِّقَ (بمَنْ) و(ما)، فيخُصُّ (مَنْ) بذي العلم، و(ما) بغيره، وبهذا الاعتبار يقال: إنَّ (ما) لغير العقلاء. انتهى كلامه.

وتمَّ الإنكار عليهم عند قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ ثُمَّ استأنف وبيَّن أنَّ الأمر قد جرى على خلاف ما زعموا، فقال: و﴿قَالُوا۟﴾ كأنَّه قيل: فماذا قال أولاد يعقوب؟ فقيل: قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ ربَّ العالمين ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ معبود الأولين والآخرين، وأعيد ذكر الإله؛ لئلاً يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار. وقرأ الجمهور ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾. وقرأ أُبيٌّ ﴿وإلٰهَ إبراهيم﴾ بإسقاط آبائك. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن يعمر، والجحدريُّ وأبو رجاء ﴿وإلٰه أبيك﴾ وقوله: ﴿إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، أو بدل تفصيل له؛ أي: نعبد الإلٰه المتفق على وجوده، وإلٰهيته، ووجوب عبادته، وقدَّم إسماعيل؛ لأنّه كان أكبر من إسحاق، وجعله من جملة آبائه مع كونه عمًّا له؛ تغليباً للأب والجدِّ؛ ولأنَّ العمَّ أبٌ، والخالة أُمٌّ؛ لانخِرَاطِهما في سلكٍ واحدٍ، وهو الأخوَّة لا تفاوت بينهما، ولقوله ﷺ في العباس: «هذا بقيَّة آبائي» وفي «الصحيحين»: «عمُّ الرجل صنو أبيه»؛ أي: مثله في أنَّ أصلهما واحدٌ؛ أي: لا تفاوت بينهما، كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدلٌ من ﴿إلٰه آبائك﴾ كقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ وفائدته: التصريح بالتوحيد، ودفع التوهُّم الناشىء من تكرار المضاف لتعذّر العطف على المجرور، والتأكيد، أو

منصوبٌ على الاختصاص، كأنّه قيل: نريد ونعني بإله آبائك إلٰهاً واحداً، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿مُسْلِمُونَ﴾ حالٌ من فاعل نعبد؛ أي: مقرُّون له بالتوحيد وبالعبادة، منقادون. قال تعالى: مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ﴾ الجماعة المذكورة التي هي إبراهيم، ويعقوب، وبنوهما المُوحِّدون ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت وسلفت بالموت، والأمَّة في الأصل: المقصود، كالعهدة بمعنى: المعهود، وسمّي بها الجماعة؛ لأنَّ فِرَقَ الناس تؤمُّها؛ أي يقصدونها، ويقتدون بها، وهي خبر تلك، وجملة قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ نعتٌ لأمّةٍ؛ تلك الجماعة المذكورة أمّةٌ قد خلت ومضت بالموت، وانفردت عمَّن عداها، وأصله: صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لَهَا﴾؛ أي: لتلك الأمة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: جزاء ما عملت من الخيرات، ودَعُوا يا معشر اليهود والنصارى! ذِكْرهم، ولا تقولوا عليهم ما ليس فيهم، وتقديم المسند؛ لقصره على المسند إليه؛ أي: لها كسبها لا كسب غيرها ﴿وَلَكُم﴾ يا معشر اليهود والنصارى ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ لا كسب غيركم؛ أي: جزاء ما كسبتموه من العمل، أي: إنَّ أحداً من الناس لا ينفعه كسب غيره متقدِّماً كان أو متأخراً، فكما أنَّ أولئك لا ينفعهم إلاّ ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلاّ ما اكتسبتم، فلا ينفعكم الانتساب إليهم، بل إنّما ينفعكم موافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا تؤاخذون بسيئات الأمّة الماضية، كما أنَّهم لا يؤاخذون بسيئاتكم، بل كُلُّ فريق يسأل عن عمله لا عن عمل غيره، ففي الكلام حذفٌ، تقديره ولا يسألون عما كنتم تعملون، ودلَّ على المحذوف قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ وذلك لمَّا ادعى اليهود أنَّ يعقوب عليه السلام مات على اليهودية، وأنّه عليه السلام، وصَّى بها بنيه يوم مات، ورُدُّوا بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ...﴾ الآية، قالوا: هب أنَّ الأمر كذلك، أليسوا آباءنا، وإليهم ينتمي نسبنا؟ فلا جرم ننتفع بصلاحهم، ومنزلتهم عند الله تعالى. قالوا ذلك: مفتخرين بأوائلهم، فرُدُّوا بأنّهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم، وإنَّما ينفعهم اتباعهم في الأعمال، فإنَّ أحداً لا ينفعه كسب غيره، كما روي عن النبي ﷺ: «يا صفية عمة محمد! يا فاطمة بنت محمد! ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم، فإنّي لا أغني عنكم من الله

شيئاً» وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» يعني: من أخره في الآخرة عمله السيىء، أو تفريطه في العمل، لم ينفعه شرف نسبه، ولم تنجبر نقيصته به.

قال الشاعر:

أَتَـفْـخَـرُ بـاتّـصـالِـكَ مِـنْ عَـلِـيٍّ   وَأَصْـلُ الـبَـوْلَـةِ الـمـاءُ الـقَـراحُ

وَلَـيْـسَ بِـنَـافِـعٍ نـسَـبٌ زكّـي   يُـدَنِّـسُـهُ صَـنَـائِـعُـكَ الـقِـبَـاحُ

والأبناء وإن كانوا يتشرَّفون في الدنيا بشرف آبائهم، إلاّ أنّه إذا نفخ في الصور فلا أنساب، والافتخار بمثل هذا، كالافتخار بمتاع غيره، وإنّه من الجنون، فلا بُدَّ من كسب العمل والإخلاص فيه، فإنَّه المنجي بفضل الله تعالى، فالقربى لا تغني شيئاً إذا فسد العمل، وأمَّا قول من قال:

إذا طَابَ أَصْلُ المَرْءِ طَابَتْ فُرُوعُهُ

فباعتبار الغالب، فمن عادته تعالى أن يخرج الحيَّ من الميت، والميت من الحيّ.

الإعراب

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾:

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد! قصّة ﴿إذ يرفع إبراهيم﴾، والجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾. ﴿يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿الْقَوَاعِدَ﴾. ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ معطوف على إبراهيم ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء وما بعدها في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: يقولان: ربّنا تقبّل منا، وجملة القول المحذوف حال من إبراهيم وإسماعيل، كما أشرنا إليه في الحلّ ﴿تَقَبَّلْ﴾ فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه ﴿مِنَّا﴾ جار

ومجرور متعلق بتقبل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر أوّل؛ لأنَّ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إنّ﴾ مسوقة؛ لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾:

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ الواو عاطفة ﴿اجعلنا﴾ فعل ومفعول أوّل، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ مفعول ثان ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمسلمين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على المفعول الأول في قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾؛ أي: على كونه متعلقاً بمحذوف، تقديره: واجعل من ذرّيتنا أمّة مسلمة، وإن شئت قلت: الواو عاطفة ﴿مِنْ﴾ اسمٌ بمعنى بعض في محل النصب معطوفٌ على المفعول الأول في قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ ﴿منْ﴾ مضافٌ ﴿ذريّة﴾ مضافٌ إليه ﴿ذريةِ﴾ مضافٌ (نا) مضاف إليه، ﴿أُمَّةً﴾ مفعول ثانٍ ﴿مُّسْلِمَةً﴾ صفةٌ لأمة ﴿لَّكَ﴾ متعلّق بمسلمة ﴿وَأَرِنَا﴾ الواو عاطفة ﴿أرنا﴾ فعل ومفعول أوّل، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مناسكنا﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف، ﴿وَتُبْ﴾ الواو عاطفة ﴿تب﴾ فعل دعاءٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾، ﴿عَلَيْنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بتب ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبر أول، لـ﴿إنَّ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف، ﴿وَٱبْعَثْ﴾ الواو عاطفة ﴿ابعث﴾ فعل دعاء سُلُوكاً مسلك الأدب مع الباري جلَّ

وعلا، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾ ﴿فِيهِمْ﴾ متعلق بابعث ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة أولى لرسولاً ﴿يَتْلُواْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على رسولاً ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿يَتْلُواْ﴾ في محل النصب صفة ثانية لرسولاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ فعل ومفعول أوّل، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَسُولًا﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتْلُواْ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يتلو﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ خبر أول؛ لأنَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ مسوقة؛ لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ الواو استئنافية ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يرغب﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة ﴿عن ملّة إبراهيم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيرغب.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع بدل من فاعل ﴿يَرْغَبُ﴾، أو في محل النصب على الاستثناء ﴿سَفِهَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿نَفْسَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَلَقَدِ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جار ومجرور متعلق باصطفينا ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿إنّه﴾ ناصب واسمه ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بالصالحين، أو حال من الضمير المستكن في الظرف الخبري ﴿لَمِنَ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿من الصالحين﴾ جار ومجرور خبر ﴿إنّ﴾؛ أي: وإنّه لكائن من الصالحين؛ أي: الفائزين في الآخرة، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، أو معطوفة على جملة القسم المذكور قبلها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ

وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿قَالَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بقال ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿أَسْلِمْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر والجملة في محل النصب مقول قال (قال) فعل ماضي وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَسْلَمْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿لِرَبِّ﴾ متعلق بأسلمت، ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿أَسْلَمْتُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَوَصَّىٰ﴾ الواو استئنافية ﴿وصّى﴾ فعل ماض ﴿بِهَآ﴾ متعلق بوصى ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فاعل ﴿بَنِيهِ﴾ مفعول به منصوب بالياء؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم، والهاء ضمير متصل في محل الجر مضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بالرفع معطوف على إبراهيم وهو الأظهر، ومفعوله محذوف، تقديره: ووصّى يعقوب بنيه أيضاً، أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ويعقوب قال: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ ومفعول ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ محذوف؛ لعلمه ممّا بعده، والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿وصَّى بها إبراهيم﴾، وبالنصب معطوفٌ على ﴿بَنِيهِ﴾ كما سبق في مبحث التفسير ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ مقول محكي للقول المحذوف الواقع حالاً من فاعل ﴿وصى﴾ والتقدير: ووصى بها إبراهيم حال كونه قائلاً يا بني إنّ الله. الخ. وإن شئت قلت: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿بني﴾ منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه الياء المدغمة في ياء المتكلم؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنّ أصله يا بنين لي ﴿بني﴾ مضاف، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لقال المحذوفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿لَكُمُ﴾ متعلق باصطفى، ﴿ٱلدِّينَ﴾ مفعول به وجملة ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لقال المحذوفة ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾، الفاء عاطفة تفريعية ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَمُوتُنَّ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والنون المشددة حرف توكيد، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة مفرعة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على

كونها مقولاً لقال المحذوفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿وَأَنتُم﴾ الواو حالية ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تموتنّ﴾، والرابط ضمير المبتدأ، والتقدير: فلا تموتّن في حال من الأحوال إلاّ حالة كونكم مسلمين..

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿شُهَدَآءَ﴾ خبره، وجملة كان مستأنفة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بشهداء ﴿حَضَرَ﴾ فعل ماض ﴿يَعْقُوبَ﴾ مفعول به ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، فيكون متعلّقاً بشهداء، أو متعلّقٌ بحضر ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير ﴿يَعْقُوبَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذْ ﴿لِبَنِيهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقال ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدّم وجوباً لتعبدون، ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلّق بتعبدون، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿تعبدون﴾، ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ﴾ إلى آخر الآية، مقولٌ محكيٌّ لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿نَعْبُدُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على أولاد يعقوب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِلَـٰهَكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿وَإِلَـٰهَ﴾ الواو عاطفة ﴿إله﴾ معطوف على ﴿إِلَـٰهَكَ﴾ ﴿إله﴾ مضاف ﴿ءَابَآئِكَ﴾ مضاف إليه ﴿آباء﴾ مضاف، والكاف مضاف إليه ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بدل من ﴿ءَابَآئِكَ﴾ بدل تفصيل من مجمل تبعه بالجر، وعلامة جره الفتحة ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ معطوفان على ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وإنّما كرَّر إله؛ ليصحَّ عطف ﴿ءَابَآئِكَ﴾ على ضمير المخاطب المجرور بإضافة ﴿إلهِ﴾ إليه؛ أعني: ﴿إِلَـٰهَكَ﴾ كما قال ابن مالك:

وعَـوْدُ خَـافـض لَـدَى عَـطْـف عَـلَـى   ضَـمِـيـرِ خَـفْـضٍ لازِمـاً قَـدْ جُـعِـلاَ

ولمَّا كان رُبَّما يتوهَّم من ظاهر هذا العطف تعدُّد الإله أبدل منه، قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ لدفع هذا التوهُّم، كما مر في مبحث التفسير ﴿إِلَٰهًا﴾ بدلٌ من ﴿إِلَٰهِ﴾ الأول بدل كل من كل، ويجوز أن يكون حالاً موطئةً منه، كقولك: رأيت زيداً رجلاً صالحاً ﴿وَٰحِدًا﴾ صفة ﴿إِلَٰهًا﴾، ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو عاطفة ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿له﴾ متعلق بمسلمون ﴿مُسْلِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿نعبد إلٰهك﴾ على كونها مقولاً لقالوا، أو حال من فاعل ﴿نعبد﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ تي: اسم إشارة يشار به للمفردة المؤنثة البعيدة في محل الرفع مبتدأ، مبنيٌّ بسكون على الياء المحذوفة، للتخلُّص من التقاء الساكنين، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لأنَّ أصله: تِي كذِي، فالياء جزء الكلمة عند البصريين، وقال الكوفيون: التاء وحدها هي اسم الإشارة، والياء زائدةٌ، وعلى كلا المذهبين حذفت الياء؛ لالتقاء الساكنين مع اللام؛ لسكونها وسكون اللام بعدها، واللام لبعد المشار إليه، والكاف حرف دال على الخطاب ﴿أُمَّةٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿خَلَتْ﴾ فعل ماض مبني بفتحة مقدّرة على الألف المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنّه فعل معتلٌّ بالألف، والتاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أُمَّةٌ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع صفةٌ أولى لأمّةٍ ﴿لَهَا﴾ جار ومجرور خبر مقدّم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر، والجملة الإسمية في محل الرفع صفة ثانية لأمّة، أو في محل النصب حالٌ من الضمير في ﴿خَلَتْ﴾ أو مستأنفة وهو أولى، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلةٌ لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما كسبته ﴿وَلَكُم﴾ الواو استئنافية ﴿لكم﴾ خبر مقدّم ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَسَبْتُمْ﴾ صلةٌ لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما كسبتموه ﴿وَلَا﴾ الواو استئنافية ﴿لا﴾ نافية ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ فعل

مضارع مغيَّر الصيغة مرفوع بثبات النون والواو في محل الرفع نائب فاعله، والجملة مستأنفة ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بتسألون ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلةٌ لما الموصولة لا محلَّ لها من الإعراب، والعائد محذوف، تقديره: عمّا كانوا يعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ قال الكسائي، والفراء: القواعد: الجدر جمع جدار، ككتاب، وكتب: الحائط. وقال أبو عبيدة: القواعد: الأساس، وأساس البناء أصله الثابت في الأرض. وقال بعضهم: القواعد: جمع قاعدةٍ، والقاعدة: هي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس، أو من السَّافات (طاقات البناء)، ورفُعها إعلاءُ البناء عليها، قال الشاعر:

فــي ذِرْوَةٍ مِــنْ بِــقَــاعِ أوَّلِــهِــم   زَانَــتْ عَــوالِــيــهَــا قَــواعِــدُهَــا

والقواعد من النساء: جمع قاعد، وهي التي قعدت عن الولد، وسيأتي الكلام على كون قاعدٍ لم يأت بالتاء في مكانه إن شاء الله تعالى: ﴿تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ تقبل الله العمل: قَبِلَه ورضي به ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾ أي: منقادين لك، يقال: أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ والذرِّية: النسل، مشتقَّةٌ من ذروت، أو ذريت، أو ذرأ الله الخلق، أو الذرَّ، ويضم ذالها أو يكسر أو يفتح، فأمّا الضمُّ فيجوز أن تكون ذُرِّيَّة فُعَيلة من ذرأ الله الخلق. وأصله: ذريئةٌ، فخفّفت الهمزة بإبدالها ياءً، كما خفَّفوا همزة النَّسِيءَ، فقالوا: النَّسِيْيَ، ثُمَّ أدغمُوا الياء التي هي لام الفعل في الياء التي هي للمد، ويجوز أن تكون فُعُولةً من ذروت، الأصلُ: ذُرُوْوَةٌ، أبدلت لام الفعل ياءً، اجتمعت فيه واوٌ وياءٌ، واوُ المدّ، والياء المنقلبة عن الواو التي هي لام الفعل، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت واو المدِّ ياءً، وأدغمت الياء في الياء وكُسر ما قبلها؛ لأنَّ الياء تطلب الكسر، وقد أطال الكلام في هذه المادَّة أبو حيان، فراجع «البحر».

﴿وَأَرِنَا﴾ أصلُه: أَرْءِيْنا، أمرٌ من أرى الرباعيّ، فالهمزة الثانية عين الكلمة، والياء لامها، فحذفت الياء؛ لأجل بناء الفعل، فصار أرئنا بوزن أَفْعِنا، ثُمَّ نقلت

حركة الهمزة إلى الراء الساكنة قبلها، وهي فاءُ الكلمة، ثمّ حذفت الهمزةُ؛ للتخفيف، فصار أرنا بوزن أَفِنَا، فلم يبق من الفعل إلا فاؤُهُ، وهي إمَّا بصريَّةٌ بمعنى: بصّرنا، أو عرفانيةٌ بمعنى: عرِّفنا، تتعدَّى في أصلها إلى واحد، وتعدَّت هنا للثاني بواسطة همزة النقل ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ جمع منسكٍ بفتح السين وكسرها، وقد قرىء بهما، والمفتوح هو المقيس؛ لانضمام عين مضارعه ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ يقال: تاب العبدُ إلى ربّه إذا رجع إليه؛ لأنّ اقتراف الذنب إعراضٌ عن الله وعن موجبات رضوانه، وتاب الله على العبد رحمه وعطف عليه ﴿وَتُبْ﴾ أمرٌ من تاب يتوب، ووزنه فل، وأصل يتوب: يتوب بوزن يفعل؛ نقلت حركة الواو إلى التاء، فسكنت إثر ضمٍّ، فصارت حرف مدّ، فلمَّا بُنِي منه الأمر حذف حرف المضارعة وسكن آخره، فقيل: تُبْ، فالتقى ساكنان فحذفت الواو، ويقال: رغب في الشيء إذا أحبَّه، ورغب عنه كرهه (وسفه) نَفْسه أذلَّها واحتقرها. ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: اصْتَفَوَ بوزن افتَعَلَ من الصفوة لامه واوٌ، لكنَّها أبدلت ياءً؛ لمجيئها خامسةً، ثُمَّ بُنِيَ الفعل على السكون؛ لاتصاله بضمير الرفع (نا) ثُمّ أبدلت تاء الافتعال طاءً؛ لوقوعها بعد حرفٍ من حروف الإطباق، كما قال ابن مالك:

طـاتـا افْـتِـعَـالٍ رُدَّ إثـر مُـطْـبَـقِ فِـي ادَّان وازْدَدْ وادَّكِـر دالاً بَـقِـي

وعبارة «العمدة» هنا: واصطفيناه؛ أي: جعلناه صافياً من الأدناس الظاهرة والباطنة، مشتقٌّ من الصفوة، ومعناه: تخيير الأصفى، فأصله: اصتفيناه، قلبت تاء الافتعال طاء؛ لوقوعها بعد حرف الإطباق، فصار اصطفى، وألف اصطفى بدلٌ من الياء التي هي بدلٌ من الواو؛ لأنَّ أصله: اصْطَفَوَ؛ لأنَّه من الصفوة، يقال: صفا يصفو صفوةً، فقلبت الواو ياءً؛ لأن الواو إذا وقعت رابعةً فصاعداً قلبت ياءً، فصار اصطفى، فتحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار اصطفى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ أصله: وَصَّيَ بوزن فَعَّلَ المضعَّف قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقرىء وأوصى بوزن أفعل وأصله: أَوْصَيَ تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ أصله: يا بنين لي، حذفت النون واللام للإضافة، ثُمَّ أدغمت ياء الجمع في ياء المتكلم المضاف إليها الجمع، فقيل: يا بنيَّ بفتح الياء المشددة.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ أصله: تموتونن بثلاث نونات، الأولى علامة الرفع، والثانية

المشدَّدة للتوكيد، فحذفت نون الرفع للجازم، فالتقى ساكنان الواو والنون الأولى المدغمة من نوني التوكيد، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ نون التوكيد أولى بالبقاء؛ لدلالتها على معنى مستقلٍّ، وبقيت ضمّةُ التاء لتدلَّ على الواو المحذوفة، فصار تموتُنَّ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ والشهداء: جمع شهيد بمعنى حاضر، وحضور الموت حضور أماراته، وأسبابه، وقرب الخروج من الدنيا ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جمع أبٍ على أفعال، أصله: أأباوٌ، أبدلت الهمزة الثانية حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى وهو الألف، ثم أبدلت الواو همزةً؛ لتطرُّفها إثر ألفٍ زائدةٍ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ فعلٌ ماض مؤنّثٌ لإسناده إلى ضمير المؤنَّث، وأصله: خلو بوزن فعل بفتح العين، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فلحقت بالفعل تاء التأنيث الساكنة فالتقى ساكنان، حيث صار اللفظ خَلاْت، فحذفت الألف؛ لالتقاء الساكنين، فصار خلت بوزن فعت.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾؛ لحكاية الحال الماضية، ومعنى حكاية الحال الماضية: أن يفرض ويقدَّر الواقع الماضي واقعاً وقت التكلم، ويخبر عنه بالمضارع الدال على الحال، وفي ذلك غرضٌ معروفٌ عند أهل المعاني، وهو استحضار الصورة الماضية، كأنّها مشاهدة بالعيان، فكأنَّ السامعُ ينظرُ إلى الُبْنيانِ وهو يرتفعُ، والبَنَّاءِ وهو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ لأنّه على تقدير القول؛ أي: يقولان: ربَّنا تقبَّل منَّا.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي يراد به التقريع، والنفي في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ لأنَّ الجملة واردةٌ مورد التوبيخ والتقريع للكافرين، كما

مرَّ في مبحث التفسير.

ومنها: التأكيد بإنَّ واللام معاً في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مع أنَّه أكَّد باللام فقط فيما قبله؛ أعني: قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ إشعاراً بأنَّ الجملة الثانية محتاجةٌ لمزيد التأكيد دون الأولى، وذلك أنَّ كونه في الآخرة من الصالحين أمرٌ مغيَّبٌ، فاحتاج الإخبار عنه إلى زيادة تأكيد، وأمَّا اصطفاء الله تعالى له في الدنيا، فأمر مشاهدٌ نقله جيلٌ عن جيل.

ومنها: الالتفات من التكلم في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ لأنَّ الأسماء الظاهرة من قبيل الغيبة، إذ مقتضى السياق أن يقال: إذ قلنا له أسلم، وكذا قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ مقتضاه أن يقال: أسلمت لك؛ لأنَّ الالتفات من المحسِّنات البديعة، ولهم فيه غرضٌ، والغرض من الالتفات في الأوَّل؛ إظهار مزيد اللُّطف به، والاعتناء بتربيتِهِ بذكر عنوان الربوبية، وفي الثاني: الإيذان بكمال قوّة إسلامه، والإشارة إلى أنَّ من كان ربًّا للعالمين لا يليق به إلاّ أن يُتلقَّى أمره بالقبول، والإذعان، والخضوع...

ومنها: التعبير بما الموضوعة لغير العاقل دون مَن الموضوعة للعاقل في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ لأنَّ المعبودات في ذلك الوقت كانت من غير العقلاء، كالأوثان، والأصنام، والشمس، والقمر، فاستفهم بما التي لغير العاقل، فَعرَف بَنوُهُ ما أَرادَ، فأجابوه بالحق، إذ الجواب على وَفْقِ السؤال، ففيه مطابقة الكلام لمقتضَى الحال.

ومنها: فنُون البلاغة التي تضمَّنها قولُه: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ إلى آخره.

ومنها: الاطراد وهو: أن يذكر المتكلم أسماء آباء المخاطب مرتَّبةً على طبق ترتيبها في الميلاد، فقد تجاوز جدَّهم الأدنى إلى جدِّهم الأعلى؛ لكونه المبتدأ بالملة المتبعة.

ومنها: فنُّ المساواة؛ لأنَّ ألفاظ هذه الأسماء لا فضل فيها لبعضٍ على بعض.

ومنها: حسن البيان؛ لأنَّ فيها بياناً عن الدين بأحسن بيانٍ، لا يتوقَّف أحدٌ في فهمه.

ومنها: الاحتراس؛ لأنّه لو وقف عند آبائك ولم يذكر ما بعده لاختلَّت صحة المعنى؛ لأنَّ مطلق الآباء يتناول من الأب الأدنى إلى آدم، وفي آباء يعقوب عليه السلام من لا يجب اتباع ملّته، فاحترس بذكر البدل عمّا يرد على المبدل منه، لو كان وقع الاختصار عليه، فتأمَّل واعجب، وفيه أيضاً التغليب؛ لأنّ قوله: ﴿ءَابَآئِكَ﴾ شمل العمَّ الذي هو إسماعيل، والجدَّ الذي هو إبراهيم والأب الذي هو إسحاق، فغلَّب الأب على غيره، فعبَّر عن الكل بالآباء من المجازات المعهودة، في فصيح الكلام.

ومنها: النهي عن الموت في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مع أنَّ الموت ليس من الأمور التي تدخل تحت إرادة الإنسان؛ إشعاراً بأنَّ الموت على خلاف الإسلام هو موتٌ لا خير فيه، وأنّه ليس بموت السعداء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا[1] ذكر أنَّ ملة إبراهيم هي الملة الحنيفية السمحة، وأنَّ من لم يؤمن بها، أو رغب عنها، فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة.. ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة، من زعمهم أنَّ الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، وبيَّن أنَّ تلك الدعاوي لم تكن عن دليلٍ، أو شبهةٍ، بل هي مجرَّد جحود وعناد، ثُمَّ عقَّب ذلك بأنَّ الدين الحق هو التمسك بالإسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية، قال أبو حيان: وارتبطت[2] هذه الآية بما قبلها؛ لأنّه لمَّا ذكر في قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جواباً إلزاميًا، وهم ما

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

أُمروا باتباع اليهودية والنصرانية، وإنما كان ذلك منهم على سبيل التقليد، وكُلُّ طائفةٍ منهم تكفِّر الأخرى، أجيبوا بأنَّ الأولى في التقليد اتباع إبراهيم؛ لأنهم أعني: الطائفتين المختلفتين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذُ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه، إن كان الدين بالتقليد، فلما ذكر هنا جواباً إلزامياً ذكر بعده برهاناً في هذه الآية، وهو ظهور المعجزة عليهم بإنزال الآيات، وقد ظهرت على يد محمد ﷺ، فوجب الإيمان بنبوَّته، فإنَّ تخصيص بعض بالقبول وبعض بالردِّ يوجب التناقض في الدليل، وهو ممتنعٌ نقلاً. انتهى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لمَّا بيَّن[1] سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أنَّ الملَّة الصحيحة هي ملة إبراهيم، وليست هي باليهودية والنصرانية، بل هي صبغة الله التي لا دخل لأحد فيها، وهي بعيدةٌ عن اصطلاحات الناس وأوضاعهم، ولكن نشأت بعد ذلك أوضاعُ الرؤساء، فطمست ما جرى عليه الأنبياء، حتى خفيت أوامرهم فيها إلى أن أرسل الله سبحانه محمداً ﷺ، ودعا الناس إلى الرجوع إليها، وأرشد إلى الحق الذي عليه صلاح المجتمع في دينه ودنياه.. شرع هنا يُبطل الشبهاتِ التي تعترض سبيل الحق، فلقَّن نبيَّه الحجج التي يدفع بها تلك المفتريات.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال: (قال ابن صُوريا للنبي ﷺ: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد! تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ. . .﴾ الآية.

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ . . .﴾ الآيات، روي أنَّ سبب نزول هذه الآيات: أنَّ اليهود والنصارى قالوا: يجب أن يكون الناس لنا تبعاً في الدِّين؛ لأنَّ الأنبياء منا، والشريعة نزلت علينا، ولم يعهد في العرب أنبياء ولا شرائع، فردَّ الله عليهم بهذه الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ في المعنى معطوف على قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾. الخ. وهو بيان فن آخر من فنون كفرهم، وإضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالتهم في أنفسهم قبل، نزلت هذه الآية في رؤساء يهود المدينة، وفي نصارى نجران، والضمير في ﴿قالوا﴾ لأهل الكتابين، وأو في قوله: ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؛ لتفصيل القول المجمل بقوله: ﴿قالوا﴾؛ أي: قالت اليهود للمؤمنين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا﴾؛ أي: اتَّبعوا اليهوديَّة تهتدوا من الضلالة، وتصلوا إلى الخير، وتظفروا بالسعادة، فإنّ نبيَّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بعيسى والإنجيل، وبمحمدٍ والقرآن، وقالت النصارى للمؤمنين: كونوا نصارى؛ أي: اتبعوا النصرانية تهتدوا، فإنّ نبينا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بموسى والتوراة، وبمحمدٍ والقرآن؛ أي: قال كُلُّ واحدٍ من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلاّ ذلك، وقوله: ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ جوابٌ للأمر؛ أي: إن تكونوا كذلك تجدوا الهداية من الضلالة، فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! على سبيل الردِّ، ببيان ما هو الحقُّ لا نتَّبِعُ دينكم ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ودينه.

وقرأ الجمهور[1]: بنصب (مِلَّةَ) بإضمار فعل، إمّا على المفعول؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم؛ لأنَّ معنى قوله: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ اتَّبعوا اليهوديَّة والنصرانيَّة، وإمَّا على أنَّه خبر كان؛ أي: بل نكون ملة إبراهيم؛ أي: أهل ملة

(١) البحر المحيط.

إبراهيم، وإمّا على أنَّه منصوب على الإغراء؛ أي: الزموا ملَّة إبراهيم، وإمَّا على أنّه منصوبٌ على إسقاط الخافض؛ أي: نقتدي ملّة إبراهيم؛ أي: بملة إبراهيم، ويحتمل أن يكون الخطاب للكفار، فيكون المضمر اتبعوا، أو كونوا، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين، فيقدَّر نتّبع، أو نكون، أو نقتدي على ما تقدم تقديره.

وقرأ ابن هرمز الأعرج، وابن أبي عبلة: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ برفع ملَّة وهو خبر مبتدإٍ محذوف؛ أي: بل الهدى ملة إبراهيم، أو أمْرُنا ملَّتُه، أو نحن ملَّتُه؛ أي: أهل ملته، أو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: بل ملة إبراهيم حنيفاً ملّتنا؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة كُلِّها من اليهودية، والنصرانية، والوثنية، إلى الدين الحق السَّمح الذي هو التوحيد، وهو حالٌ من المضاف إليه، وهو إبراهيم، كما في قولهم: رأيت وجه هندٍ قائمةً، لأنَّ رؤية وجه هندٍ يستلزم رؤيتها، فالحال هنا تبين هيئة المفعول، أو من المضاف وهو المِلَّة، وتذكير حنيفاً حينئذٍ بتأويل الملة بالدين؛ لأنّهما متَّحدان ذاتاً، والتغاير بالاعتبار، وإنَّما خصَّ[١] إبراهيم دون غيره من الأنبياء، وإن كان كُلُّهم مائلين إلى الحق مستقيمين في الطريقة حنفاء؛ لأنّ الله تعالى اختصَّ إبراهيم بالإمامة؛ لِمَا سنَّه من مناسك الحج، والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام ممَّا يقتدى به إلى قيام الساعة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالى؛ أي: وما كان على دينهم، والمراد بالإشراك: مطلق الكفر، وفي هذا تعريضٌ بهم، وإيذانٌ ببطلان دعاويهم اتباع إبراهيم عليه السلام مع إشراكهم، فإشراك اليهود بقولهم: عزير ابن الله، وإشراك النصارى بقولهم: المسيح ابن الله وإشراك غيرهما بعبادة الأوثان، والشمس، والقمر، والكواكب، والملائكة، وغيرها.

وفي الآية: إرشاد[٢] إلى اتباع دين إبراهيم، وهو الدين الذي عليه نبيُّنا محمدٌ ﷺ وأصحابه، وأتباعه، وبعد أن أمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ أن يدعو الناس إلى اتّباع ملة إبراهيم، أمر المؤمنين بمثل ذلك، فقال: (قُولُوا) أيُّها المؤمنون!

---

(١) العمدة. (٢) روح البيان.

لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم ذلك ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وحده، وصدَّقنا بوحدانيَّته ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ أي: آمنا بالقرآن الذي أنزل على نبينا، والإنزال إليه إنزالٌ إلى أمته؛ لأنَّ حكم المنزل يَلْزَمُ الكُلَّ؛ لأنّهم المخاطبون فيه بتكالفيه من الأوامر، والنواهي، وغير ذلك.

أخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، فإن كان حقاً لم تكذبوه، وإن كان كذباً لم تصدقوه». وروى ابن أبي حاتم عن معقل مرفوعاً: (آمِنُوا بالتوارة والإنجيل، وليسعكم القرآن) ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ من صحفه العشر، قال تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ وكرَّر الموصول؛ لأنّ المنزل إلينا وهو القرآن غير تلك الصحائف التي أنزلت على إبراهيم، فلو حذف الموصول لأوهم أنَّ المنزل إلينا هو المنزل إلى إبراهيم، وعطف قوله: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ على إبراهيم مع أنَّه لم ينزل إليهم شيءٌ؛ لأنّهم كلِّفوا العمل بما أنزل إلى إبراهيم، والدعاء إليه، فأضيف الإنزال إليهم كما أضيف إلينا في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ والأسباط: جمع سبِطٍ وهو في الأصل شجرةٌ واحدةٌ لها أغصانٌ كثيرةٌ، والمراد هنا: أولاد يعقوب من صلبه اثنا عشر، كما مر، سُمُّوا بذلك؛ لأنّه وُلِد لكلٍ منهم جماعةٌ، وسبط الرجل: حافده؛ أي: ولد ولده، وحينئذٍ تسمية أولاد يعقوب بالأسباط بالنظر، لكونهم أولاد أولاد إسحاق وإبراهيم، وقيل: المراد: أولاد أولاد يعقوب وتسميتهم أسباطاً ظاهرةٌ، والأسباط من بني إسرائيل، كالقبائل من العرب، والشعوب من العجم، وهم جماعةٌ من أبٍ وأمٍ، وكان في الأسباط أنبياء ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾؛ أي: وآمنَّا بالذي أوتي، وأعطي موسى بن عمران، كليم الله من التوراة، والآيات ﴿وَ﴾ ما أوتى ﴿عيسى﴾ ابن مريم من الإنجيل، والآيات، ونصَّ على موسى وعيسى؛ لأنّهما متبوعا اليهود والنصارى بزعمهم، والكلام هنا معهم، ولم يكرِّر الموصول في عيسى؛ لأنه إنّما جاء مصدِّقاً لما في التوراة، ولم ينسخ منها إلاَّ نزراً يسيراً، فالذي أوتي عيسى هو ما أوتي موسى، وإن كان قد

خالف في نزرٍ يسيرٍ، وتعبيره أوّلاً بأنزل، وثانياً بأوتي مع كون المعنى واحداً؛ للتفنُّن، ولمَّا[1] ذكر في الإنزال خاصّاً عطف عليه جمعاً، فكذلك لمَّا ذكر في الإيتاء خاصاً عطف عليه جمعاً، ولمَّا أظهر الموصول في الإنزال في العطف أظهره في الإيتاء، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: وبجميع ما أعطى النبيون المذكورون، وغيرهم من الكتب، والمعجزات، والمعنى: آمنَّا أيضاً بالتوراة والإنجيل، والكتب التي أوتي جميع النبيين، وصدَّقنا أنَّ ذلك كُلَّه حق، وهدى، ونور، وأنَّ الجميع من عند الله تعالى، وأنَّ جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى، وحقٍّ، وذكر ما أوتي هنا، وحذفه في آل عمران؛ اختصاراً، كما هو الأنسب بالآخر، وقال هنا: أوتي موسى، ولم يقل: وما أنزل إلى موسى، كما قال قبل: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ للاحتراز عن كثرة التكرار.

﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ في الإيمان لا في الأفضليَّة ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: بين أحدٍ من الأنبياء؛ أي: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضٍ، كما فعلت اليهود والنصارى، فاليهود كفرت بعيسى ومحمد ﷺ، وأقرَّت ببعض الأنبياء، بل نؤمن نحن بكلِّ الأنبياء، وأنَّ جميعهم كانوا على حقّ وهدى؛ لأنَّ تصديق الكُل واجبٌ، والدليل الذي أوجب علينا أن نؤمن ببعض الأنبياء، وهو تصديق الله إياه بخلق المعجزات على يديه، يوجب الإيمان بالباقين، فلو آمنَّا ببعضهم، وكفرنا بالبعض لناقضنا أنفسنا، والجملة حال من الضمير في آمنا، ولفظ أحد[2]؛ لوقوعه في سياق النفي عامٌّ، فساغ أن يضاف إليه (بين) من غير تقدير معطوفٍ، نحو: المال بين الناس، ووجَّهَهُ في «الكشاف» بقوله: وأحدٌ في معنى الجماعة بحسب الوضع، وعلَّله التفتازانيُّ بقوله: لأنّه اسمٌ لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمثنى والمجموع، ويشترط أن يكون استعماله مع كُلٍّ، أو في كلام غير موجب، وهذا غير الأحد الذي هو أوّل العدد في مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرةً في سياق النفي على

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

ما سبق إلى كثيرٍ من الأذهان، ألا ترى أنَّه لا يستقيم لا نُفرِّق بين رسولٍ من الرسل إلاّ بتقدير العطف؛ أي: بين رسولٍ ورسولٍ. اهـ. «كرخي».

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية؛ أي: آمنَّا بالله، والحال أنَّا مخلصون لله تعالى جميع أعمالنا، ومذعنون له، وله متعلِّقٌ بمسلمون، وتأخَّر عنه العامل؛ لرعاية الفواصل، أو قدَّم له؛ للاعتناء بالضمير العائد على الله تعالى.

فائدةٌ: وابتدأ أوّلاً بالإيمان بالله[1]؛ لأنَّ ذلك أصل الشرائع، وقدَّم ما أنزل إلينا، وإن كان متأخِّراً في الإنزال عن ما بعده؛ لأنّه أولى بالذكر؛ لأنَّ الناس بعد بعثة محمدٍ ﷺ مدعوون إلى الإيمان بما أنزل إليه جملةً وتفصيلاً، وقدَّم ما أنزل إلى إبراهيم على ما أوتى موسى وعيسى؛ للتقدم في الزمان؛ أو لأنَّ المنزل على موسى ومن ذكر معه هو المنزل إلى إبراهيم، إذ هم داخلون تحت شريعته، وأنزل[2] يتعدَّى بعلى، وإلى، فلذا أورد بإلى، وفي آل عمران بعلى.

فائدة أخرى: وظاهر قوله[3]: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ يقتضي التعميم في الكتب، والشرائع، وعن أبي سعيد الخدري قال: قلت: يا رسول الله! كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيثٍ خمسين صحيفة، وأنزل على أخنوخ ثلاثين صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، ثُمَّ أنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان»، وأمَّا عدد الأنبياء: فروي عن ابن عباس، ووهب بن منبه أنّهم مائة ألف نبيٍّ وأربعة وعشرون ألف نبي، كُلُّهم من بني إسرائيل إلاّ عشرين ألف نبيٍّ، وعدد الرسل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، كُلُّهم من ولد يعقوب إلاّ عشرين رسولاً، ذُكِر منهم في القرآن خمسةٌ وعشرون، نصَّ على أسمائهم وهم: آدم، وإدريس،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) النفي.

(٣) البحر المحيط.

ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، واليَسع، ويونس، وأيوب، وداود، وسليمان وذو الكفل، وإلْياس، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسى، ومحمد صلى الله تعالى عليهم أجمعين، وفي روايةٍ عن ابن عباس: (أنَّ الأنبياء كُلَّهم من بني إسرائيل إلاّ عشرةً: نوحاً، وهوداً، وشعيباً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل ومحمداً صلى الله عليهم أجمعين ولمَّا نزل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية، قرأها رسولُ الله ﷺ على اليهود والنصارى، وقال: «الله أمرني بهذا»، فلمَّا سمعوا بذكر عيسى أنكروا وكفروا، وقالت النصارى: إنّ عيسى ليس بمنزلة سائر الأنبياء، ولكنَّه ابن الله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: اليهود والنصارى ﴿بِمِثۡلِ مَآ﴾؛ أي: بمثل الدين الذي ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ هذا من[1] باب التعجيز والتبكيت؛ أي: إلزام الخصم، وإلجائه إلى الاعتراف بالحق بإرخاء عنانه، وسدِّ طرق المجادلة عليه، والمثل مقحمٌ هنا، كما تدلُّ عليه القراءتان الآتيتان.

والمعنى: فإن آمنوا بما آمنتم به وهو الله تعالى، فإنَّه ليس لله تعالى مثلٌ، وكذا دين الإسلام. وقرأ عبد الله بن مسعود، وابن عباس: ﴿بما آمنتم﴾ وقرأ أُبيٌّ ﴿بالذي آمنتم به﴾ وقرأ الجمهور ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ ومثل على هذه القراءة مقحمٌ كما ذكرناه آنفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾؛ أي: عليه، وتشهد له قراءة من قرأ ﴿بما آمنتم به﴾ ﴿وبالذي آمنتم به﴾؛ لئلاّ يلزم علينا ثبوت المثل لله تعالى، وللقرآن.

وهذا مُرتب على قوله[2]: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلخ. أي: وإذا قلتم ما ذكر فحال اليهود، إمَّا مساواتكم فيما ذكر، أو مخالفتكم فيه، والمعنى: أي: فإن آمنت اليهود والنصارى، وغيرهم، بجميع ما آمنتم به من سائر كتب الله تعالى، وجميع رسله ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ من الضلالة إلى الحق، وأصابوه، كما اهتديتم، وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق؛ أي: فقد صاروا مهتدين مسلمين مثلكم، وقيل:

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

المعنى: فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيفٍ، ولا تحريفٍ، كما أنّكم آمنتم بالقرآن من غير تصحيف، ولا تحريف، فقد اهتدوا؛ لأنّهم يتوصَّلون بذلك إلى معرفة نبوة محمد ﷺ وقال في: «الكشَّاف»: إنّه من باب التبكيت والتعجيز، كما مرّ آنفاً؛ لأنَّ دين الحق واحدٌ لا مثل له، وهو دين الإسلام، قال: أي[1]: فإن حصَّلوا ديناً آخر مثل دينكم، مساوياً له في الصحة والسَّداد، فقد اهتدوا ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عن الإيمان بالنبيين وكتبهم؛ أي: أعرضوا عن الدخول في الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلُّوا بشيءٍ من ذلك، كأن آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض، كما هو دينهم وديدنهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ مستقرُّون ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ وخلافٍ عظيمٍ بعيدٍ عن الحق، وعداوةٍ شديدةٍ لكم.

وهذا[2] لدفع ما يتوهَّم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون، فقوله: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ خبرٌ لقوله: ﴿هم﴾ وجَعْلُ الشقاقُ ظرفاً لهم، هم مظروفون له مبالغةً في الإخبار باستيلائه عليهم، فإنَّه أبلغُ من قولك هم مشاقُّون، والشِقاقُ: مأخوذٌ من الشّقِّ وهو الجانب، فكأنَّ كُلَّ واحدٍ من الفريقين في شقٍّ غير شقِّ صاحبه؛ بسبب العداوة، ولمَّا دلَّ تنكير الشقاق على امتناع الوفاق، وأنَّ ذلك ممَّا يؤدِّي إلى الجدال، والقتال لا محالة، عقَّب ذلك بتسلية رسول الله ﷺ وتفريح المؤمنين بوعد النصرة والغلبة، وضمان التأييد، والإعزاز بالسين الموضوعة للتأكيد الدالَّة على تحقُّق الوقوع ألبتة، فقال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: فسيكفيك الله يا محمد! ويقيك شرَّ شقاقهم، ومكر عنادهم، والضميران منصوبا المحلِّ على أنَّهما مفعولان ليكفي، يقال:[3] كَفَاهُ مؤونَتَهُ كفايةً، وإن كثر استعماله معدًّى إلى واحد، نحو: كفاك الشيء، والظاهر: أنَّ المفعول الثاني حقيقةً في الآية هو المضاف المقدَّرُ؛ أي: فسيكفي الله إياك أَمْر اليهود والنصارى، ويدفع شرَّهم عنك، وينصرك عليهم، فإنَّ الكفاية لا تتعلَّق بالأعيان، بل بالأفعال، وقد

---

(١) الكشاف.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

أنجز الله سبحانه وعده الكريم بالقتل، والسبي في بني قريظة، والجلاء، والنفي إلى الشام، وغيره في بني النضير، والجزية، والذلّة في نصارى نجران، وعَطْفُ الجملةِ بالفاء مشعرٌ بتعقُّب الكفاية عقيب شقاقهم، والمجيءُ بالسين يدلُّ على قربِ الاستقبال، إذ السينُ في وضعها أقرب من التنفيس من سوف، والذواتُ ليست المكفية، فهو على حذف مضافٍ، كما مرَّ آنفاً؛ أي: فسيكفيك شقاقهم والمكفيُّ به محذوف؛ أي: بمن يهديه الله من المؤمنين؛ أي: بتفريق كلمة المشاقِّين، أو بإهلاك أعينهم، وإذلال باقيهم بنحو: السبي، والقتل، وهذا تسليةٌ وتسكينٌ للمؤمنين، ووعدٌ لهم بالحفظ والنصرة على من عاداهم، وضمانٌ من الله تعالى؛ لإظهار رسول الله ﷺ؛ لأنَّه إذا تكفَّل بشيءٍ أنجزه، وهو إخبارٌ بغيبٍ، ففيه معجزةٌ للنبيِّ ﷺ ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ونيَّاتهم، يَسْمَعُ جميَع ما ينطقون به، ويعلم جميع ما يُضمِرونه به من الحسد والغلِّ، وهو مجازيهم، ومعاقبهم. وفي «الرُّوح»: وهذه الجملة تذييلٌ لما سبق من الوعد، وتأكيدٌ له، والمعنى: أنَّه تعالى يسمع ما تدعوه، ويعلم ما في نيتك من إظهار الدين، فيستجيب لك، ويوصلك إلى مرادك. اهـ.

وقال أبو حيَّان: ومناسبة هاتين الصفتين هنا[1]: أنَّ كُلّاً من الإيمان وضدِّه مشتملٌ على أقوالٍ وأفعالٍ، وعلى عقائد تنشأ عنها تلك الأقوال والأفعال، فناسب أن يختم ذلك بهما؛ أي: وهو السميع لأقوالكم العليم بنياتكم واعتقادكم، ولمَّا كانت الأقوال هي الظاهرة لنا، الدالَّة على ما في الباطن، قُدِّمت صفة السميع على العليم؛ ولأنَّ العليم فاصلةٌ أيضاً، وتضمنت هاتان الصفتان الوعيد؛ لأنَّ المعنى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيجازيكم بما يصدر منكم. وقرأ الجمهور ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ بالنصب، فيكون إمّا على الإغراء؛ أي: إلزموا يا أهل الكتاب! صبغة الله، ودينه الذي هو دين الإسلام، وتمسَّكوا به واتَّبعوه، لا صبغة أحباركم، ورهبانكم، وسمِّي الدين صبغةً؛ لظهور أثره على صاحبه، كظهور أثر الصبغ على الثوب؛ ولأنَّه يلزمه، ولا يفارقه، كالصبغ في الثوب؛ لأنَّ الصبغ

---

(١) البحر المحيط.

بالكسر: ما يُلوَّن به الثياب، والصَّبغ بالفتح: المصدر، والصبغة: الفعلة التي تبنى للنوع، والحالة مِنْ صبَغَ، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع الصبغ عليها، وهي؛ أي: الصبغة في الآية؛ مستعارةٌ لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي دينه، شبِّهت الخلقة السليمة التي يستعدُّ بها العبد للإيمان، وسائر أنواع الطاعات بصبغ الثوب من حيث إن كُلَّ واحدة منهما حليةٌ؛ لما قامت هي به وزينة له. وقيل: إنَّ الصبغة: الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معموديَّة النصارى، إذا ولد لأحدهم مولودٌ، وأتى عليه: سبعةُ أيام، غمسوه في ماءٍ لهم أصفر يُسمُّونه ماء المعموديَّة، وصبغوه به ليطهِّروه به مكان الختان، وكانوا يفعلون ذلك بأولادهم في كنائسهم؛ تشبيهاً للمولود بعيسى عليه السلام. فإذا فعلوا ذلك به قالوا: الآن صار نصرانيًّا حقًّا، وزعموا أنَّ الإنجيل ذكر عيسى بأنَّه الصَّابغ، والمعمودية: هي اسم ماء غُسل به عيسى عليه السلام حين ولادته، فمزجوه بماءٍ آخر، وكُلَّما استعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر. اهـ.

فأخبر الله تعالى: أنَّ دين الإسلام ليس ما تفعله النصارى. وقيل: إنّه منصوب على كونه بدلاً من ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقيل: إنّه منصوبٌ انتصاب المصدر المؤكد عن قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾. وقيل: عن قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. وقيل عن قوله: ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ والتقدير: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله صبغةً؛ أي: فطرنا، وخلقنا على استعداد قبول الحق، والإيمان فطرته، فهذا المصدر مفعولٌ مطلق مؤكِّد لنفسه؛ لأنَّه مع عامله المقدَّر بعينه، وقع مؤكّداً لمضمون الجملة المتقدمة، وهو قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، لا محتمل لها من المصادر إلاّ ذلك المصدر؛ لأنَّ إيمانهم بالله يحصل بخلق الله إيّاهم على استعداد اتباع الحق، والتحلِّي بحلية الإيمان. وهذا الوجه؛ أعني: كونه منتصباً انتصاب المصدر المؤكد عن قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أحسنها، وأظهرها، لما سيأتي عند قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ من تنافر آخر الآية لأوّلها إذ نَصَبْنَا على الإغراء، ولأنَّ نصبه على الإبدال من ملة إبراهيم بعيدٌ؛ لطول الفصل بين البدل والمبدل منه، ويحتمل أن يكون التقدير: طهَّرنا الله تطهيره؛ لأنَّ الإيمان يُطهِّر النفوس من أوضار الكفر، وسمَّاه صبغةً؛ للمشاكلة لما فعلته النصارى، والمشاكلة: هي ذكر الشيء

بلفظ غيره لوقوع ذلك الشيء في صحبة الغير، إمَّا بحسب المقال المحقَّق، أو المقدَّر بأن لا يكون ذلك الغير مذكوراً حقيقةً، ويكون في حكم المذكور لكونه مدلولاً عليه بقرينة الحال، فالمشاكلة تجري بين قولين، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ فإنَّه عبَّر عن ذات الله تعالى بلفظ النفس؛ لوقوعه في صحبة لفظ النفس، وعبَّر هنا عن لفظ الفطرة بلفظ الصبغة؛ لوقوعه في صحبة صبغة النصارى إذ كانوا يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان الختان، للمسلمين بغمسهم في الماء الأصفر الذي يسمُّونه المعمودية بالدال، أو المعمورية بالراء، على زعم أنَّ ذلك الغمس وإن لم يكن مذكوراً حقيقةً، لكنَّه واقعٌ فعلاً من حيث إنّهم يشتغلون به، فكان في حكم المذكور بدلالة قرينة الحال عليه من حيث اشتغالهم به، ومن حيث إنّ الآية نزلت ردّاً لزعمهم ببيان أنَّ التطهير المعتبر هو تطهير الله عباده، لا تطهير أولادكم بغمسهم في المعمودية، وهي اسم ماءٍ غسل به عيسى عليه السلام حين ولادته، وهو نهرٌ في الأردن، وهو عند النصارى مثل الزمزم عند المسلمين في غسل أولادهم به تبرُّكاً به عندما ينصِّرونهم، فمزجوه بماءٍ آخر، وكُلَّما استعملوا منه جعلوا مكانه ماءً آخر.

وقرأ الأعرج[1]، وابن أبي عبلة: بالرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك الإيمان صبغة الله؛ أي: دين الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةًۖ﴾؛ أي: ديناً. وقيل: تطهيراً؛ لأنّه يطهِّر من أوساخ الكفر؛ أي: لا صبغة أحسن من صبغته تعالى؛ لأنّه تعالى يصبغ عباده بالإيمان، ويطهِّرهم به من أوضار الشرك. وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأٌ[2] وخبرٌ، والاستفهام فيه للإنكار بمعنى النفي ﴿مِنَ اللَّهِ صِبْغَةًۖ﴾ نصب على التمييز من أحسن، منقولٌ من المبتدأ، والتقدير: ومَنْ صِبْغَتُهُ أحسنُ من صبغته تعالى، فالتفضيل جارٍ بين الصبغتين لا بين فاعليهما، والمعنى: أيُّ شخصٍ تكون صبغته أحسن من صبغة الله تعالى؟ فإنّه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

يصبغ عباده بالإيمان، ويُطهِّرهم به من أوضار الكفر، وأنجاس الشرك، فلا صبغة أحسن من صبغته، فهي جماع كُلِّ خير، وبها تتألَّف القلوب، والشعوب، وتزكو النفوس، أمَّا ما أضافه الأحبار والرُّهبان من أهل الكتاب إلى الدين، فهي من صبغة البشريَّة، والصنعة الإنسانيَّة التي تجعل الدين الواحد مذاهب متفرقّةً، والأمَّة شيعاً متنافرةً. ﴿وَنَحْنُ﴾ معاشر المسلمين ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لله الذي أعطانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ أي: مطيعون شكراً لها، ولسائر نعمه التي لا تحصى، فإذا كان حرفةُ العبد العبادة، فقد زيّن نفسه بصبغٍ حسنٍ يزيِّنه ولا يشينه. وفيه تعريضٌ لأهل الكتاب؛ أي: لا نشرك به كشرككم، وتقديم الظرف على عامله؛ للاهتمام به؛ ولرعاية الفاصلة، وهو معطوف على آمنَّا داخلٌ تحت الأمر وهو قولوا، وهذا العطف[1] يردُّ قول من زعم أنَّ صبغة الله بدل من ملَّة، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فكِّ النظم، وإخراج الكلام عن التئامِه واتِّساقِه، وانتصابها يعني: صبغة الله على أنّها مصدرٌ مؤكدٌ، هو الذي ذكره سيبويه، والقول: ما قالت حذام. انتهى. وتقديره: في الإغراء: عليكم صبغة الله ليس بجيدٍ؛ لأنَّ الإغراء إذا كان بالظرف والمجرور، لا يجوز حذف ذلك الظرف، ولا المجرور، ولذلك حينَ ذَكَرنا وَجْهَ الإغراء قدَّرنا: الزموا صبغة الله، ومعنى عابدون: موحِّدون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: لِيُوحّدُون. وقيل: مطيعون، متَّبعون ملَّة إبراهيم عليه السلام، وصبغة الله. وقيل: خاضعون، مستكينون في اتباع ملةِ إبراهيم، غير مستكبرين، وهذه أقوالٌ متقاربة.

والمعنى[2]: أي ونحن معاشر المسلمين له تعالى عابدون، ولا نعبد سواه، فلا نتَّخذ الأحبار والرهبان أرباباً يزيدون في ديننا، وينقصون، ويحلُّون، ويحرِّمون، ويَمْحُون مِنْ نفُوسِنا صبغةَ التوحيد، ويُثْبِتُون مكانَها صبغة البشر التي تُفْضِي إلى الإشراك بالله، واتخاذِ الأنداد له، وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ الإسلام لم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

يشرع أعمالاً خاصَّةً يتميَّز بها المسلم مِنْ سواه، كما شرع النصارى المعمودية، بل المعوَّل عليه ما صبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص، وحبِّ الخير، والاعتدال، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ والخطابُ في قل لمحمد ﷺ، أو لكلٍّ من يصلح للخطاب، والهمزة فيه للإنكار، والتوبيخ، والمحاجَّةُ المجادلةُ، ودعوى الحق، وإقامة الحُجَّة على ذلك من كلِّ واحدٍ، وسبب نزول هذه الآية: أنَّ اليهود والنصارى قالوا: إنَّ الأنبياء كانوا منَّا، وعلى ديننا، وديننا أقدمُ، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد! لليهود والنصارى أتجادلوننا، وتخاصموننا ﴿فِى﴾ شأن دين ﴿اللهِ﴾ واصطفائه النَّبيَّ من العرب دونكم، وتدَّعون أنَّ دينه الحقَّ هو اليهوديَّة والنصرانيَّة، وتبنون دخول الجنَّة، والاهتداء عليهما، وتقولون تارةً: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وتارةً: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، وتقولون: (لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا) وترونكم أحقَّ بالنبوَّة منَّا ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: والحال أنّه تعالى خالقنا وخالقكم، ومالك أمرنا وأمركم، لا اختصاص له بقومٍ دون قوم، يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده وهو أعلم بتدبير خلقه، وبمن يصلح للرسالة، وبمن لا يصلح لها، فلا وجه للمجادلة، فحينئذٍ لا تعترضوا على خالقكم، فإنَّ العبد ليس له أن يعترض على ربّه، بل يجب عليه تفويض الأمر. بالكلية إليه تعالى ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ فنجازى عليها خيراً أو شراً، ولا يصيبكم منَّا ضررٌ ولا أجرٌ، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ السيئة المخالفة لأمر الله، فلا يرجع علينا من أعمالكم ضررٌ، وإنما مرادنا نصحكم وإرشادكم، فكيف تدعون أنّكم أولى بالله؟! قال البيضاويُّ: كأنَّه ألزمهم على كُلِّ مذهبٍ ينتحلونه إفحاماً وتبكيتاً، فإنّ كرامة النبوة: إمَّا تفضُّلٌ من الله تعالى على من يشاء، والكُلُّ فيه سواءٌ، وإما إفاضة حقّ على مستعدِّين لها بالمواظبة على الطاعة، والتحلِّي بالإخلاص، فكما أنَّ لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعظامها، فلنا أيضاً أعمالٌ، فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مُخْلِصُونَ﴾ في تلك الأعمال، لا نبتغي بها إلاّ وجهه، فأنّى لكم المحاجَّة، وادعاء حقيّة ما أنتم

عليه، والطمع في دخول الجنة بسببه، ودعوة الناس إليه، وأنتم به مشركون، ونحن مخلصون الطاعة والعبادة له تعالى، وأنتم به مشركون، والمخلص أحرى بالكرامة، وأولى بالنبوَّة من غيره، وهذه الآية منسوخةٌ بآية السيف، كما سيأتي في آخر السورة، والإخلاص[1]: أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى، فلا يشرك في دينه، ولا يرائي بعمله، وحقيقة الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين. قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ ترك العمل من أجل الناس رياءٌ، والعمل لأجل الناس شركٌ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. انتهى.

وحاصل المعنى[2]: أي ومن أين جاءكم هذا القرب من الله دوننا، والله ربُّنا وربُّكم، وربُّ العالمين. فهو الخالق، وجميعنا خلقه، وإنّما يتفاضل الناس بأعمالهم، وآثار أعمالنا عائدةٌ إلينا خيراً أو شرّاً، وآثار أعمالكم كذلك لكم على هذا النحو، ونحن له مخلصون في أعمالنا، لا نبتغي إلاَّ وجهه، أمَّا أنتم فقد اتكلتم على أسلافكم من الصالحين، وزعمتم أنَّهم شفعاء لكم عند ربكم مع انحرافكم عن سيرتهم، إذ هم ما كانوا يتقرَّبون إلاّ بصالح العمل، وصادق الإيمان، فاجعلوهم رائدكم، وانهجوا نهجهم تنالوا الفوز والسعادة.

وخلاصة ما سبق: أنَّ روح الدين هو التوحيد، وملاك أمره الإخلاص المعبر عنه بالإسلام، فإذا زال هذا المقصد، وحفظت الأعمال الصوريَّة، لم يغن ذلك شيئاً، وأهل كتاب أزهقوا هذا الروح، وحفظوا الرسوم والتقاليد، فهم ليسوا على شيء من الدين، ولكنّ محمداً ﷺ جاء بما أحيا ذلك الروح الذي كان عليه جميع الأنبياء، والمرسلين، فهو الذي كمَّل شريعتهم بشريعته التي تصلح لجميع البشر في كلِّ زمان، ومكان. وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ بنونين: إحداهما: نون الرفع، والأخرى ضمير المتكلمين. وقرأ زيد بن ثابت، والحسن،

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

والأعمش، وابن محيصن بإدغام النون في النون، وأجاز بعضهم حذف النون. أمَّا قراءة الجمهور فظاهرةٌ، وأمَّا قراءة زيدٍ، ومن ذكر معه، فوَجْهها: أنه لمَّا التقى مثلان، وكان قبل الأولى حرف مدٍّ ولينٍ جاز الإدغام، كقولك: دار راشدٍ؛ لأنَّ المد يقوم مقام الحركة في نحو: جعل، وأمَّا جواز حذف النون الأولى، فوجَهُهُ: من أجاز ذلك على قراءة من قرأ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ بكسر النون.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ قرأ حمزة[1]، وابن عامر، والكسائي، وعاصم في روايةِ حفصٍ: بالتاء الفوقية، وعلى هذه القراءة تكون أم هنا متَّصلة معادلةً للهمزة في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أي: أتحاجوننا في الله أم تقولون: إنّ هؤلاء الأنبياء على دينكم، فالاستفهام عن وقوع أحد هذين الأمرين: المحاجَّة في الله، والادِّعاء على إبراهيم، ومن ذكر معه أنَّهم كانوا يهوداً أو نصارى؛ أي: أيُّ الأمرين وقع منكم؟ وقرأ الباقون بالياء التحتية، فعلى هذه القراءة تكون أم منقطعةً تقدَّر ببل، وهمزة الإنكار؛ أي: بل أيقولون: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ وهم حفدة يعقوب، وهم أولاد أولاده الاثني عشر. وعن الزجَّاج أنّه قال: الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، فولد كل واحدٍ من ولد إسحاق سبطٌ، ومن ولد إسماعيل قبيلةٌ. اهـ.

﴿كَانُوا۟﴾ قبل نزول التوراة والإنجيل ﴿هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فهم مقتدون بهم، والاستفهام إنكاريٌّ بمعنى: النَّفي؛ أي: لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك؛ لأنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة إنّما حدثت، ووقعت بعدهم في زمن موسى وعيسى، وإبراهيم ومن ذكر معه قبلها بزمانٍ، فكيف يقال فيهم إنَّهم كانوا هوداً أو نصارى؟ كما قال سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عبارة «السمين». والاستفهام للإنكار والتوبيخ أيضاً، فيكون قد انتقل عن قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ وأخذ في الاستفهام عن قضيةٍ أخرى، والمعنى: على إنكار نسبة اليهودية والنصرانية إلى إبراهيم، ومن ذكر معه. انتهت.

---

(١) البيضاوي.

والمعنى: على أنَّ أم متصلةٌ معادلةٌ للهمزة أتحاجُّوننا في الله أم تقولون إنّ إبراهيم؛ أي: أتقيمون الحجة على حقيَّة ما أنتم عليه، أم تقولون إنّ إبراهيم، ومن ذكر معه كانوا هوداً أو نصارى، فنحن مقتدون بهم، والمراد: إنكار كلا الأمرين، والتوبيخ عليهما؛ أي: كيف تحاجون وكيف تقولون في حقِّ الأنبياء الذين بعثوا قبل نزول التوراة والإنجيل: أنّهم كانوا هوداً أو نصارى؟ ومن المحال أن يقتدي المتقدِّم بالمتأخِّر، ويستنَّ بسنته.

والخلاصة: أي: أتقولون إنَّ اختصاصكم بالقرب من الله دوننا هو من الله، وهو ربُّنا وربُّكم؟ أم تقولون: إنّ امتيازكم باليهودية والنصرانية التي أنتم عليها، إنّما كان بأنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا عليها، فنحن مقتدون بهم. فإن كان هذا ما تدَّعون، فأنتم كاذبون فيما تقولون، فإنَّ هذين الإسمين إنّما حدثا فيما بعد، فما حدث اسم اليهودية إلاّ بعد موسى، وما حدث اسم النصرانية إلاّ بعد عيسى، فكيف تزعمون أنَّ إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وقضيَّة العقل شاهدةٌ بكذبكم؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ ﴿أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ اللَّهُ﴾ أعلم به؛ أي: أأنتم أعلم بدين إبراهيم ومن ذكر معه من الله، أم الله أعلم منكم، حيث نفى عن إبراهيم ومن ذكر معه ما نسبتم إليهم من اليهودية والنصرانية، بل الله أعلم منكم، وخبره أصدق، وقد أخبر سبحانه في التوراة، والإنجيل، وفي القرآن على لسان محمد ﷺ، أنّهم كانوا مسلمين مبرَّئين من اليهودية والنصرانية، حيث قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ والمذكور معه تبعٌ له.

والمعنى: أي أأنتم أعلم بالمرضِيِّ عند الله، أم الله أعلم بما يرضيه وما يتقبَّله، لا شكّ أنَّ الله هو العليم بذلك دونكم، وقد ارتضى للناس ملة إبراهيم، وأنتم تعترفون بذلك، وكتبكم تصدِّقه قبل أن تجيء اليهودية والنصرانية، فلم لا ترضون لأنفسكم هذه الملة. وقال أبو حيان: والقول في القراءة في ﴿ءَأَنتُمْ﴾ كهو في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وقد توسَّط السؤال عنه هنا، وهو أحسن من تقدُّمه، نحو: أعلم أنتم أم الله، أو تأخُّره، نحو: أأنتم أم الله أعلم، وهذا تهكُّم

بهم؛ لأنّه ليس عندهم علمٌ، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لإنكار أن يكون أحدٌ أظلم منه، فهو بمعنى: النفي؛ أي: لا أحد أشدُّ ظلماً ﴿مِمَّن كَتَمَ﴾؛ أي: ستر وأخفى عن الناس ﴿شَهَٰدَةً﴾ ثابتةً ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أي: عند من كائنةً ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، فقوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفتان لشهادة؛ أي: شهادةً حاصلةً عنده، صادرةً من الله تعالى، وهو شهادته تعالى لإبراهيم عليه السلام بدين الإسلام، والبراءة من اليهودية، والنصرانية، وهم اليهود، وفيه تعريضٌ بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوَّة والرسالة في كتبهم، وسائر شهاداته، وتقدَّم الكلام في دفع المعارضة في أفعل التفضيل الجائي بعد الاستفهام، كمن عند قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فالمراد هنا: لا أحد من الكاتمين أظلم ممن كتم شهادة الله تعالى؛ يعني: يا أهل الكتاب! قد علمتم بشهادةٍ حصلت عندكم، صادرةٍ من الله تعالى، بأنَّ إبراهيم وبنيه كانوا حنفاء مسلمين بأن أخبركم الله بذلك في كتابكم، ثم إنّكم تكتمونها، وتدَّعون خلاف ما شهد الله به في حقِّهم، فلا أحد أظلم منكم، حيث اجترأتم على تكذيب الله تعالى فيما أخبر به في شأن إبراهيم، ومن معه.

وتعليقُ الأظلمية بمطلق الكِتْمَانِ؛ للإِيمْاءَ إلى أنَّ مرتبة مَنْ يَدْرِيها، ويَشْهَدُ بخلافها في الظلم، خارجةٌ عن دائرة البيان. وعن ابن عباس: (أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة) ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ والمراد: مَسْخُ القلبِ، وطَبْعُه، ونعوذ بالله من ذلك ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ أي: بساهٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (ما) موصولة عامّة لجميع ما يكتسب بالجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، ويدخل فيه كتمان شهادة الله دخولاً أوّليًا؛ أي: هو سبحانه وتعالى محيط بجميع ما تأتون، وما تذرون، فيعاقبكم بذلك أشدَّ عقاب، ويجوز كونها مصدرية؛ أي: بغافلٍ عن عملكم من الكتمان، وغيره، بل محصيه عليكم، ثمّ يعاقبكم عليه في الآخرة، وفيه وعيد شديد، وتهديد ليس عليه مزيدٌ، وإعلامٌ بأنَّ الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على الظلم القبيح، والذنب الفظيع. وقرىء ﴿يعملون﴾ بالياء التحتانية؛ يعني: أنَّ الله لا يترك أمركم سُدًى، بل يعذِّبكم أشدَّ العذاب، وهو محيطٌ بما تأتون، وما تذرون.

وخلاصة معنى الآية: لا أحد أشدُّ ظلماً ممن يكتم شهادةً في كتاب الله، تُبشِّرُ بأنَّ الله يبعث فيهم نبيًّا من بَنِي إخوتهم، وهم العرب أبناءُ إسماعيل، وهم لا يزالون يكتمون ذلك، فينكرون على غير المطلع على التوراة، ويحُرِّفُون على المُطَّلع عليها. ﴿تِلْكَ﴾ الجماعة المذكورة من إبراهيم، ومَنْ معه ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت وسلفت بالموت ﴿لَهَا﴾ جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الأعمال خيراً أو شرّاً ﴿وَلَكُم﴾ أيُّها اليهود والنصارى جزاء ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من الأعمال، كذلك ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أيُّها اليهود والنصارى يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، كما أنَّهم لا يسألون عما تعملون.

والمعنى: أنّ جماعة الأنبياء قد مضت بالموت ولها ما كسبت من الأعمال، ولكم ما كسبتم منها، ولا يُسأل أحدٌ عن عمل غيره، بل كُلُّ إنسان يسأل يوم القيامة عن كسبه وعمله، ويجازى به، فلا يضرُّه، ولا ينفعه سواه.

وهذه قاعدةٌ أقرَّتها الأديان جميعاً، وأيَّدها العقل، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ لكن غلبة الجهل جعلت الناس يعتمدون في طلب سعادة الآخرة، وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين، وساعدهم على ذلك رؤساء الأديان، فأوَّلوهم نصوص الدين اتِّباعاً للهوى، ومن ثمَّ جاء القرآن يقرِّر ارتباط السعادة بالكتب، والعمل، وينفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يقتد بهم في صالح أعمالهم، وقد حاجَّ بذلك أهل الكتاب الذين يفتخرون بأسلافهم، ويعتمدون على شفاعتهم وجاههم، ليقطع أطماعهم في تلك الشفاعة. وعلينا معشر المسلمين أن نجعل نصب أعيننا، ورائدنا في أعمالنا، تلك القاعدة: الجزاء على العمل، ولا نغترَّ بشفاعة سلفنا الصالح ونجعلها وسيلةً لنا في النجاة إذا نحن قصَّرنا في عملنا، فكلٌّ من السلف والخلف مجزيٌّ بعمله، ولا ينفع أحداً عملُ غيره، وفقَّنا الله تعالى لما يحبِّه ويرضاه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

وبالجملة، ففي الآية: وعظٌ لليهود، ولكل من يتكل على فضل الآباء، وشرفهم، أن لا يتَّكلوا على فضل الآباء، فكلٌّ يؤخذ بعمله، ولا ينفعه غيره، وإنّما كُرِّرت هذه الآية؛ لأنّه إذا اختلف مواطن الحِجاج، والمجادلة، حسن

تكريره للتذكير به، وتأكيده، وقيل: إنّما كرَّره؛ تنبيهاً لليهود؛ لئلاّ يغترُّوا بشرف آبائهم وعبارة الكرخي: وكرر تأكيداً وزجراً عمّا هم عليه، من الافتخار بالآباء، والاتكال على أعمالهم؛ أو لأنَّ الأمة في الآية الأولى للأنبياء، وفي الثانية لأسلاف اليهود والنصارى؛ أو لأنَّ الخطاب في تلك الآية لهم، وفي هذه الآية لنا. انتهت. والله أعلم.

الإعراب

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ الخ. ﴿كُونُواْ هُودًا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقولٌ محكيٌّ لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿كُونُواْ﴾ فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمها ﴿هُودًا﴾ خبرها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل ﴿نَصَٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾. ﴿تَهْتَدُواْۗ﴾ فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب ﴿مِلَّةَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، تقديره: بل نتَّبع ملة إبراهيم، أو منصوب على الإغراء بتقدير الزموا، والجملة المحذوفة معطوفة على جملةٍ مقدّرةٍ قبلها، تقديرها: لا نتبع اليهودية، ولا النصرانية، بل نتّبع ملة إبراهيم، والجملة المقدرة مع ما عطف عليها في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿مِلَّةَ﴾ مضاف ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة ﴿حَنِيفًاۖ﴾ حال من إبراهيم، لأنّ الملة كالجزء من إبراهيم، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

ولا تُجِزْ حالاً من ٱلْمُضافِ لَه   إلاَّ إذا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضافُ عَمَلَه

أو كـانَ جُـزْءَ مَـا لَـهُ أضُـيـفَـا   أو مِـثْـلَ جُـزْئـهِ فـلا تَـحِـيـفَـا

﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿ما﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال ثانية من إبراهيم.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿قُولُوٓاْ﴾ فعل أمر مبنيٌّ على حذف النون، والواو فاعل، والجملة مستأنفة ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لقولوا، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والملة في محل النصب مقول ﴿قُولُوٓاْ﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بآمنَّا، ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجر معطوفة على لفظ الجلالة ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل مستترٌ فيه، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد ضمير النائب ﴿إِلَيْنَا﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل ﴿وَمَآ﴾ موصول معطوف على لفظ الجلالة، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلتها ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ متعلّق بأنزل ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ معطوفات على إبراهيم، مجروراتٌ بالفتحة للعلمية والعجمية، والأسباط معطوف أيضاً على إبراهيم مجرور بالكسرة الظاهرة ﴿وَمَآ﴾ معطوف أيضاً على الجلالة ﴿أُوتِيَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ﴿مُوسَىٰ﴾ نائب فاعل ﴿وَعِيسَىٰ﴾ معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما أوتيه موسى ﴿وما﴾ معطوف على لفظ الجلالة أيضاً، ﴿أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ فعل ماض ونائب فاعل، والجملة صلة لما، والعائد محذوف، تقديره: وما أوتيه النبيون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بأوتي ﴿لَا﴾ نافية ﴿نُفَرِّقُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، تقديره: نحن ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بنفرق ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لأحد، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَامَنَّا﴾، أو مستأنفة ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو حالية ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بمسلمون، قدّم عليه؛ للاهتمام به ﴿مُسْلِمُونَ﴾ خبر

المبتدأ، والجملة الإسمية حال ثانية من فاعل ﴿آمنا﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا امتثلتم ما أمرتكم به، وأردتم بيان حال أهل الكتاب، فأقول لكم: إن آمنوا. الخ. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿بِمِثْلِ﴾ الباء حرف جر ﴿مثل﴾ زائدة ﴿ما﴾ موصول في محل الجر بالباء الجار والمجرور متعلق بآمنوا؛ أي: فإن آمنوا بما آمنتم ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل ﴿به﴾ متعلق بآمنتم، وجملة ﴿ءَامَنتُم﴾ صلةٌ لما الموصولة، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿فَقَدِ﴾ الفاء رابطةٌ لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بقد، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿ٱهْتَدَواْ﴾ فعل ماض وفاعل في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها مستأنفة، أو مقولٌ لجواب إذا المقدَّرة وجملة إذ المقدرة مستأنفة ﴿وَّإِن﴾ الواو عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعل ماض وفاعل في محلِّ الجزم بإنْ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية، ﴿إنما﴾ أداة حصر ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوفٍ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب؛ لإشعارها بوقوع الكفاية عقب شقاقهم، والسين حرف تنفيس للاستقبال القريب ﴿يكفي﴾ فعل مضارع، والكاف مفعول أوّل، والهاء مفعول ثانٍ ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب، ولذا دخلت الفاء الرابطة عليه؛ لاشتماله على حرف التنفيس ﴿وَهُوَ﴾ الواو استئنافية ﴿هو﴾ مبتدأ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر أول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة الإسمية مستأنفة؛ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدر مؤكّد لفعله المحذوف، منصوب على المفعولية المطلقة، تقديره: صبغنا الله صبغته، والجملة معطوفة في المعنى على جملة ﴿آمنّا﴾ داخلةٌ تحت حكم الأمر في قوله: ﴿قولوا آمنّا﴾؛ أي: قولوا آمنَّا بالله، وصبغنا الله صبغته، وهذا أحسن الأوجه في إعرابه كما مرّ، وقيل: منصوبٌ على الإغراء؛ أي: الزموا صبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ الواو استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَحْسَنُ﴾ خبره والجملة مستأنفة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بأحسن ﴿صِبْغَةًۖ﴾ تمييزٌ محوَّل عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والأصل: ومن صبغته أحسن من صبغة الله؛ أي: لا أحسن منها ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على ﴿آمنّا﴾ فهو داخلٌ معه تحت الأمر؛ أي: وقولوا نحن... الخ. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. انتهى. «أبو السعود».

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿تحاجُّوننا﴾ فعل وفاعل ومفعول به مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بتحاجون ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية ﴿هو﴾ مبتدأ ﴿رَبُّنَا﴾ خبر ومضاف إليه ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿رَبُّنَا﴾، والجملة في محل النصب حالٌ من الواو في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، وكذا قالوا، أو من ضمير المفعول، أو من الجلالة ﴿وَلَنَآ﴾ الواو حالية ﴿لنا﴾ خبر مقدّم ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ ﴿وَلَكُمْ﴾ الواو عاطفة ﴿لكم﴾ خبر مقدّم، ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لنا أعمالنا﴾ ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو حالية ﴿نحن﴾ مبتدأ ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بمخلصون ﴿مُخْلِصُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة في محل

النصب حال من ضمير المفعول في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أو من واو الفاعل، وفي «الجلالين»: والجمل الثلاث؛ يعني قوله: ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ﴿وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، والثالثة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أحوالٌ من الواو في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ والعامل فيها: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

﴿أَمْ﴾ عاطفة متصلة معادلة لهمزة ﴿أتحاجون﴾ ﴿تَقُولُونَ﴾ بالتاء فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿تحاجون﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الإنكار ﴿يقولون﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. وقال أبو البقاء: قرىء ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالياء ردّاً على قوله: ﴿فسيكفكهم﴾ وبالتاء ردّاً على قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾؛ انتهى. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ناصب واسمه ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ معطوفاتٌ على إبراهيم ﴿كَانُواْ﴾ فعل ماض ناقص واسمه ﴿هُودًا﴾ خبره ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿تَقُولُونَ﴾.

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿أنتم﴾ مبتدأ ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿أَمِ﴾ عاطفة متّصلة ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿أنتم﴾، ولكنه فصل بين المتعاطفين بالمسؤول عنه ﴿وَمَنْ﴾ الواو استئنافية ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة؛ مسوقة للتعريض بكتمانهم شهادة الله، وهذا دَيْدَنُ اليهود دائماً ﴿مِمَّن﴾ جار ومجرور متعلق بأظلم ﴿كَتَمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿شَهَٰدَةً﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لشهادة ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿ما﴾ حجازية

﴿ٱللَّهُ﴾ اسمها ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: عمّا تعملونه.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿خَلَتْ﴾ فعل ماض مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة؛ لالتقاء الساكنين، والتاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أُمَّةٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفةٌ لأُمَّةٌ ﴿لَهَا﴾ خبر مقدم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر، والجملة الإسمية مستأنفة، أو حال من ﴿أُمَّةٌ﴾ أو صفة ثانية لها، والأول أظهر، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لما الموصولة، ﴿وَلَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مَّا﴾ مبتدأ مؤخّر، وجملة ﴿كَسَبْتُمْ﴾ صلة لما الموصولة، والجملة الإسمية معطوفة على ما قبلها، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، والواو نائب فاعله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ مسوقة؛ لتأكيد ما قبلها ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة لما الموصولة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، يقال: حَنَف حَنْفاً من باب ضرب إذا مال، وحَنِف من باب تعب حَنَفاً، وحَنُف حنافة من باب ظرف اعوجَّت رجله إلى داخلٍ، فهي حنفاء، فالحنيف في أصل اللغة الذي تميل قدماه كُلُّ واحدة إلى أختها، وقد يستعمل في اليدين ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ أصله: تهتديوا بوزن تفتعلوا من اهتدى الخماسيّ، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فلمَّا سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الدال؛ لمناسبة واو الجماعة، وهذا بعد حذف نون الرفع للجازم، وهو الطلب السابق

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع سبط بكسر السين وسكون الباء، وهو في الأصل: ولد البنت مقابل الحفيد الذي هو ولد الابن، وهو مشتق من السبط؛ أي: الشجرة. وفي «الفتوحات»: وهذا كله بالنظر إلى أصل اللغة في إطلاق السبط على ولد الولد مطلقاً، وإلاّ فالعرف خصَّص السبط بولد البنت، والحفيد بولد الابن. اهـ. ﴿فقد اهتدوا﴾ أصله: اهتديوا بوزن افتعلوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف، وبقيت الفتحة دالَّةً عليها.

﴿فإن تولّوا﴾ أصله: تَوَلَّيُوا أيضاً، فُعِل به ما فعل بـ ﴿اهتدوا﴾ المذكور قبله، فوزن اهتدوا افتعوا، ووزن تَوَلَّوا تفعَّوا ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ الشقاق: المخالفة والعداوة، وأصله: من الشقِّ وهو الجانب؛ لأنّ كل واحد من المتشاقين يكون في شقٍّ غير شق صاحبه؛ أي: في ناحيةٍ منه، وهو مصدر شاقَّ شقاقاً من باب فاعَلَ، وفيما ذكر إشارة إلى بيان المراد بالشقاق هنا؛ لأنَّ له في اللغة ثلاث معان:

أحدها: الخلاف، ومنه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾.

والثاني: العداوة، ومنه قوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾.

والثالث: الضلال، مثل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ والصبغ بالكسر: ما يلوَّن به الثياب، وبالفتح: المصدر، والصبغة: الحالة التي تبنى لبيان النوع، كصبغت صِبغةَ الأمير نظير جِلسةَ الإقعاء، والصَبغة بالفتح: المرَّة من الصبغ، كصبغت صبغةً. وفي «المصباح»: صبغت الثوب صبغاً من بابي نفع وقتل، وفي لغة من باب ضرب. انتهى. والصبغة، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والعرب تسمِّي ديانة الشخص لشيء، واتصافه به صبغةً، قال بعض ملوكهم:

وكُلُّ أُناسٍ لهم صبغةٌ وصِبغة همدان خير الصِّبَغْ
صبغنا على ذاك أبناءَنا فأَكْرِم بصبغتنا في الصِّبَغْ

﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أصله: أتحاججوننا، فأدغمت الجيم الأولى في الثانية،

والمحاجَّة: المجادلة ودعوى الحق، وإقامة الحجة، على ذلك من كل واحد من الجانبين.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾؛ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، وليس المعنى: إنّ الفريقين قالوا ذلك؛ لأنّ كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلاً.

ومنها: جعل الشقاق ظرفاً لِهُمْ في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ مبالغةً في الإخبار عن استيلائه عليهم، فإنّه أبلغ من قولك: هم مشاقون.

ومنها: تنكير شقاق؛ دلالةً على امتناع وفاق بينهم أصلاً.

ومنها: التذييل بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأنه تذييلٌ لما سبق من الوعد، وتأكيدٌ له.

ومنها: الإيجاز بالحذف في ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنّ الأصل: فسيكفيك شرَّهم، وفيه تصدير الفعل بالسين دون سوف؛ إشعاراً بأنَّ ظهوره عليهم واقعٌ في زمن قريبٍ.

ومنها: التعجيز والتبكيت في قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾؛ لأنّ المراد منه إلزام الخصم، وإلجاءَه إلى الاعتراف بالحق بإرخاء عِنانه، وسدّ طرق المجادلة عليه؛ لأنّه ليس لله سبحانه، وكذا لدين الإسلام مثلٌ، فيؤمنون به.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ حيث شبَّه الدين الإسلاميَّ بالصبغة، وحذف المشبَّه، وأبقى المشبه به بجامع أنَّ في كل منهما حليةً وزينةً، لِمَا قام به، وفيه أيضاً: فنُّ المشاكلة: وهو ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوع ذلك الشيء في صحبة الغير، إمّا بحسب المقال المحقَّق، أو المقدَّر بأن لا يكون ذلك الغير مذكوراً حقيقةً، ويكون في حكم المذكور؛ لكونه مدلولاً عليه بقرينة الحال، فسمي الدين هنا صبغةً؛ لوقوعه في مقابلة صبغة النصارى

أولادهم في المعمودية. قال البغوي: إنّ إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهي، وذلك أنه شبه التطهير من الكفر بالإيمان بصبغ المغموس في الصبغ الحسيِّ، ووجه الشبه ظهور أثر كل منهما على ظاهر صاحبه، فيظهر أثر التطهير على المؤمن حسًّا ومعنًى بالعمل الصالح، والأخلاق الطيبة، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، ولا ينافي ذلك كونه مشاكلة. انتهى.

وتقرير المشاكلة مبسوط في «التلخيص» وشرحه للسعد التفتازاني، فراجعهما.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾؛ لرعاية الفواصل، وللاعتناء بالضمير المجرور العائد إلى الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ والتوبيخيُّ في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ والتقريري في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: التهديد في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: تكرير الآية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ بعينها؛ مبالغةً في الزجر عمَّا هم عليه من الافتخار بالآباء، والاتكال على أعمالهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع[1].

* * *

---

(١) إلى هنا تمَّ المجلّد الثاني بالتكملة في تاريخ: ١٤١٧/٩/١٧ ـ هـ، في اليوم السابع عشر قبيل الظهر من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ألف$ وأربعمائة وسبع عشرة سنة من سني الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، ويليه المجلّد الثالث، وأوّله قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. وصلَّى الله وسلَّم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه السادة الغرِّ المحجَّلين، والتابعين ومن تبعهم بأحسان إلى يوم الدين، آمين.

تم تصحيح هذا المجلد بيد مؤلفه يوم الجمعة وقت الضحى من شهر ربيع الآخر في تاريخ ١٧/ ٤/ ١٤٢٠ من الهجرة المصطفية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية آمين

شعرٌ

إِذَا رَأيْـــتَ زَلِـــيـــقـــاً كُـــنْ سَـــاتِـــراً وحَـــلِـــيـــمـــا
يـــا مَـــنْ يُـــعَـــيِّـــبُ تَـــفْـــسِـــيـــري لِـــمَ لا تَـــمُـــرُّ كَـــرِيـــمَـــا
(وفَـــوْقَ كُـــلِّ ذي عِـــلْـــمٍ عـــلـــيـــم)

الفهرس